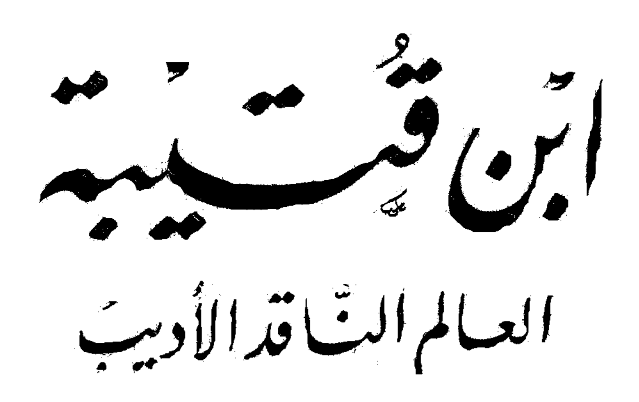
أعلام العرب

٢٢



بقلم

الدكتور عبد الحميد سند الجندي

وزارة الثقافة والإرشاد القومي
المؤسسة المصرية العامة
للتأليف والترجمة والطباعة والنشر

تصدير

كنا ابان الطلب بكلية الآداب نقرأ أمشاجا من النصوص الأدبية مع أساتذتنا فى كتب مختلفة ، فكنا نقرأ فى بعض السنين فى كتابى « البيان والتبيين » للجاحظ و « الكامل » للمبرد . وفى السنة التالية كنا نعالج نصوصا فى كتاب « عيون الأخبار » لابن قتيبة ، فأحسست بونا شاسعا بين هذا الكتاب والكتابين الآخرين . فالجاحظ والمبرد يرصّان المعارف رصّا فى غير ترتيب أو نظام ، وكأنها سوانح أو خواطر متباينة يدوّنانها حسب ورودها . أما ابن قتيبة فقد راعنى منه عمل مرتب منسّق ، برىء من الفوضى كما فعل زميلاه ، بحيث يستطيع الباحث أن يجد ضالته فى غير عسر أو مشقة . فأعجبت بالمؤلف أشد اعجاب ، وأدركت أنه من طراز آخر له عقلية مصقولة وذهن منظم .

وقد رحت أبحث عن سر ذلك ، وبخاصة أن المؤلفين الثلاثة كانوا متعاصرين ، فعرفت أن ابن قتيبة كان عالما غزير العلم واسع المعرفة ، وأدركت أنه لم يترك لونا من ألوان الثقافة العربية الا تناول منه قدرا طيبا ، وأنه أخذ بحظ ضخم من الثقافة الفارسية ، ونال قسطه من الثقافات الأخرى التى عرفت فى ذلك الحين . فخلق ذلك كله منه رجلا خصيب العقل ، صقيل الذهن ، منسق الفكر .

وعرفت كذلك أنه كان بطلا من أبطال المسلمين ، لم يمنعه نسبه فى العجم من أن يحبس نفسه على الدفاع عن العرب وردّ كيد الشعوبية فى صدق واخلاص .

وزادنى اعجابا بالرجل أنه كان مستقيم الجادّة ، طاهر النفس ، عميق الايمان ، شديد الحب لدين الله ولنبيه الكريم ، وقد حمل لواء الدفاع عن أهل السنة فى زمنه ، ووقف يصد عنهم سهام المتكلمين وغيرهم ممن كانوا يعتبرون فى نظره من المارقين .

فالرجل كان فى الواقع سياجا منيعا يحمى الدين من ضلال العقول التى أتيح لها أن تفكر على نحو حر حديث ، بسبب ما طرأ عليها من فلسفة اليونان ومنطقهم .

ولم أكد أخطو خطوات فى دراسة ابن قتيبة حتى وجدته بيّن الأثر فى انشاء الموسوعات العربية . ولا أجاوز الصدق اذا قررت أنه هو الذى وضع اللبنات الأوليات فى بناء هذه الموسوعات التى أكمل صرحها القلقشندى فى « صبح الأعشى » . وقد زادنى ذلك اقبالا على دراسة هذه العالم الأديب فى شغف شديد ، وزادني ايمانا بأن هذا الرجل الذى لم يأخذ حظه من عناية الباحثين جدير بالدرس الواعى المتئد .

وقد وقع فى يدى رسالة وضعها بالانجليزية الدكتور اسحاق موسى الحسينى عنوانها : "The Life and Works of Ibn Qutaiba" (حياة ابن قتيبة وآثاره) [1] ونال بها درجة الدكتوراه

(۱) ترجمت هذه الرسالة أخيرا الى اللغة العربية .

من جامعة لندن . وهى رسالة موجزة جدا لا تتجاوز التسعين صفحة من القطع الصغير . ولما تصفحتها وجدتها لا تعدو أن تكون لمحات خاطفة لبعض نواحى ابن قتيبة لا تكاد تشفى غليلا . فقد ترك أمورا مهمة ما كان ينبغى أن يتركها ، مثل دراسة عصر ابن قتيبة من نواحيه المختلفة وأثره فى تكوينه ، ومثل وصف كتبه وصفا يتناول مناهجها وموضوعها ، ومثل تحليل المواقف العدائية التى وقفها ابن قتيبة من أرباب المذاهب والنحل الأخرى ، كأهل الرأى ، والمتكلمين ، ومشكلة خلق القرآن ، ومثل عقد مقارنات بينه وبين أدباء عصره المشهورين .. وغير ذلك من الأمور التى كانت أخلق بالدرس والعناية . فرسالة الدكتور الحسينى فى الواقع لا تزيد على بحث دسم من البحوث التى يقوم بها الطلاب أثناء دراساتهم الجامعية . وتلك الرسالة كانت — فيما أعلم — كل حظ ابن قتيبة آنذاك من دراسة الباحثين والأدباء .

لذلك عولت على أن أدرس هذا العالم الأديب الناقد دراسة تنشره وتزيح عنه ركام النسيان الذى ران عليه أجيالا طوالا ، وجعلت دراسته موضوعا لرسالة أقدمها الى كلية الآداب للحصول على درجة الدكتوراه ، فعكفت عليها فى غير ريث أو مهل ، ونلت بها هذه الدرجة سنة ١٩٥٤ .

ولقد أنفقت فى هذه الدراسة سبع سنين دأبا ، اعترضتنى فيها عقبات صعاب ذللتها بشىء غير قليل من الصبر وطول الأناة .

وقد اعتمدت على مصادر شتى ، وفى مقدمتها — بطبيعة الحال — كتب ابن قتيبة التى أفلتت من يد الضياع . وجل هذه

الكتب مطبوع ، ولكني ما كنت أكتفى بالنسخ المطبوعة ، فكنت أرجع الى النسخ المخطوطة حتى لا تفوتنى شاردة أغفلها الطابعون أو الناشرون .

وقد ذكر المستشرق الفرنسى « بلوشيه "Blochet" » فى فهرسه أن لابن قتيبة كتابا فى النحو يوجد بالمكتبة الأهلية بباريس[١]، فأخذتنى غمرة من الفرح لأننى كدت أستيئس من معرفة آرائه فى النحو ، فشددت الرحال الى فرنسا فى صيف عام ١٩٥٠ ، وهناك وجدت بهذه المكتبة مخطوطا عنوانه « تلقين المتعلم من النحو » . وما كدت أتصفحه حتى وجدت الأمل سرابا ، اذ ألفيته لا يمت الى ابن قتيبة بسبب ، مما سأتناوله فى موضعه .

وقد مضى على وضع هذه الرسالة ما يقرب من عشر سنوات ظهر خلالها مؤلفان عن ابن قتيبة ، أولهما كتيب صغير من سلسلة « نوابغ الفكر العربى » التى تنشرها دار المعارف ، وثانيهما مقدمة عن ابن قتيبة لكتاب المعارف الذى حققه الدكتور ثروت عكاشة .

وانى أقرر — فى غير ما تحفظ أو احتياط — اصرارى على كل ما جاء بهذه الرسالة من آراء وأحكام ، برغم مرور هذه السنين ، لأننى لم أصدرها الا بعد دراسة مستأنية وتمحيص دقيق كفلا لى الرشد والسداد .

وقد طلبت الىّ المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر بوزارة الثقافة والارشاد القومى — مشكورة — أن أضع كتابا فى سلسلة أعلام العرب عن ابن قتيبة ، فهرعت الى الرسالة أنشد فيها بغيتى ، بيد أنى ألفيتها بحثا جامعيا عميقا قد

يجد القارىء العام شيئا من العسر فى فهمه وادراكه ، فتناولتها بالتغيير والتبديل والحذف بحيث توائم مستوى هذا القارىء ، فيجد فيها زادا سائغا ممتعا .

وأرجو أن أكون قد وفقت فى تقديم صورة مجلوة للرجل ، تكشف عن غزارة علمه ، وأسرار عبقريته ، وبالغ أثره فى العلم والدين والأدب جميعا . فان وجد فى هذا الكتاب غميزة تغتمز فلست أدّعى العصمة ، والكمال لله وحده ، وهو هادينا سواء السبيل .

دكتور عبد الحميد سند الجندى

مصر الجديدة فى ٢٠ يولية سنة ١٩٦٣

الباب الأول

عصر ابن قُتَيْبة

تمهيد

أريد أن أمهد لعصر ابن قتيبة بكلمة عن العصر العباسى الأول ، أو بعبارة أدق عن النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، وهى الفترة التى تصرمت قبيل عصر ابن قتيبة . وأود أن أتناول هذه الفترة من جميع نواحيها فى صورة موجزة ، لأن ذلك يعيننا على تفهّم العوامل المختلفة التى صبغت عصر ابن قتيبة بألوان خاصة فى السياسة والفكر والاجتماع .

— ١ —

لقد كان المسلمون فى أواسط القرن الثانى الهجرى يتدارسون علوما كثيرة ، منها الشرعية ، ومنها اللسانية ، ومنها الكونية . وكان جلّ اعتمادهم فى مدارستهم على التلقى والمشافهة . وكان بعض طلاب العلم يقيدون ذلك بالكتابة لتكون تذكرة لهم اذا ما طغى على عقولهم النسيان . وكانت الحافظة عندهم هى المرجع الأول وعليها المعول ، وكانوا يقولون فى معرض الذم « هل هو الا لحّانة صحفى » [1] لمن يأخذ الصحف من المشايخ . ومن هذه المادة اشتقوا كلمة « التصحيف » ، وهو الخطأ فى قراءة اللفظ ، ولا يقع هذا عادة الا اذا اعتمد القارىء على الصحيفة دون المشافهة .

(١) انظر مادة (صحف) فى لسان العرب ج ١١ .

فلما أنشئت مدينة بغداد وأصبحت مقر الخلافة الاسلامية أقبل أهل الفضل اليها ، وأمّها العلماء من كل صوب ، وجعلوها دار اقامتهم ، فأصبحت بذلك موئل العلوم الاسلامية ومجتمع الفنون الأدبية وملتقى الثقافات المختلفة ، فزخرت بالنور وازدهت بالعرفان ، وأينعت فيها ثمار العقول ، وصارت منار الحواضر ومحط رحال العلماء والفضلاء .

والحق أن تاريخ بغداد السياسى والاجتماعى والأدبى يعتبر — الى حد ما — تاريخ العالم الاسلامى فى خلال حقبة من الزمان لا تقل عن خمسة قرون . ولا مراء فى أنه لم تصل مدينة من مدن الاسلام فى العصور الخالية الى ما وصلت اليه بغداد من سعة العمران وعظم الآثار . كما أنه لم تصب مدينة منها بما أصيبت به بغداد من الكوارث والجوائح . فكما تضافرت الأيدى على عمرانها ورفعة شأنها ، تضافرت الخطوب والعوادى على تمزيق أوصالها وطمس معالمها ، حتى لم يبق من رسومها اليوم أثر يمكن أن يهتدى به الباحث المنقب الى تعيين المواضع التى كانت تقوم عليها تلك القصور الشاهقة والمبانى الشامخة والمساجد الجامعة والمدارس العظيمة التى كانت تملأ سمع الزمان وبصره ، اللهم الا بعض طلول لا تزال ماثلة [1] .

وقد أخذ الخلفاء والأمراء بناصر العلم والعلماء ، واشتد

---

(١) اذا أردت معرفة الكثير عن بغداد وأصل تسميتها واشتقاقه فلنظر « بغداد » فى لسان العرب ٦٢/٤ ، وفى معجم ما استعجم ٢٦١/١ ، وفى معجم البلدان ٦٧٧/١ ط أوربا .

ولعهم بنقل العلوم الأجنبية وتدوين العلوم الدينية ، فاكتظت بغداد بالنابغين فى علوم الدين ، والعباقرة فى العلوم اللسانية ، والمبرزين فى فنون السياسة والحرب . وكان كل من تفرد بضرب من ضروب المعرفة يلقى من الخلفاء ألوانا من الاكرام وضروبا من سنى المنح والعطايا .

وفى هذه الفترة نبغ أئمة المذاهب الأربعة ، ودون مذهبا أبى حنيفة ومالك ، وزار بغداد الامام محمد بن ادريس الشافعى مرتين ، وفيها أملى مذهبه القديم ، ولقيه فيها الامام أحمد بن حنبل ولقح مذهبه بآرائه ، وقد أخذ عن ابن حنبل عالمنا ابن قتيبة .

وفى هذه الحقبة تم تدوين الحديث واللغة والشعر والتاريخ ، وظهر عظماء القراء ، ونهضت حركة الترجمة نهوضا مباركا فغزت العلوم الكونية الفكر العربى وصقلته صقلا ظهر أثره فى جميع نواحى الحياة العباسية . وكان الخلفاء — وبخاصة المأمون — يشجعون هذه الحركة بكل ما أوتوا من قوة ، ويرسلون البعثات الى البلاد الأجنبية ليستحضروا الكتب ، فيتلقفها المترجمون وينشروها بين الناس بالعربية ، وكانوا يغدقون العطايا لهؤلاء المترجمين حتى ليقال « ان المأمون كان يعطى حنين بن اسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربى مثلا بمثل »[1] .

---

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ص ١٨٧ . واذا كنت فى حاجة الى معرفة واسعة عن حالة الترجمة فاقرأ كذلك كتاب أخبار الحكماء للقفطى ، وكتاب التمدن الاسلامى لجورجى زيدان ، وكتاب عصر المأمون لفريد رفاعى .

وكان خلفاء بنى العباس فى عصرهم الأول يجلّون العلماء ويحتفون بهم . وقد سهّلوا نزوحهم اليهم ، وأجروا الأرزاق عليهم ، وبالغوا فى اكرامهم ، وقربوهم ، وجالسوهم ، وآكلوهم ، وحادثوهم ، وعولوا على آرائهم ، فلم يبق ذو قريحة أو علم الا يمّم دار السلام . والعلم لا يزدهر الا فى ظل حاكم يشغف به ويأخذ بأيدى أهله . وهؤلاء الخلفاء كانوا من أكثر الملوك رغبة فى العلم ، ولهذا عنوا — الى جانب ما ذكرنا — بانشاء خزائن الكتب ودورها ، وكان لهذه الدور شأن كبير فى نشر العلم والمعرفة ، ويقول المستشرق الأستاذ جويدى : « من الأمور التى أحيت العلوم فى الأمة العربية اقامة دار الحكمة فى بغداد » [1] . وكان فى تلك الدار خزانة كتب قيمة يجتمع فيها علماء ذلك العصر للدرس والبحث والمذاكرة . وكان علاّن الشعوبى ينسخ من تلك الخزانة كتبا للرشيد والمأمون والبرامكة . وكان ابن أبى الحريش يجلد هذه الكتب ، وهو معروف بهذه الصناعة [2] .

ومما ساعد على تقدم العلوم التنافس الذى قام بين العرب والروم . فقد أنشأ الروم فى ذلك العصر أيضا مدرسة تشبه دار الحكمة فى القسطنطينية ، وكان ملك الروم « قسطنطين الثانى » محبا للعلم ، مشجعا لأهله [3] .

وقد تنافس الأمراء وعلية القوم فى اقتفاء أثر الخلفاء فى خدمة

---

(١) محاضرات جويدى ص ٩ .
(٢) فهرست ابن النديم ص ١٠ .
(٣) محاضرات جويدى ص ١٠ .

الأدب والعلم ، والناس — كما يقولون — على دين ملوكهم ، فأنشأوا خزائن الكتب فى قصورهم ، وسعوا ما وسعهم السعى الى جمع الكتب من مظانها ، مجزلين العطايا لكل من ينقل لهم ضربا جديدا من المعارف . ومن أشهرهم بنو موسى بن شاكر ، محمد وأحمد والحسن ، ويقول عنهم ابن خلكان : « وكانت لهم همم عالية فى تحصيل العلوم القديمة وكتب الأوائل .. وقد أنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها لهم »[1] . وكذلك آل بختيشوع ، وآل حنين بن اسحاق ، وآل الكرخى واسحاق الموصلى وغيرهم . ويقول ثعلب : « رأيت لاسحاق الموصلى ألف جزء من لغات العرب وكلها من سماعه »[2] .

وقد أدرك القوم أن كل عز لم يسند بعلم كان مآله الانحلال ، فأكبّوا على العلوم والآداب ، ينهلون من بحارها ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وأصبح التعليم صناعة ، فرخت عيشة المؤدبين ، وغدا التأديب طريقا الى المجد والسؤدد وسبيلا الى مؤانسة الخلفاء ومسامرتهم . وقد عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المفكرين وحملة الأشعار والطرف والأخبار .

— ٢ —

وقد نهضت العلوم اللسانية نهوضا حثيثا فى ذلك العهد ، ولا شك أن الدافع الأول لوضع هذه العلوم هو الدين . ذلك

---

(١) وفيات الأعيان ٢/٨٧ طبعة بولاق .
(٢) وفيات الأعيان ٢/٩٢ .

أنه لما تفشى اللحن فى اللغة العربية بسبب اختلاط العرب بغيرهم من الأعاجم جزع الأئمة وذوو النعرة العربية من هذا الهول ، وأشفقوا على القرآن أن يستغلق فهمه على الناس ، وعلى السنة أن تطمس معالمها ، فهبوا لمحاربة هذا الوباء بالحض على التعلم وتدوين علوم اللسان من لغة ونحو .

وقد شد الخلفاء ورجال الدولة أزر هذه النهضة حرصا على الدين الذى كان مظهرهم الأكبر ، فحشدوا فى قصورهم أئمة اللسان يؤدبون أولادهم وخاصتهم ربئاً بأنفسهم أن يدانوا السوقة وخشاش الناس ، فكانوا أمراء الكلام وفحول البلاغة ، كما كانوا أمراء الملك وسادة الدولة . وقد عرف الناس منهم ذلك فتقربوا اليهم بالعلم والأدب ، ولم يعز على من فاته شرف الحسب والسلطان أن يتطال اليه بالعلم والأدب ، فنبغ فيهم كثير من الموالى حتى الجوارى والقيان .

وقد كان نشاط المسلمين وتنافسهم فى هذه الناحية يستثير الاعجاب ، وكانوا يتسابقون فى تدوين العلم وتنظيمه تسابق آبائهم فى الفتوح والغزوات .

ومن المحقق أن أول ما دون — بعد القرآن طبعا — هو الحديث والفقه وأصوله ، ثم جاء النحو وعلوم العربية بعد ذلك . وقد اقتدى النحاة بالفقهاء فى وضع أصولهم ، وبخاصة فقهاء الحنفية الذين اعتمدوا كثيرا على القياس . وكذلك اقتدى علماء العربية بالمحدثين من حيث العناية بالسند ورجاله وتجريحهم

وتعديلهم وطرق تحمل اللغة ، فكانت لهم نصوصهم اللغوية ، كما كان لأولئك نصوصهم فى الحديث .

وجرى النحاة أيضا علـى غبار المتكلمين فى تطعيم نحوهم بالفلسفة والتعليل ، وحاكوا الفقهاء فى وضعهم للنحو أصـولا تشبه أصول الفقه ، وتكلموا فى الاجتهاد فيه كما تكلم الفقهاء ، وكان لهم طرقهم فى بناء القواعد على السماع والقياس والاجماع ، كما بنى الفقهـاء استنباط أحكامهم على السماع والقيـاس والاجماع .

وكذلك الحال فى علم التاريخ ، فان أساسه دينى بحت هو السيرة النبوية والغزوات وفتوح المسلمين .

وكانت هذه العلوم قبل ذلك العهد مختلطة غير مرتبة « فكان الأئمة يتكلمون من حفظهم أو يروون العلم من صحف صحيحة غير مرتبة » [1] كما يقول السيوطى .

أما فى العصر العباسى فقد دونت هذه العلوم واتخذت شكلا آخر من حيث الترتيب والتبويب والقياس عليها . ووجدت بجانبها علوم أخرى دنيوية كالمنطق والفلسفة والرياضة والطب والهيئة والكيمياء .

والحق أن العلوم العربية كلها تقريبا قد وضعت أسسها فى العصر العباسى الأول ، وبعضها تم بناؤه فى هذا العصر . وكذلك ترجمت علوم الأمم الأخرى — كما ذكرنا — وتمثلها المسلمون ، وبدأ علماؤهم بعد ذلك يؤلفون فيها .

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ١٠١ .

وقد ظل المسلمون أدهراً طويلة يعتمدون فى حياتهم العلمية على تلك العلوم التى وضعت فى هذا العصر .

وكان مما ساعد على تنشيط هذه الحركة العلمية والنهوض بها ظهور صناعة الورق واتساعها ، ويقال ان البرامكة هم الذين أشاروا بعمل الكاغد لنسخ أسفارهم [1] . ثم أمر الرشيد ألا يكتب الناس الا فى الكاغد ، لأن الجلود ونحوها تقبل المحو والاعادة ، فتقبل التزوير ، وانتشرت الكتابة فى الورق الى سائر الأقطار [2] وكان لظهور الورق فضل وجود الكتب وخزائنها ، كما كان له فضل فى قيام صناعة « الوراقة » . وكان أصحابها يقومون بنسخ الكتب وتصحيحها ، وكان كثير من العلماء يذهبون الى دكاكين الورّاقين ويقرءون ما فيها من كتب ، واشتهر منهم الجاحظ .

— ٣ —

وليس من شك فى أن العلوم قد اتخذت لونا خاصا فى ظلال العباسيين ما كانت لتتخذه لو بعثت فى اعصر غير هذا العصر باستثناء العلوم التى كان مقياسها العقل الخالص كالمنطق والرياضيات وما شابهها .

وربما كان أشد العلوم تأثرا بالحكم العباسى التاريخ ، فان المؤلفين حاولوا — تزلفا لخلفاء بنى العباس — أن يسلبوا الأمويين

---

(١) حضارة الاسلام فى دار السلام لجميل المدور ص ١٧٢ .

(٢) فتوح البلدان للبلاذرى ص ٢٤٩ ، وصبح الأعشى ٤٧٥/٢

كل المحامد ويضيفوا اليهم مثالب ، هم منها براء ، وكذلك صنعوا مع الشيعة .

وقل مثل ذلك فى الأدب ، فقد نهض المديح طمعا فى كريم الحباء وتقربا الى الخلفاء . وتطامنت بجانبه فنون الأدب الأخرى ، وكثر الشعر العابث لأن منشئيه من الموالى الفرس ، والفرس — كما نعلم — هم أعوان العباسيين ودعائم دولتهم .

وقد تأثر الحديث أيضا بالحكم العباسى تأثرا ظاهرا ، فجد المحدثون الذين لا يرعون فى الدين الا ولا ذمة فى وضع الأحاديث التى تحط من قدر الأمويين والشيعة وتعلى من شأن العباسيين وتبين أحقيتهم فى الخلافة . وكذلك كان الشيعة يتزيدون من الأحاديث التى تبين فضل على وذريته ، مناقضين العباسيين .

والفقه لم يسلم كذلك من هذا التأثر فى بعض مسائله ، لأنه مصدر التشريع ، والتشريع — من غير شك — يمس شئون الدولة من قريب أو بعيد .

وحتى النحو تدخل فيه العباسيون ، فقد شايعوا الكوفيين وناصروهم ضد البصريين ، وكانوا يصطفون مؤدبى أبنائهم من بين علماء الكوفة [1] .

وكانت هذه العلوم تنتشر فى الآفاق بوسائل عدة أهمها الكتاتيب والمساجد . وكان بالمساجد حلقات لمختلف العلوم كما كان الحال بالأزهر الشريف الى عهد قريب . وكان من وسائل

---

(١) تستطيع أن تقرأ بحثا مفصلا عن تأثر العلوم بالحكم العباسى فى كتاب ضحى الاسلام ج ٢ ص ٢٥ وما بعدها .

نشر العلم أيضا مجالس المناظرة فى القصور والدور ، وكان كثير من الخلفاء والوزراء والولاة يشجعون هذه المناظرات ماديا وأدبيا ، وأحيانا يشتركون فيها . وقد عقد السيوطى فصلا عن « المناظرات والمجالسات والفتاوى والمكاتبات والمراسلات »[1] أورد فيه الكثير منها . ومن أهم هذه الوسائل « المكتبات » ، وأعظم مكتبة ظهرت فى العصر العباسى مكتبة « بيت الحكمة » التى أشرنا اليها آنفا .

وكانت حاضرة العباسيين مرتاد الشعراء كذلك ؛ فقد تدفقوا اليها من كل فج ليشهدوا منافع لهم ، وليعرضوا ما تجود به قرائحهم من روائع النظم فى قصور الخلفاء والأمراء والكبراء ، ووجدوا هناك مجال القول ذا سعة ، وأجزل لهم رجال الدولة العطايا ، حتى قيل انه لم يجتمع بباب خليفة من خلفاء الاسلام من الشعراء ما اجتمع بباب الرشيد .

وقد انتشرت الى جانب ذلك مجالس اللهو والشراب ، وكان يغشاها الأدباء والشعراء وأرباب الفنون ، فكانت هى الأخرى ينبوعا ثرا للشعر وما يتبعه من لطيف الملح وطريف الأفاكيه . وكانت القينة تتوفر على ما يستلزمه فنها من أدب وشعر ، حتى غدا منهن أديبات وشاعرات . وكان ثمنها يقدر حسب درايتها بفنون الأدب .

وقد أخذ الناس يتمززون طعم الحياة وينعمون بمباهجها ،

---

(١) انظر كتاب « الأشباه والنظائر » ١٥/٣ .

وأضحى رجال الدولة ومن والاهم ينأون عن حياة التزمت والتخافت ، وراحوا يغشون مجالس الغناء على فضل من التعفف والتصون فى الغالب وأصبحت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير .

من ذلك كله ندرك أن هذا العصر كان ريّان الجنبات مخصاب التربة حقا .

— ٤ —

ولقد ساعد على تنوع الثقافات والتكثر منها الحرية الفكرية التى أظلّت العقول فى ذلك الحين نتيجة امتزاج العنصر العربى بغيره من العناصر الأجنبية الأخرى وبخاصة فى زمن المأمون . والجاحظ يبين لنا فى قولة موجزة مدى ما كان يتمتع به الناس فى هذا العصر من حرية فكرية فيقول : « وما يمنع الناصر للحق من القيام بما يلزمه ، وقد أمكن القول ، وصلح الدهر ، وخوى نجم التقية ، وهبت ريح العلماء ، وكسد العىّ والجهل ، وقامت سوق البيان والعلم » (١) .

وقد كان مجال هـذه الحرية الدين ؛ يقول المأمون يجادل الخراسانى المرتد « لنا اختلافان ؛ أحدهما كالاختلاف فى الآذان وتكبير الجنائز ، والاختلاف فى التشهد وصلاة الأعياد ووجوه القراءات ، واختلاف وجوه الفتيا ، وما أشبه ذلك . وليس هذا باختلاف انما هو تخيير وتوسعة وتخفيف من المحنة ؛ فمن أذّن

---

(١) كتاب الحيوان ١/٤٣ .

مثنى وأقام مثنى لم يؤثم ، ومن أذن مثنى وأقام فرادى لم يحوب.. والاختلاف الآخر كنحو اختلافنا فى تأويل الآية من كتابنا وتأويل الحديث عن نبينا مع اجماعنا على أصول التنزيل واتفاقنا على عين الخبر.. الخ » [1] . وتفسير ذلك أن المسلمين طائفتان : طائفة ترجع فى أصول الفقه الى الكتاب أو السنة أو الى أثر من آثار السلف ، متقيدين بهذه المصادر ، من غير أن يجنحوا كثيرا الى تأويل النص ، وهؤلاء هم أهل السنة ، أو أهل الحديث . وطائفة أخرى يشركون معهم عقولهم فى تفسير آى القرآن وتأويل الأحاديث دون التقيد كثيرا بالنص ، وهم أصحاب الفكر الحر كأهل الرأى والمعتزلة .

وبين أهل الحديث — ومنهم ابن قتيبة — والمعتزلة اختلاف فى أمور شتى غير ذلك ، كالقضاء والقدر وأفعال العباد وصفات الله تعالى ومسألة خلق القرآن ، وغير ذلك مما سنعرض له بشىء من التفصيل فيما بعد .

وكان المأمون يترك للناس حرية المعتقدات مهما كان فيها من زيغ ومروق . وكان يؤتى بالمارق يمثل بين يديه فيجادله بالتى هى أحسن حتى يهديه سواء السبيل . وقد قال للمرتد الخراسانى : « لأن أستحييك بحق أحب الىّ من أن أقتلك بحق ، ولأن أقبلك بالبراءة أحب الىّ من أن أدفعك بالتهمة » . وأخذ يحاوره حتى أقام عليه الحجة ، فأناب المرتد الى الله عن عقيدة وايمان .

---

(1) اقرأ هذه المجادلة فى البيان والتبيين ٣/٢١٢ ط لسندوبى ، والعقد الفريد ١/٢٥٥ ط بولاق .

وكان المأمون نفسه يسهم فى المناظرات الدينية ويحاج الفقهاء فى كثير من الأمور. وكان يأمر قاضى قضاته يحيى بن أكثم أن يحضر معه رجالا يحسنون الفقه والجواب، فيدخلون عليه وهو جالس على فراشه ،وعليه سواده وطيلسانه وعمامته، فاذا استقر بهم المجلس تحدر عن فراشه ونزع عمامته ووضع قلنسوته؛ وما كان يمنعه من خلع خفيه الا العلة، ثم يأمرهم بنزع قلانسهم وخفافهم وطيالسهم ويقول لهم: «انما بعثت لكم معشر القوم للمناظرة»[1]، ثم يلقى عليهم مسائل الفقه ويرد على كل واحد منهم، وكان يخيرهم أن يسألوه أو يسألهم. ويؤثر عنه أنه كان يجل علماء اليهود والنصارى، ويحتفى بهم فى مجلسه لعلمهم وثقافتهم فى لغة العرب وحذقهم لغة اليونان والسريان.

ويبدو لى أن المأمون كان يرمى من وراء هذه المناظرات كلها الى اجتماع الطوائف على ما هو أرضى وأصلح للدين. وكان يكره فى المناظرات الشتم والهذر والبذاءة، لأن ذلك دليل الحصر واللؤم. غير أنه لم يصل من مناظراته الى ما كان يبتغيه، فلم ير بدا من الاستعانة بسلطانه فى اقامة ما يراه الحق، ولا سيما مسألة خلق القرآن، كما سنرى.

وقد بلغ من تمتع القوم بهذه الحرية أن المجوس كانوا يعارضون علماء المسلمين، وقد ذكر الجاحظ بعض هذه المعارضات فى كتاب الحيوان[2].

---

(1) العقد الفريد ٣/٤٢.
(2) انظر كتاب الحيوان ٥/٣٥.

والحق ان هذه الحرية الفكرية التى أباحها المأمون للنـاس جميعا كانت سببا فى تشتيت العقائد وكثرة الفرق بين المسلمين . فبعد أن كانوا لا يعرفون غير الكتاب والسنة اختلفت كلمتهم ، حتى أصبح الانسان يحار فى كثرة الفرق ، ما بين حديثى ومعتزلى وشيعى وزيدى ورافضى وجبرى ومرجئى وعثمانى وجهمى .. الخ فضـلا عن المارقة والدهرية وأشـباههما . وكان المأمون نفسه شيعيا ، وله فى ذلك مظهر عملى معروف ذكره المؤرخون . وكان وزيره يحيى بن أكثم سنّيا ، وقاضى قضاته أحمد بن أبى دؤاد معتزليا .وربما تعددت المذاهب بين الاخوة فى البيت الواحد ، مثل أولاد أبى الجعد ، وكانوا ستة ، منهم اثنان شيعيان ، واثنان مرجئان ، واثنان خارجيان .

مهما يكن من شىء فقد تمتع الناس فى زمن المأمون بحرية فكرية ودينية لم يُر لها مثيل فى أى عصر من عصور الاسلام .

— ٥ —

وقد كان من أثر اختلاف السكان فى الدولة الاسلامية ، وتباين أصولهم وأجناسهم ، وامتزاجهم بالسكنى والزواج وغير ذلك ، ودخول كثير من أفراد الأمم الأجنبية فى الاسلام ، ونمو الحضارة نموا يتطلب دراية واسعة بكثير من شئون الحياة من هندسة وطب وفلك ونظام وحكم وسياسة ولغة وأدب — كان من أثر ذلك كله أن انتشرت فى الدولة ثقافات مختلفة لأمم مختلفة . وكان لكل ثقافة رجالها البارزون الذين يحاولون جهدهم نشرها والترويج لها .

وكان من مظاهر هذا التنافس أن أخذت كل ثقافة تشق لنفسها طريقا تسير فيه . ولكن هذه الثقافات جميعا أخذت تلتقى رويدا رويدا وتمتزج بالثقافة العربية ، وقد تكوّن من مجموعها ثقافة كبرى ذات لون خاص ، قد صبغت بالصبغة الاسلامية ، وهى ما تعرف « بالثقافة الاسلامية » .

وهذه الثقافات التى اتصلت بالثقافة العربية ثلاث : الثقافة الفارسية ، والثقافة اليونانية ، والثقافة الهندية ، يضاف الى ذلك الثقافات الدينية كاليهودية والنصرانية [1] .

وقد أقبل رجال هذه الثقافات الأجنبية على اللغة العربية فحذقوها حذقا يدعو الى الاعجاب الشديد . ويحكى الجاحظ عن موسى بن سيّار الأسوارى — وهو قصاص فارسى الأصل — أنه « كان من أعاجيب الدنيا ، كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية . وكان يجلس فى مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه الى الفرس فيفسرها لهم الفارسية ، فلا يدرى بأى اللسانين هو أبين » [2] ، وهذا مثل له نظراء كثيرون . ونحن نجد بين علماء المسلمين رجالا من

---

(١) أحيلك على هذه الكتب لتقرأ الكثير فيها عن أثر الثقافات الأجنبية فى الثقافة الاسلامية : طبقات الأمم لصاعد الأندلسى ، فهرست ابن النديم ، طبقات ابن أبى أصيبعة ، أخبار الحكماء للقفطى ، ثم ضحى الاسلام ، وتاريخ آداب جورجى زيدان وعصر المأمون لفريد رفاعى .

(٢) البيان والتبيين ١/٢٣٤ .

كل جنس ونحلة قد أخذوا بحظ وافر فى جميع نواحى العلم . ولعل أعظم هذه الأجناس أثرا فى الحياة العباسية الفرس :

— ٦ —

فقد أثرت الثقافة الفارسية فى الثقافة الاسلامية من نواحيها المختلفة . وأظهر ذلك الألفاظ الفارسية التى تسربت الى اللغة العربية . وكان الفرس يدلّون على العرب بما أخذته العربية من الفارسية [١] ، وقد نقلوا كثيرا من تراث آبائهم الى العربية ، ويقول ابن النديم : « أول من صنف الخرافات وجعل لها كتبا وأودعها الخزائن وجعل بعض ذلك على ألسنة الحيوان الفرس .. ونقلته العرب الى اللغة العربية » [٢] .

هذا الى أن كثيرا من العرب عكفوا على تعلم الفارسية ، وقد نضح ذلك على ثمار قرائحهم وأسلات أقلامهم ، حتى الشعراء نراهم يدرسون الفارسية ويتقنونها ، وأوضح مثل لذلك العتابى الشاعر العباسى المعروف وهو عربى من تغلب ، وقد سأله رجل : « لم كتبت كتب العجم ؟ فقال :وهل المعانى الا فى كتب العجم والبلاغة، اللغة لنا والمعانى لهم » [٣] . وليس هناك من ريب فى أن الما م ابن قتيبة بالفارسية كان من الأسباب التى جعلت كتبه على شىء من الترتيب والتنسيق .

---

(١) أدب الكتاب للصولى ص ١٩٢ .
(٢) الفهرست ص ٣٠٤ .
(٣) تاريخ طيفور ١٥٧ .

ومن أبرز أثر الفرس أن الكثير من عاداتهم قد تغلغل فى المجتمع العباسى تغلغلا شديدا ، وبخاصة ما يتصل بالغناء واللهو والشراب ..

وهناك لون آخر من الأدب كان للفرس أثر كبير فيه وهو باب « التوقيعات » . وقد أعجب بها العرب ، لأن الايجاز من خصائص البلاغة العربية . وقد اهتم وزراء بنى العباس وكتابهم بأمر التوقيعات ، وكأنما نزع فيهم عرق من آبائهم ، فأنشأوا لها ديوانا سموه « ديوان التوقيع » .

هذا الى أنه قد ترجم الى العربية كثير من أمثال العجم وحكمهم ، وقد أورد الثعالبى قدرا كبيرا منها فى كتاب « خاص الخاص » [1] . ويشير ابن قتيبة فى مواطن متعددة من عيون الأخبار الى المعانى التى اقتبسها الشعراء والخطباء من حكم الفرس .

ويرى أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين أن الكتب التى عرفت فى العربية باسم « المحاسن والمساوىء » أو « المحاسن والأضداد » كانت محاكاة للكتب الفارسية التى عرفت باسم « شايد وناشايد » أى « ينبغى ولا ينبغى » أو « شايسنه وناشايسنه » أى « اللائق وغير اللائق » [2] . ويلاحظ أن حملة العلم فى المسلمين كان أكثرهم من العجم فى ذلك العصر مثل أبى حنيفة وحماد الراوية وخلف الأحمر وسيبويه والكسائى

(1) انظر خاص الخاص للثعالبى ص ١١ وما بعدها .
(2) ضحى الاسلام ٢٥٣/١ .

والفـراء وأبى عبيـدة وأبى العتاهية وبشار والجاحظ وعالمنا ابن قتيبة .. وغيرهم وغيرهم .

— ٧ —

أما الثقافة اليونانية فكانت مستفيضة فى بلاد الشرق بعـد فتوح الاسكندر ، وقد وجـد العـرب فى آفاقهم أول يقظتهم مستودعا لآثار اليونانيين ، وقد نقلوا فى العصر العباسى أهم ما وصل اليه العقل اليونانى ، كتآليف أرسطو ، وبعض مؤلفات أفلاطون ، وأهم كتب جالينوس فى الطب ، ورياضة فيثاغورس .. وغيرها .

وقد ظلت الاسكندرية عاصمة مصر اليونانية زمنا غير قصير منهل الورّاد من طلاب العلم والثقافة . وكانت المدرسة التى أنشأها كسرى الأول سنة ٣٥٠ م فى جنديسابور تنشر فى الشرق علوم اليونانيين ، وتستجيب لرغبة القوم فى ذوق الفلسفة والطب حتى لقد قيل ان الحارث بن كلدة الثقفى طبيب العرب تلقى علم الطب قبيل الاسلام فى هذه المدرسة [1] التى ظلت تؤدى عملها فى العصر العباسى .

وكانت حرّان فى بلاد ما بين النهرين ذات حضارة يونانية ، وكان أهلها ينصرفون خاصة الى الرياضيات والفلك ، واشتهر منهم فى العصر العباسى ثابت بن قرة وابن سنان الطبيب العالم وأبو اسحاق الصابى صاحب الرسائل .

---

(١) أخبار الحكماء للقفطى ص ١٦١ .

وليس من شك فى أن علماء الكلام قد اتصلوا بالكتب اليونانية التى ترجمت الى العربية ، وتأثرت أبحاثهم بالمنطق ليدعموا حججهم أمام خصومهم ، كما كان يفعل اليهود والنصارى الذين اتصلوا بالفلسفة اليونانية قبلا . ثم أصبح المسلمون يطلبون هذه الفلسفة للذة العقلية ، بعد أن كانوا يطلبونها للدفاع عن أنفسهم .

وكان للثقافة اليونانية أثر كبير فى العلوم الاسلامية فى الشكل وفى الموضوع على حد تعبير المرحوم أحمد أمين [١] . أما فى الشكل فيرجع الى تأثير المنطق اليونانى الذى لوّن العلوم بلونه الخاص ، وكان ابن سينا يسميه « خادم العلوم » ، أما فى الموضوع فقد كان للفلسفة اليونانية أثر كبير فى تعاليم المتكلمين .

وقد أثرت البلاغة اليونانية فى البلاغة العربية ، وعرّب كثير من الألفاظ اليونانية ، ونقلت قصص يونانية الى العربية . وقد ذكر ابن النديم أسماء كتب كثيرة فى الأسمار والتاريخ ترجمت الى اللسان العربى [٢] . ونحن نقرأ فى البيان والتبيين وعيون الأخبار والعقد الفريد وغيرها كثيرا من حكم فلاسفة اليونان . ولا شك أن تمثّل الثقافة اليونانية أنجب اخوان الصفا والفارابى وابن سينا وابن رشد وأمثالهم .

— ٨ —

وأما الثقافة الهندية فقد وصلت الى العرب عن طريق الفرس ،

(١) ضحى الاسلام ١/٢٧٤ .
(٢) الفهرست ص ٣٠٥ .

وربما كان أهم ما عرفه العرب منها الالهيات (ويراد بها الدين ممتزجا بالفلسفة) ، والحِكم ، وبعض الرياضيات ، وشيئا من الأدب والفن .

وقد تأثر بعض الفرق الدينية الاسلامية بالدين الهندى ، وأخذوا عنه فكرة « تناسخ الأرواح » التى تأثر بها كثير من الديانات السماوية وغير السماوية . ولا شك أن التصوف اتصل بعض اتصال بمذاهب النساك فى الهند . ومكانة التصوف فى الأدب العربى نثره ونظمه لا تحتاج الى تبيان .

وكان فى بغداد أطباء هنود الى جانب أطباء اليونان والروم والفرس ، مثل « صالح بن بَهلة الهندى » و «منكه» و «بازيكر» و « قلبرقل » وغيرهم [1] .

وقد اندمج الهنود عقب الفتح الاسلامى فى المسلمين ، واعتنق كثير منهم الاسلام ، وأقبلوا على تعلم العلوم الاسلامية ، ونبغ فيها بعضهم ، وظهر فيهم وفى أولادهم الشعراء وعلماء اللغة والمحدثون ، منهم أبو عطاء السندى ، وابن الأعرابى ، وأبو معشر نجيح السندى ، وفتح بن عبد الله السندى الفقيه المتكلم .

وقد ترجم الى العربية كثير من كتب الهنود ، وبخاصة ما يتصل بالكواكب والفلك [2] .

وقد عُربت ألفاظ هندية كثيرة ، وبخاصة أسماء النباتات ،

---

(1) البيان والتبيين ١/٧٨ .

(2) وضع المستشرق « نللينو » كتابا قيما عن « الفلك عند العرب » ذكر فيه أسماء الكتب الهندية الفلكية التى ترجمها العرب .

ونقل الى العربية آراء لهم فى البلاغة ذكر الجاحظ طرفا منها [1] ، وهى تدل على أن تعريفهم للبلاغة يقرب من تعريف العرب لها . وقد أولع العرب بالقصص الهندى ، ومن المحقق أن كثيرا من أصول قصص « كليلة ودمنة » هندى ترجم الى الفارسية ، ومنها الى العربية مع زيادة على الأصل الهندى . ويرجح ابن النديم أن قصة السندباد البحرى هندية [2] . وقد نقل العرب كثيرا من حكم الهند ، وتجد قدرا كبيرا منها فى « عيون الأخبار » . وكثيرا ما تقرأ لابن قتيبة هذه الجملة « وقرأت فى كتب الهند .. » . وقد أشار ابن قتيبة الى بعض المعانى التى اقتبسها الشعراء عن الهنود .

ولا ريب فى أن العرب قد اتصلوا بالهنود قبل الاسلام ، ولذلك نراهم يطلقون على كثير من نسائهم اسم « هند » . وكان خير السيوف وأمضاها يجلب من الهند ، ولذلك يقال للعضب منها : الهندى والمهند والهندوانى .

— ٩ —

وللديانتين اليهودية والنصرانية أثر كبير فى الثقافة الاسلامية . والمعروف أن الامبراطورية الاسلامية كانت تضم عددا غير قليل من أهل الكتاب ينعمون بحرية العمل والعبادة ، وقد أثرى كثير منهم ، وخالط المسلمون هؤلاء الذميين واتخذوهم أصدقاء . ولبعض شعراء المسلمين شعر يمدح فيه النصارى واليهود ويذكر لهم خلالا كريمة .

---

(١) انظر البيان والتبيين ١/٧٩ .
(٢) الفهرست ص ٣٠٥ .

وقد تسرب الى المسلمين شيء كثير من ثقافة هاتين الديانتين . ولعل أهم منبع لهـذه الثقافة التوراة والانجيل ، وهما كتابان سماويان اعترف بهما الاسلام وورد ذكرهما كثيرا فى القرآن .

وقد استفاد العرب كثيرا فى قصصهم من أهل الكتاب ، وممن أسلم منهم ، وبخاصة ما يسمونه « العلم الأول » وهو ما يتعلق بأخبار الأمم السالفة [1] .

وأكثر ما تأثر بالثقافة اليهودية هذه المسائل التي وردت فى القرآن الكريم ولها نظير فى التوراة ، ولا سيما قصص الأنبياء . فقد كان علماء التفسير يضيفون الى شروحهم ما ذكر فى التوراة وغيرها من الكتب اليهودية ، يعينهم على ذلك اليهود أنفسـهم أو من أسلم منهم . ومن أشهرهم عبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة الرسول عليه السلام الى المدينة ، وكعب الأحبار الذى أسلم فى خلافة عمر ، ووهب بن منبّه وغيرهم .

كما أن المسلمين عنوا بتاريخ بنى اسرائيل وأنبيائهم ، كما فعل ابن قتيبة فى كتاب المعارف والطبرى فى تاريخه .

وكان لليهود أثر واضح فى بعض المذاهب التى ظهرت فى الاسلام . ويقال ان أول من تفـوّه بكلمة خبيثة فى الاعتقاد فى الاسلام هو « الجعد بن درهم » مؤدب مروان بن محمد ، وقد أخذ ذلك عن بعض اليهود ، وسنبين ذلك فيما بعـد فى مكانه المنـاسب . ويروى ابن الأثير أن أحمد بن أبى دؤاد الذى كان

---

(1) تاريخ آداب العرب لصادق الرافعى ١/٣٩٨ .

يقول بخلق القرآن قد أخذ مذهبه هذا عن اليهود من مصدر يصل سنده الى لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم — كما يروون — وكان يقول بخلق التوراة [١] . وابن عبد ربه يذكر أن فرقة الرافضة قد تأثرت أشد تأثر بتعاليم اليهود [٢] . ولا شك أن مسائل التشبيه التى أثيرت فى تفسير بعض الآيات القرآنية مثل « الرحمن على العرش استوى » و « يد الله فوق أيديهم » قد تأثرت بتفسير اليهود للآيات المماثلة لها فى التوراة . وقد آمن جماعة من الشيعة بالتشبيه .

وقد تأثر كثير من المسائل التى أثارها المتكلمون باليهود . ومن زعماء المتكلمين الذين هم من أصل يهودى « بشر المريسى » ، وهو من القائلين بخلق القرآن . أضف الى ذلك أن كثيرا من حكم اليهود ونصائحهم قد غزت الأدب العربى ، وورد كثير منها فى عيون الأخبار والعقد الفريد . وقد أشار الأستاذ جويدى الى أن كثيرا من الأخبار التى أوردها ياقوت فى « معجم البلدان » مأخوذ من كتب اليهود ، وأورد كثيرا من تآليف اليهود التى أثرت فى ثقافة العرب [٣] .

والحال كذلك فى الديانة النصرانية ، فقد كان لها ثقافة دينية أهمها الانجيل ، وما لازمه من شروح ، وما أضيف اليه من قصص وأخبار . وقد تسرب ذلك كله الى المسلمين ، كما كان الشأن مع

---

(١) تاريخ ابن الأثير ٧/٢٦ .
(٢) العقد الفريد ١/٢٦٩ ط بولاق .
(٣) محاضرات جويدى ص ٢٨ ، ٨٠ .

اليهود تماما . وعنى مؤرخو المسلمين بتاريخ النصارى وبعض الحواريين ، كالطبرى والمسعودى .

وكما نشأ جدل بين اليهود والمسلمين نشأ جدل أيضا بين النصارى والمسلمين . والظاهر أن الجدل قد حمى وطيسه بين المسلمين والنصارى بصورة أقوى مما كان بين المسلمين واليهود ؛ وذلك لأن اليهود — فيما أرى — عنصر يؤثر العافية ولا يوجه نشاطه الا الى النواحى المادية وما يتصل بجمع المال واستثماره ، كما هو مشاهد اليوم بين جميع الرعايا اليهود فى أنحاء العالم كافة .

ويدلنا على اشتداد الجدل بين المسلمين والنصارى هذه الرسالة التى وضعها الجاحظ فى الرد على النصارى .

وقد دخل الشعر العربى كثير من ألفاظ النصرانية مثل الصليب والقربان والمسوح . وكانت الأديار منتجع خلعاء الشعراء ومُجّانهم ، يغشونها ويتشببون بفتيانها وفتياتها فى شعر رقيق . وكانت هذه الأديار مشهورة بجيد الشراب ، فاستغل الخمارون هذه الشهرة وأقاموا حاناتهم حولها ، وقد ورد فى « مسالك الأبصار » أنه « كانت حول دير العذارى حانات للخمارين وبساتين ومتنزهات » (١) .

كل ذلك كان يوحى الى مُجّان الشعراء والقصاص الشعبيين أدبا غزيرا رقيقا تأخذك روعته وجماله . وكذلك كان يوحى الى الزهاد نغمة حزينة زاهدة تدعو الى اطراح لذائذ الدنيا ، والعمل لما بعد الموت .

---

(١) مسالك الأبصار ١/٢٥٨ .

هذه هى الثقافات الأجنبية التى طرأت على الثقافة العربية ، وقد امتزجت بها امتزاجا قويا ، وأطلق عليها كلها مؤرخو الأدب « الثقافة الاسلامية العباسية » . وهذه الثقافة تباين — من غير شك — الثقافة الاسلامية العربية فى العصر الأموى .

وكان أكثر المسلمين الماما بهذه الثقافات أهل الكلام . ومن أجل هذا كان المتكلمون هم أصحاب اليد الطولى فى المزج بين هذه الثقافات كلها كما يقول المرحوم الأستاذ أحمد أمين [١] .

فلا مندوحة من القول اذن بأن اللغة العربية قد دخلتها عناصر لم يكن لها عهد بأمثالها من قبل ، فاستلزم ذلك أنماطا حديثة من التفكير . فبعد أن كان العقل لاصقا بصور المادة لا يحيط الا بما تعانيه الحواس انسلخ بعض الشىء من هذه المادة ، وتعلق بالأمور المجردة ، فحلّل أجزاء النفس وأحاسيسها وعواطفها ، وطمح فيما فوق البشر ، فنظر فى المبادىء والنتائج والعلل ، وما شابه ذلك .

ومما يبعث على الاعجاب المقرون بالفخار أن نرى هذه اللغة البدوية قد فسحت فى رحابها حتى وسعت ثمار كل هاتيك القرائح.

— ١٠ —

وبعد فانى لأرى الضرورة تلحّ علىّ فى أن أشير — فى لمحة خاطفة — الى سمة كانت بارزة فى سماء هذا العصر لتكتمل لنا

(١) ضحى الاسلام ٢/٥ .

الصورة الصادقة الكاملة له .. وتلك السمة هى الصراع الذى كان مندلع الأوار بين العرب والموالى ، وكان لهذا الصراع أثر بالغ فى الأدب والعلم والفن جميعا .

لقد اعتنق العرب الاسلام ورفعوا راية الجهاد فى سبيل نشره ؛ فامتشقوا الحسام وثلّوا العروش ، فأعلى ذلك من نفسيتهم ، ووقر فى أذهانهم أنهم من جنس لا يتطالّ اليه جنس آخـر ، وتملكهم شعور بالعظمة والسيادة والاستعلاء . فنظروا الى غيرهم نظرة السيد الى المسود ، وسموا من هو غير عربى « أعجميا » .

وكان العرب — شعبا وحكاما — فى العصر الأموى يسيرون على ضوء هـذه الفكرة أو عـلى ظلامها ، وكتب الأدب مترعة بالحكايات التى تدل على ذلك ، وبلغ من غلوهم فى ذلك أن الحجاج أمر ألا يؤم بالكوفة الا عربى [1] ، وروى عنه أنه كان يسم أيدى النبط بالمشراط [2] . ولشدة احتقار العرب للمولّدين سموا ابن العربى من الأمة « هجينا » . ويذكر ابن قتيبة « أن العرب كانت لا تزوّج الهجين من الرجال ، وربما كان لأحدهم الولد من الأمة فاستعبده » [3] . ويقول ابن منظور فى لسانه فى مادة « هجن » : « الهجنة من الكلام ما يعيبك ، والهجين العربى من الأمة لأنه معيب » . ويقول الفـيروزابادى فى قاموسـه : « والهجين اللئيم ، وعربى ولد من أمة ، أو من أبوه خير من أمه » .

---

(١) العقد الفريد ١/٢٠٧ .   (٢) محاضرات الأدباء .

(٣) المسائل والأجوبة (صورة شمسية بمكتبة جامعة القاهرة) لوحة رقم ٣ .

وهذه العصبية العربية العنيفة كانت تقابلها عصبية أخرى من أولئك الموالى المستضعفين ، ولا سيما الفرس ، وهم خلقاء أن يأكل الحقد قلوبهم ، لأنهم كانوا سادة فأصبحوا مسودين . وكانوا يفخرون على العرب بمجدهم الغابر وعزهم التليد ، ويعتبرون حكم العرب لهم ضربا من سخرية القدر . ولذلك نراهم يهتبلون كل فرصة لاظهار ما يضطرم فى نفوسهم من الحقد والبغض ، ولكن بنى أمية كانوا يكبتون هذا الشعور أعنف كبت كما حدث لاسماعيل بن يسار مع هشام بن عبد الملك [1] .

بيد أن هذه النزعة التى أخمدها الأمويون قد اتجهت الى دعاية خفية ضد بنى أمية ، وانتهت بقيام دولة بنى العباس كما هو معروف .

وقد عرف العباسيون للفرس عظيم فضلهم فى قيام دولتهم ، وصرح زعماؤهم بذلك فى خطبهم وفى أحاديثهم مثل داود بن على وأبى جعفر المنصور [2] .

من ذلك ندرك أنه قد أصبح للفرس فى دولة العباسيين شأن كبير ، ولكنهم لم يقضوا على نفوذ العرب تماما لأن الخلفاء عرب هاشميون ، وهم يفخرون بذلك ، ولذلك نراهم ينكلون بالفرس أشنع تنكيل يوم شعروا بطغيانهم كما فعل المنصور بأبى مسلم ، والرشيد بالبرامكة ، والمأمون بالفضل بن سهل .

---

(١) أغانى بولاق ٤/١٢٠ .

(٢) اقرأ بعض خطبهم فى تاريخ الطبرى ٩/١٢٩ ط ليدن ، ومروج الذهب ٢/١٩٠ ط بولاق .

ومن أجل هذا نرى كثيرا من عظماء الفرس ينزعون الى الفخر بالنسب العربى والولاء العربى ، حتى ان أبا مسلم الخراسانى يصطنع لنفسه نسبا عربيا فينتمى الى سليط بن عبد الله ابن عباس [1] . وكذلك نرى اسحاق بن ابراهيم الموصلى — على اثارة مكانته لدى الرشيد — يهرع الى خازم بن خزيمة — وهو عربى — وينتمى اليه معتزا بذلك [2] .

فليس من شك اذن فى أن العرب لم يذلوا كثيرا فى هذا العصر ، ولم تتطامن عزتهم الى الحد الذى يصوره المؤرخون . وكل ما حدث أن حركة العصبية العربية قد دفعت بحركة أخرى فارسية ، وأن الصوت الخافت الذى كان يهمهم به اسماعيل بن يسار قد انطلق من عقاله حرا قويا .

وكان يتزعم هذه الحركة الفارسية جماعة على رأسهم بشار ابن برد الذى كان يفخر بالعجم ويتبرأ من الولاء العربى ويدعو الموالى الى تركه ويحقر العرب ، وكان يجهر بذلك أمام المهدى فلا يعاقبه كما عاقب هشام اسماعيل بن يسار حينما فخر بأجداده الفرس .. وحذا حذو بشار فى ذلك شعراء الموالى مثل ديك الجن والخريمى والمتوكلى « وكان من ندماء المتوكل » .

مهما يكن من شيء فقد قوى نفوذ الفرس فى الدولة العباسية ، وأصبحت الاستعانة بهم فى أمور الدولة أمرا مقررا ، بعد أن كان استخدامهم فى العصر الأموى — على ندرته — يقابل بالامتعاض ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٩/١٦٧ .
(٢) الغيث المنسجم ١/٨٨ .

ويقول الجاحظ : « ان دولتهم «أى العباسيين» أعجمية خراسانية ، ودولة بنى مروان عربية أعرابية »[1] . ويذكر السيوطى « أن المنصور أول من استعمل مواليه على الأعمال وقدمهم على العرب »[2] ، وحذا حذوه الخلفاء من بعده « فسقطت وبادت العرب وزال بأسها وذهبت مراتبها » كما يقول المسعودى[3] .

وبلغ من نفوذ الفرس أن حبّب بعضهم الى المنصور أن يستبدل الكعبة بما يقوم مقامها فى العراق وتكون حجا للناس ، فبنى بناء سماه « العتبة الخضراء »[4] ، وقطع الميرة فى البحر عن المدينة[5] ، فغضب أهل الحجاز ، وخلعوا بيعة المنصور ، وقد أفتى لهم بذلك الامام مالك بن أنس ، فعذبه والى المدينة[6] ، فلما تولى المهدى « أكرم أهل الحرمين وكسا الكعبة كسوة جديدة ، وفرق هناك مالا عظيما ، واتخذ حرسا من الأنصار »[7] .

وقد قوى نفوذ الفرس فى زمن الرشيد بفضل البرامكة ، واتسع نفوذهم فى عهد المأمون لما تغلب على أخيه الأمين بفضل مناصرتهم له ، وعد انتصاره انتصارا للفرس على العرب .

وزاد هذا النفوذ أيدا أن الخلفاء العباسيين كانوا يتعصبون

---

(١) البيان والتبيين ٣/٢٠٦ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٠٥ .
(٣) مروج الذهب ٢/٤٠١ .
(٤) تاريخ الطبرى ٣/١٩٧ .
(٥) تاريخ ابن الأثير ٥/٢٦١ .
(٦) الانتقاء لابن عبد البر ص ٤٣ ووفيات الأعيان ١/٤٣٩ .
(٧) تاريخ الطبرى ٣/٤٨٣ .

للاسلام ، ولم يتعصبوا هذا التعصب للعروبة . وساعد على ذلك أن أكثر هؤلاء الخلفاء كانوا مولّدين ، فلا عجب اذا جهر الفرس بذم العرب والتعصب لجنسهم ، ولا عجب أن يصبح هذا مذهبا خاصا لهم يعرف « بالشعوبية » . وكان الخلفاء العباسيون لا ينكرون منهم ذلك ، بل اننا نرى المأمون يُدنيهم منه ، فيجعل سهل بن هارون — المعروف بمقته للعرب — يتولى الهيمنة على خزائن الكتب [1] .

وقد دأب الشعوبية على أن يسلكوا كل سبيل يوصلهم الى تحقير العرب والازراء عليهم . ومن ذلك التأليف فى مناقب العجم وفى مثالب العرب . ومن أشهر من فعلوا ذلك علاّن الشعوبى ، فقد وضع كتابا فى ذم العرب اسمه « حلبة المثالب » [2] ، وهو من أشد الكتب التى هتكت العرب . ومنهم سهل بن هارون الذى أشرنا اليه والذى يقول فيه ابن النديم : « كان حكيما فصيحا شاعرا ، فارسى الأصل ، شعوبى المذهب ، شديد العصبية على العرب ، وله فى ذلك كتب كثيرة » [3] . وبلغ من شدة بغض سهل للعرب أن ألف رسالته المشهورة فى البخل ، وفيها يقلب الكرم رذيلة والبخل فضيلة ، لأن العرب كانوا يتمدحون بالكرم ويعتبرونه من أكرم صفات السيد الجحجاح ، كما اشتهر الفرس بالبخل وبخاصة أهل خراسان [4] .

---

(١) سرح العيون ص ١٣٢ . (٢) محاضرات جويدى ص ٤٤ .
(٣) الفهرست ص ١٢٠ . (٤) اقرأ قصتهم مع ثمامة بن أشرس فى العقد الفريد ٣٦١/٣ وهى تدل على شحهم الشديد .

ومن ألدّ أعداء العرب الهيثم بن عدى ، وكان من جلساء المنصور والهادى ، وله كتب كثيرة فى ذم العرب [1] . وكذلك أبو عبيدة معمر بن المثنى المشهور بشدة لذده للعرب ، وقد صور ابن قتيبة كيف كان هذا الرجل يعمد الى سرد مفاخر العرب ، ثم يتهكم بها أشد تهكم ، ويقارن بين أشرافها وملوك الفرس ، وقد وضع عـدة كتب فى ثلب العرب . وهناك غير هؤلاء كثير ممن لا يتسع المقام لذكرهم .

وهذه الكتب التى وضعها الشعوبية فى ذم العرب لم يصلنا شىء منها ، وانما وصلتنا نتف من أقوالهم وآرائهم فى الكتب الكبرى .

ولم يكتف الموالى بتأليف هذه الكتب ، فكانوا يضعون القصص فى التشنيع على العرب ، ويفسدون الشعر باضافة النص الى غير قائله ، فيذيع بين الناس ، كما كان يفعل حماد الراوية وخلف الأحمر .

وهكذا نرى أن العرب قد واجهوا حربا شعواء زعزعت من مكانتهم ، فشغلوا عن التعصب القبلى الذى تأججت ناره فى زمن بنى أمية ، وهبّوا جميعا يدرءون عن أنفسهم هذه الحرب العنيفة ، ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وبدأوا يحيون فى المدن العراقية حياة اجتماعية تشبه حياة الفرس ، ونشأ بينهم لون آخر من التعصب هو التعصب الاقليمى .. أعنى أن عرب العراق يتعصبون للعراق ،

---

(1) الفهرست ص ١٢٣ .

وعرب الحجاز يتعصبون للحجاز .. وهكذا . واشتطوا فى هذا التعصب البيئى ؛ فتميم البصرة تفخر على تميم الكوفة .. وهكذا .

ولا شك أن هذا التعصب البيئى قد أحدث نهضة علمية خصبة فى جميع العلوم . فمدرسة البصرة فى النحو تناهض مدرسة الكوفة ، ولكل منهما أنصار . ولما ظهرت مدرسة بغداد ناهضت المدرستين الأوليين . وكان الفقيه العراقى ينازع الفقيه الحجازى ، ونشأ عن ذلك مذهب الرأى ومذهب الحديث .

وقد أورثتنا هذه العصبية البيئية كثيرا من الأخبار التى وضعت فى مزايا البلدان وعيوبها ، وفى طباع سكانها وأخلاقهم . ونقرأ الكثير من ذلك فى كتاب « عيون الأخبار » .

وينبغى أن أذكر أن بعض علماء الموالى ممن شرح الله صدورهم للاسلام قد أنكروا من بنى جنسهم هذا التحامل البغيض ، فهبوا يردون عليهم بكل ما أوتوا من قوة ، وعلى رأس هؤلاء ابن قتيبة .

ونستطيع أن نجمل مظاهر نفوذ الفرس فيما يلى :

١ — ملئت قصور الخلفاء بالموالى يستخدمون فى أعمال شتى .

٢ — أصبحت المناصب الكبيرة مقصورة على الفرس تقريبا ، وأهمها الوزارة .

٣ — تغلغلت النظم والعادات والتقاليد الفارسية فى الحياة العباسية من جميع نواحيها ، ويقول أستاذنا الدكتور طه حسين : « لست أنكر أن الفرس قد أثروا فى الحياة العربية

تأثيرا شديدا ، ولكنه فى كثير من الأحيان تأثير سيىء جـدا .
وحسبنا أن الفرس هم الذين أدخلوا على العرب سياسة الحكم المطلق ، وجعلوا قصور الخلفاء فى بغداد أشبه بقصور الأكاسرة فى المدائن . فقد تعلموا من الفرس طرائقهم فى الأكل والشرب واللبس وتأثيث القصور واللهو والعبث » (١) .

ولعل أظهر أثر للفرس فى نظام الحكم العباسى « الوزارة » ، وبجانب الوزارة موظف آخر اسمه « السياف » . وذلك مظهر من مظاهر الحكومات الفارسية القديمة ، ولم يكن معروفا فى الدولة الأموية .

وقد لعب المنجمون دورا كبيرا فى البلاط العباسى ، وكان رأيهم هو الأعلى فى شئون الدولة ، حتى فى الحملات العسكرية . وهذا — من غير شـك — أثر من آثار الفرس . وقد نقل العباسيون كذلك عن الفرس نظام البريد . يضاف الى ذلك أن الثقافة الفارسية انتشرت أعظم انتشار كما بينا .

* * *

وبعد ، فقد قدمت لك صورة موجزة للعصر الذى سبق عصر ابن قتيبة ، وهو العصر العباسى الأول . وهـذا أمر ما منه بد ، فالمؤرخون يجعلون هـذا العصر ينتهى بنهاية حـكم الواثق عام ٢٣٢ هـ . وابن قتيبة ولد سنة ٢١٣ هـ ، أى انه سلخ من عمره

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ١٨ .

فى هذا العصر تسعة عشر عاما كان قد بلغ أشــده فيها ، وقضى منها شطرا فى الدرس والتحصيل .

ولا شك فى أن دراستنا لهذه الفترة من جميع نواحيها تعيننا على فهم الظواهر السياسية والاجتماعية والعقلية التى برزت فى القرن الثالث الهجرى ، لأن كل عصر يسلم الى العصر الذى يليه ويعتبر أساسا له . وفى الوقت نفسه ندرك فى غير عسر العلل التى جعلت ابن قتيبة يتجه فى انتاجه اتجاها خاصا فى الدين والعلم والأدب .

الفصل الأول

الحالة السياسية (1)

لقد كان عصر ابن قتيبة — أى القرن الثالث الهجرى — نتيجة حتمية للعصر الذى سبقه . ولا أجد قولا جامعا فى وصف هذا العصر من نواحيه المختلفة خيرا من هذه العبارة التى قدم بها الكاتب الانجليزى « تشارلس ديكنز Charles Dickens » « قصة المدينتين » عن الثورة الفرنسية ، يقول فيها : « كان ذاك العصر خير العصور ، وكان كذلك شر العصور . كان عصر الحكمة ، وكان عصر الحماقة . كان زمن اليقين ، وكان زمن الشك . كان زمن الضياء ، وكان زمن الظلماء . كان ربيع الأمل ، وكان شتاء اليأس .. كان فى الغاية القصوى اما من الصلاح ، واما من الفساد » .

تلك العبارة فى الواقع تصور لنا تصويرا صادقا القرن الثالث الهجرى ، ويخيل الينا أنها تصف عصرين مختلفين ، لا عصرا واحدا

---

(1) اعتمدت فى هذا الفصل والفصلين التاليين على مراجع كثيرة ، أهمها الكتاب القيم الذى ألفه الأستاذ الكبير عباس العقاد وهو « ابن الرومى ، حياته من شعره » .

متناسق الأوضاع والأحوال ، لأنه فى الحقيقة عصران مختلفان أو عدة عصور مختلفة وان اجتمعت فى نطاق واحد من الزمان .

واذا كان لكل دولة — كما يقولون — أوان للبذر وأوان للنماء وأوان للحصاد . فالقرن الثالث الهجرى كان أوان النماء للدولة العباسية ، جاء بعيد التمهيد وقبيل النضـــج والذبول . ففيه نما وأزهر كل ما بذره العباسيون فى عصرهم الأول من بذور الخير والشر ، ومن عناصر الصلاح والفساد . وكانت الدولة فى ابانه أشـــبه شىء بالمرج الأخضر ؛ ينمو فيه الورد والريحان ، والشوك والقتاد . ففيه الفاكهة ، وفيه العشب المسموم ، وفيه العسل الشهى ، وفيه السم الناقع . وكل ذلك خليط ممزوج لا سبيل فيه الى التنقية والتمييز .

بلغ فى هذا العصر كل شىء أقصاه ، وأثمر كل عمل فيه ثمره الذى لا محيص عنه . ظهر فيه ما قدموا من صالح وما عملوا من طالح ، واجتمع فيه الخليط من حضارات العرب والفرس والروم جميعا كما أسلفنا ، وبدت فيه عوامل القوة والفتوة ، كما ظهرت فيه أمارات الضعف والانحلال .

وقد ولد ابن قتيبة فى أوائل هذا القرن ، وقضى حياته كلها فى صميمه ، وأدرك حكم ثمانية من الخلفاء ، هم : المعتصم ، والواثق ، والمتوكل ، والمنتصر ، والمستعين ، والمعتز ، والمهتدى ، والمعتمد . وقضى بضع سنوات من طفولته فى عهد المأمون .

وفى هذا العصر بدأ الضعف يدب فى أوصال الدولة ، وتقلص سلطان الخلفاء . وحسبنا أن نلم بالمصير الذى صار اليه بعضهم ؛

فقد قُتل واحد منهم وهو المتوكل ، وخُلع ثلاثة ثم قتلوا بعد خلعهم وهم المستعين والمعتز والمهتدى . ومن مات حتف أنفه من الباقين حامت حول موته شبهات . وكان حظ ولاة العهود والأمراء والوزراء لا يقل سوءا عن حظ الخلفاء ، فقلما نجا أحدهم من الخلع أو السجن أو استصفاء الأموال .

وكان الخلفاء عرضة للكيد والبطش من الجند والوزراء ؛ بل من نساء القصر كذلك . وكان الأمراء والوزراء عرضة لنقمة هؤلاء جميعا ، فضلا عن نقمة الخلفاء كلما أنسوا فى أنفسهم قدرة على البطش مع ضمان شىء من الأمن والطمأنينة على حياتهم . ويصور أستاذنا طه حسين تلك الحالة تصويرا بارعا فيقول : « كان القصر موزعا بين الأتراك وغير الأتراك من رؤساء الجيش . وكان الخليفة مضطرا الى أن يصانع أولئك وهؤلاء ، وهو فى أثناء ذلك كله عرضة لكيد الكائدين ومكر الماكرين .. ومن الحق أن نعترف أنه هو أيضا كان يكيد لرؤساء الجند خوفا منهم . ومن الحق أيضا أن نلاحظ أن أخلاق الأمراء والخلفاء انتهت من الفساد الى حد لم نعرفه من قبل . قد كان الخلفاء يمكرون بآبائهم واخوتهم ، وحياتهم كلها مكر فى مكر » [1] .

وكل ذلك — من غير شك — دليل على أن أمور الدولة كان فيها شىء كثير من العوج ، ودليل على أن شريعة الحكم كانت لا تُرعى ولا يُحسب للحكام ذرة من حساب .

---

(١) من حديث الشعر والنثر ص ٢٧٤ .

وقد يضمحل أمر الحكومة وتسقط هيبتها ، ولكن يبقى للناس وازع من اتقاء حرمات المروءة والتمسك بأهداب العرف والدين . أما فى هذا العهد فقد ديست العهود والمواثيق ، ونضب معين المروءة ، وبلغ التنكيل والتقتيل مبلغا لم تُرع فيه حرمة لمروءة أو شرع أو دين .

وحسبك أن تقرأ الطبرى والمسعودى وابن الأثير وابن طباطبا لتعرف كيف قُتل المعتز بعد أن نُكّل به أشد تنكيل وهو فى حالة من الضعف والاعياء تلين صمّ الجلاميد ، وكيف قُتل محمد ابن عبد الملك الزيات فى زمن المتوكل بعد أن ذاق ألوانا مختلفة من التعذيب ، وقد سقى هو قبل ذلك غيره الكأس التى تجرعها ، وابتدع أفانين من التعذيب تدل على غلظة قلب لا تعرف الرحمة اليه سبيلا . ويصور ابن طباطبا بعض ذلك فيقول : « ان ابن الزيات عمل تنّورا من حديد ومساميره الى داخل ليعذب به من يريد عذابه ، فكان هو ممن جُعل فيه ، وقيل له : ذق ما كنت تذيق الناس » (١) . ومن غريب الأمر أنهم كانوا يذكرون هذه الألوان البشعة من التعذيب ، وكأنها من مشاهد المجون والفكاهة والترويح عن النفس .

ومرجع هـذا الشر كله أمور ثلاثة : أولها الجفوة بين بنى العباس والعرب ، وثانيها نظام الاقطاع الذى أسرف فيه بنو العباس اسرافا أدى الى تصدع العالم الاسلامى ، وثالثها :

---

(١) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢١٤ طبعة ليدن .

ضعف قيمة العهود . وانى لأرى لزاما علىّ أن أتناول كل أمر منها بالحديث المفصل فأقول :

كان بنو العباس قوما موتورين من العرب ، لأنهم خذلوا آل بيت النبى صلوات الله وسلامه عليه فى صراعهم مع بنى أمية . فقد سيم الهاشميون الخسف والتشريد على يد خصومهم من الأمويين ، ولم يؤازرهم العرب أو يواسوهم فى محنتهم ، وهم عترة الرسول الكريم الذين لم يسأل قومه على الهداية أجـرا الا المودة فيهم .

ثم لما أراد الله أن يُديل من بنى أمية ليمكّن لبنى العباس فى الأرض لم يكن ذلك على أيدى العرب وهم أخلق الناس بنصرتهم والغيرة عليهم ، وانما قامت دولتهم على أكتاف الفرس الذين كانوا يضمرون فى نفوسهم للعرب والعروبة حقدا دفينا ، فاهتبلوا هذه الفرصة ليقوضوا أركان الدولة الأموية التى كانت تحرص على عروبتها أشد حرص .

فلا عجب اذا امتلأت نفوس العباسيين موجدة على العرب ، ولا عجب أن ينقطع ما بين الفريقين من أسباب المودة والطمأنينة ، ثم لا عجب أن تجرى الأمور بينهما على المنفعة والرهبة دون الثقة والمودة . ومن هنا كانت تلك السياسة النفعية الفاتكة التى اشتهر بها أساطين بنى العباس . ثم جاء اتصالهم بأجلاف الأعجام من قبائل الترك والديلم ، فنقلوا عنهم ضروبا من المثلات التى تعودها هؤلاء الأعاجم فى وحشية البداوة .

وليس أدل على حقد بنى العباس على العرب من قول ابراهيم

ابن محمد بن على بن عبد الله بن عباس صاحب الدعوة فى كتاب أرسله الى أبى مسلم الخراسانى : « ان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » [1]. وهذا يدل على أن بنى العباس كانوا لا يطمئنون الى العرب ، ويتوجسون الخيفة منهم قبل أن تقوم للعباسيين دولة .

ثم توالت الحوادث بما باعد الشقة بين العرب وأصحاب الدولة الجديدة ، حتى جاءت الفتنة بين الأمين والمأمون ، فناصر العرب الأمين لأن أمه عربية ، وذهب الفرس مع المأمون لأن أمه فارسية ، وانتهى الأمر بقتل الأمين وتربّع المأمون على أريكة الخلافة ، فأسرّها للعرب فى نفسه ، وأمعن فى اقصائهم عن أمور الدولة ، وفى تقريب الأعجام اليه ، حتى لقد اعترض طريقه بالشام رجل وقال له : « يا أمير المؤمنين انظر لعرب الشام كما نظرت لعجم خراسان » .

ثم جاء المعتصم فاستكثر من فتيان الأتراك الذين استبدوا بأمور الحكم فيما بعد ، وكانوا مجلبة الكوارث والمحن للدولة . وقد اتجه المعتصم الى الأتراك لسببين :

الأول : أنه بدأ يشعر بضعف ثقته بالفرس الذين ظلوا عماد الدولة نحو قرن من الزمان .. وذلك لأنه رأى الجند الفرس يميلون الى العباس بن المأمون لما مات أبوه . أما اقصاؤه للعرب فهو أمر تقليدى جرى عليه أسلافه كما بيّنا ، وزاده بغضا لهم

---

(١) تاريخ الطبرى ٨٥/٩ طبعة المطبعة الحسينية .

المؤامرة التي دبرها القائد العربي « عجيف بن عنبسة » ، وكان يبغي بها اغتيال المعتصم وقائديه « الأفشين وأشناس » ثأرا لنفسه ولجنده من هؤلاء الدخلاء الذين احتقروه وأساءوا اليه والى جنده ، فأغرى عجيف العباس بن المأمون بالتطلع الى الخلافة ، ولكن سرعان ما قضى المعتصم على المؤامرة فى مهدها وقضى على زعمائها ومعهم العباس بن أخيه [1] .

الثاني : ان أم المعتصم كانت تركية من السُّغد والى ذلك يُعزى ما كان يتصف به المعتصم من الشجاعة والاعتداد بقوة الجسم ، وتلك من أخص صفات الأتراك . ويقول أحمد بن أبى دؤاد : « كان المعتصم يخرج ساعده الىّ ويقول : « عضّ ساعدى بأكثر قوتك ، فأمتنع ، فيقول : انه لا يضرنى ، فأروم ذلك فاذا هو لا تعمل فيه الأسنة فضلا عن الأسنان » [2] . وكانت له قوس لا يستطيع غيره أن ينزع عنها .

وانى لأرى لزاما علىّ أن أتحدث قليلا عن هؤلاء الأتراك ، لأنهم كانوا محور سياسة الدولة منذ ذلك الحين :

استكثر المعتصم من المماليك الأتراك للسببين السابقين ، وكان يستقدمهم من بخارى وسمرقند وفرغانة وأشروسنة وغيرها من البلاد التى نسميها « تركستان » و « ما وراء النهر » . ويقول صاحب النجوم الزاهرة : «اشتراهم «الأتراك» وبذل فيهم الأموال

---

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٧٠ .

(٢) تاريخ الخلفاء ص ١٣٣ .

وألبسهم أنواع الديباج ومناطق الذهب ، وأمعن فى شرائهم »[1] .
وقد ضاقت بهم بغداد ، وكانوا يتعرضون للنساء ويفسدون فى الأرض . فجأر الناس بالشكوى الى المعتصم ، فبنى لهم مدينة « سامرا » ، وقد ذكر ابن طباطبا قصة طويلة تدل على شدة عبثهم واستهانتهم بأرواح الناس فى بغداد[2] .

وقد استشرى أذاهم فى المدينة حتى أصبح وجودهم فيها يؤذن بشر مستطير . ويقول المسعودى : « كانت الأتراك تؤذى العوام بمدينة السلام بجريها بالخيول فى الأسواق وما ينال الضعفاء والصبية من ذلك ، فكان أهل بغداد ربما ثاروا ببعضهم فقتلوه عند صدمة لامرأة أو شيخ كبير أو صبى أو ضرير ، فعزم المعتصم على النقلة معهم .. فانتهى الى موضع سامرا »[3] .

وقد اشتد بأس هؤلاء الأتراك ، وأخذوا يتطلعون الى فرصة مواتية ليركزوا أمور الدولة فى أيديهم . وتغلغل نفوذهم بعد موت المعتصم ، وأصبح بيدهم الحل والربط ، وكان مثلهم كمثل الحرس البريتورى فى الامبراطورية الرومانية ، والحرس الاسترلتزى فى الامبراطورية الروسية ، والحرس السويسرى فى عهد ملوك البربون فى فرنسا ، وجنود الانكشارية فى الدولة العثمانية .

---

(١) النجوم الزاهرة ٢٣٣/٢ .
(٢) الفخرى ص ٢١١ .
(٣) مروج الذهب ٢٧٢/٢ .

وما كاد عصر الواثق ينصرم ويخلفه أخوه المتوكل حتى كان سلطان الأتراك قد بلغ أوجه ؛ فوثبوا على المتوكل وقتلوه بمساعدة ابنه ووليّ عهده المنتصر ، لأنهم خشوا أن يوقع بهم . وقد تولى كِبْر ذلك « بغا الصغير » المعروف « بالشرابى » ، وفى ذلك يقول عليّ بن الجهم من قصيدة له :

عبيد أمير المؤمنين قتلنه
وأعظم آفات الملوك عبيدها

بنى هاشم صبرا فكل مصيبة
سيبلى على وجه الزمان جديدها

ويقول البحترى مشيرا الى غدر وليّ العهد بأبيه :

أكان ولى العهد أضمر غدرة
فمن عجب أن وُلّى العهد غادره

وخلف المنتصر أباه بتأييد الأتراك ، فصار ألعوبة فى أيديهم ، يبرمون ما يريدون من الأمور وهو لا يعصى لهم أمرا . وبلغ من ضعفه أمامهم أنه لم يستطع أن يردّ مشورة لهم تخالف ما عقده المتوكل وأكده بالأيمان والمواثيق والعهود .

ولم يكن حظ خلفائه من بعده أقل سوءا من حظه ؛ فقد خُلع المستعين بالله « أحمد بن محمد بن المعتصم » ، ثم قتل سنة ٢٥٢ ، فقال أحد شعراء ذلك العصر :

خُلع الخليفة أحمد بن محمد
وسيُقتل التالى له أو يخلع

ويزول ملك بنى أبيـــه فلا يُرى
أحـد" بمُلك منهم يســـتمتع
ايهاً بنى العبـاس ان سـبيلكم
فى قتـل أعبدكم ســبيل مهيع
رقعـتم دنيـاكم فتمـزقت
بكم الحيـاة تمزقا لا يُرقـع [1]

وكذلك كان مصـير الخليفتين اللذين خلفاه ، وهما المعتز والمهتدى ؛ فقد أقصيا عن كرسى الخلافة ، ثم لقيا حتفهما على أيدى الأتراك . أما المعتمد — وهو الخليفة الذى قضى ابن قتيبة فى زمنه عشرين عاما كانت أخصب حياته — فقد بلغ به الضعف نهايته ، ولم يكن له — كما يقول السيوطى — حل ولا ربط . وحسبك أن تقرأ له شعرا يصف حاله لتدرك أنه لم يكن له من الأمر شىء ، وأنه كان لا يجد حاجته من المال . فقد احتاج ذات يوم الى ثلثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثـلى
يرى ما قلّ ممتنعـا عليـه
وتوكل باسـمه الدنيـا جميعـا
وما من ذاك شىء فى يـديه
اليه تُحمـل الأمـوال طرّاً
ويُمنع بعض ما يُجبى اليـه [2]

(١) شذرات الذهب ٢/١٢٥ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٤ .

وبلغ من استهانة الأتراك بالمعتمد أن حجروا عليه ، وهو أول خليفة قُهر وحُجر عليه ووكلّ به . وهو يصور لنا بؤسه وتعاسته لما حجر عليه ، فيقول :

أصبحت لا أملك دفعا لما
أُسام من خسف ومن ذله

تمضى أمور الناس دونى ولا
يشعر بى فى ذكرها قله

اذا اشتهيت الشيء ولّوا به
عنى وقالوا ها هنا علّه (1)

وهكذا أصبح الخلفاء ألعوبة فى يد الأتراك ، يأتمرون بأمرهم وينتهون بنهيهم ، ويقول فى ذلك أحد الشعراء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا (2)
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

ومما زاد الطين بلة أن الخلفاء كانوا يستعيضون عما فقدوه من عزة السلطان بالتهالك على لذائذ الحياة ، تخفيفا لأنفسهم من هذه الحال ، وشكّا فى مصير كل نعمة .

ومن الكبائر التى اقترفها خلفاء بنى العباس وكانت عاملا من عوامل الفساد والانحلال أن ولاية العهد كانت تعقد لأكثر من واحد. وقد فعل الرشيد ذلك ، فوضع بذور الفتنة بين بنيه ،

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٧ .

(2) وصيف وبغا اثنان من كبار الأتراك .

وحدثت الفتنة الدامية بين الأمين والمأمون . وقد حذّر الرشيد من ذلك شاعر حيّ الضمير فقال :

رأى الملك المهذب شر رأى ... لقسمته الخلافة والبلادا
فقد غرس العداوة غير آل ... وورّث شمل ألفتهم بدادا
وألقح بينهم حربا عوانا ... وأسلس لاقتتالهم القيادا
ستجرى من دمائهم بحور ... زواخر لا يرون لها نفادا
فوزر بلائهم أبدا عليه ... أغيّا كان ذلك أم رشادا (١)

بيد أن الخلفاء من بعده لم ينتفعوا بهذا الدرس ، ولم يأخذوا لأنفسهم موعظة مما حدث .. فالمتوكل يتشبه بجده الرشيد ويعقد ولاية العهد لأولاده الثلاثة سنة ٢٣٥ وهم محمد المنتصر ، ومحمد المعتز ، وابراهيم المؤيد . وانه لمن المؤلم حقا أن ينبرى كثير من الشعراء لتأييد هذا العمل الخاطىء ، فزينوا للخليفة سوء عمله ، فرآه حسنا . ومن هؤلاء الشعراء ابراهيم بن العباس الصولى ، وهو من أكبر أدباء ذلك العصر ، وقد قال :

أضحت عرا الاسلام وهى منوطة ... بالنصر والاعزاز والتأييد
بخليفة من هاشم وثلاثة ... كنفوا الخلافة من ولاة عهود
قمر توالت حوله أقماره ... يكتنفن مطلع سعده بسعود (٢)

وقد أعاد التاريخ نفسه بين هؤلاء الأبناء الثلاثة ، مما هو مدوّن فى بطون الكتب .

---

(١) تاريخ الخلفاء ٢٠٦/٢ .
(٢) الفخرى ص ٢٢٩ .

ومما زاد الأمر تفاقما اختلاف الأجناس فى جيش الدولة وولاة أمورها ، فضلا عن اختلاف الأجناس بين نساء القصر وأمهات الأمـــراء .

وقد استفحلت من أجل ذلك الدسائس بين الخلفاء والأمراء والقادة والوزراء وحاشـــية القصر من رجال ونساء . وبلغ من تفاقمها أن شغب الجند على قوادهم ، وشعروا بأنهم فى الدولة أصحاب الأمر كله .

هكذا كان أمـــر الدولة : سوء ظن ، ودسيسة ، وختـــل ، وحذر ، وتدبير مكايد .

ولم يكن فى هذه الأجناس كلها من كان خليقا بأن يطمئن اليه بنو العباس أو يأمنوا جانبه . وقد سادت بين المؤرخين فكرة أن الفرس كانوا مخلصين للعباسيين فى أول أمرهم ، ولكن حوادث التاريخ تشهد بغير ذلك . فأبو مسلم الخراسانى نصير الدعـــوة العباسية الأكبر كان يعتبر نفسه ندّا للخليفة ، وطمع فى مصاهرة بيت الخلافة ، وارتقى بنسبه الى العباسيين كما ذكرنا ، وبدأ باسمه فى مخاطبة الخليفة ، وأراد أن يؤم الناس فى موسم الحج ، واستعد للايقاع بأوليائه طمعا فى الملك . ولكن يقظة المنصـــور طوّحت بمطامعه وقضت عليه .

وليس من شك فى أن البرامكة كانوا يعملون على استرداد المجد الفارسى ، ولكن فى شىء من الروية وطول الأناة .

لهذا كله نستطيع أن نقول ان العباسيين كانوا يحكمون حكم

الموتور القلق المستريب . ثم جاء الاقطاع فعظم الخطب وتمت البلية .

ونظام الاقطاع نظام فاسد ، ولكنه يظل مستور العيب ما بقيت الدولة حافظة لهيبتها وسلطانها . والتاريخ يحدثنا أن هذا النظام كان سببا فى انهيار الدولة الرومانية الغربية فى العصر القديم ، كما كان سببا فى انحلال الملكية فى العصور الوسطى ، وهو الذى عجّل باضمحلال دولة العثمانيين الأتراك فى العصور الحديثة . فهو نظام هدام ينخر كالسوس فى أركان الملك فلا يدعه الا وهو مفكك الأوصال .

وكان الولاة ابان قوة الخلافة العباسية يؤدون ما يُطلب اليهم أداؤه من الأموال ، ويتعهدون الأرض والمرافق بالاصلاح لتكثر لديهم موارد الخراج ولتتفجر لهم وللناس ينابيع الثروة . فلما سقطت هيبة الخلافة من أعين الولاة ، وارتاب هؤلاء فى أمرها وفى أمرهم أهملوا شئون الاصلاح ، وأقبلوا على جمع المال فى نهم شديد ، وحبسوا أرزاق العمال ، وأغفلوا مرافق الرعية ، فتأخرت الزراعة ، وخربت الأرض ، وعم السخط بين الناس جميعا ، وتمرد الجند وعاثوا فى الأرض فسادا ، ولجأ الخلفاء الى أن يمكروا بالولاة وبكل من بيدهم أمور الخراج ،وعملوا على اغتيالهم واستصفاء أموالهم كلما وجدوا أنفسهم فى مسيس الحاجة الى المال ، أو لمحوا مظاهر النعمة على العمال .

وأول من نكب عماله بسبب ذلك — بعد الرشيد — الخليفة الواثق . فقد كان يتمثل بما قيل لجده الرشيد : « انما العاجز من

لا يستبد » . وممن استصفى أموالهم أحمد بن اسرائيل ، وسليمان ابن وهب كاتب ايتاخ التركى ، والحسن بن وهب ، وأحمد بن الخصيب ، وابراهيم بن رباح ، وأحمد بن المدبر وغيرهم . ويقول ابن المدبر : « كنا فى حبس الواثق أنا وسليمان بن وهب وأحمد بن اسرائيل مطالبين بالأموال »[1] .

وقد حدث فى وزارة عبيد الله بن يحيى بن خاقان — وهو الوزير الذى اتصل به ابن قتيبة — أثناء خلافة المتوكل حادثة تبين مقدار ما كان من الفساد عند العمال ، واحتجانهم الأموال لأنفسهم ، وايقاع بعضهم ببعض بسبب سوء الادارة المالية[2] .

وقد أصبحت الوزارة والكتابة وما اليهما من وظائف الدولة وسيلة الى الاثراء والنهب . وبلغ من فساد الأمر وشيوع الاختلاس أن القوّامين على خزائن الدولة كانوا يفرضون الاتاوات على العمال والموظفين ، فلا يتسلم أحد منهم رزقه الا اذا أدى هذه الاتاوة وأقرّ كتابة باستيفاء رزقه ، لا يستثنى من ذلك أحد حتى أخو الخليفة وأهل بيته .

ومن غريب الأمر أن الأمراء والوزراء والكتاب ما كانوا يبالون أن يصبح الاختلاس أمرا مذاعا لا يكتم فى حضرة الخليفة ، وما كانوا يتحرجون عن الجهر بفعله بين يديه .. قيل ان وزير المهتدى سليمان بن وهب كان يرسل الى كل صاحب وظيفة كتابا يقول فيه : « نعم الرجل أنت لولا المعجّل والمؤجّل » . فكان قبل

(١) الفخرى ص ٢٢٥ .
(٢) اقرأ الحادثة فى مروج الذهب الجزء الثانى .

تسلم العامل عمله يأخذ منه مالا معجلا ، ويؤجل له مالا الى ما بعد تسلم العمل . فعرّض له الخليفة المهتدى ذات يوم بالمعجل والمؤجل ، فقال له سليمان : « يا أمير المؤمنين ، هذا قول لا يخلو من أن يكون حقا أو باطلا ، فان كان باطلا فليس مثلك من يقوله ، وان كان حقا — وقد علمت أن الأصول محفوظة — فما يضر من يساهمنى من عمالى على بعض ما يصل اليهم من برّ من غير تحيّف للرعية ولا نقص للأموال » . فقال الخليفة مقرا وزيره على ما يفعل : « ان كان هذا فلا بأس » [1] .

وهكذا راجت الرشوة وعم الاختلاس ، وبلغا نهايتهما فى أواخر هذا القرن الثالث ، حتى لقد قيل ان الوزير الخاقانى — « وكان سيىء السيرة والتدبير ، كثير التولية والعزل — ولّى فى يوم واحد تسعة عشر ناظرا للكوفة ، وأخذ من كل واحد رشوة » ، وقد هجاه بعضهم بقوله :

للدواوين مذ وليت عويل	ولمال الخراج سقم طويل
يتلقى الخطوب حين ألمّت	منك رأى غثّ وعقل ضئيل[2]

ولعل أصدق تصوير لرواج الرشوة فى ذلك العهد قول أحدهم يهجو الخاقانى هذا :

وزير لا يمل من الرقاعه	يولىّ ثم يعزل بعد ساعه
ويُدنى من تعجل منه مال	ويبعد من توسل بالشفاعه
اذا أهل الرشا صاروا اليه	فأحظى القوم أوفرهم بضاعه[3]

---

(١) انظر مروج الذهب ١١٨/٢ .

(٢) الفخرى ص ٢٤١ .

(٣) المصدر نفسه .

فلا عجب اذا أقامت الرشوة والسرقات والنكبات والمصادرات بينهم العلاقات على أساس من الحذر والتربص والدخَل وفساد الطوية . ولا عجب كذلك اذا باضت الفتنة وأفرخت فى بيئة كهذه بين جند يشغبون ، وعمال يدلّسون ، وعرب يحنقون ، وفرس يسخطون ، وشيعة يتحفزون ، ورعية تمزقها براثن الرعاة ، وملوك لا يأمنون على عروشهم ولا على حياتهم . وقد قرأت فى تاريخ الطبري بيتين يغنيان عن كل قول فى تصوير هذه الحالة :

أضاع الخلافة غش الوزير وجهل الأمير وفسق المشير
ففضل وزير وبكر مشير وقد أتيا ما يضير الأمور

وقد حدث من جراء هذا الفساد المستشرى فى جميع نواحى الحياة ثورات سياسية واجتماعية ، أشهرها ثورة الزنج .. وهى ثورة اختلطت فيها الأسباب السياسية بالأسباب الاجتماعية . ولعل أقوى دوافعها النقمة على المترفين وذوى الثراء .

وصاحب ثورة الزنج رجل يصل نسبه بالعلويين [1] ، وجمهرة النسابين يعدّونه من الأدعياء . وقد ظهر فى البحرين سنة ٢٤٩ ، ودعا الناس الى طاعته ، وكان اباحيا فى مذهبه ، فعظم شأنه ، والتف حوله خلق كثير . ثم شخص الى البصرة سنة ٢٥٤ ، وأراد أن ينشر دعوته ، فطارده عاملها محمد بن رجاء الحضارى ، فغادرها الى بغداد وظل مختفيا بها حتى عُزل بن رجاء ، فرجع اليها سنة ٢٥٥ ، وأخذ يجهر بآرائه ، فانضم اليه كثير من الأنصار .

---

(۱) انظر الكامل لابن الاثير ٨١/٧ طبعة بولاق .

ثم خطرت له فكرة ماكرة ، وهى استمالة العبيد الذين كانوا يشتغلون بحمل السباخ وغيره لأهل البصرة ، وهم كثير . وقد أخذ يذكرهم بما هم فيه من سوء الحال ، ووعدهم بتحرير رقابهم وتمليكهم الأموال والمنازل والعبيد .

وقد صادفت هذه الدعوة من نفوس هؤلاء العبيد هوى ، لأنهم كانوا يسامون الخسف والهوان . وقد اصطفى منهم غلاما نابها اسمه « ريحان بن صالح » وجعله قائد جنده ، وأقسم لهم بأغلظ الأيمان ألا يغدر بهم أو يخذلهم . فاجتمعوا حوله ، وعقدوا الخناصر على طاعته . ويقول ابن طباطبا : « واستمال قلوب العبيد من الزنج بالبصرة ونواحيها ، فاجتمع اليه منهم خلق كثير وناس آخرون من غيرهم ، وعظم شأنه وقويت شوكته .. الخ » [١] .

وكانت هذه الفتنة هوجاء أطاحت برءوس مئات الألوف من الأبرياء . ويقول السيوطى : « انه قتل من المسلمين ألف ألف وخمسمائة ألف آدمى ، وقتل فى يوم واحد بالبصرة ثلثمائة ألف » [٢] . وكان يتخلف عن هذه الملاحم وباء فاتك يفنى بسببه خلق كثير [٣] .

وشاءت الأقدار أن تزيد الأمر شدة فوق شدة ، فحدث ابان هذه الثورة « هزات وزلازل فمات تحت الردم ألوف من الناس » [٤] .

---

(١) الفخرى ص ٢٢٧ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٣ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٢ .

ويصور ابن الرومى ما عاناه الناس ابان هذه الفتنة ، وكان شاهد عيان وهو معاصر لابن قتيبة ، قال يصف ما حل بأهل البصرة على يد الثائرين من قصيدة طويلة :

كم أغصّوا من شارب بشراب ... كم أغصّوا من طاعم بطعام
كم ضنين بنفسه رام منجى ... فتلقّوا جبينه بالحسام
كم أخ قد رأى أخاه صريعا ... ترب الخدين صرعى كرام
كم أب قد رأى عزيز بنيه ... وهو يُعلى بصارم صمصام
كم مفدّى فى أهله أسلموه ... حين لم يحمه هنالك حام
كم رضيع هناك قد فطموه ... بشفا السيف قبل حين الفطام
كم فتاة بخاتم الله بكر ... فضحوها جهرا بغير اكتتام
كم فتاة مصونة قد سبوها ... بارزا وجهها بغير لثام
صبحوهم فكابد القوم منهم ... طول يوم كأنه ألف عام [1]

وتلك فتنة من الفتن التى كانت تنتاب الدولة بين الحين والحين فى ذلك العصر ، فتنهك قواها وتمزقها شر ممزق .

ومن غريب الأمر ألا يتناول ابن قتيبة هذه الثورة بشىء من التفصيل فى أى كتاب من كتبه وقد اكتوى عصره بنارها وكادت تذهب بسببها ريح الدولة .

والخلاصة أن حالة الدولة الاسلامية فى ذلك العهد كانت تسير على هذا المنوال السيىء ، اللهم الا اذا استثنينا فترات قصيرة كان يتاح فيها للدولة خليفة قوى حازم ، فتسكن غوارب الفتنة بعض

---

(١) اقرأ القصيدة فى ديوان ابن الرومى ص ٢٢٣ جمع كامل كيلانى .

السكون ، ويستقيم أمر الولاة والعمال بعض الاستقامة ، وتعلو هيبة الخليفة فيخشاه أعداء الدولة فى الخارج والمؤتمرون بها فى الداخل ، وتستشعر الرعية فى زمنه بعض الأمن والطمأنينة ، حتى اذا قضى نحبه عادت الفتن وعاد الفساد أشد مما كانا استشراء وتفاقما .

وان ابن قتيبة ليرسم لنا فى أدق صورة ما آلت اليه حال الدولة فى ذلك العصر ، فيقول فى مقدمة «أدب الكاتب» : «.. وقد خوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله ، وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا ، وأموال الملوك وقفا على شهوات النفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيع الخلق . وآضت المروءة فى زخارف النجد وتشييد البنيان ، ولذات النفوس فى اصطفاق المزاهر ومعاطاة الندمان . ونبذت الصنائع ، وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وسقطت همم النفوس ، وزهد فى لسان الصدق » ، ثم يقول بعد ذلك فى وصف العلماء انهم « العلماء بتحلّب الفيء ، وقتل النفوس فيه ، واخراب البلاد ، والتوفير العائد على السلطان بالخسران المبين » .

وهذا وصف دقيق لشاهد عيان يأكل الكمد قلبه ، اذ يرى الدولة تستحيل من القوة الى التهافت ، ومن العزة الى التطامن . وقد أكسبه تقلده القضاء الماما بحال الراعى والرعية ، ووقوفا على ما كان يتناوش الدولة فى زمنه من عوامل الضعف والفساد .

ولعل من أصدق ما أسوقه فى تصوير هذا العصر أبياتا من منظومة ابن المعتز التى ألفها فى مدح الخليفة المعتضد ، وفيها يصف

حال الدولة أصدق وصف قبل أن يلى أمورها المعتضد ، ويبين ما كان ينتاب الدولة حينذاك من ألوان الفتن والدسائس والظلم والثورات التى كانت تزلزل أركانها . وهو يصور بنوع خاص ما كان يقاسيه الناس من عمال الخراج الذين كانوا يبتزون الأموال عنوة من غير حق . ثم يذكر بلاء المعتضد فى القضاء على هذه الشرور . وهذا الوصف عظيم الخطر ، لأنه صادر من أمير عباسى لمس عن كثب أمور الخلافة العباسية والقصر العباسى وما خالطهما من فساد وضعف وانحلال .. قال ابن المعتز :

قام بأمر الملك لما ضاعا ... وكان نهبا فى الورى مشاعا
مذللا ليست له مهابة ... يخاف ان طنّت به ذبابه
وكل يوم ملك مقتول ... أو خائف مروع ذليل
أو خالع للعقد كيما يغنى ... وذاك أدنى للردى وأدنى
وكم أمير كان رأس جيش ... قد نغّصوا عليه كل عيش
وكم فتاة خرجت من منزل ... فنصبوها نفسها فى المحفل
وكل يوم عسكرا فعسكرا ... بالكرخ والدور مواتا أحمرا
ويطلبون كل يوم رزقا ... يرونه دَيْنا لهم وحقا
كذاك حتى أفقروا الخلافة ... وعوّدوها الرعب والمخافه
فتلك أطلال لهم قفارا ... ترى الشياطين بها نهارا
كانت تزار زمنا وتعمر ... ويتقى أميرها المؤمّر

ويمضى ابن المعتز مصورا الفساد الذى وصلت اليه أمور الدولة من جميع نواحيه الاقتصادية والاجتماعية . ومن ذلك أنه يصور لنا تاجرا اتسعت ثروته فطمع بعض الأمراء فيها ، فيزعم

أنّ عنده ودائع للسلطان يلزمه أن يدفعها اليه ، فيقسم التاجر ما استودعه السلطان شيئا ، ولكن الأمير يصر على أن يكون مال هذا التاجر وديعة من السلطان ، فيذيقه ألوانا من التعذيب ، حتى يؤثر الراحة على ما عنده من المال ، فيعطيهم ما يطلبون ، وعند ذلك يطلقون سراحه :

وتاجر ذى جوهر ومال ... كان من الله بحسن حال
قيل له : عندك للسلطان ... ودائع غالية الأثمان
فقال : لا والله ما عندى له ... صغيرة من ذا ولا جليله
فدخنوه بدخان التبن ... وأوقدوه بثقال اللبن
حتى اذا ملّ الحياة وضجر ... وقال ليت المال جمعا فى سقر
أعطاهم ما طلبوا فأطلقا ... يستعمل المشى ويمشى العنقا

ويصور لنا كذلك ما كان يلقاه دافعو الضرائب من ألوان الخسف والتعذيب ليجبروا على دفع أموال لم يكن من الحق عليهم أن يدفعوها . وهو يرسم لنا صورة واضحة للرجل الذى تطلب منه الضريبة ، وهم يوقفونه فى جحيم الهاجرة ويوثقونه بحبال من قنّب يقطّع الأوصال ، ثم ينهالون عليه صفعا ورفسا ، حتى اذا طال عليه الجهد طلب الى معذبيه أن يأتوه بالمرابين ليقترض منهم فيساومهم ويساوموه ، وينتهى الأمر بأن يبيع ضيعته بثمن بخس ، فيأخذه ويدفعه الى زبانية الضرائب ، فيخلوا سبيله .

فكم وكم من رجل نبيل ... ذى هيبة ومركب جليل
رأيته يعتل بالأعوان ... إلى الحبوس والى الديوان
حتى أقيم فى جحيم الهاجرة ... ورأسه كمثل قدر فائرة

وجعلوا فى يده حبـــــالا … من قنّب يقطّع الأوصــــالا
وعلّقـوه فى عـرى الجدار … كأنه برادة فى الـــــــدار
وصفقوا قفاه صفق الطبـــل … نصـــبا بعين شامت وحـــل
اذا استغاث من سعير الشمس … أجـــــابه مستخرج برفس
وصب سجان عليه الزيتـــا … فصار بعـــد بزّة كميتـــا
حتى اذا طال عليه الجهـــد … ولم يكن ممـــا أرادوا بُد
قال : اذنوا لى أسأل التجار … قرضا والا بعتهم عقـــارا
وأجّلونى خمســـــة أياما … وطوّقونى منكم انعــــاما
وجاءه المعينـــــون الفجرة … وأقرضــــوه واحدا بعشرة
وكتبوا صكا ببيع الضـــيعة … وحلفـــــوه بيمين البيعـــة
ثم تأدّى ما عليه وخـــرج … ولم يكن يطمع فى قرب الفرج[1]

وهذه أمثلة تمثل لنا حياة الناس فى ذلك العهد قبل خلافة المعتضد كما يصورها ابن المعتز . فلما جاء المعتضد أخذ هؤلاء الناس بالحزم والعنف والصرامة حتى كفوا عن الظلم واستقامت أمور الدولة مدة خلافته .

***

أما ضعف قيمة العهود — وهو السبب الثالث فى اضمحلال الدولة — فكان معولا هداما انحدر بالدولة الى مهاوى الانحلال والضعف .

فالمعروف أن أهم ما يمتا[illegible] خلق الوفاء ، وقد حافظوا على هذه الخلة الكريمة فى جاهليتهم ، وبذلوا دونها أعز ما يملكون

(١) اقرأ هذه المنظومة فى ديوان ابن المعتز .

من النفس والنفيس ، ولهم فى ذلك حوادث غراء مشهورة .

ولما جاء الاسلام زكّى هذا الخلق فيهم ، ونزل قوله تعالى « وأوفوا بالعهد ان العهد كان مسئولا » وقوله جل شأنه « وأوفوا بعهد الله اذا عاهدتم ولا تنقضوا الأيمان بعد توكيدها ، وقد جعلتم الله عليكم كفيلا ان الله يعلم ما تفعلون » ، وغير ذلك من الآيات الكريمة التى توجب بـ فى شدة — الوفاء بالعهد والتمسك به . وعلى ذلك سار الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم ، وسار على منوالهم معظم خلفاء بنى أمية ، لأن العنصر العربى كانت له الكلمة العليا فى دولتهم كما نعرف . وقد أنكر الناس من عبد الملك بن مروان قتله سعيد بن العاص بعد أن عاهده على ألا يمسه بسوء ، واعتدّوا هذا العمل منه فعلة خبيثة مسفة ، وقالوا انها أول غدرة فى الاسلام . وقد سأل عبد الملك شيخا عربيا عن رأيه فى ذلك فقال : « حسنٌ لو قتلته وحييت » ، فقال عبد الملك : أو لست بحى ؟ فقال الشيخ العربى : « حياة من لا يوثق له بعهد ولا عقد »[1] .

ولما قامت الدولة العباسية على أيدى عنصر غير عربى ظهر منها فى فجر نشأتها حوادث بشعة تنم عن أنهم كانوا لا يوفون بعهدهم اذا عاهدوا .. فقد قتل ا حياة أخيه السفاح ابن هبيرة بعد أن أعطاه أمانا لا حيلة ـل كذلك أبا مسلم الخراسانى بعد أن أمّنه ، وفعل مثل ذلك مع عمه عبد الله بن على بعد أن

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٢٥١ .

أظهر له رضاءه عنه ومنحه الأمان فى وثيقة طويلة . ولذلك لما أرسل المنصور الى محمد بن عبد الله بن الحسن يعرض عليه صك الأمان ، أجابه محمد بقوله : « وأما أمانك الذى عرضت فأى الأمانات هو ؟ أأمان ابن هبيرة ؟ أم أمان أبى مسلم ؟ أم أمان عمك عبد الله بن على والسلام »[1] . وبذلك وضع العباسيون فى أولى صحائفهم نقطة حالكة السواد .

وقد شجع ذلك الخلفاء على أن يتملصوا مما تقضى به العهود اذا رأوها تحول دون تحقيق أغراضهم ، ولا سيما عهود ولاية العهد .. كما فعل المنصور مع عيسى بن موسى الذى عقد له السفاح الخلافة بعد المنصور ، فقدّم عليه ابنه المهدى[2] ، وقد كاد هذا العمل أن يدفع عيسى الى الثورة ضد المنصور ، ولكنه آثر صالح الأمة على صالح نفسه ، وفى ذلك يقول :

خيّرت أمرين ضاع الحزم بينهما
اما صغارٌ واما فتنة عمم
وقد هممت مرارا أن أساجلهم
كأس المنية لولا الله والرحم

ثم أراد المنصور أن يترضاه بعض الشىء فجعله ولى عهد ابنه المهدى ، ولكن الأخير فعل معه ما فعله أبوه ، وعقد ولاية العهد لابنه الهادى ثم للرشيد من بعده . فأراد الهادى — ابان خلافته — أن يجعل ابنه جعفرا — وهو غلام حدث — ولىّ عهده

(١) الامامة والسياسة ٢/١٨٥ ط مطبعة النيل .
(٢) الفخرى فى الآداب السلطانية ص ٢٠٣ .

ويخلع الرشيد ، ولكن يحيى بن خالد البرمكى أقنعه بخطل هذا العمل ، وقد حفظ له الرشيد هذه اليد ، فجعله وزيره الأول وأطلق يده فى كل الأمور .

وقد نكث الأمين كذلك عهد أبيه ، وأراد أن يسلب أخاه المأمون حقه فى الخلافة من بعده ، فاندلع أوار الفتنة الشعواء بين الأخوين سنة ١٩٤ وانتهت بقتل الأمين سنة ١٩٨ .

وهكذا ديست العهود ، وأصبحت فى نظر الخلفاء أمرا هينا لا تتقى له حرمة ، وبخاصة فى العصر الذى تغلغل فيه نفوذ الأتراك ، وهم عنصر لا يأبه لعهد ولا يعتد بميثاق .

ومن البديهى أن القواد وكبار رجال الدولة كانوا يقتدون بخلفائهم ، وقلما كانوا يحرصون على الوفاء بعهد من العهود . وكتاب « الامامة والسياسة » حافل بالأمثلة الدالة على ذلك [1] .

ومما يحز فى النفس أن الفقهاء ورجال الدين كانوا يعينون الخلفاء على التحلّل من تلك العهود بالفتوى التى تنقض الأمان ، فى غير ما ورع أو خشية من الله .

وهكذا نرى أن ضعف العهود كان من الأمور التى صدعت البيت العباسى ، وفرقت الأمة الاسلامية قددا ، فضعفت عصبية الدولة ، وآل الأمر بخلفائها الى أن يستمدوا قوتهم من العناصر التى تغلبت عليهم .

---

(١) انظر الجزء الثانى من كتاب : الامامة والسياسة .

الفصل الثاني

الحالة الاجتماعية

لم تكد الدولة العباسية تقوم حتى تبدلت الحياة الاجتماعية تبدلا شديدا ، فاختفت الحياة العربية الأصيلة أو كادت ، وأقام كثير من الأدباء والشعراء والعلماء فى الحواضر الاسلامية ، وتغيرت أصول العادات والأخلاق ، فانتشر المجون ، وشاعت الزندقة ، وأقبل الكثير منهم على الفسق وجهروا به فى غير مبالاة ، واستحالت الحياة العربية السامية الى حياة معقدة تجمع بين السامى والآرى ، وتأخذ من هذا ومن ذاك .

حدثت اذن ثورة اجتماعية عصفت بالتقاليد القديمة عصفا ، وأخمدت أنفاس العرب ، وتغلغلت بسببها عادات الموالى وتقاليدهم فى الحياة العامة والخاصة أشد تغلغل .

ولقد كان من أثر الاضطراب السياسى فى القرن الثالث أن نضبت الأرزاق بين جميع الطبقات على السواء ، ونجم عن ذلك غلاء مفرط ، وبخاصة فى زمن المعتمد ، حتى لقد بلغ كر الحنطة فى بغداد مائة وخمسين دينارا . وامتد الغلاء الى الحجاز ، وبلغ من شدته أن عجز السواد الأعظم من سكانه عن أن يحصلوا على

ما يقيم أودهم ، فدفع ذلك الأعراب الى أن يثبوا على كسوة الكعبة وينتهبوها [1] .

ولكن هذه الفوضى السياسية لم تكن لتمنع الترف فى طبقات الخاصة ، لأن الحالة الاجتماعية صدى للحالة السياسية وظل لها . ولذلك كانت الفوضى مدعاة الى الانغماس فى الترف والعب من لهو الحياة بأوفى نصيب . وليس من العسير ادراك علة ذلك ، فكثيرا ما تكون الفوضى دافعا الى الانغماس فى الترف اذا لم يطل بها زمن التخريب والافساد . فلم يكن هم علية القوم فى ذلك العصر الا اغتنام اللذة يأسا من كل غاية ، وعلما بأن الحياة لا تجرى على وتيرة واحدة ولا تنتظم فى سياق .

ولقد فاضت على هذا العصر خلاصة السياسة الخرقاء التى اقترفها السابقون ، فجنى أهله خللا فى السياسة وبذخا فى المعيشة ، وحيوا حياة كحياة الجند ليلة الحرب كلها قصف واستسلام .

وقد ورث القرن الثالث حضارات العرب والفرس والروم ، ووقف على فنون اللهو فى هذه الشعوب ، وامتلأت أيدى الأمراء وكبار العمال والموظفين وأصحاب التجارات الواسعة بالأموال التى كانوا يبتزونها من الناس ، فكثر المترفون المنعمون ، وانتشرت ضروب المجون والخلاعة على نمط لم تره الحياة الاسلامية قبلا . وبلغ من تهافت القوم على حياة القصف وتفننهم فيها أن أصبح لكل لون من ألوان اللهو علم له علماء يتقربون به الى الخلفاء

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣٧٢ .

وذوى البيوتات من سادة القوم .. حتى الرقص ، فضلا عن أنواع اللهو الأخرى التى هى أقل تبذلا ، كالغناء وما اليه . ويحدثنا المسعودى أن الخليفة المعتمد — وهو آخر خليفة أدركه ابن قتيبة — سأل بعض ندمائه : « صف لى الرقص وأنواعه والصفة المحمودة من الرقاص ، واذكر لى شمائله » ، فقال : « يا أمير المؤمنين ، أهل الأقاليم والبلدان مختلفون فى رقصهم من أهل خراسان وغيرهم . فجملة الايقاع فى الرقص ثمانية .. والرقاص يحتاج الى أشياء فى طباعه ، وأشياء فى خلقته وأشياء فى عمله . فأما مايحتاج اليه فى طباعه فخفة الروح .. الخ » [1] .

ومما يثير عجبنا أنه كان هنالك فى ذلك العهد رجال قد شغفوا بألواح خاصة من الفنون ، وألموا بها الماما قلما يتاح لغيرهم فى أى عصر من العصور . فقد ذكر المسعودى أن المعتمد سأل كذلك ذات مرة عبد الله بن حرداديه — وكان من خاصة سماره — عن أول من استعمل العود والدفوف والطنابير والناى .. وعمن بدأ الغناء ، وعن أثر الطرب فى النفوس ، وأنواع الطرب ، ومنزلة الايقاع ، وأنواع الطرق وفنون الغناء . فأجاب بن حرداديه عن ذلك كله اجابة ملم بدقائق الموضوع ، محيط به احاطة تامة ، ولا يتسع المقام لذكرها . ويختم المسعودى هذه القصة بقوله عن المعتمد : « وللمعتمد مجالسات ومذاكرات ومجالس قد دونت فى أنواع من الأدب ، منها مدح النديم وصفاته وعفافه وأمن عبثه ،

---

(١) اقرأ ذلك كله فى مروج الذهب ٢/٣٥٨ طبعة بولاق .

والتداعى فى المنادمات والمراسلات فى ذلك ، وعدد أنواع الشرب فى الكثرة ، وهيئة السماع وأقسامه وأنواعه ، وأصـــول الغناء ومباديه فى العرب وغيرها من الأمم ، وأخبار الأعلام من مشهورى المغنين المتقدمين والمحدثين ، وهيئة المجالس ، ومنـــازل التـــابع والمتبوع وكيفية مراتبهم ، وتعبية مجالس الندماء والتحيات .. وصنوف الشراب ، والاستعمال لأنواع النقل اذا وضع ذلك فى المناقل والأطباق فنص نصا ووصف وصفا .. الخ » [1] .

ولا يتسع المجال لتبيان مبلغ دراية القوم بفنون الترف والحياة الناعمة . فقد كان لهم فى آداب المجالس وآداب المائدة وطهو الطعام وطرق تناوله فى حضرة الملوك والرؤساء مالم نسمع بمثله عن روما وبيزنطة .. حتى ليقال انه كان من كبارهم من لا يأكل لقمتين بملعقة واحدة [2] .

وبلغ من بدعهم أنهم — لترفهم — كانوا « يؤكلون الدجاج الجوز واللوز ، ويسقونه الحليب » [3] .

وكانوا يعنون ببعض فنون الرياضة وبخاصة الصيد ، وكثيرا ما وصفه الشعراء وجعلوا من شعرهم بابا يسمى « الطرد » . وانتشرت لعبة الشطرنج والنرد ، كما انتشرت لعبة الصولجان ، واللعب بالسيف والترس ، وسباق الخيل .

---

(1) أنظر مروج الذهب ٢/٣٥٦ .

(2) أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم للمقدسى ص ١٢٢ طبعة ليـــدن .

(3) نشوار المحاضرة للتنوخى ص ١١٢ .

وقد اقتدى بعض أوساط الناس — فى حدود طاقتهم — بأعليائهم ، فكثرت بيوت القيان والخمارات ، ونهم القوم بالمعاقرة صبوحا وغبوقا ، وشاع اقتناء الجوارى والغلمان ، واستبيحت أنواع اللذائذ طيبها وخبيثها ، وخف موقع النكر والفحش على أسماعهم ، ولا سيما حين صار الحكام والرؤساء قدوة الناس ومحط أنظارهم فى هذه الأفانين ، وهم موضع النعمة التى تصبو اليها نفوس المحرومين ، مما حدا بالناس الى أن يتهالكوا على الوظائف الحكومية التى يأتى رزقها رغدا من المرتبات والجبايات ، وما يتبع ذلك من الأسلاب والرشا .

وكان مما زاد الخلفاء والأمراء امعانا فى اللهو قعودهم عن الجهاد ، فكثر لديهم وقت الفراغ الذى أنفقوه فى اللذات . والمعروف إن الافراط فى الشهوات يضعف الهمة ويقصّر العمر ، ولذلك كان متوسط أعمار الخلفاء قصيرا بالقياس الى من عداهم .

وقد انحل بيت الأسرة ، فى ذلك العصر ، ووقع بين الاخوة من أمهات مختلفات تحاسد وتباغض وعداء . ويعلل ابن خلدون انحلال البيت بكثرة الترف [1] ، ولكن الترف لم يكن حظ جميع الناس ، فان سواد الشعب كانوا فقراء .

وقد دعا الغلو فى الترف الطبقات المحرومة الى النقمة على المترفين ، وأدى ذلك الى قيام الثورات لرد الظلامات وانصاف الفقراء . وهذا ابن الرومى الشاعر الوديع يتحرق شوقا الى قلب الأحوال ، ويدعو الى الثورة فى قصيدة طويلة يقول فيها :

(1) مقدمة ابن خلدون ص ٣٤٤ طبعة بيروت .

لهف نفسي عـــلى مناكير للنشـــ
ـــر غضاب ذوي ســـيوف عضـــاب

تغسل الأرض بالدمـــاء فتضحي
ذات طـهـــر ترابها كالمـــلاب

من كلاب نأي بهـــا كل نأي
عن وفاء الكلاب غـــدر الذئاب [1]

فلا غرابة اذا كان هذا العصر عصر تأهب النفوس للاصاخة لدعاية الجماعات السرية ، وتعلّق الآمال بظهور مصلح يغسل الأرض بالدماء ويطهرها من الأدران . ولا عجب اذا التف الناس حول الشاغبين عـــلى الدولة مثل بابك الخرمي وداعيـــة الزنج والقرامطة ، وغيرهم من الثوار وأصحاب المذاهب الذين كانوا يمزجون المقاصد الاجتماعية بالمقاصد الدينية ، ويجتذبون الفقراء والمحرومين بالدعوة الى المساواة والتمرد على الحكام .

على أن هذه الفتن وتلك الاضطرابات كانت تنتاب الدولة الحين بعد الحين ، ولكنها كانت تخرج منها في شيء من السلامة ، لأنها كانت ثورات متفرقة في أرجاء الدولة تظهر في أوقات متباينة ، وكانت ثورات بتراء ليست لها خطة مرسومة ولا منهج معلوم ، اذ كانت تعوزها الدعوة القوية المشروعة التي تجتذب الجماهير في اخلاص وتضحية . ومن أجل هذا كانت الثورة لا تكاد تستفحل حتى تهن ويقضى عليها قضاء مبرم . وكان هـــذا الشعب يوصم

(١) أنظر ديوان ابن الرومي ٤٤٨/١ جمع الشيخ محمد شريف سليم .

بالكفر والافساد فى الأرض ، ويوصم القائم به باسـم الفاسق أو المارق أو الفاجر أو الخبيث ، ويظل هـذا الاسم لصيقا به أبد الآبدين .

كل هذا وعلية القوم سادرة فى غيها ، ممعنة فى لهوها ، قلما تحس لهذه المشكلات الاجتماعية أثرا ، أو تسعى فى علاجها وتعرّف أسبابها الدفينة لاستئصال شأفتها ، اللهم الا فترات قصيرة كان ينشد فيها بعض الاصلاح . وفيما عدا ذلك كانت القصور غارقة فى بذخها ، مفتتنة فى زينتها ولهوها ، ولا همّ لها الا الاستباق فى جلب ألوان المسرة واللذائذ ، والظهور فى المجتمع العالى بعرف جديد من الآداب والأذواق ، حتى ان الوزير لا يحسب وزيرا ، ولا الرئيس يعد رئيسا اذا لم يحسن المنادمة والمجالسة قبـل صلاحه لسياسة الحكم . ولهذا أصبحت المنادمة والعلم بفنونها سلم الوصول الى أرقى المناصب فى الدولة والحظوة عند الخلفاء والأمراء . وكان أقصى ما تطمـح اليه نفس صاحب الفضـل والكياسة والعلم أن يصبح نديما لخليفة ، أو مربيا لابن خليفة . ولا شك أن من كان يبغى أحد هذين الأمرين أو كليهما يلزمه أن يلم بفنون شتى تجعله قديرا على أن يخلق فى حضرة الخلفـاء والسادة محضرا عذبا وجوا أنيسا . وهم يصفون الظريف بأنه لا يتدخل فى حـديث بين اثنين ، ولا يتكلم فيما لا يفهمـه ، ولا يتثاءب ، ولا يستنثر ، ولا يتجشأ ، ولا يتمطى فى المجالس ، ولا يمد رجليه ، ولا يمسح أنفه ، ولا يسرع فى المشى ، ولا يجلس الا حيث يجلس أمثاله ، ولا يماكس فى الشراء ، ولا يشـارط

صانعا ، ولا يصاحب وضيعا ، وأن يكون طيب الرائحة ، نظيف البدن ، ولا يطول له ظفر ، ولا يسيل له أنف [1] .

وكتب الأدب مليئة بقصص هؤلاء الندماء الظرفاء . وحسبك أن تأخذ لذلك مثلا على بن يحيى المنجم ؛ فقد كان أثير المكانة لدى المتوكل ، مع أنه سلب الوسامة وجمال الخلقة ، حتى لقد كان القرد أملح من قباحته كما يقولون . وما قدمه لدى الملوك الا حذقه لفنون المنادمة ، والمامه بجميع أدواتها ، من علم وأدب وفن وظرف وحضـور بديهة وسرعة خاطر . وأنت حينما تقرأ ما يروى عنـه تجد منه الطبيب والمضحك والأديب والجليس والظريف والطباخ الحاذق والمغنى المتصرف والمنجم الماهر والشاعر الفطن . وقصارى القول أن عليا هذا ما ترك شيئا مما يطرب الملوك الا ملكه [2] .

تلك كانت مجالس المجتمع العالية ، وتلك كانت حال ندمائها وآداب جلاسها ، ولا شك أنها قد تأثرت أشد تأثر بمناهج الفرس فى حياتهم وطرائق معيشتهم .

وأحب أن أشير الى أنه كانت هناك نزعة أخرى تناقض هذه النزعة اللاهية العابثة ، وهى نزعة زاهدة لحمتها التقوى ، وسداها الورع والتدين . وكان يحمل لواءها أعلام كرام عرفوا بالصلاح وحب الحق والتمسك بأهداب الدين ، وعلى رأسهم الامام أحمد

---

(1) تاريخ ابن الأثير الجزء السابع بتصرف .
(2) اقرأ أخباره مفصلة فى معجم الأدباء ١٥/١٤٤ طبعة دار المأمون .

ابن حنبل واسحاق بن راهويه وابن قتيبة وأمثالهم . ولكنها كانت نزعة ضعيفة لم تقو على صد تيار النزعة الأولى الذى كان أشبه بالسيل الجارف يكتسح كل ما أمامه ، نتيجة حتمية للأسباب التى ذكرناها .

وبعد ، فيتضح لنا مما سبق أن الحالة الاجتماعية كانت تقوم على اغتنام الفرصة ، كما كانت الحالة السياسية تقوم على سوء الظن . وهاتان الحالتان متلازمتان تلازم الشىء وظله .

الفصل الثالث

الحالة العلمية والعقلية

كانت الدولة العباسية مشرق العلوم والمعارف ، وكانت دولة العلم والتدوين والترجمة ، وظهر فيها فطاحل العلماء الذين نبغوا فى كل فن .

وقد تركزت العلوم فى القرن الثالث الهجرى ، وتمثلت المعارف التى ترجمت ، واتجه العلماء الى ناحية التخصص والاتقان بسبب اتساع آفاق العلم . فظهر المحدثون ، واللغويون ، والمشتغلون بالنحو والصرف ، والمتخصصون فى رواية الأخبار وابن قتيبة يفصح عن ذلك فى دفاعه عن أهل الحديث فيقول : « على أن المنفرد بفن من الفنون لا يعاب بالزلل فى غيره . وليس على المحدث عيب أن يزل فى الاعراب ، ولا على الفقيه أن يزل فى الشعر . وانما يجب على كل ذى علم أن يتقن فنه اذا احتاج الناس اليه فيه ، وانعقدت له الرياسة به » (١) .

وليس من شك فى أن العلوم الأجنبية قد شغلت عقول المسلمين فى القرن الثالث شغلا كبيرا ، حتى لقد برم بها شاعر كالبحترى ،

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٩٤ .

وعالم كابن قتيبة . فالبحترى يشكو من طغيان المنطق على الشعر ، ويعيب على بعض الشعراء استعمال أقيسته ومصطلحاته ، وله فى ذلك أبيات معروفة قالها حينما عابوا عليه أنه لم يسر فى شعره على حدود المنطق ، وهى :

كلفتمونا حـــدود منطقكم
والشعر يغنى عن صدقه كذبه
ولم يكن ذو القروح يلهج بالمنـ
ـطق ما نوعه وما ســـببه
والشـعر لمح تكفى اشـارته
وليس بالهذر طوّلت خطبــه

أما ابن قتيبة فانه يشكو من انصراف الناس عن العربية ، وانحرافهم عن النظر فى الكتاب ، وفى أخبار الرسول وصحابته ، وفى علوم العرب ولغاتها وآدابها . وينكر عليهم أنهم يعتاضون عن ذلك بعلم « هو قبح لهم فى الألفاظ ، وقيد لهم فى الألسنة ، وعىّ لهم فى المحافل » على حد قوله [1] . وهو يقصد بهذا العلم العلوم الأجنبية .

وما أشبه هذا العصر بالفترة التى مرت بنا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى حين اشتدت الصلة بيننا وبين الغربيين . فقد أولع بعضنا بكل جديد ، وثار على كل قديم ، وغلا البعض فى ذلك غلوا منكرا ، فتنكر للدين والتقاليد ، واعتبر الحفاظ عليهما ضربا من

---

(١) مقدمة أدب الكاتب .

الرجعية يباعد بيننا وبين الرقى والتقدم . وكان الانسان اذا تمثل بآية كريمة أو حديث شريف فى سياق كلامه تغامــزوا عليه ، وسخروا منه ، ونظروا اليه نظرة زراية واحتقار . ولكن ما هى الا سنون حتى أفقنا من سباتنا ، وأبنا الى رشدنا ، ورجعنا نلتمس الحضارة والقوة والعلا فى التمسك بديننا وتقاليدنا « فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

ومن الخير لنا أن نستأنس بما قاله عالمنا « ابن قتيبة » فى تصــوير الحالة العلمية فى ذلك العصر .. قال فى مقدمة « أدب الكاتب » يصف حال العلم والأدب فى زمنه : « انى رأيت أكثر أهل زماننا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين . أما الناشىء منهم فراغب عن التعلم ، والشادى تارك للازدياد ، والمتأدب فى عنفوان الشباب ناس أو متناس ليدخــل فى جمــلة المجدودين ويخرج عن جمــلة المحدودين . فالعلماء مغمورون ، وبكرة[1] الجهل مقموعون ، حين خــوى نجم الخير ، وكسدت سوق البر ، وبارت بضائع أهله . وصار العلم عارا على صاحبه ، والفضل نقصا ، وأموال الملوك وقفا عــلى شهوات النفوس ، والجاه الذى هو زكاة الشرف يباع بيــع الخلق . وآضت المروءة فى زخارف النجد وتشييد البنيان . ونبذت الصنائع وجهل قدر المعروف ، وماتت الخواطر ، وأسقطت هم النفوس .. فأبعد غايات كاتبنا فى كتابته أن يكون حسن الخط ،

---

(١) الكرة : الحملة .

قويم الحروف . وأعلى منازل أديبنا أن يقول من الشعر أبياتا فى مدح قينة أو وصف كاس . وأرفع درجات لطيفنا أن يطالع شيئاً من تقويم الكواكب ، وينظر فى شىء من القضاء ومن المنطق ، ثم يعترض على كتاب الله بالطعن ، وهو لا يعرف معناه وعلى حديث رسول الله بالتكذيب وهو لا يدرى من نقله .. الخ » .

ويمضى ابن قتيبة فى وصف هؤلاء المفتونين بالعلوم المترجمة وخطرهم على عقول الأغرار وأفهام الأحداث ؛ وذلك بذكر ألفاظ محدثة مثل الكون والفساد والكيفية والكمية والزمان والدليل .. وغير ذلك من الألفاظ التى لا طائل تحتها ، والتى هى فى عرفه « هذيان كبير » . ويسير على هذا النحو ، مزدريا العلوم الجديثة ، مؤثرا العلوم الدينية والعربية فى شىء كثير من الغلو ، فيقول : « ولو أن مؤلف حد المنطق بلغ زماننا هذا حتى يسمع دقائق الكلام فى الدين والفقه والفرائض والنحو لعدّ نفسه من البكم ، أو يسمع كلام رسول الله وصحابته لأيقن أن للعرب الحكمة وفصل الخطاب » .

ولكن ابن قتيبة فى الوقت نفسه لا ينكر فضل هذه العلوم المترجمة وأثرها فى تقويم العقول وحاجة المتأدبين اليها فيقول : « ولابد له « أى المتأدب » مع كتبنا هذه من النظر فى الأشكال لمساحة الأرضين ، حتى يعرف المثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج ، ومساقط الأحجار ، والمربعات المختلفات ، والقسىّ ، والمدورات ، والعمودين » . بل انه يوجب الالمام بهذه

العلوم الماما عمليا ، ولا يرضى بالجانب النظرى منها ، فيقول : « ويمتحن معرفته بالعمل فى الأرضين لا فى الدفاتر ، فان المخبر ليس كالمعاين » .

ويرى ابن قتيبة أن هـذه العـلوم من الضرورات اللازمة للكاتب ، ومن متممات ثقافته : وكانت العجم تقول : « من لم يكن عالما بأجراء المياه ، وحفر فرص المشارب ، وردم المهاوى ، ومجارى الأيام فى الزيادة والنقص ، ودوران الشمس ، ومطالع النجوم ، وحال القمر فى استهلاله واقفاله ، ووزن الموازين ، وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالى والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب — كان ناقصا فى حال كتابته » . ثم يقول بعد ذلك : « ولابد له مع ذلك من دراسة أخبار الناس ، وتحفظ عيون الحديث ليدخلها فى تضاعيف سطوره ، متمثلا اذا كتب ، ويصل بها كلامه اذا حاور . ومدار الأمر على القطب وهو العقل وجودة القريحة ، فان القليل معهما باذن الله كاف ، والكثير مع غيرهما مقصر » .

ذلك تصوير ابن قتيبة لعصره كما يرى ويحس . وقد أحسن ولا شك فى تمثيل عصره الى حد كبير . فقد أظهرنا على ما كان يتعاطاه أبناء عصره من فنون المعرفة ، وما كانوا يدعون .

ويتضح لنا من كلامه أن هـذا العصر لم يكن عصر العلوم القديمة وحدها ، بل كان للعلوم الحديثة ، المنقولة منها والموضوعة ، مكان مرموق ، حتى لقد خشى ذوو النعرة العربية من أمثـال ابن قتيبة أن تصبح هذه العلوم شرك العقول ومقنص الأفهام .

ويتضح من كلامه أيضا أنه كان يبغض على العموم هـذه العلوم ، لأنها كادت تطغى على العلوم العربية . وكان يبغض منها بنوع خاص علوم المنطق والفلسفة وما اليهما . ولكنه كان يحبذ تحصيل بعض العلوم الأجنبية الأخرى الى حد ما ، لأنهـا من مكملات ثقافة الأديب . وتفسير ذلك يسير سنشير اليه بعد قليل .

ولكى ندرك حقيقة حكم ابن قتيبة وحظه من الصواب يجب أن نعرف أن العلم لم يكن ذا منهاج واحد فى هذا العصر . فقد كان هناك منهاج أهل السنة الذين يتشددون فى انكار البدع ، ومنهاج الفرق الاسلامية المتعددة من معتزلة وشيعة وظاهرية ونحو ذلك . وكل فرقة من تلك الفرق ترتكز فى منهج تفكيرها على لون خاص من الثقافة .

وقد كان الجدل محتدما بين هذه الطوائف ، وبخاصة بين أهل السنة — ومنهم ابن قتيبة — والمعتزلة الذين كانوا يستعينون بالمنطق والفلسفة اليونانية . ومن أجل هذا كره ابن قتيبة الثقافة اليونانية ، وكرهها كذلك لأنها كادت تصرف شباب العلم عن علوم الدين والعربية . وسنبين فى فصول خاصة مدى اسهام ابن قتيبة السنى فى المنازعات الدينية وموقفه منها .

وكان هناك منهاج العلوم الحديثة ، ومنهاج رواد المجالس وطلاب الظرف الذين كانوا يقطفون من كل بستان زهـرة كما يقولون .. وغير ذلك من المناهج التى تتباين وتتشابه كما هى الحال لدينا الآن .

وكان العراق مركز هذه المناهج ، لأنه مقر الخلافة وملتقى

العرب والعجم ومحط رحال العلماء والأدباء والفنانين من كل حدب على اختلاف مناحيهم .

وكان ابن قتيبة من أهل السنة المبرزين ، فرأيه اذن يمثل رأى المتعصبين للعلوم العربية الذين لا يرون غيرها الا ضربا من الفضول ولغو الكلام ، واللغط به « هذيان كبير » كما يقـول . ولكنه — فيما يبدو لى — خشى أن يُرمى بالتخلف عن الركب ، فأوجب الألمام بلون من العلوم الحديثة التى أشار اليها ، الى جانب الاحاطة بالعلوم العربية .

وهناك أمر آخـر يدفعنا الى القول بأن ابن قتيبة لم يصب الصواب كله فى حكمه على هذا العصر ، ذلك أنه كان أديبا لغويا يعتمد فى محصوله الأدبى واللغوى على أبعد عصور العرب ، فلا ينظر الى العصور القريبة الا على أنها عصور تمعن فى الجهل والاسفاف بقدر امعانها فى البعد عن عرب الجاهلية . ولا ريب فى أن ابن قتيبة قد طافت به تلك النزعة البشرية التى تضفى علـى القديم كل ألوان العظمة والقداسة والجلال ، وتنعت الحديث بكل نقص ومثلبة . ولا يزال هذا ديدن الكثير منا الآن ، وبخاصـة هؤلاء الذين لم تباعد الحضارة بينهم وبين حياة الفطرة ، ولم تنتقل عقولهم كثيرا من طور قديم الى طور حديث . ومن غريب الأمر أن ابن قتيبة نفسه يصور هذه النزعة فى عصره بروح المنكر لها ، فيقول فى مقدمة عيون الأخبار : « ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ، ورفض المبذول وحب الممنوع ، وتعظيم المتقدم وغفران زلته ، وبخس المتأخر ، والتجنى عليه . والعاقل من ينظر

بعين العدل لا بعين الرضا ، ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم » .
بل ان أهم نظرياته فى النقد تقوم على الاقساط والعدل ، وتطرح جانبا مبدأ التعصب للقديم ، كما سنبين فى فصل خاص . وهذا ما يجعلنى أعتقد أن الرجل يناقض نفسه . وربما كان التناقض من أبرز صفاته فى كثير من الأحوال . وان شئت الدقة فقل ان نظرياته لا تحظى منه بالتطبيق العملى الصحيح لها . ولكن ذلك لا يمنعنى من أن أقول ان الرجل كان ذا عقلية واسعة وذهن فسيح .

مهما يكن من شىء فلا جدال فى أن القرن الثالث الهجرى كان من أزهر عصور الاسلام من الناحية العلمية . فقد تم فيه نمو علوم الثقافة الاسلامية كلها ؛ ففيه تمت المذاهب الأربعة فى الفقه ، وظهرت آثار أقطاب الحديث ، وانحازت السياسة الى جانب أهل السنة فى زمن المتوكل . وما من علم قديم أو حديث الا له أعلام نابغون فى هذا القرن . حتى العلوم العربية التى كان ابن قتيبة يتهم القوم بالازورار عنها والجهل بفضائلها ، وهى علوم اللغة والأدب والنحو والرواية . فمن أعلامها المشهورين فى هذا القرن ابن السكيت وابن الأعرابى والجاحظ ويموت بن المزرّع وأبو عثمان المازنى وثعلب والمبرد والزجاج وابن الأنبارى وابن دريد والأخفش الأوسط وأبو حاتم السجستانى وابن راهويه والصولى والرياشى وأبو سعيد البكرى .. وغيرهم وغيرهم من لهم القدح المعلّى فى هذه العلوم .

وقد نضج فى هذا القرن علما التاريخ والجغرافيا ، واشتهر من مؤرخى العرب وجغرافييهم البلاذرى والبلخى واليعقوبى

والطبرى وابن البطريق وابن خرداذبة وغيرهم . وتمثلت الفلسفة اليونانية ، وظهر لون من الفلسفة ذو طابع اسلامى على يد الكندى وتلميذه السرخسى والفارابى . وظهر من الأطباء الرازى وابن ماسويه . وبرز فى الرياضة محمد بن موسى الخوارزمى الذى وضع الجبر على أساس ما عرفه من الاغريق والهنود ، وله صيت ذائع بين الغربيين ، وقد اشتقوا من اسمه كلمة « لوغاريتم Algorithmes » .

أما علم النجوم فقد بلغ أوج رقيه فى هذا العصر ، اذ ألفوا فيه الكتب ، ووضعوا أرصادا فلكية ، وحسبوا الكسوف والخسوف .

ولم يكن الأمر مقصورا على نبوغ هؤلاء الأعلام ، بل كانت الثقافة قسمة شائعة بين الناس جميعا ، يشارك فيها خاصة الناس وعامتهم ، وكلهم يشتغلون بها ، ويقتنون كتبها ، ويحضرون مجامعها ومناظراتها . وقد شاع ذلك بينهم شيوعا كبيرا ، حتى اننا لترى بعضهم يجمع أمشاجا كثيرة من الثقافات فيكون أعجوبة الأعاجيب . ولا أدل على ذلك من قصيدة لابن الرومى يقول فيها متهكما :

قولا لطوط أبى علـى	بصرّينا الشاعر المنجّم
المنذر المضحك المغنى	الكاتب الحاسب المعلّم
الفيلسوف العظيم شأنا	العائف القائف المعزّم
الماهن الكاهن المعادى	فى نصر ابليس كل مسلم

وهذه الأبيات — على ما فيها من سخرية — تشير الى ما كان فى طوق الأديب آنذاك من الجمع بين ألوان هذه المعارف المختلفة .

وكان كثير من الخلفاء فى ذلك العصر لا يضيقون بهذه العلوم الحديثة ، بل ان بعضهم كان يميل اليها ويشجعها بسلطانه وجاهه ، مثل الواثق الذى يقولون عنه انه كان محبا للنظر ، مكرما لأهله ، مبغضا للتقليد وأصحابه ، محبا للاشراف على علوم الناس وآرائهم ممن تقدم وتأخر من الفلاسفة والمتطبّبين . وكان له مجلس يعقده للنظر بين الفقهاء والمتكلمين فى أنواع العلوم ، فكانت سيرته كسيرة عمه المأمون فى هذا الباب . ومن أجل ذلك أخذت مسألة خلق القرآن فى عهده شكلا حادا أكثر مما كانت فى عهد أبيه المعتصم [1] .

ويبدو أن علم النجوم والرياضيات كان أكثر العلوم الحديثة شيوعا . وسر ذلك طرافته وموافقته أحوال الزمن وتقلباته ، وشيوع الحضارة الفارسية التى كان أهلها يعبدون الكواكب وينوطون بها مقادير الخير والشر وطوالع السعد والنحس . وكان العرب يتعاطون علم القيافة ويؤمنون بالزجر والنحس وما اليهما ، فلم يجدوا فى العلم الحديث غرابة وقبلوه فى غير عسر .

ولهذا كان الخلفاء يعتقدون أن للنجوم أثرا فى أحداث الكون ، من موت وحياة ، وسعادة وشقاء ، وصحة ومرض ، وتقتير فى الرزق وغير ذلك . ولعل الشيعة كانوا ذوى أثر بالغ فى

---

(١) تاريخ الخلفاء بتصرف ص ٣٦١ .

اشاعة التنجيم بين النـاس ، وقد نسب اليهم كثـير من التنبؤ بالحوادث ، وكانوا يبغون من ذلك دعاية لأنفسهم .

وقد عظم شأن المنجمين فى العصر العباسى ، واستغلوا ايمان الناس بالتنجيم حتى الخلفاء . وقد روى أن المنصور تخير وقتا معينا لوضع الحجر الأساسى لمدينة بغـداد ، وكذلك صـنع الفاطميون حينما همّوا بانشاء القاهرة . ولا يبعـد عن أذهاننا ما كان من أمر المعتصم ، فقد نصح له المنجمـون بالخروج الى الحرب أيام نضج التين والعنب ليكون النصر محققـا ، ولكن الظروف دفعته الى مقاتلة الروم فى غير هذا الوقت ، فأحرز نصرا مبينا فى موقعة عمّورية ، وقال أبو تمام قصيدته المشهورة التى مطلعها :

السيف أصـدق أنبـاء من الكتب

فى حـدّه الحد بين الجـد واللعب

وقد ظل أمر التنجيم مسيطرا على عقول الكثيرين الى اليوم ؛ فهم يؤمنون بما يتنبأ به الفلكيون من أن مواليد شهر كذا سوف تجرى السعادة فى ركابهم ، ومواليد شهر كذا سوف يحف الشقاء بحياتهم ، وأن الناس تتباين أخـلاقهم نتيجة اختلاف شـهور ولادتهم .. ونحـو ذلك ، ولا شـك أن هذا زعم باطل ، لأنه لو صحت نبوءاتهم لاتفقت أحوال من ولدوا فى شهر واحد ، مع أننا نجد فوارق كثيرة بينهم تبلغ حـد التضاد . ولكنها طبيعة الانسـان التى تريد أن تخترق الحجب وتعـلم أسرار الغيب . وما أجدرنا بأن نعى قول العـلى الكبير « قل لا يعلم الغيب

الا الله » وقوله تعالى على لسان رسوله الكريم « ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء » .

وبعد فقد رأينا أنه كان للعلم مناهج متعددة ، لكل منها منحى خاص . ونحن نستطيع أن نقول — مطمئنين — بعد ذلك ان حكم ابن قتيبة فيه شيء من الشطط ، لأنه كان ينظر الى عصره حسب ميله وثقافته . وقل مثل ذلك فيمن كانوا مشغوفين بالعلوم الحديثة فى هذا العصر .

وليس من العسير أن تتخيل هذه الحالة بجملتها ، فهى قريبة الشبه جدا بما نحن فيه الآن : "كلف" بالقديم وتعصب" له ، وتهالك" على الحديث وازدراء للقديم ، ثم قصد" واعتدال بين هذا وذاك . وربما كان الفرق بيننا وبينهم أن عصرهم كان عصر الموالى .. هؤلاء الذين كانت العصبية الجنسية تدفعهم الى دراسة العلوم الحديثة لأنها تنافس العلوم العربية ، فضلا عن أنهم كانوا يبغون ألا ينفرد العرب بالدين والسياسة وبالعلم كذلك ، وألا يستأثروا دونهم بكل كمال وفضيلة .

ونستطيع أن نطبق رأينا هذا فى وصف ابن قتيبة لعصره على ما حدث فى النصف الثانى من القرن الثانى للهجرة ، فأنت حين تقرأ شعر بشار وأبى نواس ومطيع بن اياس وابن الضحاك تقول انه عصر فجر وفحش ونكر . وحين تقرأ لأبى العتاهية وغيره من الزاهدين ، وحين تعرف أن الرشيد كان يحج سنة ويغزو أخرى ، تقول انه عصر زهد وورع وتقوى . وكلا الحكمين لا يصيب

الحقيقة ، والحكم الصحيح الذى لا ميل فيه أنه كان لهذه النزعة عشاقها ، ولتلك النزعة أربابها .

وأحب أن أذكر هنا أن العلماء فى ذلك العصر قد أدركوا حقائق بعض الأشياء ، والأمثلة على ذلك كثيرة مبثوثة فى كتب الجاحظ وابن قتيبة . وحسبنا أن نذكر أنهم كانوا يعرفون أن « الرأس يتفرق منه العصب الذى فيه الحس وبه قوام البدن »[1]، وأن الشمس أكبر من الأرض بمرات كثيرة[2] . وقد كنا نعتقد أن هذه الحقيقة الأخيرة لم تعرف الا فى أوائل العصر الحديث على يد العالم الألمانى « كوبرنيكس Copernicus ١٤٧٣ — ١٥٤٧ » كما يقول المؤرخون ، وأيده العالم الايطالى « جاليليو Galileo ١٥٩٠ — ١٦٤٣ » ، وهو أول من استعمل المنظار فى رصد الكواكب .

---

(١) عيون الأخبار ٣/٢٠٠ .

(٢) تأويل مختلف الحديث ص ١٥١ .

الباب الثاني

سيرة ابن قُتَيبة

الفصل الأول

مولده وحياته

هو « أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة » . وأصله فارسى من غير شك ، وهو يصرح بذلك فيقول محاجاً الشعوبية : « فلا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها » (١).
ويقال فى نسبته « الدينورى » لأنه أقام بالدينور قاضيا مدة فنسب اليها . ويقال أيضا « المروزى » كذلك لأن أباه من « مرو الروز » ، و « الكوفى » لأن بعضهم يقول انه ولد فيها كما سنوضحه ، و « البغدادى » لأنه ولد فيها على رأى البعض الآخر ، أو نزل بها . ولا نعرف عن أبيه « مسلم بن قتيبة » شيئا أكثر من اسمه ، ولا شك أن اهمال المراجع له — سيان فى ذلك كتب ابن قتيبة وكتب غيره — يدل على أنه لم يكن له شأن ما . واسم أبيه « مسلم » واسم جده « قتيبة » يدلان بوضوح على أن كليهما كان مسلما فى القرن الثانى الهجرى . وعلى ذلك يمكن القول ان ابن قتيبة قد ولد من أبوين متعربين ، وانه كان يتكلم العربية كلغة وطنية .

---

(١) كتاب العرب فى رسائل البلغاء ص ٣٥٦ الطبعة الثانية .

ولم يهتم كثير من المؤرخين بسنة ولادته ، لأن المرء يولد ولا يتكهن الناس بمصيره فى مستقبل الأيام . والذين اهتموا بمولده يجمعون على أنه ولد سنة ٢١٣ هـ [1] ، وهذه السنة توافق سنة ٨٢٨ ميلادية .

وهؤلاء الذين عنوا بسنة ولادته لم يختلفوا اختلافهم فى سنة وفاته . وهذا أمر غريب حقا ، لأن المعقول ألا يختلفوا فى تاريخ وفاته ، وانما يكون الاختلاف فى تاريخ ولادته .

وقد عثرت فى المكتبة الأهلية بباريس على نسخة خطية لكتاب « المعارف » (رقم ١٤٦٥ مخطوطات عربية) ، وقد كتب فى الصفحة الثالثة هذه العبارة « كتاب المعارف للشيخ الامام أبى محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة القتيبى الدينورى البغدادى النحوى ، ولد فى بغداد سنة ٢١٣ وتوفى سنة ٢٧٦ ، وله جملة من التصانيف ، تغمده الله برحمته ونفعنا بعلومه » ، وهذه النسخة كتبت سنة ٨٠٦ هـ .

وهناك عبارة لابن قتيبة يفهم منها أنه ربما يكون قد ولد قبل هذا التاريخ ، لأنها تدل على أنه كان يرتاد مجالس الأدب ويعى ما كان يقال فيها فى زمن الخليفة المعتصم ، فقد ذكر فى كتاب « الشعر والشعراء » فى ترجمة « دعبل الخزاعى » انه قد نمى

---

(١) انظر وفيات الأعيان ١/٢٥١ ، وبغية الوعاة ص ٢٩١ ، وتاريخ أبى الفدا ٢/٣١ ، وتاريخ ابن كثير ١١/٤٨ ، وطبقات المفسرين للداودى فى ص ١٠٣ (مخطوط) ، وروضات الجنان ص ٤٤٧ .

شعر لدعبل فى هجاء المعتصم « فأمر بطلبه فاستتر ، ثم هرب ، ورأيته وهو يحلف ما قال الشعر ، وانما قيل على لسانه وكيد به » (1) .

ثم يقول بعيد ذلك : وسئل وأنا حاضر عن أجود شعره ، فقال: « القديمة » . ومعنى ذلك أنه كان فى زمن المعتصم فتى يافعا يغشى محافل الأدب . والمعروف أن المعتصم حكم من سنة ٢١٨ الى سنة ٢٢٧ هـ ، فيكون ابن قتيبة — على حسب قول المؤرخين الذين ذكروا تاريخ ولادته — قد بلغ الرابعة عشرة من عمره حتى نهاية حكم المعتصم . وهذه سن لا تخول لصاحبها — فيما أرى — أن يشارك فى حلبات الأدب ، اللهم الا اذا أوتى حظا كبيرا من ذكاء القلب والنضج المبكر .

وقتيبة بضم القاف وفتح التاء المثناة من فوقها وسكون الياء المثناة من تحتها ، وبعدها باء موحدة ، ثم هاء ساكنة — كما يقولون — تصغير قِتْبه « بكسر القاف وسكون التاء » أو قِتب أو قَتَب « بفتح القاف والتاء » واحدة الأقتاب ، ومعناها المعى أو الأكاف وهو ما يوضع على ظهر الراحلة . وقد تناول اللغويون هذه الكلمة بشىء من التفصيل (2) بما لا يخرج عما ذكرنا .

---

(1) الشعر والشعراء ص ٥٤٠ طبعة ذى جويه .

(2) انظر اللباب فى تهذيب الأنساب ٢٤٢/٢ لابن الأثير ، وتاج العروس ٤٣٠/١ ، والقاموس المحيط ، ولسان العرب ، وصحاح الجوهرى ، والنهاية لابن الأثير ٢٢٧/٣ ، وأساس البلاغة ، وأقرب الموارد .

وقد اختلفوا فى موطن ولادته ، ففريق يقول انه ولد بالكوفة كابن الأنبارى [1] وابن الأثير [2] وابن النديم [3] ، وجرى على هـذا الرأى بعض الباحثين المعاصرين مثـل بروكلمان فى دائرة المعارف ، وجورجى زيدان [4] . ومن أجل هذا يطلق عليه لقب « الكوفى » . وفريق آخر يذكر أنه ولد فى بغداد كالسمعانى [5] والقفطى [6] والبغدادى [7] والموسوى [8] ، ووافقهم على ذلك بعض الباحثين المعاصرين كالشيخ رشيد رضا [9] وخير الدين الزركلى [10] ، والبستانى . وفريق ثالث لا يجزم برأى ، ويقول انه ولد فى بغداد ، وقيل فى الكوفة . ومن هؤلاء ابن خلكان ، وســـار على رأيه بعض المستشرقين مثل « هوارت Huart » فى كتابه « الأدب العربى » [11] .

وأنا أرجح أنه ولد بالكوفة وسكن بغداد ، لأن من ذكر ذلك أسبق من غيرهم مثل ابن الانبارى وابن النديم ، ولأن بعض الثقات يذكر أنه « نزيل بغداد أو سكن بغداد » مثل أصحاب مرآة الجنان ، وتهذيب الأسماء ، والمنتظم فى تاريخ الأمم والملوك ، وطبقات المفسرين ، واللباب .

---

(١) طبقات الأدباء . (٢) تاريخ ابن الأثير ١٧٥/٧ .
(٣) الفهرست ٧٧ .
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية ١٧٠/٢ .
(٥) الأنساب ٤٤٣ . (٦) انباه الرواة ١٤٣/٢ .
(٧) تاريخ بغداد ١٧٠/١٠ .
(٨) روضات الجنان ٤٤٧ (٩) مجلة المنار ٥٨٤/٨ .
(١٠) قاموس الأعلام ٥٨٦/٢ (11) Litterature Arabe .153

ونحن — مع بالغ الأسف — لا نعرف شيئا عن طفولته ونشأته ، شأنه فى ذلك شأن غيره من كبار علمائنا القدامى . وربما كانت معرفتنا لهذه الحقبة من حياته — لو تيسرت — تلقى ضوءا على كثير مما خفى علينا من ميوله واتجاهاته وتكوينه العلمى ، ولكن الأيام تطوى ذلك كله فى بطونها طىّ السجل للكتب .

مهما يكن من شىء ، فقد قضى معظم حياته فى بغداد ، وأخذ عن علمائها — وهى فى أوج مجدها العلمى — علوم الحديث والفقه واللغة والتفسير والنحو والأدب والأخبار . وقضى وقتا من حياته فى « الدينور » أثناء ولايته القضاء فيها ، ولذلك ينسب اليها . والدينور بلدة من بلاد الجبل قرب « قرميسين » وينسب اليها جماعة كثيرة من أهل الأدب والحديث [1] . وقد ذكروا كثيرا من هؤلاء المنتسبين اليها وليس فيهم ابن قتيبة ، مع أنه أبعد صيتا وأعلى قدرا ممن ذكروا . ولست أدرى سر ذلك ، وهو ان دل على شىء فانما يدل على أن هذا الرجل غير مجدود .

ويبدو لى أنه قضى فى « دينور » مدة طويلة استطاع فيها أن يقيم له فى نفوس أهلها مكانة أثيرة ، وأن يصنف كتبا أقبل عليها الناس بنهم ، ويقول ابن النديم : « وكتبه فى الجبل مرغوب فيها » [2] . وليس من شك فى أن اقامته بالدينور قد أعانته على اتقان اللغة الفارسية .

---

(١) اقرأ الأنساب للسمعانى ص ٢٣٨ ، ووفيات الأعيان ١/٢٥١ ، ومعجم ما استعجم للبكرى ١/٣٥٨ طبعة وستنفلد ، ومعجم البلدان لياقوت ١٨٨/٤ .

(٢) الفهرست ٧٧ .

ومن غريب الأمر أنه لم يشر فى أى كتاب من كتبه الى اقامته فى الدينور أو الى توليه القضاء فيها . ويظهر لى من ذلك أنه قد ضاق ذرعا بقيود الوظيفة ، لأن الانسان مولع دائما بالحديث عن ذكرياته الطيبة فى مناسبة وفى غير مناسبة . ويظهر لى من ذلك أيضا أنه كان قليل الاحساس بالمجتمع وما يدور فيه ، سيان فى ذلك ما يتصل به وما لا يتصل به . وأنا أعزو ذلك الى أنه كان أبدا فى شغل شاغل بأمرين ملكا عليه عقله وحواسه ، وهما : الدفاع عن أهل السنة ومذاهبهم ، ووضع المؤلفات لسد حاجة المسلمين وتحبيبهم فى دراسة العربية . وكان يعتبر ما دون ذلك من شئون الحياة لا يستحق النظر والتسجيل.

على أنى أعتقد أن أمثـال هؤلاء العلماء الأجلاء يضيقون بالوظيفة وأغلالها ، لأنها تحد من حرية تفكيرهم ، وهم قوم يبغون الحرية والانطلاق . وها هو ذا معاصره الجاحظ يصف ذل الوظيفة فيقول : « فإن أولئك « أى الموظفين » لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن لهم خول مملوءة ، قد لبسها الرعب وألفها الذل .. فهم مع ذلك فى تكدير وتنغيص خوفا من سطوة الرئيس وتنكيل الصاحب وتغيير الدول .. الـخ » [1] ، فهؤلاء العلماء — كما ترى — يربئون بأنفسهم عن أن يقارفوا خدمة السلطان ، أو يستكينوا للرؤساء خوف الذل والملق .

ولست أعرف عن حياته أكثر مما ذكرت . ولم أجد فى جميع

---

(1) رسائل الجاحظ على هامش الكامل ٢/٢٤٨ .

المراجع التى تناولت ابن قتيبة — على كثرتها — شيئا غير هذا ، وهو — كما ترى — قليل الغناء .

***

ولم يغفل واحد من المؤرخين والعلماء الذين تعرضوا لابن قتيبة ذكر سنة وفاته . وهذا شأنهم مع أفذاذ الرجال ؛ لا يهتمون بمولدهم ، لأنهم لا يعرفون ما سيكون من أمرهم بين ملايين المولودين ، حتى اذا برّزوا فى ميادين الفنون والعلوم وذاع صيتهم فى الآفاق ، ومضوا الى جوار ربهم عنوا بحياتهم وأرخوا سنى وفاتهم . وكذلك كان حالهم مع ابن قتيبة .

وقد اختلفوا فى سنة وفاته ، فبعضهم يقول انه توفى سنة ٢٧٠ هـ ، والبعض الآخر يذكر أن ذلك كان فى سنة ٢٧٦ هـ ، والقليل منهم يقول انه مات سنة ٢٧١ هـ . ولكننى بعد تمحيص دقيق لهذه الروايات المختلفة أرجح أن وفاته كانت سنة ٢٧٦ هـ . بل ان هناك مسألة تجعلنى أكاد أقطع بأنه توفى فى هذه السنة ؛ فقد تحدث ياقوت فى « معجم البلدان » عن بلدة اسمها « بيّانة » ، وهى بلدة أندلسية بينها وبين قرطبة ثلاثون ميلا ، وذكر أن منها قاسم بن أصبغ بن يوسف البيانى ، وقد رحل قاسم هذا الى المشرق فى سنة ٢٧٤ هـ ، وأخذ العلم عن جماعة من العلماء منهم ابن قتيبة [1] . ويؤيد هذا أن محمد بن خير الاشبيلى أحد علماء الأندلس ذكر قاسم بن أصبغ هذا بين من رووا عن ابن قتيبة

---

(١) معجم البلدان ٣١٩/٢ طبعة دار المأمون .

كتبه فى الأندلس [1] . وهـذا يدل على أن ابن قتيبة كان حيا فى سنة ٢٧٤ هـ . وبما أن سنتى ٢٧٤ ، ٢٧٥ لم تردا قط فى سنوات وفاته عند أحد من المؤرخين فيتعين أنه مات سنة ٢٧٦ هـ الموافقة لسنة ٨٨٩ ميلادية .

أما سبب موته فيكادون يجمعون على أنه « أكل هريسة فأصاب حرارة ، ثم صاح صيحة شديدة ، ثم أغمى عليه الى وقت صلاة الظهر ، ثم اضطرب ساعة ، ثم هدأ ، فما زال يتشهد الى وقت السحر ، ثم مات » ، ويزيد ابن حجر العسقلانى : « أنه ازدرد الهريسة ساخنة قبل أن تنفثأ حرارتها فأهلكته [2] . وقد استخلص بعضهم من قول ابن حجر ما جعلهم يرمون ابن قتيبة « بالتسرع والتهافت والنهم والجشع » [3] . والحق أن قول ابن حجر يجب أن يؤخذ بشىء من التحفظ ، لأنه ترجم فى كتابه « لسان الميزان للمحدثين المغموزين فى نظره ، وكان من الحاملين على ابن قتيبة . ويغلب على الظن أن الهريسة كانت فاسدة فأصيب بالتسمم من جراء فسادها ، لأنه ليس من المعقول أن يموت رجل بسبب التهام طعام ساخن ، والمعقول أنه حين يحسّ بحرارته يلفظ اللقمة من فمه قبل أن تصل الى المرىء ، وهذا رأى طبيب ثقة أطمئن اليه .

---

(١) فهرست ابن خير ص ٣٧٧ طبعة سرقسطة .

(٢) لسان الميزان ٣/٣٥٧ .

(٣) انظر كتاب « أدب الجاحظ » ص ٥٣ للأستاذ حسن السندوبى .

الفصل الثانى

خُلق ابن قُتَيْبة

كان ابن قتيبة لين العريكة ، وكان يحث دائما فى كل مناسبة على التحلى بكريم الخلق وحميد السجايا ، ويرى أن التجمل بهما أفضل من طلب العلم .. يقول فى مقدمة أدب الكاتب : « ونحن نستحب لمن قبل عنا وائتم بكتبنا أن يؤدب نفسه قبل أن يؤدب لسانه ، ويهذب أخلاقه قبل أن يهذب ألفاظه ، ويصون مروءته عن دناءة الغيبة ، وصناعته عن شين الكذب » . وكان يمقت هجر القول وفاحش الكلام ، وفى ذلك يقول : « فأما السباب وشتم السلف وذكر الأعراض بكبير الفواحش فما لا نرضاه لخساس العبيد وصغار الولدان » ! وهو يلتمس لنفسه مخرجا عند ذكر العورة بصريح لفظها ، فيقول فى مقدمة عيون الأخبار : « انها لا تؤثم وانما الاثم فى شتم الأعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . ونراه يختم مقدمة أدب الكاتب بالحث على ترويض النفس على كريم الخصال ، وتجميلها بالتواضع وحب الحق فيقول : « فمن تكاملت له هذه الأدوات ، وأمده الله بآداب النفس من العفاف والحلم والصبر والتواضع للحق وسكون الطائر

وخفض الجناح ، فذلك المتناهى فى الفضل ، العالى فى ذرا المجد ، الحاوى قصب السبق ، الفائز بخير الدارين ان شاء الله تعالى » .

وابن قتيبة يحث الناس على التواصى بمكارم الأخلاق ، ونبذ الخوض فى الأعراض والأحساب ، وهو يجعل من نفسه قدوة لهم ، ولذلك أبت عليه أخلاقه الكريمة أن يخوض فى حقيقة أصل أبى عبيدة معمر بن المثنى أحد زعماء الشعوبية ، فانصرف عن ذلك قائلا عنه : « وحاله فى نسبه وأبيه الأقرب اليه حال نكره أن نذكرها ، فتكون كمن أمر ولم يأتمر وزجر ولم يزدجر » (١) .

ولعل من أبرز خلق ابن قتيبة التواضع ، فهو لا يدّعى لنفسه شيئا ليس له ، ولا يستعلى على غيره ، ولا يتورع عن أن يأخذ العلم عن أخس الناس ، فان العلم ضالة المؤمن ، من حيث أخذه نفعه ، وقد قال ابن عباس رضى الله تعالى عنه : « خذوا الحكمة ممن سمعتموها منه ، فانه قد يقول الحكمة غير الحكيم ، وتكون الرمية من غير رام » .

وابن قتيبة يوضح ذلك كله فى كلمات لا تنقصها الصراحة فى مقدمة عيون الأخبار فيقول : « واعلم أنا لم نزل نتلقط هـذه الأحاديث فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة وعن جلسائنا واخواننا ، ومن كتب الأعاجم وسيرهم .. وعمن هو دوننا ، غير مستنكفين أن نأخذ عن الحديث سنا لحداثته ، ولا عن الصغير قدرا لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها ، فضلا عن

---

(١) كتاب العرب من رسائل البلغاء ص ٣٤٦ .

غيرها ، فان العلم ضالة المؤمن .. ولن يزرى بالحق أن تسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين ، ولا يضير الحسناء أطمارها ، ولا الذهب الابريز مخرجه من كبا « أى الكناسة » . ومن ترك أخذ الحسن من موضعه أضاع الفرصة ، والفرصة تمر مرّ السحاب » .

وكان ابن قتيبة موطأ الأكناف ، سهلا ، سمحا ، يرعوى عن الغي اذا ما بدا له وجه الحق فى غير صلف أو تكبر . وانى لأذكر قصة صغيرة ترينا كيف كان هذا الرجل يرى الفضيلة فى الرجوع الى الحق .. يحدثنا الغزالى أن ابن قتيبة قال : « مرّ بى بشر بن عبد الله فقال : ما يجلسك ههنا ؟ فقلت : خصومة بينى وبين ابن عم لى ، فقال : ان لأبيك عندى يدا ، وانى أريد أن أجزيك بها ، وانى والله ما رأيت شيئا أذهب للدين ، ولا أنقص للمروءة ، ولا أضيع للذة ، ولا أشغل للقلب من الخصومة . قال : فقمت لأنصرف ، فقال لى خصمى : مالك ؟ قلت : لا أخاصمك . فقال : عرفت أن الحق لى . فقلت : لا ، ولكنى أكرم نفسى عن هذا » [1] .. لقد ترك ابن قتيبة اللدد والخصومة ترفعا عن أن ينزلق الى مهاوى الشطط والتزيد . وقديما عرف الناس أن الوقوف أمام المحاكم يغضّ من أقدار الرجال ، فان الذى يقف للدفاع عن حقه أمام المحكمة قد تدفعه ظروفه الى التزيد ، والتزيد أمر قبيح فيه ضلال ، وقد ينتهى الى رمى الخصم بعبارات أو اشارات لا يصح

---

(١) احياء علوم الدين ٣/١٢٥ .

أن تصدر من رجل كريم . ومن هنا كره الصالحون أن يكون الرجل فصيح اللسان أمام القضاة ، لأن فصاحة اللسان قد تحق باطلا وتزهق حقا فى كثير من الأحيان .

وابن قتيبة يرسم للناس قواعد السلوك والمعاشرة ، فان الحديث ومخالطة الناس أمران يحتاجان الى قدرة بارعة ؛ فقد يحسن الكلام فى موضع قد لا يحسن فيه السكوت ، وقد يكون الخير فى العكس . وقديما قالوا : « حتف المرء فى منطقه » وقال النبى الكريم : « وهل يكبّ الناس على وجوههم يوم القيامة الا حصائد ألسنتهم » . وهو يبين لنا ذلك فى مقدمة عيون الأخبار فيقول : « ولا ترى غبنا أن يتكلم الناس وأنت ممسك ، فاذا رأيت حالا تشاكل ما حضرك من القول أحضرته ، أو فرصة تخاف فوتها انتهزتها . وكان يقال : « انتهزوا فرص القول ، فان للقول ساعات يضر فيها الخطأ ولا ينفع فيها الصواب » وقالوا : « رب كلمة تقول لصاحبها دعنى » . وقد أعجبنى قول عبد الله بن المبارك فى رثاء مالك بن أنس :

صموت اذا ما الصمت زيّن أهله
وفتّاق أبكار الكلام المختّم

فأنت ترى ابن قتيبة يضع للناس دستورا فى أدب الحديث ينبىء عن شىء غير قليل من الحصافة وسداد الرأى .

ويجب أن أقرر أن ابن قتيبة من أوائل من جعلوا الزهد ركنا هاما من أركان الأدب . فانه أفرد له بابا خاصا فى كتاب « عيون الأخبار » . وقد ذكر الجاحظ نتفا متفرقة عن الزهد والزهاد فى

« البيان والتبيين » ، ولكن ابن قتيبة أنشأ للزهد بابا مستفيضا منسقا ، وقلده أحمد بن عبد ربه في « العقد الفريد » . فابن قتيبة قد شارك بذلك في مقاومة تيار المجون الذي ألحّ على الدولة في ذلك العهد .

وكان هذا الرجل مثلا بليغا لنبل الخلق ، فلم تورثه شهرته العلمية زهوا ولا غرورا ، ولذلك لم نحس له في أي كتاب من كتبه ما يشير من قريب أو بعيد الى شيء من الفخر والكبرياء .

بيد أني ألمح فيه أحيانا شدة الاعتداد بالنفس ، والاعتداد بالنفس صفة محمودة تضفي على صاحبها قوة الخلق وكمال الرجولة ، ولكنها قد تكون مذمومة اذا أريد بها المكابرة والتشبث والعناد . وهذا ما نلمسه في ابن قتيبة . وهو بذلك يناقض بعض ما يتصف به من التواضع والخضوع للحق ، فاذا رأى رأيا حاول أن يدعمه ويؤيده بمختلف الوسائل حتى لا يطأطىء رأسه أمام خصومه . ولذلك يرى — وأنا في دهشة من ذلك — أنه خير للانسان أن يأتي الاثم على جهل به ولا يسأل أهل العلم ! . يقول : « وكانت العلماء تنهى العوام عن كثرة السؤال ، وقالوا : لأن يؤتى الشيء على جهل به أسلم من أن يؤتى على علم » [1] . وهذا — في رأيي — خطأ كبير ، لأننا لو جرينا وراء هؤلاء العلماء لكان مثلنا كمثل النعامة التي يضنيها طراد الصياد ، فتدس رأسها في الرمل ظانة أنه لا يراها ما دامت هي لا تراه .

---

(١) كتاب الأشربة ص ٧٥ .

ولم يرو عن ابن قتيبة أنه كان يرتاد مكان ريبة ، أو يأتى ما يثلم دينه . ولم يعرف عنه قط أنه قصّر فى اقامة شعائر الدين ، كما عرف عن الجاحظ مما سنبينه فى حينه . وكل ما يؤخذ من مؤلفاته أنه كان شديد الاخلاص للاسلام والمسلمين ، وبخاصة العرب لأن الرسول بعث منهم ، ولذلك نراه يدافع عن الدين وعن العرب فى حرارة واخلاص .

الفصل الثالث

صلته بكبار رجال الدولة

يبدو لى أن ابن قتيبة كان يحيا — على العموم — حياة مستقرة ليس فيها كثير من الترحال والظعن ، وقد أنفق الشطر الأكبر منها فى بغداد فى طلب العلم ، ثم فى تصنيف الكتب واملائها. والظاهر أنه أدى فريضة الحج والزيارة ، لأنه يذكر فى كتاب « المعارف » أنه قرأ على موضع الزيادة التى أضافها المأمون الى مسجد المدينة عبارة يسجل فيها تاريخها [1] . ولكننا لا نعرف تاريخ حجه على وجه التحديد . وهو على كل حال قد أدى هذه الفريضة قبل سنة ٢٥٦ ، أى قبل تأليف كتاب المعارف ، وسنعرف ذلك فى موضعه .

ولم يعرف عنه كبير اتصال بعظماء الدولة ، أو المناصب الحكومية ، اللهم الا توليه القضاء فى الدينور ، فأقام بها مدة حتى نسب اليها ، ثم عاد الى بغداد واتخذها مقاما له حتى مات . وكانت له علاقة بوزير المتوكل والمعتمد « أبى الحسن عبيد الله بن يحيى

---

(١) كتاب المعارف ص ٢٤٥ طبعة المطبعة الاسلامية .

ابن خاقان » . والظاهر أن هذه العلاقة لم تزد على أن تكون علاقة علمية ، لأنه أهدى له كتاب « أدب الكاتب » . وأنا أعتقد أن تولية قضاء الدينور كان الثمرة العملية الوحيدة لهذه العلاقة كما يقول ابن السيد البطليوسى [1] . وقد ذكر ابن قتيبة هذا الوزير فى صدر « أدب الكاتب » ، وأثنى عليه ، وأشار الى أنه صنف الكتاب اجابة لطلبه . ومن المحقق أنه لم يكن من خاصة الوزير والمقربين اليه ، لأنه لم يشر الى ذلك قط فى كتبه الأخرى ، كما أنه لم يكن مغمورا بالنعمة والحياة الرخية ، شأن المقربين من الوزراء وكبار رجال الدولة . وربما كانت هذه هى الصلة المحققة التى كانت لابن قتيبة مع عظماء الدولة .

وقد عثرت له فى عيون الأخبار على كتاب شكر وجهه الى محمد بن عبد الله بن طاهر [2] ، ولابد أن يكون هناك سبب لهذا الشكر . غير أنه لم يشر قط فى أى مؤلف من مؤلفاته الى صلته بهذا الأمير كما أشار فى مقدمة أدب الكاتب الى الوزير عبيد الله ابن خاقان . وكل ما يمكن أن يقال فى هذا الأمر أن اسحاق بن راهويه — أحد شيوخ ابن قتيبة — كان على صلة بعبد الله بن طاهر أمير خراسان . وكان ابن قتيبة فى فتاء سنه يتردد على خراسان ليأخذ العلم عن أستاذه اسحاق ، وكان يتبعه فى غدوه ورواحه . وليس ببعيد أن يكون التلميذ قد قصد أستاذه فى دار الامارة ذات مرة ، فالتقى هناك بابن الأمير « محمد بن عبد الله

---

(١) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ص ٢٤ .

(٢) انظر عيون الأخبار ٢/٢٢٢ .

«ابن طاهر» ، فحدث بينهما ما يشبه الألفة التى تعقدها حياة الشباب .

وقد ذكر الدكتور اسحاق الحسينى أنه عثر على نسخة فريدة من كتاب المعارف فى المتحف البريطانى نسخت فى شعبان سنة ٧١٠ هـ ، وقد كتب الناسخ فى نهايتها أن الموفق — وهو أخو الخليفة المعتمد — استدعى ابن قتيبة سنة ٢٦٦ الى بغداد ، فأتى ، وقرأ عليه هذا الكتاب « المعارف » فأجازه بعشرة آلاف دينار (١) .

واذا صحت هذه القصة — وقد صدقها الدكتور الحسينى — كانت وساطة هذه الصلة الوزير عبيد الله بن خاقان الذى كان مقربا لدى الموفق ، وهو الذى ولاه الوزارة فى خلافة المعتمد . ولكننى أشك فى هذه القصة ، لأنها لو حدثت لأشار اليها ابن قتيبة فى الكتاب نفسه ، كما فعل فى « أدب الكاتب » الذى أشار فيه الى الوزير ابن خاقان ، أو ذكره فى أى كتاب من كتبه ، وبخاصة أن القرب من الموفق فى ذلك الحين كان مدعاة للتيه والفخر ومطمح نفوس العلماء ، لأن السلطات كلها كانت فى قبضة يده دون الخليفة . وأنا أرى أن الناسخ نفسه هو الذى فعل ذلك ليرفع من شأن الكتاب . والكتاب — فى حقيقة الأمر — قيم جدا وليس فى حاجة الى محاولة الاعلاء من شأنه .

على أن صلاته بهؤلاء العظماء — ان صحت جميعها — لم تكن من القوة التى تتيح له أن يكون من خواصهم المغمورين بنعمهم وأفضالهم .

---

(1) The Life and workes of Ibn Qutaiba p. 4

الفصل الرابع

شيوخه

آخذ ابن قتيبة العلم عن علماء كثيرين مختلفى المناحى ، ولهذا كان متنوع الثقافة غزيرها ، آخذا من كل لون منها بحظ طيب . فمنهم المحدث ، ومنهم اللغوى ، ومنهم النحوى ، ومنهم راوية الشعر والأخبار .. الخ . وبعضهم يذكر من أساتذته شيوخا يسقطهم البعض الآخر . وقد تتبعت فى دقة العلماء الذين أخذ عنهم ، سواء الذين صرح هو بالأخذ عنهم فى كتبه ، أو الذين ذكرهم المترجمون له كشيوخ تلقى العلم عنهم ، وهم كثيرون يزيدون على الأربعين شيخا . وبعضهم لم يروعنه ابن قتيبة الا قليلا ، وأمثال هؤلاء لا نعتبرهم — بطبيعة الحال — من أساتذته . وعلينا أن نوجه اهتمامنا الى شيوخه الذين لازمهم وأخذ عنهم ، وهم الذين ذكرهم المترجمون له على أنهم أساتذته فقالوا انه أخذ العلم عن فلان وفلان .. ويمكن حصرهم فى خمسة شيوخ أجلاء كانوا — من غير شك — المنهل الذى ارتشف منه ابن قتيبة ثقافته ، وهم : أبو الفضل الرياشى ، وعبد الرحمن بن عبد الله بن قريب « وهو ابن أخى الأصمعى » وابراهيم بن سفيان الزيادى ،

وأبو حاتم السجستانى ، واسحاق بن راهويه . وهؤلاء جميعا من أساطين العلماء فى اللغة والأدب والنحو والرواية والحديث والتفسير ، ومعظمهم من مدرسة الأصمعى . ومن الخير أن أعرف بكل واحد منهم فى عبارة قصيرة ، ما عدا الشيخين الأخيرين « السجستانى وابن راهويه » فقد رأيت أن أخصهما بشىء من التفصيل لعظيم تأثيرهما فى ابن قتيبة دون غيرهما .

فالرياشى كان ضليعا فى النحو واللغة ، وقد قرأ النحو على المازنى ، وقرأ عليه المازنى اللغة [1] ، وكان كثير الرواية عن الأصمعى . وقد قتله الزنج بالبصرة بالأسياف ، وهو قائم يصلى الضحى سنة ٢٥٧ هـ [2] .

وعبد الرحمن بن أخي الأصمعى كان ثقة فيما يرويه عن عمه ، وعن غيره من علماء البصرة . وكان بارعا فى حفظ اللغة والأشعار [3] ، وقد ذكره الزبيدى فى الطبقة الخامسة من اللغويين البصريين .

والزيادى ينتهى نسبه الى زياد بن أبيه ، وكان نحويا لغويا راوية ، أخذ عن سيبويه وأبى عبيدة والأصمعى ، ومات سنة ٢٤٩ هـ .

أما شيخاه الأخيران فهما أخلق بالعناية من غيرهما وهما :

---

(١) طبقات النحاة لابن قاضى شهبة ص ١١٩ « مخطوط بدار الكتب » .

(٢) تاريخ الطبرى ١٠/١١٢ .

(٣) طبقات المفسرين ص ١٣٣ ب « مخطوط بدار الكتب » .

أبو حاتم السجستاني :

هو أبو حاتم سهل بن محمد بن عثمان السجستاني ، ينسب الى سجستان بالقرب من كابل ، وهو ممن سكنوا البصرة . وكان عالما ثقة ضليعا فى العربية والشعر دقيق النظر [1] . وقد أخذ العلم عن كبار علماء عصره كأبى زيد وأبى عبيدة والأصمعى والأخفش . وأخذ عنه أبو بكر بن دريد وابن قتيبة والمبرد وغيرهم . وكان اماما فى النحو واللغة والعروض والقراءات ، صادق الرواية . وقد اشتغل بالحديث وكتب كثيرا منه عن ثقات [2] . ويقول عنه أبو الطيب عبد الواحد بن على اللغوى : « وكان أبو حاتم فى نهاية الثقة والاتقان والنهوض باللغة والقرآن ، مع علم واسع بالاعراب أيضا » [3] . وكان معنيا بالنحو ، وقد قرأ كتاب سيبويه على الأخفش مرتين [4] ، ويذكرون أنه صنف فيه ، ولكن يظهر أنه لم يبلغ فيه درجة الحذق ؛ لأنهم يروون أنه كان اذا اجتمع بأبى عثمان المازنى فى دار عيسى بن جعفر الهاشمى تشاغل أو بادر بالخروج خوفا من أن يسأل عن مسألة فى النحو [5] . ويعزى ذلك الى أنه « ترك النحو بعد اعتنائه به حتى كأنه نسيه ، ولم يكن

---

(١) الانساب ص ٢٩١ .

(٢) انظر الفهرست ص ٥٨ ، وطبقات الأدباء ص ٢٥١ ، وشذرات الذهب ٢/١٢٠ ، والمزهر ٢/٤٠٨ .

(٣) مراتب النحويين ص ١٣٠ (مخطوط) .

(٤) وفيات الأعيان ١/٢٧٣ .

(٥) المصدر نفسه .

حاذقا فيه »[1] . وكان — الى جانب ذلك — صالحا عفيفا يتصدق كل يوم بدينار ، ويختم القرآن فى كل أسبوع كما يقول ابن خلكان . ولا يبعد أن يكون ذلك قد أثر فى سلوك تلميذه « ابن قتيبة » الشخصى ، فوصفوه بالورع والتقوى .

وكان أبو حاتم خفيف الروح ، محبا للدعابة ، رقيق العاطفة ، ذواقة للحسن[2] . وتستطيع أن تقرأ له شعرا لطيفا فى الجزء الأول من وفيات الأعيان . ولم يتصف التلميذ بما اتصف به الأستاذ من حب الدعابة وخفة الروح ، لأنه كان يأخذ نفسه بجد العالم ووقاره .

ومات أبو حاتم فى منتصف القرن الثالث الهجرى فيما بين سنتى ٢٤٨ ، ٢٥٥ على اختلاف بين الرواة . وفى هذا الوقت كان ابن قتيبة فى عنفوان رجولته ، ويمكن أن يقال انه اتصل بأستاذه مدة لا تقل عن عشرين عاما . وكان يذهب اليه بالبصرة لملاقاته ، كما كان الأستاذ يتردد على بغداد الحين بعد الحين فيقبل عليه التلميذ لينهل من علمه . ولا شك أن ابن قتيبة قد استفاد منه كثيرا فى نواح مختلفة من العلم . وربما كان تنوع معارف ابن قتيبة راجعا الى أستاذية أبى حاتم ، فقد كان الأستاذ نحويا وله مؤلفات فى النحو ، وكان ابن قتيبة كذلك نحويا وله كتب فى النحو أيضا كما يقولون . ولكنى أرجح أن ثقافة ابن قتيبة

---

(١) طبقات المفسرين ص ٩٠ (مخطوط) .
(٢) الأنساب ص ٢٩١ .

النحوية يرجع أكثرها الى الرياشى والزيادى ، وبخاصة الرياشى لأنه كان تلميذا لسيبويه .

وكان السجستانى لغويا ، وله كتب فى اللغة ذكرها ابن النديم وأخذ عنه ابن دريد ، وكذلك كان ابن قتيبة لغويا ضليعا وله مؤلفات لغوية متعددة فى موضوعات شتى ، وصل الينا منها أدب الكاتب ، وكتاب النعم والبهائم ، وكتاب المسائل ، وكتاب المعانى الكبير .

وكان أبو حاتم ذا دراية بالشعر والأخبار ، وهذا هو ميدان ابن قتيبة المجلّى فيه . وعيون الأخبار ، والشعر والشعراء ، والمعارف كلها ناطقة بذلك .

وقد غنى أبو حاتم بالحديث ، وكان ثقة فيه ، وروى له النسائى فى سننه [1] . وعناية تلميذه ابن قتيبة بالحديث كبيرة ؛ فقد وضع الكتب فى غريب الحديث ، وفى مشكله ، وفى تأويل مختلفة . بيد أننى أرى أنه تأثر فى هذه الناحية (ناحية الحديث) بأستاذه الآخر ابن راهويه ، وبالامام ابن حنبل أكثر من تأثره بأى أستاذ آخر .

وكان أبو حاتم معنيا بالقراءات ، وهم يذكرون أن له مؤلفات فيها . وقد جرى تلميذه على سننه ، فعنى بالقراءات ، ووضع فيها الكتب كما يذكرون ، ولكن لم يصل الينا شىء منها .

وهكذا نرى أن ابن قتيبة كان — كأستاذه — عالما غزير

---

(١) طبقات المفسرين ص ٩٠ .

العلم ، ولم يقتصر على لون واحد من ألوان المعارف العربية . وامتاز عن أستاذه بوقوفه على كثير من الثقافات الأجنبية مما وسع فى أفقه وصقل ذهنيته .

اسحاق بن راهويه :

هو الامام أبو يعقوب اسحاق بن ابراهيم بن مخلد الحنظلى المروزى ثم النيسابورى الحافظ [1] من جلة أصحاب أحمد ابن حنبل [2] رضى الله عنه . وراهويه لقب أبيه أبى الحسن ابراهيم [3] . وقد ولد اسحاق بين سنتى ١٦١ و ١٦٦ هـ ، وتوفى فيما بين سنتى ٢٣٠ و ٢٣٨ هـ كما يذكر الرواة مختلفين [4] ، وكان من كبار المحدّثين ، وقد رحل بسبب الحديث الى الحجاز واليمن والشام ، وسمع من النضر بن شميل ، ومن سفيان ابن عيينة ، وممن فى طبقته . وروى كذلك عن الامام الشافعى رضى الله تعالى عنه . ويقول أحمد بن حنبل : « اسحاق عندنا امام

(١) شذرات الذهب ٢/٨٩ .

(٢) الفهرست ص ٢٣٠ .

(٣) وراهويه « بفتح الراء ، وبعدها هاء ساكنة ، ثم واو مفتوحة ، وبعدها ياء مثناة من تحتها ساكنة » . وقد سأل عبد الله ابن طاهر اسحاق عن هذا الاسم فقال ان اباه ولد فى الطريق فقالت المراوزه : راه « يعنى طريق » ، و « ويه » يعنى « وجد » . ومعنى ذلك « وجد فى الطريق » أى « ولد فى الطريق » . ثم يقول اسحاق : وكان ابى يكره هذا الاسم ، اما انا فلست أكرهه . الأنساب للسمعانى ص ٢٤٥ .

(٤) انظر وفيات الأعيان ١/٨٠ ، والأنساب ، والفهرست ، وطبقات الأدباء ص ٢٥٣ .

من أئمة المسلمين ، وما عبر الجسر أفقه من اسحاق » . وكان ذا حافظة قوية ساعدته على أن يعى فى ذاكرته عشرات الآلاف من الحديث . وكان شديد الورع والتقوى ، ويقول محمد بن أسلم : « ما أعلم أحدا كان أخشى لله من اسحاق »[1] . وكان — الى جانب ذلك — من أعلم الناس بتفسير آى الذكر الحكيم ، ويقول أحمد بن سلمة : « أملى علىّ اسحاق التفسير عن ظهر قلبه »[2] .

ولكون ابن راهويه أستاذ ابن قتيبة الأعظم فى الحديث يجدر بى أن أبين فضل هذا الرجل على الحديث وعلماء الحديث :

المعروف أن أبا جعفر المنصور أمر الامام مالك بن أنس بجمع كتابه الموطأ ، وهو أقدم كتاب فى الحديث والفقه وصل الينا . ومنذ ذلك العهد انصرفت همم أئمة المسلمين الى جمع الحديث وتدوينه ، حتى كان أنفس ما يتنافس فى معرفته العلماء . وقد نفقت سوق رجاله عند الخلفاء وأشراف الأمة ، فاندس بينهم كثير من أهل الضلالة والزندقة ، ووضعوا كثيرا من الأحاديث التى قبلها منهم بعض أهل الغفلة من طلاّب الحديث فشق ذلك على الخلفاء ، فحملوا عليهم حملة حازمة ، وزجّوا بهم فى أعماق السجون ، وأعملوا فيهم التقتيل حرصا على حديث النبى الكريم . وقد أكبّ الأئمة على تمحيص الصحيح من المصنوع ، فاقتفوا آثار الرواة جرحا وتعديلا ، ونظروا فى الأحاديث نقدا وتصحيحا ،

---

(١) شذرات الذهب ٢/ ٩٠

(٢) طبقات المفسرين ص ٤٤ .

ووضعوا لذلك متونا وكتبا خاصة ، ورتبوا أنواع الحديث مراتب مختلفة صحة وضعفا .

وكان على رأس من قام بهذا العمل الجليل الضخم اسحاق ابن راهويه . وقد أضاف الى ذلك فضلا آخر ، ذلك أنه أول من جرّد كتب الحديث من مسائل الفقه والتفسير ، وكانت قبل ممتزجة . ثم اشتهر بعده تلميذه شيخ المحدثين «محمد بن اسماعيل البخارى » ، فوضع باشارة منه كتابه الجامع الذى جمع فيه الصحاح فقط . وكانت الأحاديث قبل ذلك تجمع مختلطا صحيحها بضعيفها ، وتبعه فى ذلك مسلم بن الحجاج وهو ممن أخذوا عن اسحاق ، فكان صحيحاهما أصح الكتب بعد كتاب الله . ثم استدرك الأئمة بعدهما ما فاتهما من الصحيح ، ووضعوا فى ذلك كتبا كثيرة أجمع الناس على صحة الأربعة المشهورة منها .

ومن ذلك يتضح لنا أن اسحاق بن راهويه قد قدّم للحديث أكبر صنيع ، فانه قام بتنقيته من المدسوس عليه ، وجرده كذلك من مسائل الفقه بعد أن كان مختلطا بها . وقد نفخ فى تلاميذه من روحه ، فنبغ فيهم أعظم علماء الحديث وهم البخارى ومسلم والترمذى . ونستطيع أن نقول فى ثقة ان ابن قتيبة قد عنى بالحديث متأثرا بأستاذه اسحاق بن راهويه . ويشير ابن تيمية الى ذلك فيقول : « كان ابن قتيبة يميل الى مذهب أحمد واسحق ابن راهويه » (١) .

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

ولكن ابن قتيبة كان — مع ذلك — لا ينكر الرأى والقياس ، ويوجب الاجتهاد الذى لا يتعارض ومتواتر الحديث كما سنعرف فيما بعد .

على أن ابن راهويه نفسه قد اتصل بالشافعى ولازمه وأعجب به ، وأدى اعجابه هذا الى أن يعتنق مذهبه ، وهو المذهب الذى يتوسط مذهبى الرأى والحديث . فقد توسع الشافعى فى الاستدلال بالحديث أكثر مما فعل أبو حنيفة ، ولم ينكر القياس جملة .

ومن ذلك نعرف أن ابن قتيبة قد تأثر بأستاذه اسحاق أكبر تأثر . وأعظم مظاهر هذا التأثر عنايته بالحديث واتباع مذهبه الفقهى ، ولو أن اشتغاله بالحديث كان ذا طابع أدبى جدلى ، وسنبين ذلك فى فصل خاص .

وتأثر ابن قتيبة كذلك بأستاذه اسحاق من ناحية اشتغاله بتفسير القرآن ، فليس من شك فى أنه قد وعى عنه تفسير آى الذكر الحكيم . ومن مظاهر ذلك مؤلفاته فى التفسير التى لم يصل الينا منها الا كتابا غريب القرآن ومشكل القرآن .

وهنالك أمر يجب ألا نغفله ، وهو اقتداء ابن قتيبة بأستاذه الجليل الورع فى السلوك . واليه يرجع ما كان يتصف به ابن قتيبة من الجد والتوقر الى حد التزمت . واذن فقد بث اسحاق كثيرا من سجاياه فى تلميذه ، فنشأ على خلائقه ، كما سار على منواله فى مذهبه .

وكان التلميذ يلتقى بأستاذه فى نيسابور ، كما كان يلتقى به فى بغداد كذلك وكانت منتجع كل قاصد من العلماء والأدباء فى ذلك الحين .

ونستطيع أن نقول بعد ذلك ان ابن قتيبة قد أخذ عن أستاذه أبى حاتم السجستانى علوم العربية ، كما أخذ عن أستاذه ابن راهويه علوم الدين .

الباب الثالث

آثار ابن قُتَيْبة

الفصل الأول

ابن قتيبة المؤلف

كان ابن قتيبة من خير النماذج التى تمثل ثقافة ذلك العصر أصدق تمثيل . فقد ألمّ خير المام بألوان الثقافة العربية ، ووقف وقوفا طيبا على بعض الثقافات الأجنبية التى ظهرت فى محيط الفكر العربى آنذاك . ويقول المستشرق الفرنسى الأستاذ « جود فروى ديموموبين Gaudfroy Demombynes» فى مقدمته للترجمة الفرنسية التى وضعها لمقدمة كتاب الشعر والشعراء [1] : « يعتبر ابن قتيبة مثلا للرجل المثقف الذى يمثل ثقافة عصره فى العصور الوسطى ، سواء فى الشرق أو فى الغرب » . ويقول الأستاذ « بروكلمان Brocklman » فى دائرة المعارف الاسلامية : « الواقع أن مصنفات ابن قتيبة قد تناولت جميع معارف عصره » . ومصداق ذلك أننا نراه قد ألف فى جميع الفنون العربية التى كانت معروفة فى زمنه كما سنعرف .

وكان ابن قتيبة ذا عقلية منظمة مصقولة ، ولذلك جاءت كتبه

---

(١) قابلت هذا الرجل فى مدرسة اللغات الشرقية فى باريس ، واهدى الى نسخة من كتابه هذا ، واسمه بالفرنسية :

Introduction au livre de la poésie et des poétes.

وليدة هذا الفكر المنسق . فقد كان التأليف الأدبى ساذجا لا يعنى فيه الا بالاختيار ؛ فمسألة من هنا ومسألة من هناك ، واستطراد لا ضابط له ، ومسائل من واد واحد مفرقة فى الكتاب ، ومسائل مجتمعة لا تنضوى تحت موضوع واحد ، وذلك ملحوظ فى كتب « البيان والتبيين ، والحيوان ، والكامل » . فاذا تناولت كتاب « الحيوان » أحسست أنه يمثل فوضى التأليف ؛ فهو حين يتكلم عن الكلب والديك ، وحين يعرض للمفاضلة بينهما ، وما يحتج به صاحب كل منهما .. يخرج عن ذلك كله الى موضوعات لا تخطر على بال . فنراه فى أثناء ذلك يسوق كلاما فى الامامة والشيعة ، وفى الشعر وأثره فى القبيلة ، واعتزاز العرب بالشاعر .. وهكذا ، وكذلك الحال فى البيان والتبيين والكامل .

ولكن الأمر يختلف فى « عيون الأخبار » مثلا ، ففيه تشعر بأن كتب المختارات الأدبية قد خطت خطوات واسعات نحو التوقل والكمال على يد ابن قتيبة .. وذلك أنه رتب المختارات وبوبها وجمع ما تشابه منها تحت عنوان واحد ، مثل : كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء .. الخ ، وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته فى غير عناء . وهو حين يتناول الموضوع يستقصيه استقصاء شاملا ؛ فاذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار عماله وكتابه وبطانته ، وغير ذلك ، موردا فى ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم والشعر الرائع والنادرة اللطيفة والفكاهة البارعة .. كل ذلك فى تنسيق بديع ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن

يرشح لها باستطراد مناسب ليس كاستطراد الجاحظ ، بل يمضى فى الموضوع الذى يتناوله الى أن يوفيه حقه ، ثم ينتقل الى غيره .

ويرجع هذا التنظيم الذى نراه فى كتب ابن قتيبة — فيما أرى — الى المامه باللغة الفارسية ووقوفه على مؤلفات الفرس التى كانت — من غير شك — نتاج عقول متحضرة تعاقبت عليها أحقاب طويلة . ولهذا السبب نفسه يرجع تنظيم التأليف عند عبد الله بن المقفع فى الأدب الصغير والأدب الكبير ، وكليلة ودمنة . أضف الى ذلك أن ابن قتيبة اطلع على مؤلفات غيره ، فأزعجه ما فيها من خلط وفوضى ، فاحترز من ذلك فى كتبه .

ومما ساعد ابن قتيبة على تركيز التأليف أنه كان يضع كتبه بقصد افادة المتأدبين ، فكان يعرف حاجتهم الى ألوان من المعرفة يجهلونها مع ضرورتها ، أو يعرفونها معرفة ناقصة خاطئة . ولهذا كان يوجه عنايته الى وضع كتب فى موضوعات بعينها فى الغالب حتى يسهل على الناس ادراك بغيتهم منها . ويشير الأستاذ « نيكلسون Nichlson » الى ذلك فيقول : « ان كتب ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيمة المنظمة التى تتناول موضوعات بذاتها » [1] . والرواة يشيرون الى أنه « أحسن العلماء ترصيفا وأجودهم تصنيفا » [2] .

---

(١) A literary history of the Arabs. p 364

(٢) مجلة المنار ج ٨ مجلد ٩ ص ٥٤٨ عن كتاب « التحديث بمناقب أهل الحديث » .

وقد ألف ابن قتيبة فى فنون متنوعة مختلفة . وكلهم يشيرون الى أن كتبه قيمة معروفة لدى الناس جميعا . وبلغ من تقدير الناس لكتبه أن قال العالم الجليل ابن تيمية : كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه » [1] .

وكان أهل المغرب والأندلس يقدرون كتبه تقديرا عظيما ويعنون بدراستها ، ويذكر العالم الأندلسى « أبو بكر محمد ابن خير الاشبيلى » بعض كتب ابن قتيبة التى كانت متداولة فى بلاده ، وهى : الأنواء ، والمعارف ، والشعر ، والشعراء ، والمسائل ، وعيون الأخبار ، ومعانى الشعر ، والميسر ، والقداح [2] . وهذه الكتب من خير ما أُلّف فى الثقافة العربية فى بابها . وكان أهل المغرب يحلّون ابن قتيبة ومؤلفاته من نفوسهم أسمى محل ، ويكفّرون من يثلمه [3] .

وهم يصفونه بكثرة المؤلفات ، ويذكر بعضهم أنه ألف ما يقرب من ثلثمائة كتاب فى شتى أنواع المعارف العربية . وهذا أمر مبالغ فيه ، ولكنه يشير الى كثرة مؤلفاته . ونحن نقول — والأسف يكلم الفؤاد — انه لم يبق لنا من هذه المؤلفات الا نزر يسير لا يتجاوز بضعة عشر كتابا . وانه لمن المؤلم حقا أن تمتد يد البلى الآثمة الى مؤلفات له وضعت فى علم بعينه فمحتها وأتت عليها . فنحن لم نظفر له مثلا بأى مصنف له فى النحو ، مع

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .
(٢) فهرسة ابن خير ص ٣٧٧ .
(٣) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

أنهم يذكرون له أكثر من مؤلف فى هذا العلم . ولهذا نجد شيئا كبيرا من العسر فى معرفة آرائه النحوية . والذى يحيرنى أنهم يصفونه بالنحوى ، ويذكرون أنه خلط بين المذهبين ، ولا نعرف له فى هذا الباب الا آراء متناثرة فيما بقى من مؤلفاته لا تغنى شيئا .

ويجب أن أشير هنا الى أن عددا كبيرا من الكتب قد نسب بغير حق الى ابن قتيبة ، وذلك أنه كانت تطلق عدة أسماء على الكتاب الواحد ، ويختلط الأمر على بعض الناس فيظنون ان كل اسم منها لكتاب معين . فمثلا يطلق على كتاب « العرب » هذه الأسماء فى مصادر مختلفة : « ذم الحسد [1] ، والرد على الشعوبية وتفضيل العرب [2] ، والتسوية بين العرب والعجم [3] ، وتفضيل العرب على العجم » [4] . وكذلك لكل من كتاب « الشعر والشعراء ، وتأويل مختلف الحديث ، والمعارف ، وأدب الكاتب ، والمعانى الكبير » أكثر من اسم .

وابن قتيبة — الى جانب نهوضه بالتأليف — يعتبر من أوائل المؤلفين الذين عنوا بوضع مقدمة لكل مؤلف من مؤلفاتهم تبين الغرض منه والدافع الى تأليفه .

---

(١) كتاب العرب فى رسائل البلغاء .

(٢) العقد الفريد ٧٢/٢ طبع المطبعة الأزهرية .

(٣) الفهرست ص ٧٨ .

(٤) الآثار الباقية عن القرون الخالية للبيرونى ص ٢٢١ (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة) .

وكتب ابن قتيبة قسمان :

١ — قسم نقلى ، وهو ما ليس له فيه من فضل الا الجمع والتبويب والتنسيق ، مثل كتابى « عيون الأخبار ، والمعارف » . وهذا القسم لا تتجلى فيه شخصيته بصورة واضحة .

٢ — قسم وضعى ، وهو ما كانت مادته من لدنه ، وهذا النوع قسمان :

(أ) ما يستمد مادته من عقليته التى لها منحى خاص فى التفكير والحجاج . وفى هذا النوع يدرك الانسان مدى فطنته ولون منطقه وسعة أفقه ، كالكتب التى ألفها فى الرد على أعداء أهل الحديث وعلى الشعوبية . ومن أمثلة ذلك كتب « تأويل مختلف الحديث ، والاختلاف فى اللفظ والرد على المشبهة والجهمية ، وكتاب العرب ، ومقدمة الشعر والشعراء » . ويمكن أن يلحق بهذا القسم « كتاب الأشربة » . وهذا النوع يصح أن نسميه « ذا المادة الداخلية » . أعنى أن مادته من وضعه .

(ب) ما يستمد مادته من « القسم النقلى » ، ولكنه يعرضه فى أسلوبه الخاص ، ويزفه فى أثواب من صناعته ، ويشفعه ببعض آرائه فى الغالب . ومن أمثلة ذلك كتاب « الشعر والشعراء » وكتاب « الميسر والقداح » وكتاب « الأنواء » ، ويصح أن نطلق على هذا اللون « ذا المادة الخارجية » .

ومن العسير جدا أن نرتب هذه الكتب ترتيبا زمنيا مقترنا بأطوار حياة ابن قتيبة لأسباب ثلاثة هى :

١ — أننا نجهل حياته كل الجهل كما عرفنا فى فصل سابق ؛ فلا نستطيع أن ندرك مسايرة مؤلفاته لها .

٢ — ان كتبه التى تعتمد على عقليته الخاصة تكاد تكون فى مستوى واحد .

٣ — انه لم يشر الى أى شىء من ذلك فى لفظ صريح يمكن الاعتماد عليه فى أى كتاب من كتبه . بل انه لم يشر الى الكتب التى ألفها فى مدينة « الدينور » أثناء اشتغاله بالقضاء فيها .

ولكننا سنحاول جهد طاقتنا أن نرتب هذه الكتب ، معتمدين على اشارات يسيرة وردت فى ثناياها تدفعنا الى شىء من الترجيح بعيد عن مرتبة القطع والجزم . وتلك هى الوسيلة الوحيدة التى رأيناها صالحة لترتيب مؤلفاته ترتيبا زمنيا بقدر الامكان .

الفصل الثانى

كتب ابن قتيبة

والآن نسوق هذه الكتب مرتبة ترتيبا زمنيا حسب ما داخلنا من الترجيح ، موردين نبذة يسيرة عن كل كتاب بقدر ما يتسع له المقام :

١ — كتاب الأنواء : نرجح أن هــذا الكتاب أسبق كتب ابن قتيبة التى وصلت الينا ، لأنه لم يشر فيه الى واحد من كتبه الأخرى ، وقد أشار اليه فى « كتاب المعانى الكبير » الذى يعتبر من أوائل مؤلفاته [١] . وقد ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة ، وهو مطبوع بحيدر أباد بالهند ، وله نسخة خطية بالخزانة الزكية أخذت لها صورة شمسية « رقم ١٠٨٠ ميقات » بدار الكتب [٢] .

وهذا الكتاب يقفنا على علم الميقات من وجهة نظر العرب . وقد اتبع فيه طريقة استنباطية علمية . فقد جمع أسجاع البــدو المنتشرة ، التى تتضمن تنبؤاتهم الفلكية والجوية ، واستخلص منها قواعدهم العــامة . وكان يشفع هذا الاستنباط بالاستيثاق من

(١) كتاب المعانى الكبير ص ٣٧٥ ، ٧٣٨ طبعة حيدر اباد .
(٢) وهذه المخطوطة هى التى اعتمدت عليها .

أعراب البدو الذين يتطمأن الى صدق معلوماتهم .. فمثلا يقول ساجع العرب : « اذا طلع الغفر اقشعر السفر ، وتزيل النضر ، وحسن فى العين الجمر » (١) .

وهذه العبارة وأمثالها سجلت تنيجة للملاحظات المتكررة للظواهر الجوية والفلكية . ونحن فى ريفنا المصرى نشاهد الفلاحين يضعون لكل شهر من الشهور القبطية جملة تشير الى معنى من المعانى التى استنبطت بالملاحظة ، وهى كثيرة نذكر منها هــذه العبارات كما ينطقها أهل الريف باللغة العامية : « طوبة تخلّى الصبية كركوبة ، أمشير يخلّى جلد العجوز عالفرش حصير ، فى كياك « كيهك » تقوم من جنبك تحضّر عشاك » .. وغير ذلك من الأمثلة الكثيرة التى لا يتسع المقام لذكرها .

وللكتاب قيمة خاصة تظهر فى شرح بعض الألفاظ والتعبيرات الفلكية التى وردت فى القرآن والحديث والشعر .

وقد تناول ابن قتيبة فيه منازل القمر والأنواء والفرق بين يمانيها وشاميها ، والسحب ، الممطر منها والمخلف ، والبروق ، الخلّب منها والصادق ، وأمارات خصب الزمان وجدوبته ، ومساقط النجوم ، ومواقع الكواكب وأثرها فى عصمة الانسان من الضلال فى المهامه والبيد . وتحدث عن الأزمنة وتحديد أوقاتها

---

(١) كتاب الأنواء ص ٣١ .

الغفر : بفتح الغين منزل للقمر ثلاثة أنجم صغار ، ولا يكون الا فى الشتاء حيث يشتد البرد . تزيل النضر : زالت نضــارة الأشجار .

عند العرب ، ونجومها ، والفصول ، وأسماء الكواكب المنسوبة الى الثريا ، والعَيّوق ، والشمس ، والقمر ، والقطب ، والمجرة ، والرياح وأنواعها وتحديد مهابها .. وغير ذلك من المعلومات الجمة التى تنبىء عن دقة الملاحظة عند العرب . وهو لا ينسى أن يبين فضل العرب فى هذه الناحية ، فيقول فى المقدمة : « وكان غرضى فى جميع ما أنبأت به الاقتصار على ما تعرف العرب فى ذلك وتستعمله دون ما يدعيه المنسوبون الى الفلسفة من الأعاجم ، ودون ما يدعيه أصحاب الحساب ، فانى رأيت علم العرب هو العلم الظاهر للعيان ، الصادق عند الامتحان ، النافع لنازل البر وراكب البحر وابن السبيل » .

ويذكر ابن قتيبة أنه صحب أعرابيا فى فلاة ، فأخذ يسأله عن محال العرب ، والأعرابى يدله على كل محلّة بنجم يسميه ويعيّن موضعه فى دقة تامة تدعو الى الاعجاب . وهذا يدل على أن ابن قتيبة كان يستقى معلوماته من مناهلها الحقة .

وقد اعتبره بعض المستشرقين من كبار علماء الفلك ، وعلى رأسهم الأستاذ « ادوارد براون E. Browne » فى كتابه « تاريخ الأدب الفارسى » (١) . وساعدهم على هذا الاعتقاد وجود نسخة من كتاب الأنواء فى مكتبة « أكسفورد » تحمل اسم « علم الفلك » . ولو نظروا الى مادة الكتاب لأدركوا أنه لا يمكن أن يعتبر كتابا فى علم الفلك بالمعنى المعروف . فهو لا يعدو أن

---

(١) Literasy History of Persia . p. 276

يكون معلومات عرفها العرب من خبرتهم العملية الطويلة ، تكفى حاجتهم فى الحل والترحال ، وقد استخلصها ابن قتيبة من أسجاع العرب وما أثر من أقوالهم كما يصرح هو بذلك . ولهذا لا يعتبر ابن قتيبة — فى نظرى — من علماء الفلك .

٢ — كتاب المعانى الكبير : ذكره معظم من ترجموا لابن قتيبة . وقد تم طبعه منذ بضع سنين بمطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية بحيدر أباد بالهند ، بتحقيق عبد الرحمن ابن يحيى اليمانى المصحح بدائرة المعارف .

ويرجع الفضل فى نشر هذا الكتاب الى المستشرق الدكتور « كرنكو Krinkau » ، فقد حصل على نسخة مأخوذة بالتصوير الشمسى لجزء منه موجود فى خزانة « أيا صوفيا باستنبول » ، ووجد الجزء الآخر بمكتب الهند بالقسم العربى بلندن . وقد نسخ هذين الجزأين بخط يده ، وبذل غاية الجهد فى تصحيحهما ، واضطر الى أن يقلّب كثيرا من المعاجم اللغوية ودواوين الشعراء كما يقول المحقق . وقد أشار الدكتور «كرنكو» الى أن الجزأين بخط واحد ، مما جعله يرجح أنهما كانا نسخة واحدة فرقت بينهما يد الزمان ، وأنهما كتبا فى القرن السادس أو السابع الهجرى . وذكر أنه وجد فى الأصل كثيرا من الخطأ والتصحيف ، فأنفق وقتا طويلا فى تصحيح هذا الأصل السقيم ، وبخاصة الأشعار . ثم أكمل هذا العمل المضنى بوضع فهارس قيمة متنوعة .

وهذا الكتاب من أضخم كتب ابن قتيبة وأجزلها فائدة .

وأغلب الظن أنه لم يكن هناك غرض خاص يتعلق بتأليفه سوى افادة كل ناشد للعلم .

ولا شك أن هذه النسخة التى بأيدينا ناقصة من أولها ، ومن آخرها . أما نقصها من أولها فيتضح من خلو الكتاب من المقدمة ، وليس هذا شأن ابن قتيبة ، فلا يخلو كتاب من كتبه من مقدمة قيمة تبين غرضه من تأليفه والدافع اليه . هذا الى أن الكتاب مبدوء بشرح أبيات فى وصف سرعة الجواد ولا عنوان لها .

وأما نقصها من آخرها فقد أشار الناشر نفسه الى ذلك ، ورجا كل ناطق بالضاد أن يبادر بالاتصال بدائرة المعارف العثمانية اذا وجد الجزء الباقى ليكمل طبع الكتاب . والكتاب نفسه يشعرك فى غير لبس بأنه ناقص ، فقد ختم بهذه العبارة « ثم ابتدأ فقال » ولم يذكر المقول .

وهذا الكتاب من بواكير مؤلفات ابن قتيبة ، لأنه لم يشر فيه الا الى كتاب « الأنواء » السابق الذكر ، والى كتاب الابل وهو مفقود . وقد أورد فيه شعرا كثيرا فى الميسر ، ولم يشر الى الكتاب الذى ألفه خاصة فى هذا الموضوع ، وهو كتاب « الميسر والقداح » . وهذا يدل على أن كتاب المعانى ألف قبل كتاب الميسر .

وكتاب المعانى الكبير كتاب أدب وشعر ولغة ، وكله شرح لنصوص شعرية ، وفى ثنايا هذا الشرح يسوق شواهد شعرية كثيرة .

وهذا الكتاب من أوضح كتب ابن قتيبة دلالة على تبحره فى اللغة تبحرا قلما أتيح لغيره من علماء عصره .

ومن الأمور التى تسترعى النظر أنه لم يتوخ الا الأشعار المعنة فى الغرابة ، والتى تبدو لقارئها وكأنها سجل لطوائف من الألفاظ الغراب . ولعلهم كانوا يقصدون من اسم « أبيات المعانى » مدلولا يرمى الى غرابتها ، ويدلنا على ذلك قول السيوطى فى كتاب « المزهر » فى فصل الألغاز « .. وأبيات لم تقصد العرب الالغاز بها ، وانما قالتها فصادف أن تكون ألغازا ، وهى نوعان ، فانها تارة يقع الألغاز بها من حيث معانيها ، وأكثر أبيات المعانى من هذا النوع ، وقد ألف ابن قتيبة فى هذا النوع مجلدا حسنا ، وكذلك ألف غيره . وانما سموا هذا النوع « أبيات المعانى » لأنها تحتاج الى أن يسأل عن معانيها » (1) .

ومن تدبر أبيات المعاني بان له أن خفاء معانيها يرجع غالبا الى وحشى ألفاظها وبعد مأخذها .

والكتاب كله مادة مصمتة ليس فيه حكمة ولا مثل ولا نادرة ولا خبر . وانما هو أبيات من عويص الشعر فى موضوعات خاصة منسقة ، تناولها ابن قتيبة بالشرح القيم المستفيض .

والكتاب الذى وصل الينا يشتمل على كتاب الخيل ، وكتاب السباع ، وكتاب الطعام والضيافة ، وكتاب الذباب ، وكتاب الوعيد والبيان ، وكتاب الحرب ، وكتاب الميسر ، ومتفرقات فى

---

(1) المزهر ١/٢٧٥ .

وصف الشعر والشعراء ، والتطير والفأل ، ووصف الآثار ، والآداب ، ومكارم الأخلاق .

وقد أورد ابن قتيبة الأشعار التي قيلت فى هذه الأبواب كلها ، وقسم لكل كتاب منها الى أقسام مفصلة فى ترتيب بديع ، وتناولها بالشرح المفصل .

وغزارة مادة الكتاب تدفعنا الى القول بأنه يضم بين دفتيه كثيرا من الكتب التى تنسب الى ابن قتيبة ، على اعتبار أنها كتب مستقلة . وقد يزيد هذا القول يقينا عثورنا على الجزء الناقص منه .

وكتاب المعانى الكبير ذخيرة أدبية عظيمة ، ولعلنا ندرك قيمته اذا عرفنا أن جميع المؤلفات التى وضعت فى « المعانى » قد فقدت ، ولم يصل الينا منها الا كتاب أبى عثمان الأشناندانى . وقد تصفحت هذا الكتاب — واسمه معانى الشعر — فوجدته ليس شيئا بجانب كتاب ابن قتيبة .

٣ ، ٤ — كتابا مشكل القرآن ، وغريب القرآن : ذكر هذين الكتابين الكثرة الكاثرة ممن ترجموا لابن قتيبة . ويغلب على ظنى أن ابن قتيبة ألفهما فى آن واحد ، لأن كلا منهما يشير الى الآخر فى مواطن متفرقة . وهذا — مع تشابه مادتيهما واتفاق منهجيهما — ما جعلنا نتحدث عنهما معا .

ويبدو لى من مادتهما أنه وضعهما فى الأطوار الأولى من حياته . وأنا أرجح أنهما أسبق من كتاب « الميسر والقداح » الذى يعتبر من أوائل مؤلفاته . ودليلى على ذلك أنه حين يتحدث

فى « الغريب » عن الميسر فى آية البقرة لم يشر الى هذا الكتاب . وهما أسبق من « أدب الكاتب » لأنه أشار فيه الى « مشكل القرآن » .

وكتاب « المشكل » مطبوع [1] ، أما « الغريب » فقد قرأت صورة شمسية له مأخوذة من نسخة خطية موجودة فى مكتبة المرحوم الشيخ عثمان القارىء بالطائف .

والمتصفح للكتابين يجد أنهما لا يخرجان عن كونهما نوعا من التفسير لبعض آى الذكر الحكيم . وأنت لا تستطيع أن تميز — من حيث المنهج والمادة — بين المشكل والغريب . فالذى يفهم من لفظ « الغريب » أنه يتناول الألفاظ التى لا يستطاع فهمها فى يسر ، ولكن ابن قتيبة يتعرض فى كثير من الأحيان لألفاظ وعبارات لا يدق فهمها على أبسط العقول .

وأى عسر يجده المرء فى فهم قوله تعالى « وأنتم تعلمون » أى تعقلون ؟ ومع سهولة هذه الجملة ذكرها ابن قتيبة فى « الغريب » . وكذلك « التى وقودها » و « جنات » وغير ذلك من الألفاظ والعبارات السهلة التى لا غرابة فيها .

الا أن كتاب « المشكل » يتناول بعض المباحث القيمة كالمتناقض ، والمتشابه من القرآن ، والمقلوب ، والحذف ، والاختصار ، وتكرار الكلام ، والزيادة فيه ، ومخالفة ظاهر اللفظ معناه ، واللفظ الواحد للمعانى المختلفة .. وما شابه ذلك .

---

(١) قام بتحقيقه الأستاذ سيد أحمد صقر .

ولهذا كان أعظم قيمة من « الغريب » ، لأن المسائل التي يتعرض لها من أجزل المباحث فائدة .

والواقع أن كتاب « الغريب » ليس له من اسمه نصيب ، فكثيرا ما يترك الألفاظ الصعبة ، ويتعرض للواضح السهل .

ومهما يكن من شيء فلا تستطيع أن تلمس في كلا الكتابين شخصية للمؤلف ذات طابع خاص أكثر من أنه عالم لغوي غزير المادة .

وقد جمع الكتابين في كتاب واحد الامام محمد بن أحمد ابن مطرف الكناني الأندلسي ، أحد قراء الأندلس المتوفى سنة ٤٥٤ هـ ، وسماه « القرطين » ، وجعله في جزأين . وغرضه من ذلك أن يجمع الفائدة بين الكتابين ، كما يقول . وقد وضع ما ورد في « المشكل » مع ما ورد في « الغريب » عن الآية الواحدة أو الجملة الواحدة من القرآن الكريم ، ورمز للغريب بحرف « غ » ، وللمشكل بحرف « ش » ، وجعل كلا من الرمزين بين قوسين . وتناول الكتابين بشيء من التغيير اليسير ليتسنى له ضمهما ، وكتاب « القرطين » مطبوع .

٥ — كتاب تأويل مختلف الحديث : ذكره جماعة ممن ترجموا لابن قتيبة باسم « مختلف الحديث » وذكره آخرون باسم « اختلاف تأويل الحديث » . وتوجد منه نسخة خطية بدار الكتب ضمن مجموعة عنوانها « الرد على من قال بتناقض الحديث » . ولكن الاسم الأول أشهر هذه الأسماء .

وأنا أرجح أنه ألف بعد كتاب « مشكل القرآن » لأنه أشار

اليه فيه [1] . وقد ألفه ابن قتيبة حين رأى أهل الكلام يمعنون فى ثلب أهل الحديث .وقد عز على أحد أنصار أهل الحديث هذا التحامل من المتكلمين ، فكتب الى ابن قتيبة — وهو شيخ أهل السنة — يستنهضه للرد على أهل الكلام ، فوضع هذا الكتاب . وقد أحزنه أن يجعل هذا الخلاف بأس المسلمين بينهم شديدا ، فينقسموا شيعا يتسابّون ويشتجرون . يقول ابن قتيبة فى المقدمة : « فانك كتبت الىّ تعلمنى ما وقفت عليه من ثلب أهل الكلام أهل الحديث ، وامتهانهم ، واسهابهم فى الكتب بذمهم ، ورميهم بحمل الكذب ورواية المتناقض ، حتى وقع الاختلاف ، وكثرت النحل ،وتقطعت العصم ، وتعادى المسلمون ، وأكفر بعضهم بعضا .. الخ » . وقد يفهم من هذا النص كذلك أن هذه الشيع نشأت بسبب ما يرويه أهل الحديث من التناقض ، على حد قول أهل الكلام ، فاعتصمت كل شيعة بما روى من الحديث الذى يناسب هواها .

وقد أراد ابن قتيبة من تصنيف هذا الكتاب — الى جانب الرد على أهل الكلام — تصحيح الأحاديث التى ادعى عليها المتكلمون التناقض . ولهذا جاء الكتاب وافيا بحاجة كل من يرغب فى الوقوف على التوفيق بين الأحاديث المتناقضة . وقد بذل ابن قتيبة فيه جهدا مشكورا ينبىء عن ثقافة دينية واسعة ، وتظهر فيه شخصيته ومنطقه كل الظهور . وقد آثرت أن أعرض لذلك فى

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٣ .

افاضة أثناء الحديث عن موقفه من أهل الرأى وأهل الكلام .
والكتاب مطبوع .

٦ — كتاب الميسر والقداح : ذكر هذا الكتاب معظم مترجمى ابن قتيبة ، ويظهر لى أنه ألفه هو وكتاب « الأشربة » فى وقت واحد ، لأنه يشير فى كل منهما الى الآخر [١] . وهذا ما يرجح عندى أنه ألفهما فى آن واحد ، فضلا عن أن الآية الكريمة تنظمهما فى عقد واحد « ويسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما اثم كبير ومنافع للناس .. الآية » . وقد بين ابن قتيبة حقا اثم كل منهما ومنافعه فى بيان واضح مفصل .

ويبدو لى أن ابن قتيبة ليس أول من ألف فى الميسر والقداح ، فقد ذكر أبو الفدا — وهو يسرد كتب الأصمعى — كتابا له بهذا الاسم [٢] ، ولكنه لم يصل الينا . ومن الجائز أن يكون ابن قتيبة قد استأنس به فى تأليف كتابه هذا .

وقد صنفه ابن قتيبة اجابة لرغبة أحد مريديه الذى أبدى له حاجته فى معرفة أمر الميسر والقداح عند العرب ، وهذا يتضح من مقدمة الكتاب .

ولقد نهج ابن قتيبة فى تأليفه منهجا علميا أشبه بالبحوث العلمية التى تصنف اليوم . فهو يستقرىء ما قيل فى القداح والميسر عند العرب ، ثم يصور من تلك النصوص هذه الناحية الاجتماعية البارزة فى تاريخ العرب قبل الاسلام ، وقد أشار

---

(١) مقدمة الميسر والقداح ، كتاب الأشربة ص ٧٢ .
(٢) تاريخ أبى الفدا ٢/٣٢ .

ابن قتيبة الى منهج بحثه فى مقدمة الكتاب ، فقال : « ولم أجد السبب الى ما التمسته الا جمع الأبيات فى الميسر وتدبرها والاستدلال على كيفيته باعتبارها ، ففعلت ذلك ، وأودعت كتابى هذا منه ما أدى اليه النظر ودل عليه الاستخراج » .

وتاريخ الميسر والقداح يعتبر جزءا هاما من تاريخ العرب الاجتماعى قبل الاسلام . وهذا الكتاب يجليه لنا ويعيننا على فهم الآيات الكريمة التى تشير الى هذه المسألة . وقد أشار ابن قتيبة الى ما لاقاه من المشقة فى وضع هذا الكتاب ، وذلك لأن ما ورد من شعر العرب فى هذا الباب قليل جدا — كما يقول — بالقياس الى ما ورد فى الخيل والناقة والظباء والقطا ، وبعضهم لم يجر له على لسان .

وقد سلك ابن قتيبة فى الكتاب مسلكا منطقيا ، فبدأه بتعريف الميسر والياسر ، ثم انتقل الى الاستقسام بالأزلام ، وعرفه ، وهو يشبه القرعة التى أجازها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وقد جاء فى صحيح البخارى أن عائشة رضى الله عنها قالت « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم اذا أراد سفرا أقرع بين أزواجه ، فأيهن خرج سهمها خرج بها رسول الله صلى الله عليه وسلم » (١) . وبعد ذلك تحدث عن نفع الميسر ، مفسرا الآية الكريمة ، فبين أن الناس كانوا ابان الشتاء عند جدب الزمان وشدته يتقامرون بالقداح على الابل ، ثم يجعلون لحومها لذوى الحاجة منهم ، فيخصب

(١) انظر صحيح البخارى ١٠١/٢ (وبهامشه شرح السندى) طبعة بولاق .

الناس ويستريشون ، ولذلك كان العرب يمدحون بأخذ القداح ويسبّون بتركها . ثم تناول أسماء القداح ؛ وهى سبعة ذوات حظوظ ، وثلاثة لا حظوظ لها وتسمى « الأغفال » . وتحدث عن الافاضة ، وهى ارسال القداح ، وذكر المفيض ويسمونه « الحُرضة » ، وبيّن عمله بتفصيل ، ولابد من رقيب يراقبه حتى لا يختل أو يخون .

وصفوة القول أن ابن قتيبة لم يترك شاردة تتصل بالقداح من قريب أو بعيد الا أشار اليها . ولهذا كان كتابه خير مرجع لهذه الظاهرة الاجتماعية التى كانت فاشية عند العرب فى الجاهلية .

وهو مطبوع .

٧ ـ كتاب الأشربة : ذكره سواد من ترجموا لابن قتيبة ، وقد نقل ابن عبد ربه قدرا كبيرا منه أثناء كلامه عن الطعام والشراب فى كتابه « العقد الفريد » (١) . ويشير اليه ابن قتيبة فى بعض كتبه بهذا الاسم أحيانا ، وأحيانا أخرى باسم « كتاب الشراب » (٢) .

وقد كان هذا الكتاب فى طى النسيان مع ما طوى من آثار السلف حتى جاء المستشرق الفرنسى « أرتوركى Artourki » فنشر قسما منه فى المجلد الثانى من مجلة « المقتبس » فى عدد ربيع الثانى سنة ١٣٢٥ هـ « مايو سنة ١٩٠٧ » تحت عنوان « صحف منسية » . ثم جاء العالم الجليل المرحوم الأستاذ محمد

---

(١) العقد الفريد ٤٠٩/٣ طبعة بولاق .

(٢) انظر الشعر والشعراء ص ١٣٨ تحقيق شاكر ، وعيون الأخبار ٣٢٥/١ طبعة دار الكتب .

كرد على ، ونشر هذا الكتاب القيم فى سنة ١٣٦٦هـ «سنة ١٩٤٧» م بعد تحقيق ومقارنات بين المخطوطات التى عثر عليها كما يقول . ولكن الطبعة — مع هذا — جاءت مليئة بالأخطاء ، بعضها مطبعى ، وبعضها خفى على الأستاذ الناشر ، مما حدا ببعض النقاد الى أن ينشر الكثير من هذه المآخذ فى مقالات نشرت تباعا بمجلة الرسالة عام ١٩٥٠ . وتوجد نسخة خطية من هذا الكتاب ضمن مجموعة بدار الكتب .

وأنا أرجح أن هذا الكتاب ألف قبل الشعر والشعراء وقبل عيون الأخبار ، لأنه أشار اليه فى كل منهما . ويرى البعض — ومنهم بروكلمان فى دائرة المعارف — أنه جزء من عيون الأخبار ، ولكنى أعتقد أنه كتاب مستقل ، لأن منهجه يخالف كل المخالفة منهج عيون الأخبار ؛ فالأول منهجه فقهى تحقيقى ، والثانى أخبار وحكم وأشعار وملح .

والمتصفح لكتاب الأشربة يجده مزيجا من الأدب والفقه ، ولهذا جاء لطيفا ، خفيف المحمل ، سهل التناول ، نائيا عن الجفاف الذى نحسه فى كتب الفقهاء . وكانت مسألة الأشربة قد شغلت أمناء الشرع ، وانقسم المشرعون بين مُحلّ ومحرّم للأنبذة ؛ كل منهما يفتى بمبلغ علمه وما وصل اليه من نصوص الكتاب والسنة . وقد سجل ابن قتيبة رأيه مستندا الى أقوال الأئمة ، فجاءت فتواه مدعومة بالأدلة الشرعية والمنطقية ، ومعروضة باخلاص ونزاهة يبرئانها من تحامل الفقهاء وتعصبهم .

والكتاب سفر طريف مملوء بالأخبار والأشعار المستطرفة التي ربما لا يستسيغها العرف الخلقى اليوم

وهذا الكتاب من أدلّ كتب ابن قتيبة على عقليته . فقد نهج فيه منهجا يدل على ثقته بعقله وقوة منطقه ؛ ذكر أولا حجج المحلين، وأردفها بما قاله الشعراء المعاقرون للخمر ، ولم يتحرج عن ايراد الأشعار الخمرية التى تغمز الدين، وتجهر بعصيان الله ، وتزين معاقرة الصهباء ، من أمثال أشعار مجان الشعراء كالوليد بن يزيد وأبى نواس ودعبل وأبى الشيص وصريع الغوانى والحمّادين والوليد بن عقبة الذى صلى بالناس وهو مخمور فحدّ وعزل . ثم ذكر بعد ذلك حجج المحرمين والأشعار التى قيلت فى ذمها وتقبيحها ، واستلابها للعقول ، ومجانبة شاربيها لدين الله الحنيف ، وما تجره عليهم من المهانة والسخرية ، ثم بين ما ينتظرهم من العذاب الأليم فى الدار الآخرة .

وبعد هذا ناقش ابن قتيبة حجج الفريقين مناقشة قويمة معتمدا على العقل والنقل معا ، وانتهى من ذلك الى رأى أستطيع أن ألخصه فيما يأتى :

يرى ابن قتيبة فى النبيذ أن ما كثيره مسكر فقليله مكروه ، نهى عنه النبى صلى الله عليه وسلم نهى التأديب ؛ فان أنت تركته فالفضيلة والمثوبة فى تركه ، وان أنت شربته « فلا جناح ان شاء الله ، غير أنك رغبت عما أدبك به النبى صلى الله عليه وسلم ، وأطعت هواك بمخالفته » .

أما أصناف الخمر الأخرى فهى محرمة تحريما قاطعا ، سيان فى ذلك قليلها وكثيرها .

٧٠ — كتاب العرب : ذكره معظم مترجمى ابن قتيبة ، ويسميه بعضهم « كتاب تفضيل العرب » ، ويسميه آخرون « فضل العرب » ، ويذكره جماعة ثالثة باسم « التسوية بين العرب والعجم » و « كتاب ذم الحسد » . وقد ذكر ابن عبد ربه فى عقده فصلا بعنوان « كتاب اليتيمة فى النسب وفضائل العرب » ، وأشار الى أنه أخذه من كتاب « تفضيل العرب » لابن قتيبة [١] . وذكر الألوسى جزءا من هذا الفصل — نقلا عن العقد الفريد فيما أعتقد — تحت عنوان « رد ابن قتيبة على الشعوبية » ، وأعقبه برد الشعوبية على ابن قتيبة [٢] .

وقد نشر بعض هذا الكتاب « السيد جمال الدين القاسمى » أحد علماء دمشق فى المجلد الرابع من مجلة « المقتبس » الدمشقية ، وذكر أنه نقله من نسخة خطية فى مكتبة المرحوم « شاكر الحمزاوى » بدمشق . ثم نشر هذا الجزء المرحوم « محمد كرد على » فى كتابه « رسائل البلغاء » .

ويغلب على ظنى أن هذا الكتاب ألف قبل كتاب « الشعر والشعراء » ، لأنه أشار فى الثانى الى الأول [٣] . ومن هذه الاشارة تدرك أن الكتاب لم يصل الينا كاملا ، لأننا لم نجد فى هذا الجزء الموجود ما يحيل عليه ابن قتيبة فى « الشعر والشعراء » .

والطبعة التى أشرف عليها « الأستاذ كرد على » فيها كثير من

---

(١) العقد الفريد ٧٢/٢ طبعة المطبعة الأزهرية .
(٢) بلوغ الأرب ١٦٩/١ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٦ ، ٣٥ طبعة ليدن .

الأخطاء التى لا يستقيم بها المعنى ، وهى شبيهة بطبعة « كتاب الأشربة » التى لم تسلم من الأخطاء كما ذكرنا .

ولقد كان ابن قتيبة من مسلمى الموالى الذين نزههم ايمانهم العميق عن أن ينزعوا نزعة الشعوبية ، اذ كانوا يعرفون للعرب فضلهم ، لأن محمدا عليه السلام بعث رسولا منهم ، فكان الحب العميق للاسلام ولرسوله يدفعه هو وأمثاله الأتقياء الى أن يتعصبوا للعرب ويشيدوا بفضلهم على أمم الأرض جميعا .

ولهذا الكتاب فى نظرنا قيمة كبيرة ، هى أنه يعتبر مثالا طيبا لأسلوب ابن قتيبة الجدلى والانشائى ، اذ نحس فيه بصدق العاطفة وشبوب الوجدان . ولذلك رأينا أن نتخذ منه موضوعا لفصل خاص نتحدث فيه عن « أدب ابن قتيبة الانشائى » .

٩ — كتاب الشعر والشعراء : ذكره معظم من ترجم لابن قتيبة، ويسميه بعضهم « طبقات الشعراء » (١) ، وانى لا أميل الى هذه التسمية ، لأنه لم يجعل الشعراء طبقات كما فعل ابن سلام فى كتابه . ويرجح المستشرق « دى جويه » تسميته بهذا الاسم « طبقات الشعراء » لأن ابن قتيبة — فى زعمه — رتب الشعراء بحسب مكانتهم الفنيـة (٢) ، ولكنى سأبين فى فصل آخر أنه لم يراع كثيرا هذه الناحية الفنية . وفى ملاحظة على كتاب « المحاسن والأضداد » للجاحظ ذكر باسم « أخبار الشعراء » (٣) .

---

(١) كشف الظنون ٢/٩٣ .
(٢) مقدمة « دى جويه » باللغة اللاتينية لكتاب الشعر والشعراء .
(٣) المحاسن والأضداد ص ١٨٤ طبعة بولاق .

وجاء فى المجلة الآسيوية أن عنوان المخطوطة الموجودة فى بيروت من هذا الكتاب هو « ديوان الشعر والشعراء » [1] :

ويبدو لى أن ابن قتيبة قد قسم هذا الكتاب الى قسمين : القسم الأول هو المقدمة . ومن المحقق أن هذا القسم هو المقصود باللفظ الأول من العنوان وهو « الشعر » لأنه تحدث فيه عن الشعر وأقسامه وعيوبه .. الخ ، وهو يفصح عن ذلك فيقول : « وأخبرت فيه عن أقسام الشعر وطبقاته .. الى غير ذلك مما قدمته فى هذا الجزء الأول » ، فهو يسمى هذه المقدمة النفيسة « الجزء الأول » كما ترى .

والقسم الثانى هو تراجم الشعراء ، وهو الذى يختص بالشطر الثانى من العنوان « الشعراء » . وقد أشار الى ذلك — أى الى هذين القسمين — فى مقدمة « عيون الأخبار » وفى كتاب « المعارف » . ونحن نستخلص من ذلك أيضا أن كتاب « الشعر والشعراء » قد ألف — فيما أرجح — قبل كتابى عيون الأخبار والمعارف . ويرجح « دى جويه » أن ابن قتيبة هو الذى وضع هذا الاسم « الشعر والشعراء » وأنا أؤيده فى هذا الرأى .

وهذا الكتاب لون آخر من مؤلفات ابن قتيبة ، ويعتبر من أقوم الكتب وأجداها ؛ ففيه نقد وأدب وتاريخ ، ومقدمته قيمة جدا ، وقد أودع فيها مذاهبه النقدية ، فخطا به خطوات واسعة

---

(1) Journal Asiatique V. 2 P. 207

نحو التوفيق والتحرر ، وسنتناول ذلك بالتفصيل عند الكلام عن « أدب ابن قتيبة الوصفي » .

وقد بيّن ابن قتيبة الغرض من تأليف الكتاب ومنهجه فقال : « وكان أكثر قصدى المشهورين من الشعراء الذين يعرفهم جل أهل الأدب ، والذين يقع الاحتجاج بأشعارهم في الغريب وفى النحو وفى كتاب الله عز وجل وحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأما من خفى اسـمه وقل ذكره وكسد شـعره وكان لا يعرفه الا الخواص فما أقل من ذكرت من هذه الطبقة ، اذ كنت لا أعرف لذلك القليل أخبارا » . ولهذا نراه لا يذكر من الشعراء من لا يدل عليه « بخبـر أو زمان أو نسب أو نادرة أو بيت يسـتجاد أو يستغرب » .

ومقـدمة الكتاب من أعظم ما خلفـه ابن قتيبة من الآثار الأدبية ، لأنه وضع فيها مذهبا جديدا فى تقويم الشعر والشعراء . وأستطيع أن أقول بادىء ذى بدء ان هذا المذهب يدل على أنه رجل جرىء ، مجدد ، ثائر على التقاليد النقدية العتيقة . فقد نبذ التقليد جانبا ، وقوّم الشعر من حيث هو شعر ، بدون نظر الى قائله ، وهذا رأى خليق بالاعتبار .

ثم تناول ابن قتيبة دواعى الشعر ، وذكر منها الطمع والشوق والطرب والغضب ، وأورد الأمثلة على اجادة بعض الشعراء لفنون من الشعر وتخلفهم فى بعضها بسبب تلك الدواعى . وتحدث كذلك عن أمور وثيقة الصلة بالنقد سنشير اليها فى فصل خاص .

وبعد ذلك انتقل الى كتاب الشعراء ، فترجم فيه لعدد ضخم

منهم ممن ظهروا فى العصر الجاهلى وعصر صدر الاسلام والعصر الأموى والعصر العباسى الأول . وجلّهم من مشهورى الشعراء الذين يعرفهم أهل الأدب والذين يحتج بأشعارهم كما يقول . وقد أورد لكل شاعر قدرا مختارا من شعره ، وتناوله أحيانا بالشرح والتعليق .

ويعتبر هذا الكتاب من أعظم المصادر الأدبية الكبرى التى لا يستطيع باحث أن يغفلها ، وهو أصدق مظهر لأدب ابن قتيبة الوصفى .

وقد طبعت المقدمة « كتاب الشعر » فى ليدن سنة ١٨٧٥ مصدرة بمقدمة باللغة الفلمنكية . ثم طبع المستشرق « دى جويه » الكتاب كله بقسميه « الشعر والشعراء » فى ليدن سنة ١٩٠٢ ، ووضع له مقدمة قيّمة باللغة اللاتينية . ثم طبع بمصر عدة طبعات رديئة . وأخيرا طبع طبعة جيدة جدا سنة ١٩٤٥ فى مطبعة عيسى الحلبى بتحقيق المرحوم الشيخ شاكر .

١٠ — كتاب أدب الكاتب : ذكره بعض مترجمى ابن قتيبة بهذا الاسم ، وذكره بعض آخر باسم « أدب الكتّاب » ، وذكره ابن قاضى شهبة باسم « أدب القاضى » (١) ، ويسميه الأزهرى « آداب الكتبة » (٢) . ولكنى أرجح أن اسم الكتاب « أدب الكاتب » لسببين : الأول أن السواد الأعظم من مترجمى ابن قتيبة يذكرونه بهذا الاسم . والثانى أن الصولى المتوفى

---

(١) طبقات النحاة لابن قاضى شهبة ٢/٥٢ « مخطوط » .
(٢) تهذيب اللغة ١/١٥ .

سنة ٣٣٥ له كتاب اسمه « أدب الكتّاب » ، وأنا أستبعد أن يسمى كتابه باسم آخر لمؤلف سابق .

ونحن نستطيع أن نعين لتأليف هذا الكتاب زمنا على وجه الاجمال . فالمعروف من مقدمة الكتاب أنه ألفه للوزير « عبيد الله ابن يحيى بن خاقان » ، وقد تولى هذا الرجل الوزارة فى عهد المتوكل سنة ٢٣٦ . ولما ولى المعتمد الخلافة سنة ٢٥٦ اختاره أبو أحمد الموفق أخو الخليفة وزيرا ، فتردد ، ثم قبل بعد الحاح ، وظل وزيرا حتى سقط عن دابته ومات سنة ٢٦٣ . وأنا أرجح أنه ألف قبل عيون الأخبار ، لأنه يشير فى مقدمة الأخير اليه . .

وبعض الأدباء يرى أن الكتاب خطبة بلا كتاب . ولكن الحقيقة أنه كتاب جزيل النفع « قد حوى من كل شيء أحسنه » كما يقول صاحب كشف الظنون [١] . ويقول ابن خلكان : « والناس يقولون انّ أكثر أهل العلم يقولون ان أدب الكاتب خطبة بلا كتاب ، وهذا فيه نوع من التعصب عليه ، فان أدب الكاتب قد حوى من كل شيء ، وهو مفنن » [٢] . ويقرر صاحب « مرآة الجنان » أنه كثير الفوائد [٣] . ويذكر ابن أبى أصيبعة أن بعض الناس كانوا « يحفظونه حفظا متقنا » [٤] . وكان شيوخ ابن خلدون يعتبرونه من عمد الأدب الكبرى الأربعة مع كتاب

---

(١) كشف الظنون ١/٧٣ .
(٢) وفيات الأعيان ١/٢٥١ .
(٣) مرآة الجنان ٢/١٩١ .
(٤) طبقات الأطباء ص ٢٠٣ .

الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب النوادر لأبى على القالى « وما سوى هذه الأربعة فتبع لها وفروع عنها » (١) .

وقد وضع ابن قتيبة هذا الكتاب ، لأنه خشى على اللغة أن تنحدر ، أو يقل ادراك الناس لدقائقها ومعرفة الفروق بين مترادفاتها كما يقول فى مقدمة الكتاب .

والواقع أنه حدث فى أواخر العصر العباسى الأول ما يشبه الانقلاب الأدبى فى ألفاظ اللغة العربية ، فتنوعت معانى بعضها حتى خرجت عما وضعت له . وقد شق ذلك على علماء اللغة ، فوضعوا الكتب فى اصلاحها . وفى مقدمة من تجردوا لمحاربة هذا الانقلاب اللفظى عالمنا ابن قتيبة فى كتابه هذا باشارة من الوزير ابن خاقان ، لأنه — بحكم مركزه السامى واشرافه على الدواوين — قد لمس ما خالط الأقلام والألسنة من اللحن والخطأ .

وضع ابن قتيبة هذا الكتاب لارشاد الكتاب الى سنن الصواب ، وأطلق عليه اسما يشير الى الغرض منه « أدب الكاتب » ، وذلك لأنه رأى كثيرا من الأدباء والكتاب قد أهملوا النظر فى اللغة وما اليها ، وانصرفوا الى العلوم الحديثة والمترجمة ، فضعفت صلتهم بالعربية ، وجهلوا الكثير من مسائلها ، فألف لهم هذا الكتاب ، وجمع فيه بين تقويم اللسان وتقويم اليد ، أى رسم الكلمات . ثم جاء بعده « أبو بكر محمد بن يحيى الصولى »

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٥١ بيروت .

المتوفى سنة ٣٣٥ وألف كتابه « أدب الكتّاب » ، فغمز فيه ابن قتيبة بالتقصير فى كتابه [١] ، وتوسع فى مسائل لم يتعرض لهـا سابقه ، كحسن الخط ، والدواة والقلم وترتيب الكتـاب ، والقراطيس ، والدعاء فى المكاتبات .... وغير ذلك من المسائل الكثيرة التى أغفلها ابن قتيبة .

واذا كان لنا أن نرد الفضل الى ذويه وجب علينا أن نذكر أن ابن قتيبة هو أول من ألف فى الموسوعات العربية ، ثم اتخذ من جاءوا بعده هذا الأساس ، وشادوا عليه موسوعاتهم ، حتى أوصلها القلقشندى الى ذروتها السامقة فى موسوعته المشهورة « صبح الأعشى » . فابن قتيبة — من غير شك — يعتبر الأستاذ الأول لواضعى الموسوعات .

وكتاب « أدب الكاتب » مزيج من معارف مختلفة ، فهـو كتاب أقرب ما يكون الى اللغة ، ولكن فيه مباحث فى النحـو والصرف ، وفى تقويم البلدان ، وفى الجغرافيا الفلكية ، وفى قواعد رسم الكلمات .

وقد وصف بعض المستشرفين هذا الكتاب وصفا دقيقا فى كلمات موجزة ، فقال « البارون دى سلان Le Baron de Slane انه دليل المعارف الأدبية والنحوية والتاريخية التى لا يستغنى عنها الكاتب الفنى » [٢] ويقول « بروكلمان » فى دائرة المعارف انه

---

(١) انظر أدب الكتاب للصولى ص ٢٠ .
(٢) فهرس « دى سلان » للمخطوطات العربيـة بباريس ص ٧٠٦ .

أهم مؤلفات ابن قتيبة اللغوية ، ويقول « بلوشيه Blochet » انه بيان دقيق للمعارف التى يجب أن يلم بها الكاتب الديوانى الرفيع » [١] ، ويقول « جورجى زيدان » انه كتاب « يبحث فيما يحتاج اليه الأديب فى صناعة الكتابة من الآداب والعلوم واصلاح ما كان يقع فيـه الكتـاب فى أيامه من الخطأ أو الوهم فى معانى الألفاظ أو الاشتقاقات والتراكيب ، مما نحن فى حاجة اليه حتى اليوم » [٢] .

ومن أهم مزايا الكتاب أنه وسع فى أفق النشاط اللغوى ، وجعله يتعدى دائرة اللغويين الى دائرة الكتاب وموظفى الديوان وغيرهم .

وفى الكتاب ظاهرة تستثير الاعجاب ، وهى أن ابن قتيبة لم يعتمد على المدرسة البصرية كل الاعتماد ، فقد أعطى مدرسة الكوفة نصيبا من عنايته ، ولم يكن يعتمد فى كليهما الا على ذوقه الخاص .

وقد لاقى كتاب « أدب الكاتب » عناية كبيرة قلما حظى بها كتاب آخر . فقد أقبل الناس على قراءته وتفهمه ، وتناوله بعضهم بالشرح والتعقيب والتعليق . وأهم هذه الشروح شرح ابن السيد البطليوسى المتوفى سنة ٥٢١ ، وشرح أبى منصور الجواليقى المتوفى سنة ٥٣٩ .

---

(١) فهرس « بلوشيه » للمخطوطات العربية بباريس ص ١٦٦ .
(٢) تاريخ آداب اللغة العربية ٢ / ١٧١ .

وأول من عنى بطبع كتاب « أدب الكاتب » المستشرق « اسپرول Sproull » ، فقد طبع قسما منه مع ترجمة له باللغة الفلمنكية ، وعليه تعليقات فى ليبسك سنة ١٨٤٧ ، وطبع الكتاب بمصر سنة ١٣٠٠ هـ ، ثم طبعه « الدكتور ماكس جرونرت Max Grunert » طبعة جيدة فى ليدن سنة ١٩٠٠ ، ووضع لها فهارس قيمة .

١٠ — كتاب عيون الأخبار : من أشهر كتب ابن قتيبة ، ويغلب على ظنى أنه ألف مع كتاب « المعارف » فى وقت واحد ، لأنه يشير فى كل منهما الى الآخر [١] .

وهذا الكتاب من خير الكتب التى تقدم لقارئها مادة طيبة تصقل ذهنه ، وتؤدب نفسه ، وتزيد من معارفه . واذا كان ابن قتيبة قد وضع كتاب « أدب الكاتب » ليستفيد منه الخاصة ، فانه صنف « عيون الأخبار » ليستفيد منه خاصة الناس وعامتهم ، وهو يفصح عن ذلك فى المقدمة فيقول انه « وفىّ كل فريق من هؤلاء قسمه ، ووفر عليه سهمه .. فاذا مرّ بك أيها المتزمت حديث تستخفّه أو تعجب منه أو تضحك له فاعرف المذهب وما أردنا به . واعلم أنك ان كنت مستغنيا بنسكك فان غيرك ممن يترخص فيما تشددت فيه محتاج اليه ، وأن الكتاب لم يُعمل لك دون غيرك فيهيأ على ظاهر محبتك » . وابن قتيبة يرى أنه لا تكتمل ثقافة الأديب مالم يزوده بقدر صالح « من المتخير من كلام البلغاء

---

(١) انظر مقدمة عيون الأخبار ، وكتاب المعارف ص ٥٥ .

وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف ... ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ، ويصل بها كلامه اذا حاور وبلاغته اذا كتب » . ويصف الكتاب فيقول « لقاح عقول العلماء ونتاج أفكار الحكماء » .

وقد أعجب العلماء قديما بعيون الأخبار ، ويقول السمعانى : « سمعت الأمير أبا نصر الميكالى يقول : تذاكرنا المتنزهات يوما ، وابن دريد حاضر ، فقال بعضهم : أنزه الأماكن غوطة دمشق ، وقال آخرون : بل نهر الأبلة ، وقال آخرون : بل سغد سمرقند ، وقال بعضهم : نهروان بغداد ، وقال بعضهم : شعب بوان بأرض فارس ، وقال بعضهم : نوبهار بلخ ، فقال الأمير : هذه متنزهات العيون ، فأين أنتم من منتزهات القلوب ؟ قلنا : وما هى يا أبا بكر ؟ قال : عيون الأخبار للقتبى » [1] .

فالكتاب — فى الواقع — يمتاز بالايناس ، لما يورده من طريف الأخبار ومليح الأفاكيه . وهو ليس كتاب رواية وخبر فحسب ، ولكنه كتاب أدب ، لأنه يجمع قدرا عظيما من رائع الشعر وبليغ النثر . وهو مختارات واسعة فى الأدب والاجتماع والسياسة والأخلاق . وقد قسمه الى عشرة أجزاء ، وسمى كل جزء كتابا ، وهى : كتاب السلطان ، وكتاب الحرب ، وكتاب السؤدد ، وكتاب الطبائع والأخلاق ، وكتاب العلم ، وكتاب الزهد ، وكتاب الاخوان ، وكتاب الحوائج ، وكتاب الطعام ، وكتاب النساء .

---

(١) أنساب السمعانى ص ٤٤٣ .

وفى هذا الكتاب يظهر تأثر ابن قتيبة بالجاحظ ، فهو يمزجه بالمزح أحيانا ، حتى لا يمل القارىء .

والكتاب يدل على ما أزجاه ابن قتيبة للتأليف من فضل ، فقد سما به وهذبه ، وخلصه من الاضطراب والفوضى . ويلاحظ أن روح ابن قتيبة التقى سارية فيه . فهو لا يترك مناسبة تمر دون أن يورد كثيرا من كلام الزهاد فى أمر الدنيا ومهانتها واقبالها وادبارها . ولهذا تجد كتاب الزهد من خير ما صنف فى هذا الباب .

وقد تلقط ابن قتيبة مادة الكتاب من مصادر كثيرة أشار اليها فى مواطن متعددة من الكتاب . وكان رجلا واسع الأفق ، لا يستنكف أن يلتقط الجوهرة من الوحل كما يقول الفرنسيون . فلا يضيره أن يأخذ « عن الحديث سنا لحداثته ولا عن الصغير قدرا لخساسته ، ولا عن الأمة الوكعاء لجهلها .. فلن يزرى بالحق أن نسمعه من المشركين ، ولا بالنصيحة أن تستنبط من الكاشحين » .

وابن قتيبة يتناول الموضوع ، ويورد ما قيل عنه فى أمة من الأمم ، ثم يتبعه بما لدى الأمم الأخرى فى نفس الموضوع . فاذا تحدث مثلا عن مصادقة السلطان ذكر ما ورد عن خلفاء العرب وأمرائهم وسادتهم ، ثم ذكر ما يقوله « ابن المقفع » ثم ما يقوله « بزرجمهر » و « أبرويز » الفارسيان ، ثم ما أثر عن حكماء الهنود وفلاسفة اليونان .. وهكذا . وبذلك يستطيع القارىء فى يسر أن يقارن ويوازن ويفاضل بين هذه الأقوال ، وقد يعينه ذلك على

تعرف الأصل منها والفرع ، والوقوف على مصدر كل عنصر من عناصر هذه المعارف .

فالكتاب فى الحقيقة مظهر راق لامتزاج الثقافات فى العصر العباسى ، وهو يدل على أن مؤلفه رجل يمثل ثقافة عصره خير تمثيل .

وأحب أن أقول ان الكتب الأدبية التى ألفت فى هذا العصر مثل « عيون الأخبار ، والبيان والتبيين ، والكامل » لا تنبىء عن شخصية المؤلف الأدبية أو أسلوبه ، مع ما تجد فيها من بسطة العلم وغزارة المادة . فلو أحصيت مثلا ما للجاحظ فى « البيان والتبيين » لما وجدته يبلغ خمس الكتاب ولا سدسه ، وقل مثل ذلك فى كتاب « عيون الأخبار ، والكامل » ، وفضل المؤلفين ينحصر فى الاختيار والنقل والجمع . ولكن فضل ابن قتيبة فى هذه الناحية أظهر من فضل الجاحظ ، لأن كتبه منظمة حسنة الترتيب .

وأخص ظاهرة فى مؤلفى المختارات فى هذا العصر تأثرهم برجال الحديث . ولذلك نراهم يعنون بالاسناد على نمط اسناد الحديث . وأنت حين تقرأ خبرا عن شاعر أو خطيب فى هذه الكتب تشعر أنك تقرأ قطعة من أحاديث البخارى أو مسلم . والكتاب طبع عدة طبعات ، أجودها طبعة دار الكتب سنة ١٣٤٣ هـ . وقد عنى المستشرقون قبل ذلك بطبع أجزاء منه بين سنتى ١٨٨٨ ، ١٩٠٨ فى « غوتنجن واستراسبورج » ، وعلى رأسهم « وريمار Warimmar » و « بروكلمان » .

١٢ — كتاب المعارف : هذا الكتاب ألف — فى غالب الظن — بعد « الشعر والشعراء » لأنه أحال فى « المعارف » عليه [١] . والأمر الذى لا شك فيه أنه تم تأليفه بعد سنة ٢٥٦ ، لأنه ذكر فيه الخليفة « المعتمد » الذى ولى الخلافة فى هذه السنة .

وقد أطلق الرواة على هذا الكتاب عدة أسماء ، فيذكره حاجى خليفة باسم « المعارف » و « معارف من التاريخ » و « معارف التاريخ » [٢] . وكنت أظن أن لابن قتيبة مؤلفا آخر فى التاريخ مفقودا ، ذكره مترجموه باسم « تاريخ ابن قتيبة » ، غير أن الدكتور اسحاق الحسينى ذكر فى رسالته أنه عثر على كتاب بهذا العنوان فى المكتبة الظاهرية بدمشق ، فتصفحه فوجده نسخة من كتاب المعارف [٣] .

وكتاب المعارف يدخل فى عداد التاريخ على شىء من التجوز . وأنا أعنى بكلمة « التاريخ » أوسع معانيها ، لأنه يشتمل على كل ما يمت الى التاريخ بسبب قريب أو بعيد . ففيه شىء من علم الأنساب ، وانشاء المدن والمعالم ، وعلم الأجناس ، وعلم الحديث ونشأته وأعلامه ، وتاريخ العالم من مبتدأ الخلق حتى « المعتمد » آخر خليفة أدركه ابن قتيبة . ويقول المؤلف فى مقدمة الكتاب ، مبينا المعارف المتنوعة التى ساقها : « وكتابى هذا يشتمل على فنون كثيرة من المعارف ، أولها مبتدأ الخلق وقصص الأنبياء وأزمانهم

---

(١) كتاب المعارف ص ٢٨٥ طبعة المطبعة الاسلامية .
(٢) كشف الظنون ٢/١٤٢ .
(٣) رسالة الدكتور الحسينى (الانجليزية) ص ٦٢ .

وحلاهم [1] وأعمارهم وأعقابهم وافتراق ذراريهم ونزولهم بمشارق الأرض ومغاربها وأسياف [2] البحار والفلوات والرمال .. ووصلت ذلك بذكر أنساب العرب ، مختصرا ذلك ، ومقتصرا على العمائر [3] ومشهوري البطون . ثم أتبعته أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم في نسبه .. وأخبار العشرة من المهاجرين رحمهم الله تعالى ، ثم الصحابة المشهورين ، ثم الخلفاء .. والمشهور من صحابة السلطان والخارجين عليهم من الخوارج ، ثم التابعين ومن بعدهم من حملة الحديث وأصحاب الرأى ، ومن عرف منهم بالترفض والتشيع والارجاء والقدر ، وأصحاب القراءات .. والنسابين ، وأصحاب الأخبار ، ورواة الشعر والغريب ، وأصحاب النحو ، والمعلمين ، وأول من أحدث شيئا بقى على مر الأيام . وذكرت المساجد المشهورة ، ومتى ابتنيت ، وعلى يد من أسست .. وأخبرت عن الفتوح ، وما كان منها عنوة ، وما كان عن صلح .. الخ » .

وهكذا نرى الكتاب قد جمع فأوعى . فهو كتاب فيه معارف متنوعة الطعوم ، لا يستغنى عنه من غشى « مجالس الملوك ومحافل الأشراف وحلق أهل العلم » كما يقول . ولعل اسم « المعارف » يشير في غير خفاء الى ما يضمه الكتاب بين دفتيه من كل ما من

(١) الحلا : بالكسر ، جمع حلية « بكسر الحاء » ، وهى الصفة.

(٢) أسياف : جمع سيف « بكسر السين » وهو الحافة وساحل البحر .

(٣) العمائر : واحدتها عمارة « بفتح العين » وهى الحى العظيم من الناس .

شأنه أن يثقف العقل ، ويهذب النفس ، ويكوّن الرجل المستنير الممتاز . ويقول عنه ابن قاضى شهبة : « هو كتاب نفيس ما صنف مثله ، وفيه فوائد وغرائب لا توجد فى غيره »[1] . وقد أطلق عليه المستشرق الفرنسى « هوارت Huart » اسما مناسبا يحدد موضوعه ، فسماه « دليلا تاريخيا Manuel d'Histoire »[2]

وهناك أمر أرى — اجزالا للفائدة — أن أشير اليه فى لمحة خاطفة ، وهو أن بعضهم يتهم ابن قتيبة بأنه نقل كتاب « المعارف » من كتاب « المحبر » لابن حبيب . وأول من أشار الى ذلك أبو طالب المفضل ابن سلمة الكوفى فى كتاب « الفاخر »[3] .

وقد تصفحت كتاب « المحبر » لأبى جعفر محمد بن حبيب الهاشمى البغدادى المتوفى سنة ٢٤٥ طبعة حيدر آباد الدكن ، فوجدت أن الكتابين يختلفان فى المصادر وفى المنهج وفى ألوان المعلومات التاريخية . يضاف الى ذلك أن التواريخ فى الكتابين غير متفقة فى كثير من الأحيان .

ويرجع سر هذا الوهم — فيما أظن — الى التشابه الظاهر بين الكتابين فى الموضوع ، فكلاهما يجمع متفرقات من المعارف التاريخية على نحو خاص .

وأول من عنى بنشر كتاب « المعارف » المستشرق « وستنفلد Wustenfeld » ، فقد طبعه فى « جوتنجن » سنة ١٨٥٠ ،

---

(١) طبقات النحاة لابن قاضى شهبة ٥٢/٢ « مخطوط » .

(٢) Littérature Arabe p. 154.

(٣) كتاب « الفاخر » ص ٦٧ « مخطوط بدار الكتب » . وقد طبع أخيرا .

ثم طبع بمصر عدة طبعات ، أجودها الطبعة التى حققها الدكتور ثروت عكاشة أخيرا .

١٣ — الاختلاف فى اللفظ والرد على الجهمية والمشبهة : وهذا كتاب قيم من كتب ابن قتيبة يجد فيه كل طالب علم ضالته ؛ فالباحث الأدبى يستشرف منه سمات أسلوب ابن قتيبة فى المحاجة ، اذ يلحظ فيه اختياره لتعابير جدلية خاصة ، واعتماده على عبارات لها مدلولات من المعانى يكررها فى مواطن كثيرة ، ويحكم — تبعا لذلك — بأنه كان فى هذا الكتاب كزّا فى أسلوبه هذا ، يجنح الى الغموض أحيانا .

والمشتغل بأصول الفقه يرى فيه أن هذا الخصم القاسى قد سلس قياده ، وخفت حدة خصومته لأصحاب الرأى الى حد ما بالقياس الى كتاب « تأويل مختلف الحديث » . وهذا يدل على أن الكتاب من أواخر مؤلفاته .

والباحث فى « مشكلة خلق القرآن » يجد فيه عقلا حصيفا يعرف كيف يوفق بين الرأيين المتناقضين. وسنعرض لذلك بالتفصيل فى فصل خاص .

والفقيه يلحظ فيه ارتجاعه عن تجاهل أقدار أهل الفقه المجتهدين ، وبخاصة إمام أهل الرأى « أبو حنيفة النعمان» وكبارأتباعه .

وهذا الكتاب دليل على أن ابن قتيبة قد شارك فى مناقشات عصره الفقهية والكلامية ، ووقف موقف المدافع عن القرآن والحديث ضد نزعات الشك الفلسفية ، فهاجم خصومه عن ايمان واقتناع . ويقول الأستاذ « بروكلمان » فى دائرة المعارف : « ان

خصوم ابن قتيبة أرادوا أن يسددوا له طعنة نجلاء ليتقوا حملته عليهم ، فرموه برقة الدين ، ونسبوه مرة الى الكرّامية ، وأخرى الى الجهمية ، وثالثة الى المشبهة ، فوضع كتابه ليرد على الجهمية والمشبهة ، وليدافع عن نفسه » .

والكتاب — فوق ذلك — يبين لنا كيف كان العلماء ورجال الدين يختصمون ويشتجرون . وهذا يدعونا الى التبصر والتروى فيما نقرأه من التجريح لرجال هذا العصر وغيرهم ممن أشار اليهم المؤلف . ويقول أبو طالب المكى مصورا هذه الحال : « وقد يتكلم بعض الحفّاظ بالاقدام والجرأة فيما جاوز الحد فى الجرح ، ويتعدى فى اللفظ ، ويكون المتكلَّم فيه أفضل منه ، وعند العلماء بالله تعالى أعلى درجة ، فيعود الجرح على الجارح »[1] .

وابن قتيبة نفسه يصور تلك الحال المؤلمة التى فشت فى ذلك العصر فيقول : « فانه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث ، وهو من الأدب غفل ، ومن التمييز خلو ، ليس له من معانى العلم الا تقادم سنه ، وأنه قد سمع ابن عيينة وأبا معاوية ويزيد وأشباههم ، فيبدءونه قبل الكتاب بالمحنة ، فالويل له ان تلعثم أو تمكّث ، أو سعل ، أو تنحنح قبل أن يعطيهم ما يريدون ، فيحمله الخوف من قدحهم فيه واسقاطهم له على أن يعطيهم الرضا ، فيتكلم بغير علم ، ويقول بغير فهم ، فيتباعد من الله الذى أمّل أن يتقرب فيه منه »[2] .

---

(١) هامش الاختلاف فى اللفظ ص ٦٢ .
(٢) الاختلاف فى اللفظ ص ٦٣ .

وابن قتيبة يتناول فى هذا الكتاب الآيات القرآنية وبعض الأحاديث التى تأولها أصحاب الكلام تأولا يخرج بها عن المعنى المقصود . وهم فى هذا التأول يفهمون من الألفاظ غير مدلولاتها التى وضعت لها . ويرد ابن قتيبة عليهم ردّا لغويا خالصا مستندا الى نصوص لغوية شتى . ولا ينسى أثناء ذلك أن يحكّم العقل بينه وبينهم ، ويستعين أحيانا — ليدعم قوله — بعلم التوحيد ، وبخاصة حين يتحدث عن صفات الله ، مفنّدا تأويلهم لبعض آى القرآن ، مما يشير الى علم الله وبصره وسمعه .

وجملة القول أن الكتاب قصد به ابن قتيبة ايضاح الاختلاف فى اللفظ فى القرآن الكريم . وهو كتاب صغير لا تتجاوز صفحاته المائة ، وقد طبع بمصر مرتين .

١٤ — كتاب النعم والبهائم : وهذا كتيب صغير لا يجمع الا لونا واحدا من ألوان المعرفة ، هو اللون اللغوى . وهذا يخالف المألوف من ابن قتيبة ، فكل مصنف من مصنفاته يجمع — فى الغالب — معارف مختلفة متقاربة ، تطغى احداها على سائرها : فكتاب « أدب الكاتب » يجمع أنواعا من المعارف ، ولكن تغلب عليه الناحية اللغوية . وكتاب « عيون الأخبار » يلم أشتاتا من الأخبار والنصوص ، ولكن تبرز فيه الناحية الأدبية . وكتاب « المعارف » يضم بين دفتيه ألوانا كثيرة من المعلومات ، ولكن تظهر فيه الناحية التاريخية .. وهكذا .

أما هذا الكتيب فلم يتجه الا الى الناحية اللغوية فقط ، وهو — على صغره — جم الفائدة .

وأحب أن أقول ان كتب ابن قتيبة تمتاز بشيء من الاستقلال الذاتي الذي اكتسبته من شخصية المؤلف . فكتاب « عيون الأخبار » يختلف كثيرا عن « البيان والتبيين » وكتاب « أدب الكتاب » ، وكتاب « المعارف » لا نظير لهما بين مؤلفات سابقيه ومعاصريه . وقل مثل ذلك في سائر مؤلفاته . أما كتاب « النعم والبهائم » فيعتبرا امتدادا لما سبقه من المؤلفات ، أو بعبارة أصح يُعد حلقة أخرى تضاف الى نظيراتها السابقات .

ومن المحقق أن علم اللغة هو أول ناحية أدبية اتجه اليها العلماء ،وعنوا بها قبل غيرها من النواحي الأخرى للاستعانة بها في فهم كتاب الله وحديث رسوله ، ثم جاءت النواحي الأخرى تبعا لها ، كرواية الشعر والخطب والأخبار والنوادر . ويعني بعلم اللغة الاشتغال بألفاظ اللغة من حيث معانيها وأصولها واشتقاقها ، وينتهي ذلك بتأليف المعاجم اللغوية التي تم نضجها في القرنين الرابع والخامس الهجريين . وقد سُبق ذلك محاولات مهدت السبيل لظهور هذا العلم بما ألفه العلماء من الكتب في ألفاظ الموضوعات الخاصة ، كالأصمعي ، وابن الأعرابي وأبي عبيدة وغيرهم ، مثل كتاب الخيل ، وكتاب النساء وكتاب النخل وما شابهها .

وكانت للعرب همة قعساء في استقصاء ذلك ، يتبارون في التنقيب عن اللغة الصحيحة من مظانها ، ولهذا كانوا يشدون الرحال أحيانا الى البادية . وكان فصحاء الأعراب يفدون الى البصرة والكوفة ، فيأخذ عنهم العلماء .

ولقد كان الأمويون قبل هـذا يستحثون العلماء بمناقشات يثيرونها بين أيديهم فى هذه الموضوعات . فقد روى أن عبد الملك ابن مروان جلس ذات يوم فى مجلس ضم جماعة من خواصـه وسمّاره وقال : أيكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله على ما يتمنى ؟ فقام اليه « سويد بن غفلة وقال : أنالها يا أمير المؤمنين » فقال : قل ما عندك ، فقال : أنف ، بطن ، ترقوة ، ثغر ، جمجمة ، خلق ، خد ، دماغ ، ذكر ، رقبة ، زند ، ساق ، شفة ، صدر ، ضلع ، طحال ، ظهر ، عين ، غببة « لحمة فى الحلق » ، فم ، قفا ، كف ، لسان ، منخر ، نغنغ « موضع بين اللهاة والحلقوم » ، هامة ، وجه ، يد ، فهذه حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين».
فقام بعض أصحاب عبد الملك وقال : أنا أقولها فى جسد الانسان مرتين » ، فضحك عبد الملك وقال لسويد أما سمعت ما قال ؟ قال : نعم أنا أقولها ثلاثا ، فقال له : لك ما تتمنى ، فقال : أنف ، أسنان ، أذن — بطن ، بصر ، بز — ترقوة ، تمرة ، تينة — ثغر ، ثنايا ، ثدى — جمجمة ، جنب ، جبهة — حلق ، حنك ، حاجب — خد ، خصر ، خاصرة — دُبر ، دماغ ، دُردر « سقف الحلق » — ذكر ، ذقن ، ذراع — رقبـة ، رأس ، ركبة — زند ، زردمة « موضع الابتلاع » ، زغب — ساق ، سرة ، سبابة — شفة ، شعر ، شارب — صدغ ، صدر ، صلعة — ضلع ، ضـفيرة ، ضرس — طحال ، طرة « خاصرة » ، طرف — ظهر ، ظفر ، ظلم — عين ، عنق ، عاتق — غببة ، غلصمة ، غنّة — فم ، فك ، فؤاد — قلب ، قدم ، قفا — كف ، كتف ، كعب — لسان ، لحية ،

لوح — مرفق ، منكب ، منخر — نُغْنُغ ، ناب ، نن — هامة ، هيف « ضمور البطن والخاصرة » ، هيئة — وجه ، وجنة ، ورك — يمين ، يسار ، يافوخ » . فأنعم عليه عبد الملك وبالغ فى الاحسان اليه [1] .

وقد تابع الناس الاهتمام بألفاظ اللغة والعناية بجمعها ، فقاموا بالتأليف فيها على شكل مجموعات ، كل مجموعة فى موضوع بعينه تضم شتات ألفاظه كلها كما أشرنا . وهذا اللون من المعاجم يسميه بعض الباحثين المعاصرين « المعاجم المعنوية » ، وهى التى تجمع مفردات اللغة حسب معانيها ، تمييزا لها عن « المعاجم اللفظية » التى تجمع الألفاظ حسب ترتيبها الهجائى . وأشهر المعاجم المعنوية « المخصص » لابن سيده و « فقه اللغة » للثعالبى ، ولا شك أنهما أتم وأنضج مما صنعه الأصمعى وزملاؤه .

وأول من سبق الى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على حروف المعجم هو العالم الجليل « الخليل بن أحمد الفراهيدى » البصرى المتوفى سنة ١٧٠ . وليس فى المقام متسع لبيان عبقرية هذا الرجل وفضله العظيم على العربية وأصحابها . وقد سمى معجمه « كتاب العين » ، ورتبه على حسب مخارج الحروف ، وقد بدأه بحرف العين ، لأن مقره آخر الحلق ، وبه سمى الكتاب .

ثم جاء علماء القرن الثالث فألفوا كتبا تجمع مع اللغة الأدب والنحو والأخبار ، ولكن ابن قتيبة ألف كتاب « النعم والبهائم »

---

(١) المخصص لابن سيده ٢٧١/٢ .

فى اللغة ليس غير . ولاشك أنه استأنس بكتب من سبقه من أصحاب المعاجم المعنوية ، لأن كتابه على غرار كتابهم .

وقد شك الدكتور الحسينى فى نسبة هذا الكتاب الى ابن قتيبة ، ولكنى أرجح صحة هذه النسبة ، لأنه يناقش الجاحظ ويخطّئه فى بعض الألفاظ على طريقته المعهودة . أضف الى ذلك أنه طعمه ببعض الألفاظ الفارسية كعادته حين يتحدث عن أصل الكلمة أحيانا ، وحين يقارن بين اللفظين الفارسى والعربى .

وقد قام بنشر كتاب « النعم والبهائم » الأب « موريس بوج Maurice Bouges » أحد الآباء اليسوعيين ، ووضع له بعض ملاحظات باللغة الفرنسة . وهو كتاب مفيد جدا من الناحية اللغوية ، وموضوعه النعم والبهائم والوحوش والسباع والطير والهوام . والنعم « بفتح النون » مفرد ، ومعناه الابل والشاء ، ولكنه أكثر ما يكون للابل . وبعضهم يقول انه المال الراعية ، وجمعه أنعام ، ومنه اسم السورة الكريمة .

١٥ — كتاب المسائل والأجوبة : رواه عنه تلميذه « أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن السكرى » . ويبدو أنه وصل الينا كاملا ، لأنه مختوم بهذه العبارة « آخر المسائل والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد وآله وصحبه أجمعين » .

وهو كتاب لغة ، ونحن ندرجه بين كتب ابن قتيبة من باب التجاوز ، لأنه عبارة عن أسئلة كان يوجهها اليه تلميذه «السكرى» فيجيب عنها .

وقد بدأه بقوله : سألت عن قوله « لا داء ولا غائلة ولا خبيثة » ، أما قوله « لا داء » فانه يريد لا داء لك في العبد من الأدواء التي يرد منها ، مثل الجذام والبرص والسل والجنون والأوجاع المتقادمة .. الخ . ويستمر في شرح الكلمات شرحا لغويا أدبيا حتى ينتهي منها ، ثم ينتقل الى الاجابة عن سؤال آخر في مسألة أخرى ، وهكذا حتى ينتهي الكتاب .

وهذه المسائل لا تجرى على نسق خاص ، فمسألة عن الهجين من الخيل والناس ، وبجانبها مسألة عن الزاني وأصل الكلمة وحده .. وهكذا نراه يتعرض لمسائل متنوعة لا رابط بينها . وهو كتاب صغير جدا ، غير مطبوع ، وتوجد منه مخطوطة بمكتبة جامعة القاهرة .

***

وبعد فهذه هي الكتب التي استطعنا الحصول عليها من مؤلفات ابن قتيبة ، والتي لا يشك في صحة نسبتها اليه . والرواة يذكرون له عشرات الكتب ، ولكنها فقدت ، ولم يقع في أيدينا الا ما ذكرنا . ومن المحقق أن بعض كتبه قد ذكر مكررا بأسماء مختلفة كما أشرنا . كما أن أجزاء من بعض كتبه الكبيرة قد ذكرت على أنها كتب مستقلة بذاتها . وقد أشرنا الى أن بعض المراجع ذكر أن له كتابا باسم « كتاب الخيل » ، وآخر اسمه « كتاب السباع » والحقيقة أن هذين الكتابين جزآن من كتاب « المعاني الكبير » . وهذا مثل أسوقه برهانا على ما أقول .

والأمر الذي يدعو الى الأسف حقا أنه لم يصل الينا كتاب من

الكتب التى ألفها فى النحو والتى أشار اليها مترجموه ، لنقف على آرائه النحوية وكل ما نعرفه من ذلك آراء قليلة فى النحو والصرف منبثة فى كتبه التى بين أيدينا ، وبخاصة فى كتابى أدب الكاتب ومشكل القرآن » ، وهى فى جملتها من المذهب البصرى .

ولا ريب فى أن ابن قتيبة قد اشتغل بالنحو ، لأن النحو كان أحد فروع الأدب الهامة التى لا يصح أن يغفلها متأدب . وكان الكثير من أساتذته من المشتغلين بهذا العلم ، مثل السجستانى والرياشى والزيادى . وقد أشار هو فى بعض كتبه الى أنه قرأ كتاب سيبويه ودرسه دراسة طيبة [1] .

وأول من أشار الى اشتغال ابن قتيبة بالنحو « أبو الطيب عبد الواحد بن على » المتوفى سنة ٣٥١ هـ ، فقد ذكر فى كتابه « مراتب النحويين » أن لابن قتيبة كتابا فى النحو ، وأخذ عليه أنه « قد خلط عليه بحكايات عن الكوفيين لم يكن يأخذها عن ثقات » [2] . ثم جاء بعده ابن النديم وعقد فى « الفهرست » فصلا ذكر فيه العلماء الذين خلطوا بين نحوى المصرين وأنشأوا المذهب البغدادى ، وذكر على رأسهم ابن قتيبة ، وقال عنه « انه كان يغلو فى البصريين ، الا أنه خلط المذهبين ، وحكى فى كتبه عن الكوفيين » [3] وذكر له ضمن مؤلفاته كتابين فى النحو ، هما

---

(١) انظر كتاب المعانى الكبير ص ٨٣٢ ، وكتاب المعارف ص ٢٦٥ .
(٢) مراتب النحويين ص ١٣٧ « مخطوط » .
(٣) الفهرست ص ٧٧ .

« جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير »[1] . ويرى المستشرق « هاول Howell » فى كتابه « النحو العربى Arabic Grammar » أن ابن قتيبة هو الذى حمل عبء مزج المذهبين وانشاء المدرسة البغدادية [2] .

ويبدو أن ابن قتيبة لم يكن ذا باع طويل فى النحو ، يدلنا على ذلك أننا لم نجد أحدا من المتقدمين الذين صنفوا فى سير النحاة ينظمه فى سلكهم . فأبو سعيد السيرافى المتوفى سنة ٣٦٨ — وهو من كبار النحاة — لم يذكره قط فى كتابه « أخبار النحويين البصريين » مع أنه كتب عن معاصريه ممن أقاموا فى مدينة بغداد . وأبو بكر محمد بن الحسن الزبيدى المتوفى سنة ٣٧٩ هـ وضع ابن قتيبة فى كتابه « طبقات النحويين واللغويين » ضمن اللغويين لا النحويين . ولم يرد له ذكر قط فى كتاب « الانصاف » لابن الأنبارى ، وكذلك لم يشر اليه ابن جنى فى الخصائص .. كل ذلك يدل على أنه لم يكن من المبرزين فى علم النحو تبريزه فى العلوم الأخرى .

***

ولقد أضيف الى ابن قتيبة كتاب اسمه « الامامة والسياسة » ، وكتاب آخر اسمه « تلقين المتعلم من النحو » . ولكن التمحيص الدقيق يدفعنا الى أن نرفض — فى غير تردد — نسبة هذين

---

(١) وذكرهما كذلك السيوطى والقفطى وحاجى خليفة .

(٢) انظر كتاب Arabic Grammar. p. 8

الكتابين الى ابن قتيبة . ولنتحدث عن كل منهما ، موردين الأسباب التى تدعونا الى ذلك .

أولا : كتاب الامامة والسياسة : ذكره « البارون دى سلان » فى فهرست المخطوطات العربية بمكتبة باريس باسم « أحاديث الامامة والسياسة » ، ويقول انه منسوب الى ابن قتيبة ، ويقول مثل ذلك المستشرقان « بروكلمان وبلوشيه » . ويرى المستشرق « دى جويه » أنه من تأليف رجل مصرى أو مغربى معاصر لابن قتيبة . ويرى الدكتور اسحاق الحسينى أن نسبة هذا الكتاب الى ابن قتيبة قد خرجت من المغرب ، لما كان يتمتع به عالمنا هناك من سمو المكانة وعظيم الشهرة .

والواقع أن هذا الكتاب ليس من تصنيف ابن قتيبة . وأول من ارتاب فى ذلك رجل عاش فى القرن السابع الهجرى اسمه « أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى » فى كتابه المسمى « العواصم من القواصم » (١) . ولم يعرض لهذه المسألة بعد ذلك أحد من مؤلفى العرب . ولكن المستشرقين — وهم يعنون كثيرا بالتحقيق — هم الذين أولوا هذا الأمر عناية كبرى . وأول من أثار ذلك منهم « ب . دى جاينجوس P. de Gayangos » فى كتابه « تاريخ الحكم الاسلامى فى أسبانيا History of the Muhammedan Dynasties in Spain » وقد أشار الى ذلك فى مقدمة الكتاب . وأكد هذا الشك الدكتور « ر . دوزى R. Dozy »

---

(١) العواصم من القواصم ص ٥٥ « مخطوط » .

فى كتابه المعروف « أبحاث فى التاريخ السياسى والأدبى لأسبانيا فى العصور الوسطى Récherches sur l'Histoire Politigueet Littéraire de l'Espagne pendant le Moyen Age » [1] .

أما أنا فعندى من التحقيق العلمى والفنى ما يدعونى الى رفض نسبة هذا الكتاب الى ابن قتيبة رفضا قاطعا .

فالتحقيق العلمى ينبئنى بأن جميع مترجمى ابن قتيبة لم يذكروا له قط كتابا بهذا الاسم . والكتاب يشعر القارىء بأن المؤلف كان يقيم بدمشق ، فى حين أن ابن قتيبة — كما عرفنا من سيرته — لم يذهب قط الى دمشق . وهناك أمر يبدو غريبا ويؤيد موقفنا ، وهو أن مؤلف الكتاب يروى عن « أبى ليلى » الذى كان قاضيا بالكوفة سنة ١٤٨ [2] فى أسلوب يدل على أنه كان يتلقف منه الأخبار ، ولم يولد ابن قتيبة الا بعد ذلك بخمسة وستين عاما (٢١٣ هـ) . وأعجب من هذا أن المؤلف يروى أخبار فتح الأندلس مشافهة عن امرأة شهدته . والمعروف أن فتح الأندلس حدث قبل مولد ابن قتيبة بنحو مائة وعشرين عاما . وأشد من ذلك غرابة أن يذكر فتح « موسى بن نصير » لمدينة «مراكش » ، مع أن هذه المدينة أنشأها « يوسف بن تاشفين » سلطان المرابطين حوالى سنة ٤٧٠ هـ [3] . وهذا خلط يدعونا الى رفض نسبة الكتاب الى ابن قتيبة . أضف الى ذلك أن لهجة

---

(١) Récherches sur... V. I. p. 10

(٢) وفيات الأعيان ١/٤٩٢ .

(٣) انظر معجم البلدان ٤/٤٧٨ .

الكتاب تشف عن انحراف عن أهل بيت علىّ كرم الله وجهه ، وهذا يخالف ما نلحظه فى سائر كتب ابن قتيبة من بالغ الاعظام لعلىّ وذريته ، كما سنعرف فيما بعد . ومؤلف الكتاب يروى عن رجلين اسمهما « أبو مريم وابن عفير » ، وهذان الرجلان لم يروا عنهما ابن قتيبة فى أى كتاب من كتبه .

وربما كان التحقيق الفنى — الى جانب التحقيق العلمى الذى ذكرنا — خير معين على الوصول الى الحقيقة . فأول ما يبد هنا فى هذا الكتاب تلك المقدمة القصيرة التى لم تتعودها من ابن قتيبة . فمقدماته دائما وافية تبين منهج الكتاب والغرض من تأليفه والدافع اليه . أما مقدمة هذا الكتاب فهى قصيرة جدا لا تزيد على أربعة أسطر ، وليس بينها وبين مقدمات كتبه الأخرى شبه ما . هذا الى أن أسلوبها يغاير أسلوب ابن قتيبة كل المغـايرة ؛ ففيها سجع مقصود أشبه بأساليب القرن الخامس الهجرى .

وفى الكتاب ظاهرة أخرى لم نر لها مثيلا فى مؤلفاته ؛ تلك أنه يبدأ الفصل بقوله « وحدثنا قال حدثنا .. » أو بقوله « قال ثم ان .. » . وهو يكثر من لفظ « ثم ان » . وهذا التركيب جاء متأخرا عن عصر ابن قتيبة ، ولم أعثر عليه فى كتب الجاحظ والمبرد . وفى ثنايا كلامه يكرر كثيرا لفظ « قال » ، ولا يسوق خبرا من غير أن يصـدره بكلمة « وذكروا » . وهذا غير ملاحظ فى كتب ابن قتيبة . وتتردد فى الكتاب كثيرا هذه الجملة « وذكروا عن بعض المشيخة » ، وليس لها وجود فى أى كتاب من كتبه .

والكتاب لا يسير فى منهجه الروائى على نمط واحد ، فقـد

جرى فى الصفحات الأولى من الجزء الأول علـى نظام الرواية المعنعنة ، ثم ترك هذا النظام فى سائر الكتاب .

والكتاب تشيع فيه الفوضى ، فهو يورد الخبر أحيانا ، وقبل أن ينتهى منه ينتقل الى غيره مقدما له بكلمة « قال » ، ثم يعود الى الخبر الأول ليتمه . وهذه الطريقة تخالف مذهب ابن قتيبة وتباين روحه المنظمة .

وهناك أمر خليق بالنظر ، ذلك أنه ورد فى الكتاب على لسان « موسى بن نصير » والى افريقية فى عهد الأمويين كلمة « تشرين الآخر » أى « نوفمبر » وكلمة « آذار » ، ويقول موسى عن « آذار » انه يسمى بالأعجمية « مارس » [1] . وهذه الشهور لم تكن معروفة لدى العرب حتى ذلك الحين .

وقد أخطأ مؤلف الكتاب فى حقيقة تاريخية معروفة ؛ ذلك أنه يذكر أن الرشيد قد عهد بولاية العهد الى ابنه « عبد الله المأمون » أولا ، ثم لابنه « محمد الأمين » ثانيا . وهذا يخالف الواقع ، لأن العهد كان للأمين أولا ، ثم للمأمون ثانيا ، ثم للمعتصم ثالثا . وقد سجل ابن قتيبة نفسه هذه الحقيقة فى كتاب « المعارف » [2] ، ولا يعقل أن يناقض نفسه فى أوليات التاريخ .

لهذه الأمـور مجتمعة أرانى مطمئنا الى رفض نسبة كتاب « الامامة والسياسة » الى ابن قتيبة .

ثانيا — كتاب تلقين المتعلم من النحو : لقد كان يحز فى نفسى

---

(١) الامامة والسياسة ٢/١١١ .
(٢) كتاب المعارف ص ١٦٦ .

ألا أعثر على مؤلف لابن قتيبة فى النحو ، فما كدت أجد هذا الكتاب مخطوطا فى المكتبة الأهلية بباريس حتى غمرتنى نشوة السرور . ولكنى ما كدت أتصفحه وأمضى فى قراءته حتى انهارت آمالى فى الوقوف على مذهب هذا العالم الذى قيل عنه انه مزج بين نحوى المدرستين وخلق المذهب البغدادى . فقد ألفيت الكتاب لا يمت الى ابن قتيبة بسبب . والنظرة العابرة فيه تجعلنا نوقن كل الايقان بأنه بعيد كل البعد عن روح ابن قتيبة .

ويدعونى الى رفض هذا الكتاب الأمور الآتية :

١ — الكتاب كله من أوله الى آخره « ويقع فى ١٤٨ صفحة » ينهج نهجا تعليميا ، على شكل سؤال وجواب ، ويتناول قواعد النحو الأولى ، وكأنه وضع للتلميذ المبتدىء الذى لا يدرى من أمور النحو شيئا .

٢ — لم يرد لهذا الكتاب ذكر قط فى المراجع التى تعرضت لمؤلفات ابن قتيبة ، وانما ذكروا له كتابين آخرين فى النحو ، هما جامع النحو الكبير ، وجامع النحو الصغير .

٣ — لم يرد فيه اسم أى رجل من نحاة المدرستين ، ولم يناقش فيه أى رأى من الآراء . ولا يعقل أن يمزج ابن قتيبة بين المذهبين — كما يقولون — من غير أن يعرض لكل منهما .

٤ — كل ما ورد فى هذا الكتاب يتبع المذهب البصرى ، فأين اذن المذهب البغدادى الذى استحدثه ابن قتيبة كما يقول المؤرخون ؟ .

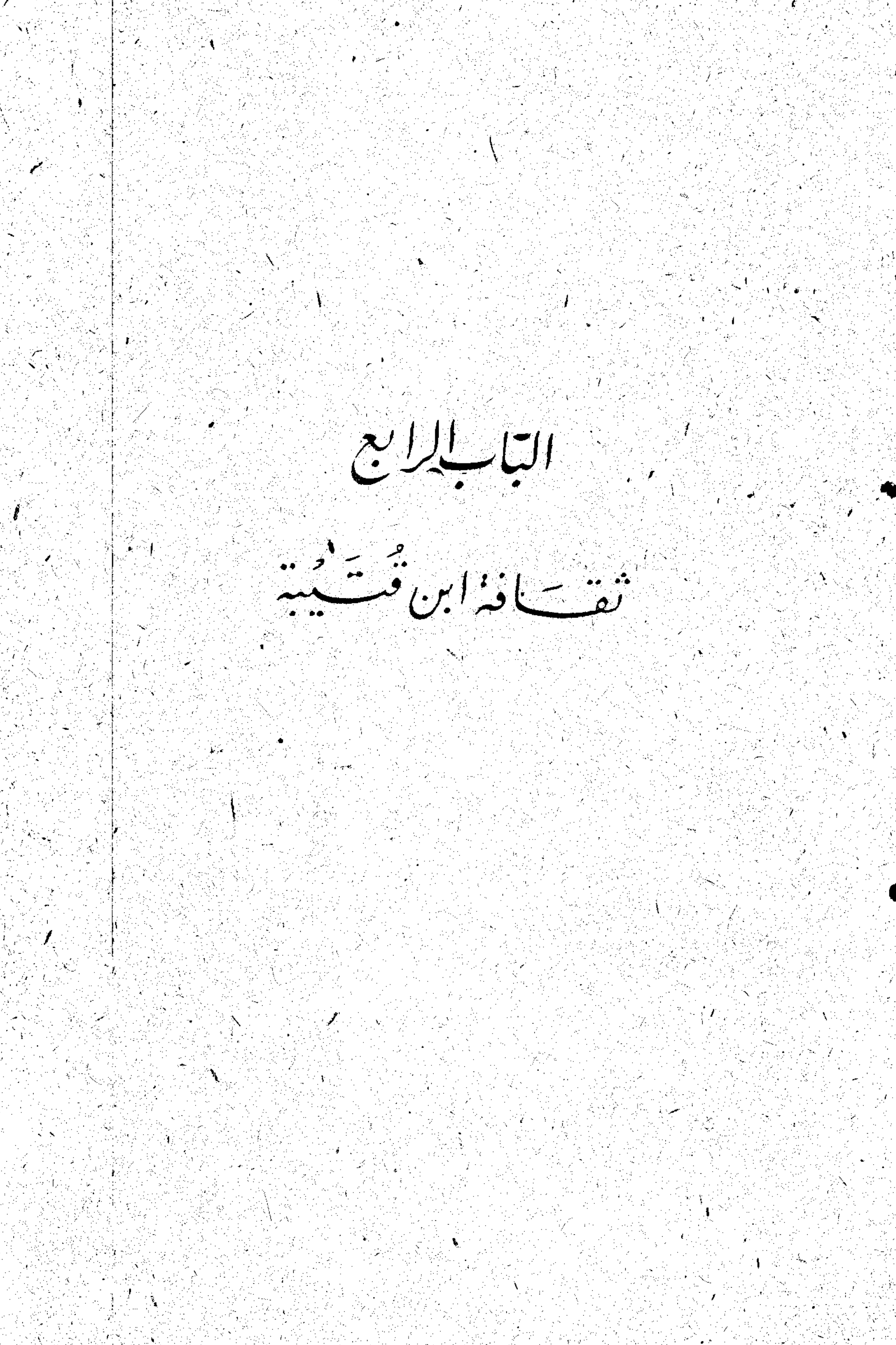
٥ — ليس للكتاب مقدمة ، وهذا يخالف ما جرت عليه مؤلفات ابن قتيبة .

٦ — وأخيرا لا نستشعر فى هذا الكتاب روح ابن قتيبة المؤلف .

لذلك كله أقرر — فى غير تردد أن هذا الكتاب أضيف الى ابن قتيبة خطأ ، ولا يمكن أن ينسب اليه .

والظاهر أن بعض الجهلة من الوراقين والناسخين كانوا يعمدون الى اضافة بعض الكتب الى مشهورى العلماء وكبار الأدباء لتنفق سوقها . وهذا عبث يؤلم نفوس العلماء والباحثين حقا .





الباب الرابع

ثقافة ابن قُتَيْبة

الفصل الأول

عالم يمثل ثقافة عصره

لقد كان ابن قتيبة واسع الثقافة الى أقصى ما تكون السعة ، وآية ذلك أن له مؤلفات فى كل لون من ألوان المعرفة التى غزت العقل العربى فى ذلك الحين ، فله مؤلفات فى الأدب واللغة والنحو والتاريخ والفلك كما عرفت . وله مصنفات فى القراءات ذكر ابن النديم وابن خلكان بعضها . وكان ضليعا فى الحديث ، وله فيه المؤلفات القيمة ، وأهمها « تأويل مختلف الحديث » الذى وصل الينا .وذكروا له « غريب الحديث » الذى قال عنه ابن الأثير فى « النهاية » انه حذا فيه حذو « أبى عبيد القاسم بن سلام » الذى يعتبر أول من صنف كتابا قائما بذاته من هذا النوع ، وله مشكل الحديث والمشتبه من الحديث والقرآن ، ولم يصل الينا شىء من هذه الكتب .وله كذلك مصنفات فى الفقة أشار اليها بعض المراجع ، منها « جامع الفقه » و « كتاب التفقيه » . وألف فى الأشربة وفى الميسر والقداح . وصنف فى الغناء والألحان والخيل والأنواء والأمثال وتعبير الرؤيا . ووضع فى الاجتماع كتابا اسمه « آداب العشرة » . وله غير ذلك من الكتب الكثيرة المتنوعة . وانه لمن المؤلم

حقا ألا يصل الينا من هذا العدد الضخم من المؤلفات الا النزر اليسير .

وكلهم يصفونه بالفضل وغزارة المادة ، فيقول ابن الأنبارى : « كان ابن قتيبة فاضلا فى اللغة والنحو والشعر ، متفننا فى العلوم ، وله المصنفات المذكورة والمؤلفات المشهورة » [1] ، ويقول السيوطى « كان رأسا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة ، ديّنا ، فاضلا » [2] . ومثل ذلك يقول البغدادى والسمعانى وابن خلكان . ويقول عنه القفطى : « هو صاحب التصانيف الحسان فى فنون العلم » [3] ، ثم يقول بعد ذلك بقليل « وكان ثقة ، ديّنا ، فاضلا ، صادقا فيما يرويه ، كثير التصنيف والتأليف » . ويقول عنه ابن قاضى شهبة : صاحب التصانيف المشهورة فى فنون العلم والآداب » [4] : وانه لمن العجب العجاب أن ينسبه أبو بكر ابن الأنبارى « الى الغفلة والغباوة وقلة المعرفة » [5] . فأين اذن يكون العقل الرشيد والعلم الغزير اذا لم يكن ابن قتيبة موطنهما ؟ ان هذا لحكم جائر وتحامل ظالم من ابن الأنبارى . ولقد صدق الحافظ الذهبى فى قوله عن ابن قتيبة « انه من أوعية العلم » [6] . ولعل الذى دفع ابن لأنبارى الى هذا القول غلطات وقع فيها

---

(1) نزهة الألباء ص ٢٧٢ . (2) بغية الوعاة ص ٢٩١ .

(3) انباه الرواة ١٤٣/٢ .

(4) طبقات ابن قاضى شهبة ٥٢/٢ (مخطوط) .

(5) تهذيب اللغة للأزهرى ١٥/١ (مخطوط) .

(6) تذكرة الحفاظ ١٨٧/٢ طبعة حيدر آباد .

ابن قتيبة قد يقع فيها غيره من أفذاذ العلماء ، ولكل عالم هفوة كما يقولون .

والمستشرقون يعرفون لابن قتيبة قدره ؛ فيقول الأستاذ « هوارت Huart » ان هذا الرجل جمع بين ثقافات عصره . وقد لعب دورا فعالا فى الصراع الذى شغل العقول الاسلامية فى زمنه بين المتكلمين وأهل السنة » ، ثم يضع له وصفا دقيقا صادقا فيقول أنه « موسوعة علمية Encyclopédique » . ويمثل هذا يصرح « بروكلمان » فى دائرة المعارف ، ونيكلسون فى تاريخه الأدبى ، و « دى سلان » فى « كتالوجه » .

وقد كان ابن قتيبة مولعا بتحصيل العلم على اختلاف ألوانه ، وكان منهوما بالمعارف نهما شديدا ، وهو يصرح بذلك فيقول : « وقد كنت فى عنفوان الشباب وتطلّب الآداب أحب أن أتعلق من كل علم بسبب ، وأن أضرب فيه بسهم » (١) . ويقول أستاذنا المرحوم أحمد أمين : « وعلى الجملة فثقافة ابن قتيبة واسعة كل السعة ، ومظهر امتزاج الثقافات عنده — مدنية كانت أو دينية — مظهر جلىّ واضح » (٢) . ويقول المستشرق « جون فروى دى ممبين Gaudefroy Demombrynes » فى ترجمته الفرنسية لمقدمة كتاب « الشعر والشعراء » : « وقد اهتم ابن قتيبة بكل العلوم العربية الاسلامية ؛ فدرس القرآن والسنة وفقه اللغة والنحو والشعر والتاريخ وعادات العرب ، ولكنه كان ضليعا فى

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٤ .
(٢) ضحى الاسلام ١/٤٠٦ .

فقه اللغة والسنة ، وكان فى مستوى أرفع من مستوى بقية علماء السنة فى عصره ، وكل ما وصلنا من تأليفه يدل على أنه عالم أديب فذ قد اتصل بنواح كثيرة من العلم من لغة ونحو وأدب وشعر ونقد وعروض وحديث وفقه وتاريخ ومذاهب دينية وعلوم كونية وغيرها » . وهذا تصوير صادق لثقافة ابن قتيبة ، وتصوير صادق لرجل كان يمثل ثقافة عصره خير تمثيل .

وكان ابن قتيبة — الى جانب ذلك كله — رجل دين من رؤساء أهل السنة ، ذا صفة عملية فى النزاع الذى كان ناشبا بينهم وبين خصومهم ، ولهذا كانت ثقافته الدينية لا تبارى . وكان حجة الاسلام الامام « ابن تيمية » لا يرى لابن قتيبة نظيرا فى الفضل وطول الباع فى علوم الدين خاصة ، واقرأ قوله فى معرض التعقيب على رأى لابن الأنبارى قصد به الانكار على ابن قتيبة فى معـانى المتشابهات من كتاب الله تعالى : « وليس هو « أى ابن الأنبارى » أعلم بمعانى القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك ، وان كان ابن الأنبارى من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة ، ولكن نقم هو وغيره على ابن قتيبة كونه رد على أبى عبيـد أشياء من تفسير غريب الحديث . وابن قتيبة قد اعتذر عن ذلك ، وسلك فى ذلك مسلك أمثاله من أهل العلم ، وهو وأمثاله يصيبون تارة ويخطئون أخرى »[1] . وابن تيمية يأخذ على ابن الأنبارى « أنه يذكر فى معانى المتشابهات من الأقوال مالم ينقل عن أحد

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٥ .

من السلف ، ويحتج لما يقول فى القرآن بالشاذ من اللغة ، وهو قصده بذلك الانكار على ابن قتيبة » [1] .

ولم تقتصر ثقافة ابن قتيبة الدينية على الناحية الاسلامية ، فقد قرأ التوراة والانجيل ونقل كثيرا منهما فى « عيون الأخبار » ، واعتمد عليهما كثيرا حين تحدث عن تاريخ الأنبياء فى كتاب « المعارف » . وتراه يشير الى ذلك فيقول : « وقرأت فى التوراة .. وقرأت فى الانجيل .. » ، وينقل أقوالا للمسيح وداود ويوسف وسليمان وغيرهم من الرسل الكرام . وينقل كذلك أخبارا عن الرهبان وكثيرا من أقوالهم بجانب الأحاديث الشريفة وأقوال كبار الصحابة والتابعين والزاهدين . ويورد مع هذا كثيرا مما أثر عن الفرس والهند واليونان والروم .

وكثيرا ما كان يستعمل عقله فى التحقيق والمقارنة ، فيقارن مثلا بين ما ورد على لسان وهب بن منبّه — وكان يهوديا وأسلم — وبين ما ورد فى التوراة مما يتصل بتاريخ اليهود ، ويبين أوجه الخلاف بين الروايتين . فلا يأخذنّك العجب اذا رأيته يتناول تاريخ اليهود فى « كتاب المعارف » فى سعة تتجاوز ما ورد عنه فى أى كتاب آخر .

وابن قتيبة ينقل كثيرا من كتب الجاحظ ، وبخاصة « كتاب الحيوان » ويبدى رأيه فيما ينقله ، ففى كتاب « النعم والبهائم » يذكر أن الجاحظ قال فى « كتاب الحيوان » ان الزرافة ولد

(1) المصدر نفسه .

النمر ، ويعلق ابن قتيبة على ذلك فيقول : « وهذا لا حقيقة له »[1]. ويروى كذلك أن الجاحظ يذكر أنه « ليس شيء من الحيوان ينصل قرنه كل عام الا الوعل » ، ويرد عليه ابن قتيبة فيقول : « وانما هو الأيّل الذى ينصل قرنه » [2] . وهذان مثلان من أمثلة كثيرة يدلان على أن ابن قتيبة كان — فى بعض الأحيان — لا يأخذ كلام العلماء على علاته . ولكنه مع ذلك — كما أشرنا — كان يروى بعض الأقوال على أنها حقائق علمية من غير أن يظاهره فى ذلك ضوء من اليقين ؛ فيروى مثلا عن أحد شيوخه « أن الدنيا كلها أربعة وعشرون ألف فرسخ ، فملك السودان اثنا عشر ألف فرسخ ، وملك الروم ثمانية آلاف فرسخ ، وملك فارس ثلاثة آلاف فرسخ ، وأرض العرب ألف فرسخ » [3] . وما كان لابن قتيبة أن يؤمن بذلك وليس لديه من وسائل التحقيق ما يؤيده .

وكان ابن قتيبة — الى جانب عنايته بالعلوم العربية — لا ينسى أن يأخذ حظه من العلوم الأجنبية . فقد عرف المصطلحات الهندسية ، كالمثلث القائم الزاوية ، والمثلث الحاد ، والمثلث المنفرج. وعرف كثيرا من طبائع الحيوان ، ولكنه ما كان يؤيد علمه بالتجربة كما كان يفعل الجاحظ . وألمّ بقدر طيب من الجغرافيا الفلكية ؛ فعرف مجارى الأيام فى الزيادة والنقصان ، ودوران الشمس ،

---

(١) النعم والبهائم ص ٩١ .
(٢) النعم والبهائم ص ٩٥ .
(٣) عيون الأخبار ١/٢١٥ .

ومطالع النجوم ، وحال القمر ومنازله ، وبهذا اعتبره بعض المستشرقين من مشاهير علماء الفلك كما ذكرنا . وكان نهمه بالعلم لا يقف عند حد ، فقد عرف شيئا من علم الرى ووسائله كالقناطر والجسور والدوالى والنواعير [1] . وأما درايته بالمنطق فتتضح من عقليته المنطقية فى مجادلة خصومه ، ولا شك أنه قد استعان به فى محاجه المتكلمين وأهل الرأى . وسنلمس ذلك فى الفصول التى سنخصصها للحديث عن موقفه منهم . وليس ببعيد أن يكون قد أخذ المنطق من متكلمى البصرة حينما كان يتردد عليها ، وقد ذكر مصطلحاته فى مواطن كثيرة من مؤلفاته .

ويلوح لى أنه لم يأخذ بحظ كبير من دراسة الفلسفة ، لأن أهل الحديث كانوا يمقتونها ويحاربونها . بيد أنه أعجب بالمنطق ، لأنه رآه يد الجدل الصنّاع . ومن الجائز أن يكون قد اتصل بالمتكلمين ثم انصرف عنهم ، لأنه رآهم يأتون أعمالا وينشئون عقائد تخالف الدين .

وهكذا نرى ابن قتيبة من أغزر علماء الاسلام مادة وأوسعهم علما وفضلا وأجداهم على العلم والعلماء والمتأدبين وطلاب المعرفة جميعا . فقد أكب على الدرس والتحصيل والتأليف فى كل نواحى العلوم ، حتى أصبح من رءوس علماء المسلمين ومن النابهين بينهم . وكان يعينه على ذلك ذكاء قوى وطبع سليم ونفس صافية قويمة تجافت عن تبذل العامة واسفافها . وبذلك أصبح مثالا جميلا للعالم المسلم الممتاز فى القرن الثالث الهجرى ..

(١) مقدمة أدب الكاتب .

وقد كان ينهل هذه الأمشاج من الثقافات من موارد مختلفة ، فأخذ عن أفاضل العلماء ، وجلهم من المدرسة الأصمعية . وكان ذا شغف شديد بالاطلاع والتحصيل ، فلم يقع فى يده كتاب الا أتى عليه مهما كان لونه . وأنت واجد فى كتاب « عيون الأخبار » مصداق قولى هذا ، فهو مزيج من ثقافات متعددة ، وكثيرا ما تقرأ فيه هذه العبارات « وقرأت فى التوراة ، وقرأت فى الانجيل ، وقرأت فى كتب العجم ، وفى كتب الهند ، وفى كتب اليونان ، وسمعت عن فلان الفقيه وفلان المحدث ، وأخبرنى فلان الراوية ، وحدثنى فلان النحوى ، وقال لى فلان الشاعر ..... الخ » .

والحق أن ابن قتيبة لم يترك بحرا من بحور العلم الا غاص فيه غوصا ، واستخرج درره ، وساقها لنا فى حلل قشيبة بهية . ويدل تنوع كتبه على أنه كان ذا قدح معلى فى كل ميدان من ميادين الثقافة الاسلامية ، فله فى اللغة كتاب « أدب الكاتب » وكتاب « المعانى الكبير » وكتاب « النعم والبهائم » . وله فى الأدب « كتاب المعانى وكتاب الشعر والشعراء » . وله فى النقد مقدمة الشعر والشعراء ، وفيها خرج على الناس بمذهب جديد سداه الانصاف ولحمته دقة النظر . وله فى الرواية والأخبار « عيون الأخبار » وهو مزيج من الحكم والنوادر والأشعار . وله فى الحديث وغريبه كتب كثيرة لم يصل الينا منها الا « تأويل مختلف الحديث » ، وحسبنا دليلا على تضلعه فى الحديث أنه تلميذ ابن حنبل وابن راهويه . وله فى القرآن مشكله وغريبه . وله فى التاريخ وتقويم البلدان كتاب « المعارف » . وكان فى النحو عالما

كبيرا حتى استحق من بعض العلماء أن يلقب « بالنحوى » ، وله فيه مؤلفات لم يصل الينا منها شيء . وقد أسهم فى المجادلات التى أثارها المتكلمون فى زمنه ، وبخاصة مشكلة خلق القرآن ، ويذكر بعضهم أن له كتابا فى الرد على القائلين بخلق القرآن . وكذلك حمل لواء الدفاع عن العرب ضد الشعوبية الذين أخذوا يرمونهم بكل نقيصة ، وله فى ذلك « كتاب العرب » . وله فى الفلك « كتاب الأنواء » . وفى كتابيه « الأشربة ، والميسر والقداح » تلمس روح الفقيه المتمكن ، ولكنه ساق لنا الفقه فى غير اثقال ، اذ مزجه بالأدب، فجاء خفيف المحمل ، شهى التناول اذا قيس بكتب الفقه الخالصة .

وفى جميع كتبه يتجلى لك أثر الثقافات الأجنبية واضحا ، وبخاصة « عيون الأخبار ، وأدب الكاتب ، والمعارف » .

ويذكر ابن تيمية أن ابن قتيبة كان خطيب أهل السنة كما كان الجاحظ خطيب المعتزلة ، ولكنى لم أعثر له فى أى مؤلف من كتبه على خطبة واحدة ، ولم أقرأ فى سائر المراجع التى تحدثت عنه ما يشير الى أنه كان خطيبا .

ويظهر أن ابن تيمية يقصد من قوله هذا أن يضيف الى ابن قتيبة صفة الزعامة لأهل السنة فى زمنه ، ويؤيد ذلك قوله : « هو لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة » ، أى انه كان رأس أهل السنة كما كان الجاحظ رأس المعتزلة . ويجوز أن يكون المراد من ذلك أن ابن قتيبة كان يتولى خطابة أهل السنة فى المساجد وامامتهم ، لتقواه وورعه .

والقارىء لكتب ابن قتيبة يعترضه هذا السؤال : هل كان ابن

قتيبة ملما باللغة الفارسية ؟ أما أنا فأرى — فى غير تحفظ — أنه كان ذا دراية طيبة بالفارسية ، ودليلى على ذلك أنه يذكر ألفاظا وجملا فارسية كثيرة ويشرحها شرحا يدل على أنه كان يلمّ بفقهها . والأمثلة على ذلك كثيرة ، اليك بعضا منها :

ورد فى ترجمة أعشى قيس فى « الشعر والشعراء » أن الأعشى كان يفد على ملوك فارس ، وسمعه كسرى يوما ينشد فقال : من هذا ؟ فقالوا : « أشروذ كويدتازى » ، أى « مغني العرب »[1] . ويذكر أحيانا اللفظة الفارسية حين يفسر بعض الألفاظ العربية ؛ يقول فى كتاب « النعم والبهائم » : ان الفرس يسمون الزرافة « اشتر كاو پلنك » ، ويترجم هذه اللفظة فيقول : « كأنها جمل بقر نمر » ، ثم يقول ويسمونها كذلك « اشتر مرك » على التشبيه بالبعير والطائر ، كما قالوا « جاموس كاوميش » أى بقر وضأن[2] . وقد يستعين فى شرح الكلمة العربية بايراد معناها فى الفارسية ؛ مثال ذلك أنه جاء فى شعر أوس بن حجر كلمة « فصافص » ومعناها « الرطبة » ، ويقول ابن قتيبة وهى بالفارسية « اسپست »[3] .

ولا شك أن ذلك دليل على المامه باللغة الفارسية . وكثيرا ما تقرأ له هذه العبارة « وقرأت فى كتب العجم » . وهو يخص كتب العجم فى مقدمة « عيون الأخبار » بالذكر كمصدر كبير من مصادر ثقافته فيقول : « واعلم أنا لم نزل تنلقط هذه الأحاديث

---

(١) الشعر والشعراء ص ٢١٤ تحقيق الشيخ شاكر .
(٢) النعم والبهائم ص ٩ ، ٩١ ، ٩٥ .
(٣) الشعر والشعراء ص ١٠٢ .

فى الحداثة والاكتهال عمن هو فوقنا فى السن والمعرفة وعن جلسائنا واخواننا ومن كتب الأعاجم وسيرهم » . هذا الى أنه قد دون فصلا فى كتاب « أدب الكاتب » « عما تتكلم به العامة من الكلام الأعجمى » سرد فيه تلك الكلمات الأعجمية وأشار الى أصلها .

وليس من العجيب أن يعرف ابن قتيبة الفارسية ، وانما العجيب ألا يعرفها فقد ولد من أبوين فارسيين من مدينة مرو ، وكان الفرس — كما نعرف — جد حريصين على الاحتفاظ بمقوماتهم من لغة وعادات وتقاليد فليس ببعيد أن يكون والداه قد لقناه لغتهم الأصلية . وقد يكون قضاؤه فى « الدينور » قد خلق له فرصة تعلم الفارسية وهو رجل مشغوف بالمعرفة ، لا يجد لها بابا الا ولجه . أضف الى ذلك أنه كان يتردد على نيسابور ليأخذ عن أستاذه « ابن راهويه » فأتيحت له دراسة اللغة فى موطنها .

بقى علينا سؤال قد يرد على خواطر الباحثين وهو : هل يعتبر ابن قتيبة عالما بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة الآن ؟

أما أنا فأقول : لا .

نعم ، لم يكن ابن قتيبة — فى نظرى — عالما بالمعنى الذى عناه العالم الفرنسى المعروف « شارل ريشيه Charles Richet » فى كتابه « تجارب فى علم النفس العام » ، فقد عقد فيه فصلا عرف فيه « العالم » تعريفا واضحا ، وبين ضروب العلماء . وخلاصة هذا الفصل أن العالم هو الذى يتوخى البحث عن حقيقة مجهولة . فالفرق بين علم العالم وعلم العامى من الناس أن العامة

تقتصر على معاينة الأشياء ، ولكن العلماء يحاولون أن يتعرفوا أسباب هذه الأشياء [1] .

هذا هو العالم فى نظر « ريشيه » . وأنا أعتقد أن ابن قتيبة لم يكن من هذا الطراز من العلماء . ومن الحق علىّ أن أقول انه ربما كان « الجاحظ » يمت بصلة الى مثل هذا العالم الحديث . وسنعرض لذلك عند المقارنة بين العالمين الكبيرين . ولا يمكن أن ننظم ابن قتيبة فى عداد هؤلاء العلماء ، ولكن اذا أريد بلفظة « العالم » غزارة المادة وسعة المحصول فهو — من غير ريب — على رأس هؤلاء العلماء الأفذاذ ، وكأنه مستودع ضخم قد أترع بالعلم والمعرفة . وهو — فى نظرى — يفوق الجاحظ فى هذه الناحية ، فهو عالم من طراز المحصلين الواعين .

***

وبعد ، فقد كان ابن قتيبة واسع الثقافة متنوعها ، وكان نادرة زمانه فى حب المعرفة والتحصيل . وثقافته — كما عرفنا من مؤلفاته — ذات وجهين : وجه دينى ، ووجه أدبى . وسيتبين لك فى الفصول التالية مواقفه من خصومه فى الأمور التى تتصل بالدين من قريب أو بعيد ، فنذكر موقفه من أهل الرأى ، والخلاف بينهما يختص بالتشريع . ونذكر موقفه من أهل الكلام ، والخلاف بينهما يتعلق بالمعتقدات . ثم نقف وقفة خاصة عند « مشكلة خلق القرآن » ، لأنها شغلت المسلمين جميعا ردحا طويلا من

---

(١) انظر Essai de Psychologie Generale

الزمان ، وكانت أكبر مظاهر الخلاف بين المتكلمين وأهل السنة ، ثم نعرج بعد ذلك على تبيان مذهبه وهواه الدينى . ثم نختم ذلك بالحديث عن ابن قتيبة المحدث ، لأنه كان من رءوس أهل الحديث الذين يجعلون جلّ اعتمادهم على الحديث فى التشريع . وكان اشتغاله بالحديث ذا لون خاص مصطبغ بروحه الأدبية وصفته الدينية . وهذه الأمور كلها هى جوانب الوجه الدينى .

أما الوجه الأدبى فله حديث مستفيض فى باب خاص يتناول شتى نواحى ابن قتيبة الأدبية .

ولا يعزبنّ عن أحد أن الصلة وثيقة بين الوجهين . فالواقع يقرر أن الدراسة الدينية أساس للدراسة الأدبية فى ذلك الزمان وقد عبر عن ذلك فى شىء من الدقة الدكتور اسحاق الحسينى ، فقال فى تعريف كلمة « الأدب » اذ ذاك إنها دراسة العلوم الدينية من الناحية الأدبية واللغوية ، ولهذا نرى أن أهل الحديث والفقه كانوا يستعينون باللغة ومأثور الشعر . وكان المحدثون يرون أنه ليس براو عندهم من لم يرو اللغة والأدب ، لأنهم لا يستطيعون أن يقيموا آراءهم فى غريب الأثر ومشتبه الحديث الا بما يحتجون به من الشعر وكلام العرب . وقد أثر عن الشافعى رحمه الله أنه طلب اللغة والأدب عشرين سنة لا يريد بذلك الا الاستعانة على الفقه [1] . وكان ابن عباس يقول : ان الشعر ديوان العرب ، فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب رجعنا

---

(١) توالى التأسيس لابن حجر العسقلانى ص ٥ .

الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه » [1] . ويروى عن الشافعي أنه كان « يوصى الخاصة القائمين بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم بالاجتهاد فى تعلم لسان العرب ولغاتها التى بها تمام التوصل الى معرفة ما فى الكتاب والسنن والآثار وأقاويل المفسرين من الصحابة والتابعين من الألفاظ الغريبة والمخاطبات العربية » [2]. وابن قتيبة يسخر ممن يجلس للحديث وهو غير ملم بأطراف الأدب فيقول : « فانه ربما ورد الشيخ المصر فقعد للحديث وهو من الأدب غفل ، ومن التمييز خلو ، ليس له من معانى العلم الا تقادم سنه .. الخ » [3] . وهذا الكلام يدل على أن الالمام بفروع الأدب كان من ضرورات المشتغل بالحديث .

ومن ناحية أخرى كان رواة الأدب واللغة يلمّون بتفسير القرآن الكريم ، وبالحديث ، لأنه أفصح ما أثر من بليغ الكلام بعد كتاب الله . والقول يطول بنا لو شئنا أن نبين أثر الحديث فى رقى اللغة والأدب ، ولهذا كان من الطبيعى أن يكون الأدباء هم أول من وضعوا فى غريب الحديث كتبا ، وقل أن تجد فيهم من لا رواية له فى الحديث قلّت أو كثرت . وعالمنا ابن قتيبة كان يستعين بدرايته باللغة والأدب فى حل المشكلات الدينية التى تنشأ من الاختلاف فى فهم النصوص .

فنحن اذا عرضنا للناحية الدينية لابن قتيبة لم نكن قد بعدنا

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/١١٤ .
(٢) مقدمة تهذيب اللغة للأزهرى .
(٣) انظر مقدمة كتاب الاختلاف فى اللفظ .

عن الناحية الأدبية ، والعكس كذلك . بل ان دراسة الناحية الدينية تعيننا على تفسير بعض مظاهر الناحية الأدبية . وربما كان ابن قتيبة نفسه مؤيدا لنا فى هذا الرأى اذ يقول : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم »[1] .

وعلى هذا يعتبر ابن قتيبة من رءوس الأدباء ، لأنه قد توسع فى جميع العلوم التى كانت معروفة فى عصره . وما أجدرنا بأن نعنى بالناحية الدينية عند ابن قتيبة لتكتمل لنا صورة هذا الزعيم الدينى العالم الأديب . ولنتناول فى هذه الفصول التالية نواحيه الدينية لنفرغ الى نواحيه الأدبية .

---

(١) العقد الفريد ٢٠٨/١ .

الفصل الثانى

ابن قتيبة وأهل الرأى

لقد كان أهل الحديث يبغضون أهل الرأى والقياس ، وكان الأخيرون يحملون عليهم حملات عنيفة ، وينتهزون كل فرصة للايقاع بهم لدى الخلفاء وذوى السلطان ، ولكن أهل الحديث كانوا لا يتورعون عن أن يرموهم بأقذع الصفات ، ويوجهوا اليهم أفحش الألفاظ .

ومنذ أن ظهر من الفقهاء من يعتمدون على العقل والقياس ، قام أهل الحديث يسفّهون مذهبهم ويصمونهم بالخروج على الدين ، وقلة الاعتماد على أعظم مصدر للتشريع الاسلامى بعد كتاب الله ، وهو الحديث . وكان الفريقان يتراشقان بالألفاظ النابية التى تؤذى الأسماع ، وأنا أستخزى أن أذكر شيئا منها ، وأحيلك على كتاب « تأويل مختلف الحديث » لتقرأ نماذج كثيرة لها .

وكان أول من استهدف لحملات أصحاب الحديث زعيم القياس وشيخ الفقهاء الامام الأعظم « أبا حنيفة النعمان (٨٠ — ١٥٠) » . والحق أنه جوزى على ما أداه للفقه جزاء سنمار . وقد جر عليه كل هذا البلاء أتباعه الذين أفسدوا مذهبه .

ويجمل بنا أن نبين فى ايجاز أساس هذا المذهب وتطوره لندرك مدى مباينته لمذهب أهل الحديث ، ونصيب ابن قتيبة من هـذا الصراع العنيف :

لقد وجد الصحابة أنفسهم بعد وفاة النبى صلى الله عليه وسلم أمام حوادث جديدة لا عهد لهم بها ، وبين أيديهم كتاب الله والمعروف من سنن رسول الله ، فلجئوا الى الكتاب يعرضون عليه ما جدّ من حوادث ، فان وجدوا فيه حكما صريحا حكموا به ، وان لم يجدو اتجهوا الى المأثور عن رسول الله واستثاروا ذاكرات أصحابه ليعرفوا حكم النبى فى أمثـال تلك القضـايا ، فان لم يكن بينهم من يحفظ حديثا اجتهدوا آراءهم . ومثلهم فى ذلك مثل القاضى المقيد بنصوص قانون ، فاذا لم يجد فى النص ما يحكم به فى قضية بين يديه طبّق ما يراه عدلا وانصافا .

هكذا كان الصحابة يفعلون ، يعرضون القضية على الكتاب ، ثم على السنة ، والا فليس أمامهم الا الرأى . وقد أفصح عن ذلك عمر بن الخطاب فى رسالته الى « أبى موسى الأشعرى » حيث قال : « الفهم ، الفهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . اعرف الأشباه والأمثال وقس الأمور عنـد ذلك »[1] .

وحذا حذو الصحابة التابعون رضوان الله عليهم جميعا . وكان

(1) الكامل للمبرد ص ٣ ، والبيان والتبيين ٢/٥٠ .

الصحابة والتابعون فى ذلك فريقين : فريقا يعتمد كثيرا على الرأى ، وفريقا يعمل به فى شىء من القصد والحذر .

ولما جاء الامام أبو حنيفة رضى الله عنه وجد أن الحديث قد داخله كثير من الافتعال لأسباب عدة لا حاجة بنا الى ذكرها ، وأن ما صحّ منه لا يفى بتشريعات الدولة الجديدة ، فلجأ الى الرأى وجعله دعامة مذهبه المعروف بمذهب الرأى والقياس .

وكان من أظهر مذهب أبى حنيفة ما يعرف « بالحيل الشرعية » . وهذا الباب من أوسع أبواب الفقه ، ولا يخلو منه مذهب من مذاهب الفقهاء ، ولكنه فى مذهب الحنفية واسع كل السعة ، لأنه يوائم روح مذهب القياس. ويروون أنه كان لأبى حنيفة كتاب فى الحيل ، فقد ذكروا أن عبد الله بن المبارك قال : « من كان عنده كتاب الحيل لأبى حنيفة يستعمله أو يفتى به فقد بطل حجّه وبانت منه امرأته » [1] . وقد ألف « محمد بن الحسن » صاحب أبى حنيفة كتابا سماه « كتاب المخارج فى الحيل » ونشره سنة ١٩٣٠ الأستاذ المستشرق الدكتور « يوسف شاخت ، أستاذ فقه اللغة العربية بكلية الآداب سابقا . واذا كانت بك حاجة الى أن تعرف الحيل الشرعية وأنواعها وخصائصها فارجع الى كتاب « أعلام الموقعين » لابن القيم ، ففيه كلام مسهب يرضى حاجتك » [2] .

---

(١) كتاب « أبو حنيفة » للشيخ أبو زهرة ص ٤١٧ .

(٢) انظر أعلام الموقعين ج ٣ ص ٣٩٤ وما بعدها .

والواقع أن أبا حنيفة رحمه الله لم يكن يبغى بهذا التحايل فى الافتاء ازهاق حق أو تحليل حرام أو أكل الأموال بالباطل ، وانما كان يبغى من وراء ذلك أن يكنف الفقه بمرونة عقلية لا تجعله يقف حائرا جامدا أمام مشاكل الحياة التى تتبدل وتتغير حسب البيئة والزمان .

كان هذا صنيع أبى حنيفة ، وكله خير كما ترى . . ولكن من جاءوا بعده توسعوا فى هذه الحيل توسعا ذهب بمزية المرونة فيها . فقد سبحوا فى الخيال يفرضون أمورا فى الأيمان والطلاق لا تخطر على بال أى انسان ، ولايمكن أن تصادفه فى حياته العملية .

ولقد اعتمد المتأخرون من الفقهاء على هذه المسائل القليلة التي وردت عن أبى حنيفة ، وتوسعوا فيها حتى جعلوها فى كل باب من أبواب الفقه ، ولم يقفوا عند الحدود التى وقف فيها الأئمة ، بل جعلوا منها ما يحتال به على اضاعة الحقوق وافساد الالتزامات .

والحق ان أبا حنيفة قد خرج على الناس بنحو جديد من التشريع يعتمد كثيرا على العقل الحر ، بكثرة استعمال الرأى والقياس . وكان أبو حنيفة يمتاز بمقدرة فريدة فى استنباط الأحكام وبشجاعة نادرة فى مواجهة المسائل ، ما جدّ منها وما يفترض ، وبتعرّف وجوه الحيل فى الحدود التى لا تمس جوهر الدين . فهو بذلك قد قرّب الفقه من الأذهان ، وبيّن أن الدين يتمشى مع الروح الانسانية والفطرة السليمة .

وقد قاسى أبو حنيفة هجوما مريرا من أهل الحديث ، وهذا أمر طبيعي ، لأن منهجه يغاير منهجهم ، فهم يعتمدون على الحديث فى الافتاء ، ويكتفون من الراوى بألا يكون مجرّحا فحسب . أما أبو حنيفة فينقد متن الحديث نفسه ويشك فى كثير منه ، ويرى أن مقياس صحة الحديث مطابقته للعقل ، ولذلك كان يردّ أحاديث كثيرة ويقول : « دعنا من هذا » أو « هذا حديث خرافة » . ولذلك لم يصحّ عنده من الأحاديث الا القليل ، وهذا لا يساعده على استنباط الأحكام على طريقة أهل الحديث . والظاهر أنه هو وأصحابه كانوا يهابون رواية الحديث خوف الزيادة والنقصان وعدم تمييز الصحيح من غيره بعد أن فشا وضع الحديث ، وكانوا لا يهابون الفتيا ويقولون : « على الفقه بناء الدين فلا بد من اشاعته » .

وكان أهل الحديث من أجل ذلك يشنّعون على أبى حنيفة ويقولون انه أكذب الحديث ، وانه يستعمل الرأى مع وجود الحديث فى نظرهم . وقد رموه باتباع الهوى ونسوا أن متبع الهوى انما يبغى من وراء ذلك صالحا خاصا من مال أو جاه ، ومعاذ الله أن يكون أبو حنيفة من هؤلاء . فهو الرجل التقى الذى يقول عنه ابن النديم : « وكان من الورعين الزاهدين »[1] . وكل ما فيه أنه عالم نيّر البصيرة ، ثاقب الفكر ، يستعمل الرأى بعد بذل الجهد ليصل الى ما يعتقد أنه حق ، وهذا ليس من الهوى فى شىء . ويقول ابن عبد البر : « ان كثيرا من أهل الحديث

(١) الفهرست ص ٢٠١ .

استجازوا الطعن على أبى حنيفة لرده كثيرا من أخبار الآحاد العدول ، لأنه كان يذهب فى ذلك الى عرضها على ما اجتمع عليه من الأحاديث ومعانى القرآن ، فما شذ عن ذلك رده وسماه شاذا .. وكان مع ذلك محسودا لفهمه وفطنته »[1] .

وانه لمن المؤلم حقا أن ينزلق الى تجريحه أناس من أئمة الفقهاء ، كمالك بن أنس والأوزاعى وسفيان الثورى . وقد جرّحه الامام محمد بن اسماعيل البخارى وعدّه من الضعفاء والمتروكين[2] ، ولذلك لم يرو له فى صحيحه حديثا واحدا ، وحذا حذوه مسلم ابن الحجاج. ولكنه لم يعدم من تعصب له ودافع عنه من أهل الحديث مثل شعبة بن الحجاج وابن جريج ويحيى بن معين وغيرهم من أهل الحديث .

وقد حمل ابن قتيبة فى عنف على أبى حنيفة وأصحاب الرأى لعدة أسباب أهمها :

١ — أنه ساير بذلك أهل الحديث لما بيّنا من خلاف بين المذهبين . وابن قتيبة — كما نعرف — زعيم أهل الحديث ، فلا بدع اذا وقف يردّ عنهم كيد خصولهم .

٢ — وزاد هذه الخصومة شدة أن جماعة من القضاة المتفقهين من أهل الرأى قد تولوا اختبار المحدثين فى محنة خلق القرآن ، وكانوا يحرجونهم ويسدون عليهم الطرائق لقوة منطقهم فى الجدل والنقاش . فغرس ذلك فى نفوس أهل الحديث البغض لهم

---

(١) الانتقاء ص ١٤٩ .
(٢) الانتقاء ص ٢٤٩ .

والحقد عليهم ، فهاجموهم فى قسوة وشدة . ويعلم الله أن أبا حنيفة قد حمّلوه ظلما وزر ذلك كله .

٣ — ولا شك أن ابن قتيبة قد تأثر — الى جانب ذلك — بأستاذه « اسحاق بن راهويه » الذى كان يمقت أهل الرأى أشد مقت . وكان ابن راهويه يتفقه فى مبدأ أمره على مذهب أهل الرأى ثم انحرف عنهم . وليس من العسير أن نعرف سر ذلك ، فقد كان ابن راهويه تلميذ عبد الله بن المبارك الذى كان من أنصار أبى حنيفة المخلصين بمرو ، ثم انحرف عن مذهبه فانحرف معه تلميذه تبعا له . وكان ابن راهويه لا يظن قبلا أن يجترىء أحد على رد قول أبى حنيفة ، وكان يجمع عن ابن المبارك بعض الأحاديث ، وقد رحل الى بلاد العراق والحجاز ليسأل عن هذه الأحاديث شيوخ ابن المبارك من الأحياء المعمرين ، ولما حلّ بالبصرة فى رحلته جلس الى عبد الرحمـــن بن مهدى ولازمه ، وكان ابن مهدى قد تأثر بشيخه سفيان الثورى الذى اختفى عنده عدة سنوات هربا من المنصور حين طلبه للقضـــاء ومات بداره ، فورث ابن مهدى عن أستاذه الانحراف عن أبى حنيفة ، وزاد ذلك ابن راهويه انحرافا أثناء ملازمته ابن مهدى . ومن المحقق أن ابن قتيبة قد تأثر باستاذه فى هذا الانحراف . أضف الى ذلك أن ابن قتيبة قد نهل من مدرسة الأصمعى ، والأصمعى معروف بمعارضته الشديدة لأهل الرأى .

٤ — وليس ببعيد أن يكون ابن قتيبة قد تأثر بأبيه المروزى ، اذ يقال ان أهل مرو كانوا يكرهون أبا حنيفة ، فقد روى ابن قتيبة أن رجلا اسمه « شقيق البلخى » أطرى أبا حنيفة بمرو ، فقال له

على ابن اسحاق : لا تطره بمرو فانهم لا يحتملون ذلك ، فقال شقيق : قد مدحه مساور الشاعر فقال :

اذا ما الناس يوما قايسونا بآبدة من الفتيا طريفه
أتيناهم بمقياس صحيح تلاد من طراز أبى حنيفه
اذا سمع الفقيه بها دعاها وأثبتها بحبر فى صحيفه

فقال له : قد أجابه بعض أصحابنا فقال :

اذا ذو الرأى خاصم فى قياس وجاء ببدعة هنة سخيفه
أتيناهم بقول الله فيها وآثار مبرّزة شريفه
فكم من فرج محصنة عفيف أحِلّ حرامه بأبى حنيفه (1)

وهذا يفهمنا أن الشعراء قد اندسوا فى النزاع الذى كان قائما بين المحدّثين وأهل الرأى .

تلك هى الأمور التى كانت سببا فى أن يناصب ابن قتيبة أهل الرأى العداء وأن يحمل عليهم هذه الحملات الشعواء . وعلى أية حال فقد أوجد هذا الجدل حركة ناهضة بلغت بالفقه الاسلامى ذروة الرقى .

وابن قتيبة كان على حق فى أن يقف من أهل الرأى هذا الموقف، لأنهم كانوا فى زمنه يفهمون آيات الله على غير وجهها الصحيح ، ويؤولون الأحاديث تأويلا لا يقرّه عقل ولا دين كما سنعرف . ولا شك أن الامام أبا حنيفة برىء من ذلك كله ، ولكن من جاء بعده من أهل النظر والقياس هم الذين يحملون أوزار ما أوجدوه

---

(1) عيون الأخبار ٢/١٤٠ ، والمعارف ٢١٦ .

فى مذهبه . وكان ابن قتيبة يطلق عليهم اسم : « العصابة التى لا تؤمن الا بما أوجبه النظـر ودل عليه القياس فيما شـاهدوا ورأوا »[1] .

وكان يناقشهم مناقشة منطقية سليمة ، ويوضح لهم تناقضهم وفساد آرائهم وعدم الدقة فى أحكامهم . وماذا تقول فى رجل منهم اسمه « عبيد الله بن الحسن » يرى أن « من سمى الزانى مؤمنا قد أصاب ، ومن سماه كافرا قد أصاب ، ومن قال هو فاسق وليس بمؤمن ولا كافر قد أصاب ، ومن قال هو منافق ليس بمؤمن ولا كافر قد أصاب ، ومن قال هو كافر وليس بمشرك قد أصاب ، ومن قال هو كافر مشرك قد أصاب لأن القرآن قد دل على هذه المعانى »[2] ؟ . اننى فى حيرة من أمر هذه الأقوال ، ولا أدرى كيف استخلصها صاحبها من القرآن الكريم ، وحسبها أنها جمعت الأحكام المتناقضة فى أمر واحد لتدل على اختلالها . ولهذا الرجل « عبيد الله بن الحسن » أحكام فقهية من هذا النحو تدعو الى العجب والتساؤل .

وذكر ابن قتيبة أن رجلا آخر منهم اسـمه « بكر صاحب البكرية » — وهو من أحسنهم حالا فى التوقى — كان يقول : « من سرق حبة من خردل ثم مات غير تائب من ذلك فهو خالد فى النار مخلد أبدا مع اليهود والنصارى » . ثم يقول بكر عقب هذا : « وقد وسع الله للمسلم أن يأكل من مال صديقه وهو لا يعلم ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٢٣٤ .
(٢) المصدر نفسه ص ٥٦ .

ووسع لداخل الحائط (أى البستان) أن يأكل من ثمره ولا يحمل ، ووسع لابن السبيل اذا مر فى سفره بغنم وهو عطشان أن يصيب من رسلها » . ويعلق ابن قتيبة على ذلك فيقول : « فكيف يعذبه الله من أخذ حبة من خردل لا قدر لها ويخلده فى النار أبدا . وأى ذنب هو أخذ حبة من خردل حتى يكون منه توبة أو اضرار» .
وابن قتيبة مصيب فيما يقول لأن الدين الاسلامى أسمى من أن يكون متزمتا ، فيه مثل هذه الأحكام الغريبة ، وكان الأولى ببكر هذا أن يعى قول النبى الكريم : « ان الدين يسر ولن يشاد الدين أحد الا غلبه » ، وأن يتدبر موقف عمر بن الخطاب من رجل وجد لوزة فى السوق فانطلق صائحا : « من ضاعت له لوزة ، من ضاعت له لوزة ؟ فقال له عمر فى حدة : كلها يا صاحب الورع الكاذب» .

وكان ابن قتيبة يجهد نفسه فى العثور على زلاتهم ليشهر بهم ، فأينما وجد ثغرة فى منطق تفكيرهم أو اعوجاجا فى أفهامهم سدد سهمه رائشا اليهم . ذكر أن صاحب البكرية هذا كان يقول : ان الأطفال لا تألم ، فاذا سئل فقيل له : « فما باله يبكى اذا قرص أو وقعت عليه شرارة ؟ قال : انما ذلك عقوبة لأبويه ، والله تعالى أعدل من أن يؤلم طفلا لا ذنب له » . وقد سخر ابن قتيبة منه سخرية شديدة ورد عليه بأن كل امرىء معرض للألم والمصائب ، ولا دخل لعدل الله فى ذلك . ويقول صاحب البكرية أيضا : « شرب نبيذ السقاء الشديد من السنة ، وكذلك أكل الجدى والمسح على الكفين » . ويرد ابن قتيبة عليه فيقول : « والسنة انما تكون فى الدين لا فى المأكول والمشروب . ولو أن

رجلا لم يأكل البطيخ بالرطب دهره وقد أكله رسول الله صلى الله عليه وسلم ، أو لم يأكل القرع وقد كان يعجب به النبى صلى الله عليه وسلم لم يقل انه ترك السنة » [1] .

وابن قتيبة فى رده عليهم يدل على أنه يفهم روح الدين وينزهه عن تفاهات الأمور . وانى لأعجب لأصحاب الرأى كيف يصل بهم القصور العقلى الى العجز عن ادراك المراد من أحاديث الرسول ، والى فهم الكلام على ظاهره ومنطوقه دون النفاذ الى لبه ؛ فهم لا يعترفون بالصورة البيانية ويفهمون اللفظ على ما وضع له فحسب من غير أن يستعار لمعنى آخر . ومن ذلك أنهم يعتبرون هذا الحديث من التشبيه : روى عن ابن عباس أنه قال : « الحجر الأسود يمين الله تعالى فى الأرض يصافح بها من شاء من خلقه » [2] . وقد قالوا ان هذا الحديث يجعل لله يمينا كسائر خلقه ، ونسوا أن هذا تشبيه بيانى قصد به الايضاح كما جاء فى قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وقد رد عليهم ابن قتيبة فقال : « ان هذا تمثيل وتشبيه ، وأصله أن الملك كان اذا صافح رجلا قبل الرجل يده ، فكأن الحجر لله تعالى بمنزلة اليمين للملك تستلم وتلثم » .

وكان لأهل الرأى آراء فى غاية الغرابة لا يقرها « رأى » ولا نظر ، ومن عجب أن يبتدع هذه الآراء أهل الرأى والنظر . وابن قتيبة يدهش من آرائهم ويناقشها فيقول : « اذ كيف يقع

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٥٨ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٢٧١ .

فى القياس أن يُقطع سارق عشرة دراهم ، ويُمسك عن غاصب مائة ألف ، ويُجلد قاذف الحر الفاجر ويُعفى عن قاذف العبد العفيف ، وتُستبرأ أرحــام الامــاء بحيضة ورحم الحرة بثلاث حيضات .. ويوجب على الحائض قضاء الصوم ولا يوجب عليها قضاء الصلاة ، ويُجلد فى القذف بالزنا أكثر من الجلد فى القذف بالكفر ، ويُقطع فى القتل بشاهدين ولا يُقطع فى الزنا بأقل من أربعة » . وهذا التساؤل من ابن قتيبة فيه انكار لما كان يُحدثه أصحاب الرأى فى التشريع من أحداث لا يرضاها الدين .

والحق أن أهل الرأى ممن جاءوا بعد أبى حنيفة كانوا متحاملين على الحديث تحاملا ظاهرا ، وقد دفعهم هــذا التحامل الى أن يوجهوا بعض الأحاديث توجيها خطرا سيئا يمس صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه . وما كان يجمل بهؤلاء القوم — وهم من العلماء المتفقهين فى الدين — أن ينزلقوا الى هذه الهاوية ، وأن تدفع بهم الخصومة المذهبية والشخصية الى أن يثلموا الدين فى قصد ظاهر ، وهم يؤمنون فى قرارة نفوسهم بأنهم يركبون متن المغالطة ، ويحرّفون الكلم عن مواضعه . فلا تثريب على ابن قتيبة اذا هاجمهم فى عنف وشدة ، حفاظا على الدين ، وحرصا عــلى الشريعة أن تدنسها الأهواء . وزلاّتهم كثيرة قد سُقت لك أمثلة منها لتقف على مبلغ تفكيرهم ، ولتلتمس المعذرة لأهل السنة اذا ما سلقوهم بألسنة حداد ، وأنا أحيلك على كتاب « تأويل مختلف الحديث » لتقرأ ثبتا حافلا من هذه الزلات الشنيعة .

وكان ابن قتيبة رأسا من روءس أهل الحديث ، ولكن ذلك

لم يمنعه من أن يروى — فى صدق وأمانة — ما ينسب اليهم (أى أهل الحديث) من عيوب تجرّحهم وتبدد الثقة بهم . وهذا يدل على أنه كان يؤثر الحق دائما ؛ فقد ذكر أن « شعبة بن الحجاج » — وهو من كبار رجال الحديث — كان يقول : « والله لأنا فى الشعر أسلم منى فى الحديث ، ولو أردت الله ما خرجت اليكم ، ولو أردتم الله ما جئتمونى ، ولكنا نحب المدح ونكره الذم » (١) . ولا شك أن هذا القول من محدث مشهور مثل شعبة يستلّ من الناس ثقتهم به خاصة وبأهل الحديث عامة . ويقول شعبة بعد ذلك بقليل عن رجل آخر من رجال الحديث هو « يزيد ابن سفيان » وكنيته « أبو المهزم » : « رأيت أبا المهزم فى مسجد « ثابت البنانى » مطروحا لو أعطاه رجل فلسين حدّثه سبعين حديثا » ، وكان شعبة يضعّفه ولا يثق فى روايته .. وهكذا تناول ابن قتيبة كثيرا من رجال الحديث فى كتاب « المعارف » فى غير تحرز ، مدفوعا بدافع الصدق والنزاهة . وقد روى عن « معاوية الضرير » المحدث المشهور أنه كان يحب شرب النبيذ المعتق ، وقد خرج على أصحابه يوما وهو يقول :

واذا المعـــدة جاشت فارمها بالمنجنيـــق
بثـــلاث من نبيـــذ ليس بالحلو الرقيق (٢)

وهذه الأخبار وأشباهها تزرى بأهل الحديث ، وتوجد لأصحاب الرأى ثغرة ينفذون منها الى خصـومهم ، ولكن ابن قتيبة كان لا يحرص الا على الحق ليس غير .

---

(١) كتاب المعارف ص ٢٤٩ . (٢) كتاب المعارف ص ٢٢٣ .

الفصل الثالث

ابن قُتَيْبَة وأهل الكلام

كان العداء مستحكما بين أهل الحديث وأهل الكلام كذلك ، وبخاصة فريق المعتزلة منهم . وربما كانت الخصومة بين الطائفتين أشد وأعنف مما عرفتها بين أهل الحديث وأهل الرأى . وسبب هذه الخصومة ترجع — فيما أرى — الى أمور أربعة :

١ — كان موقف المتكلمين من الحديث موقف الشك والحرية ، فكانوا يحكّمون العقل فى كل شىء ، ويشكون فى كل حديث لا يتفق مع العقل حسب تقديرهم . فهم يحكّمون العقل فى الحديث لا الحديث فى العقل ، ولهم فى ذلك حكايات كثيرة سنذكر لك طرفا منها فى مكان مناسب .

٢ — كان فقه أبى حنيفة أقرب الى عقلية المعتزلة من غيره . وهذا أمر طبيعى ، لأنهم يعتمدون على العقل ، كما يعتمد أهل الرأى على العقل فى استنباط الأحكام . ولذلك نرى بعض المعتزلة قد تعصبوا لفقه أبى حنيفة وآزروه وقوى على أيديهم ، ومن أشهر هؤلاء المعتزلة « محمد بن شجاع الثلجى » المتوفى سنة ٢٥٦ هـ ، وفيه يقول ابن النديم : « أنه فتّق فقه أبى حنيفة ،

واحتج له ، وأظهر علله ، وقواه بالحديث ، وحلاه فى الصدر »[1].

٣ — مشكلة خلق القرآن ، وهى وليدة العقل الكلامى . وقد قاسى أجلة أهل الحديث بسبب هذه المشكلة ألوانا مختلفة من العذاب والاضطهاد ، وسنفرد لهذه المشكلة حديثا مسهبا فى الفصل التالى لأهميتها .

٤ — تعاليم المعتزلة تخالف كل المخالفة آراء أهل السنة وبخاصة فى مرتكب الكبيرة ، ومسألة الجبر والاختيار ، وصفات الله تعالى . وسأوقفك على تعاليمهم لتعرف مبلغ معارضتها لمعتقدات أهل السنة . وانى لأرى من الخير أن أذكر نبذة عاجلة عن مذهب الاعتزال وظهور المعتزلة لندرك مبلغ الخلف بينهم وبين أهل الحديث ، ثم بعد ذلك نوضح بلاء ابن قتيبة فى هذا الصراع العنيف :

يذهب بعضهم الى أن اسم « المعتزلة » — كما ذكر الشهرستانى — أتى من أن واصل بن عطاء كان يجلس مع الحسن البصرى ، فجاء رجل وسأل الحسن عن حكم مرتكب الكبيرة ، لأن الخوارج تكفره ، والجماعة تقول انه مؤمن وفسق بالكبيرة . ففكر الحسن فى ذلك ، وقبل أن يجيب خرج واصل بن عطاء على الفريقين وقال ان صاحب الكبيرة ليس بمؤمن مطلق ، ولا بكافر مطلق ، وانما هو بين المنزلتين . ثم قام واعتزل ، فقال الحسن : « اعتزل عنا واصل » ، فسمى هو وأصحابه « معتزلة » ، وتابعه

---

(١) الفهرست ص ٢٠٦ .

فى ذلك عمرو بن عبيد [1] . والمسعودى يقول انهم سمّوا « المعتزلة » لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين [2] . ويقول المرتضى انهم سموا « بالمعتزلة » لقول قتادة — وكان من أصحاب الحسن — : ما تصنع المعتزلة [3] ؟ وصار يطلق عليهم هذا الاسم . وهم يسمون كذلك « العدلية » لقولهم بعدل الله وحكمته ، كما سنعرف فى تعاليمهم ، ويسمون « الموحدة » لقولهم : لا قديم مع الله [4] ، ويسمون كذلك «أصحاب العدل والتوحيد » ، ويلقبون « بالقدرية » [5] .

وكان المعتزلة يحتجّون لفضل الاعتزال بقوله تعالى « وأعتزلكم » ، وما فى معناها مثل قوله تعالى « واهجرهم هجرا جميلا » ، وليس ذلك الا بالاعتزال عنهم . واحتجوا من السنة بقوله صلى الله عليه وسلم « من اعتزل من الشر سقط فى الخير » . واحتجوا أيضا بالخبر الذى رواه سفيان الثورى عن أبى الزبير عن جابر بن عبد الله عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ستفترق أمتى على بضع وسبعين فرقة ، أبرّها وأتقاها الفئة المعتزلة » . ثم قال سفيان لأصحابه : « تسمّوا بهذا الاسم لأنكم

---

(1) اقرأ هذا بالتفصيل فى الملل والنحل على هامش الفصل فى الملل والأهواء ١/٦٠ .

(2) مروج الذهب ٢/٩٨ .

(3) ذكر المعتزلة ص ٤ .

(4) ذكر المعتزلة ص ٢ .

(5) الملل والنحل على هامش ابن حزم ١/٥٤ .

اعتزلتم الظلمة». فقالوا: «سبقك بها عمرو بن عبيد وأصحابه»[1].

والمعتزلة طوائف شتى كالواصلية أصحاب واصل بن عطاء، والهذيلية أصحاب أبى الهذيل العلاف شيخ المعتزلة، والنظّامية أصحاب ابراهيم بن سياره بن هانىء النظّام أستاذ الجاحظ، والثمامية أصحاب ثمامة بن أشرس النميرى، والجاحظية أصحاب الجاحظ، وغيرها. ولكل طائفة من هذه الطوائف اعتزال يدور على قواعد معينة فصّلها الشهرستانى فى كتابه.

وللمعتزلة فى نظر الجاحظ مقام رفيع يدل عليه قوله: «لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام من جميع الأمم، ولولا مكان المعتزلة لهلكت العوام من جميع النحل»[2].

وتتلخص تعاليم المعتزلة التى تجمع عليها طوائفهم فى الأصول الآتية:

١ — القول بالمنزلة بين المنزلتين، أى ان مرتكب الكبيرة ليس بكافر ولا مؤمن، ولكنه فاسق، والفاسق يستحق النار لفسقه. وكانت الخوارج تقول بكفره، والمرجئة تقول انه مؤمن، والحسن البصرى يرى أنه منافق، فقال واصل انه فاسق وله منزلة بين الكفر والايمان، وقال انه يخلد فى النار.

٢ — القول بالقدر وأن الله لا يخلق أفعال الناس، وانما هم الذين يخلقون أعمالهم. فهم من أجل ذلك يثابون أو يعاقبون، ولهذا وحده يستحق أن يوصف الله بالعدل. فالعبد اذن فى نظرهم قادر خالق لأفعاله، خيرها وشرها، مستحق على ما يفعله ثوابا

---

(١) انظر ذكر المعتزلة.   (٢) كتاب الحيوان ٤/٦٩.

وعقابا فى الدار الآخرة ، والله تعالى منزه عن أن يضاف اليه شر وظلم ، لأنه لو خلق الظلم كان ظالما ، كما لو خلق العدل كان عادلا .

ويقال ان أول من بحث فى القدر وصفات الله وتعمق وانحرف رجل يقال له « بيسريس » ، كان نصرانيا وأسلم ثم تنصر ، وعنه أخذ « غيلان الدمشقى » و « معبد الجهنى » ، وهما أول من جعل الكلام فى القدر نحلة يناظر فيها ، وقد وضعا شيئا من الأحاديث [1] . وكان غيلان يقول بحرية الارادة وأن القدر لا يلجىء الانسان . وقد أوجد بقوله هذا حركة فى الشام فى هذا الموضوع جعلت عمر بن عبد العزيز يدعوه ويناقشه . وقد أسلمت هذه الحركة الى الاعتزال ، واعتنقه بعض الخلفاء الأمويين بعد عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه .

٣ — القول بالتوحيد ، فنفوا أن يكون لله تعالى صفات أزلية من علم وقدرة وحياة وسمع وبصر غير ذاته ، بل الله عالم وقادر وحى وسميع وبصير بذاته ، وليست هناك صفات زائدة على ذاته . والقول بوجود صفات قديمة قول بالتعدد ، والله تعالى واحد لا شريك له . واتفقوا على أن كلامه محدث مخلوق وهو حرف وصوت . ولا شك أن فكرة خلق القرآن نشأت من هذا الاعتقاد . واتفقوا على نفى رؤية الله تعالى بالأبصار فى دار القرار ، ونفى التشبيه عنه من كل وجه . وأوجبوا تأويل الآيات المتشابهة وسموا هذا النمط توحيدا .

٤ — قولهم بسلطان العقل وقدرته على معرفة الحسن والقبيح

---

(١) المعارف ص ٢١٢ وسرح العيون ص ١٨٣ .

ولو لم يرد بذلك شرع . وللشيء صفة فيه جعلته حسنا أو قبيحا ؛ فالصدق فيه صفة ذاتية جعلته حسنا ، والكذب فيه صفة ذاتية جعلته قبيحا . والشرع لم يجعل الشيء الحسن حسنا لأنه أمر به ، ولا القبيح قبيحا بنهيه عنه ، بل ان الشرع انما أمر بالشيء لحسنه ونهى عن الآخر لقبحه ، ولا يستطيع الشرع أن يعكس ، لأن أمره ونهيه تابعان لما فى الشيء ذاته من حسن وقبيح .

تلك هى مجمل تعاليم المعتزلة ، وان شئت الاحاطة بها فى شيء من التفصيل فارجع الى كتابى الشهرستانى والمرتضى . ونظرة الى تلك التعاليم تدلنا علـى أنهـا تتعلق بعلم ما وراء الطبيعة « المتيافيزيقا » وبالفلسفة . فان البحث عن قدرة العبد وعن خلقه لأفعاله خيرها وشرها من خصائص علم الفلسفة وعلم ما وراء الطبيعة .

والحق أن المتكلمين عامة قد أدّوا للاسلام أجل الخدمات ، فقد كانوا أسرع الفرق الاسلامية للاستفادة من الفلسفة اليونانية ، والاستعانة بها فى جدلهم ونقاشهم . وهم الذين خلقوا علم الكلام فى الاسلام ، وأول من تسلح من المسلمين بسلاح خصومهم فى الدين وجادلوهم جدالا علميا ، وردوا على القائلين بالجبر والمنكرين لله ، وما أثاره اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من شكوك . وقد نشطوا لهذا العمل نشاطا عجيبا ، ويقول المرتضى عن واصل بن عطاء : « كان أعلم الناس بكلام غالية الشيعة ومارقة الخوارج وكلام الزنادقة والدهرية والمرجئة وسائر المخالفين » [1] .

---

(١) ذكر المعتزلة ص ٢٦ .

ذلك كان صنيع المعتزلة فى خدمة الاسلام وأهله ، ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا ممقوتين من السواد الأعظم من المسلمين ، لأنهم خالفوا أهل الحديث ، وردّوا كثيرا منه . ثم انهم حولوا العقيدة الاسلامية البسيطة الى عقيدة فلسفية عميقة . هذا الى أنهم فى أيام سلطانهم زمن المأمون والمعتصم والواثق نكلوا بمن خالفوهم فى القول بخلق القرآن . ولم يكتفوا بمحاولة اقناع الناس على طريقتهم الفلسفية ، بل حملوا الناس على اعتناق رأيهم بحد السيف ، فلاقى بسبب ذلك كثير من أئمة المسلمين والفقهاء ألوانا من العسف والتنكيل ، مما سنبينه فى الفصل التالى .

وتعاليمهم — كما رأينا — تبيح للعقل سلطانا لا يُحد مهما كان فيه من جموح وضلال ، ففتحوا بذلك للحرية الفكرية الباب على مصراعيه ، وفى ذلك خطر شديد ، لأن العقول تتفاوت ، فبعضها يصيب وبعضها يضل . وبسبب ذلك ظهر كثير من البدع الجريئة فى الدين .

كان مما وسع مسافة الخلف اذن بين أهل الحديث والمعتزلة أن الأولين كانوا يعتمدون على المنقول من الكتاب والسنة ، والآخرين كانوا يعتمدون على المعقول ، واذا تعارض المعقول والمنقول عمدوا الى تأويل المنقول أحيانا ، وكانوا يردون الشبه الى الأقيسة العقلية والأشكال المنطقية ، ويستخدمون ما وصل اليه العلم والفلسفة فى بحوثهم الدينية ، ولا يعتمدون على الحديث الا قليلا . وساعدهم على ذلك شيوع مسألة الوضع ، وبخاصة فى العراق موطن المعتزلة ، حتى لقد أشفق من ذلك بعض كبار رجال الحديث .

فقد روى أن ابن شهاب الزهرى كان يقول : « يخرج الحديث من عندنا شبرا ويعود فى العراق ذراعا »[1] . وكان مالك بن أنس يقول : « اذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته »[2] . وكان يسمى الكوفة « دار الضرب » ، لأنها تضع الأحاديث كما تُضرب النقود .

فلا عجب اذا وقف المعتزلة من الحديث موقف الشك والارتياب ، ولا غرابة اذا جعلوا العقل سراجهم الذى به يهتدون ، وعليه يعولون ، حتى لقد أطلق عليهم المستشرق «البارون كارّ ديفو Le Baron Carra de Vaux» فى كتابه « مفكرو الاسلام » اسم «العقليين»[3] . ولكنهم غلوا فى ذلك غلوا شديدا حتى لنراهم ينقدون الصحابة والتابعين فى ألفاظ جريئة غير مقبولة ، ويرمونهم أحيانا بالتناقض والخلط . وقد نقل ابن قتيبة كثيرا من ذلك فى كتابه «تأويل مختلف الحديث» ، وسنوقفك على نماذج منها بعد قليل . وقد أدرك الناس هذا الفارق بين المذهبين فقالوا : النرد أشعرى والشطرنج معتزلى » لأن لاعب النرد يعتمد على القضاء والقدر ، ولاعب الشطرنج يعتمد على الجد واعمال الفكر .

والواقع أن مبدأ الاعتماد على العقل الذى ساروا على هديه كان له من ناحية أخرى فضل عظيم فى تقويم الرجولة وعدم الاكتراث بالترهات ، فالتنوخى يحكى أن نساء المعتزلة لم يكن

---

(١) أمراء البيان ٢/٣٥٩ .
(٢) المصدر نفسه .
(٣) انظر كتاب : Les Penseurs de l'Islame V. I. p. 295

يخشين الجن والأرواح ، وكذلك صبيانهم ، لأنهم لم يكونوا يسمعون آحاديث الجن من آبائهم ، بل كانوا يسمعون منهم انكار رؤيتهم ، ويقول التنوخى : « سمعت جماعة من أصحابنا يقولون : « من بركة المعتزلة أن صبيانهم لا يخافون الجن » [1] ، ويروى لذلك حكايات طريفة تدعو الى الضحك .

وربما كان الحق بجانب المعتزلة فى ردهم بعض الأحاديث « التى يحتج بها أهل الجهالات » [2] كما يقول الجاحظ ، وهى كثيرة منها أنه روى « أن الحجر الأسود كان أبيض فسوّده المشركون » . وقد سخر الجاحظ من ذلك فقال : « كان يجب أن يبيّضه المسلمون حين أسلموا » [3] . ولكنهم كانوا ينقدون الصحابة فى قحة ويرمونهم بالكذب أحيانا كما فعل النظّام ، فقد قال : « زعم ابن مسعود أن القمر انشق وأنه رآه ، وهذا من الكذب الذى لا خفاء به ، لأن الله تعالى لا يشق القمر له وحده ولا لآخر معه ، وانما يشقه ليكون آية للعالمين وحجة للمرسلين ومزجرة للعباد وبرهانا فى جميع البلاد ، فكيف لم تعرف بذلك العامة ؟ ولم يؤرخ الناس بذلك العام ؟ ولم يذكره شاعر ؟ ولم يسلم عنده كافر ؟ ولم يحتج به مسلم على ملحد ؟ » [4] . وكان النظام يرى أن انشقاق القمر الوارد فى الآية الكريمة انما يكون يوم القيامة . ولا شك أن النظام مصيب فيما يرى ، ولكن

---

(١) نشوار المحاضرات ص ٢٧٤ . (٢) الحيوان ٩٦/٤ .
(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٧٢ .
(٤) تأويل مختلف الحديث ص ٢٥ .

الذى يلام عليه أن يرمى الصحابى الجليل بالكذب ، وكان له من ذلك مخرج رفيق بالقول بأن الحديث موضوع وكفى .

ولو وقف أهل الكلام عند هذا الحد لهان الأمر بعض الشىء ، ولكنهم ضلوا وسلكوا سبيل الغىّ ، مما حفز ابن قتيبة وأمثاله الغيورين على الدين الى أن يتصدوا لهم ، وأن يناهضوهم فى غير هوادة أو توان ، لأنهم يتجنّون على الدين ويضيفون اليه من الأباطيل ما يسمهم بميسم الكفرة المارقين . ويجب أن نعرف أن ابن قتيبة لم يشن هذه الحملات العنيفة على المتكلمين الا بعد أن أفل نجمهم فى خلافة المتوكل .

وحينما تقف على بعض آرائهم تدرك أنهم يتلاعبون بالشريعة الغراء ويوجهونها حسب أهوائهم ونزواتهم ، فيذكر ابن قتيبة أن من أصحاب الكلام من يرى الخمر غير محرمة ، وأن الله تعالى انما نهى عنها على جهة التأديب كما قال : « ولا تجعل يدك مغلولة الى عنقك ولا تبسطها كل البسط » [1] . وللنظام فى الخمر أبيات تأسر الألباب منها :

ما زلت آخـــذ رُوح الزق فى لطف
وآســـتبيح دما من غير مجروح
حتى انثنيت ولى روحان فى جسدى
والزق مطّرح جســم بلا روح [2]

ومنهم من يرى جواز نكاح تسع من الحرائر ، لقول الله تعالى :

---

(1) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .
(2) كتاب الأشربة ص ٦٧ .

« فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع » ويستدل على ذلك « بأن الرسول صلى الله عليه وسلم مات عن تسع ، ولم يطلق الله لرسوله فى القرآن الا ما أطلق لنا » [1] . وأنت ترى أنهم يحملون الآيات فوق ما تطيق ؛ فهى صريحة فى أن جواز الجمع لا يصح أن يكون بين أكثر من أربع . أما الرسول فكان له من التشريع ما اقتضته ظروفه الخاصة .

وكان النظام يرى أن الطلاق لا يقع فى الكنايات عنه ، كالخلية ، والبرية ، وحبلك على غاربك ، والبتة ، مخالفا بذلك جمهور الفقهاء. وأنت ترى أنهم يفسرون آيات القرآن تفسيرا احتياليا ان صح هذا التعبير . وان تعجب فعجب قولهم : « ان شحم الخنزير وجلده حلال لأن الله تعالى انما حرم لحمه فى القرآن فقال : « حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير » فلم يحرم شيئا غير لحمه [2] . ولا ريب أنهم يخالفون الله ويغالطون أنفسهم ، لأن أدنى عقل لا يقصر عن فهم الآية . ويفسر بعضهم قوله تعالى « وسع كرسيه السموات والأرض » أى « علمه » ، وجاء على ذلك بشاهد غير معروف من الشعر وهو :

« ولا يكرسىء علم الله مخلوق » .

كأنه عندهم « ولا يعلم علم الله مخلوق » كما يقول ابن قتيبة [3] .

---

(1) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .
(2) تأويل مختلف الحديث ص ٧٣ .
(3) تأويل مختلف الحديث ص ٨٠ .

وانى لأعجب كيف غاب عن ذهنهم أن للعرش معانى آخرى فى كلام العرب . ويرد عليهم « أبو على المرزوقى » الأصفهانى فيقول « ان من معانى العرش الملك والعز وقوام أمر الرجل وملاكه ، ويشهد له قولهم : ثل عرش فلان ، اذا أزيل وحطت رتبته . ومنها سرير الملك ، ويشهد له قوله تعالى : ولها عرش عظيم » . ويرى المرزوقى — وهو على حق — أن من الواجب « حمل الألفاظ حيث جاءت على الأليق بالمعنى مع قرائنه والأقرب فى الاستعمال والأشبه فى قضية السمع والعقل » [1] . ويفسر بعضهم قوله تعالى « ولقد همّت به وهمّ بها » بأنها همّت بالفاحشة وهمّ هو بالفرار منها » ، وهذا تفسير خاطىء كما ترى ، ويقول ابن قتيبة : « ولكن الله تعالى يقول : « لولا أن رأى برهان ربه » أفتراه أراد الفرار منها فلما رأى البرهان أقام عندها . وليس يجوز فى اللغة أن تقول : هممت بفلان وهمّ بى وأنت تريد اختلاف الهمّين » [2] . فخبرنى بالله عليك : أى العقلين يحرص على حدود المنطق ، أهؤلاء المتكلمون الذين يفترض فيهم الاحتذاء على المنطق أم ابن قتيبة ؟ . ان هذا لأمر عجيب يدفعنى الى القول بأنهم كانوا يضلّون وهم يعرفون حقيقة ضلالهم . وما أشبههم بمن يأثم ويقترف الفاحشة وهو عالم بما يرتكبه ، وانني لأعتقد أنه لا يعزب عن عقولهم هذا الضلال المبين .

ولقد اتبعوا هذا المنهج فى سلوكهم العملى ، منهج التناقض

---

(١) انظر كتاب الأزمنة والأمكنة ١/١٠٠ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٨١ .

الذى يجافى روح المناطقة والمنطق . ويقول عنهم ابن قتيبة فى « كتاب الأشربة » : « وأما ذمهم شربة المسكر بقلة الوفاء وسوء العهد فأسوأ من ذلك اقدامهم على السكر ، وترك الصلاة ، وركوب الفواحش . وأعجب منه عقدهم على أن كل مسكر خمر محض لعلة الاسكار وهم يشربونه ، وعلمهم بأن الله حرم المسكر وهم لا يبيتون الا عليه ، فاذا عوتبوا على شربه مع الاعتقاد أنه خمر قالوا : لأن نشربه ونحن نعلم أنه ذنب نستغفر الله منه أحب الينا من أن نشربه مستحلّين له غير مستغفرين منه » [1] . وابن قتيبة يرد عليهم مبينا خطل رأيهم ، لأنما هؤلاء القوم الذين يستحلّون ما يعلمون أن الله حرمه ، ثم ينيبون الى الله مستغفرين فيقول : « وانما يغفر الله بالاستغفار للمقلعين ويتقبّل من المتقين » . ويمضى ابن قتيبة فى اظهار فساد رأيهم موضحا أن الذى يرتكب الكبيرة وهو لا يعلم تحريمها « أقرب الى السلامة وأولى من الله بالعفو .. ولا حدّ عليه من جلد وتعزير (أى تأديب) ورجم » ، بخلاف من يرتكبها وهو يعلم أنها محرمة . وقد روى أن رجلا أقرّ بالزنا ، فلما همّوا باقامة الحد عليه قال : ما علمت أن الله حرم ذلك ، فاستحلف ثم درىء عنه الحد . وقد قيل فى الحديث : « ادرأوا الحدود بالشبهات » .

وكان ابن قتيبة فى حيرة من أمر هؤلاء المتكلمين لأنهم يختلفون فيما بينهم ، وقد كان الأولى ألا يختلفوا ، فمعولهم القياس والعقل لا النقل ، وقوانين المنطق واحدة ، فما بالهم أكثر الناس اختلافا ،

(١) كتاب الأشربة ص ٧٣ .

لا يجتمع اثنان من رؤسائهم على أمر واحد فى الدين ؟ فأبو الهزيل العلاف يخالف النظام ، والنجار يخالفهما ، وهشام بن الحكم يخالفهم . ولو اختلفوا فى الفروع لهان الأمر ، ولكنهم يختلفون فى الأصول التى تتصل بالتوحيد وصفات الله وقدرته .

وامض معى فى قراءة تفسيرهم العجيب لآى القرآن كما يرويه ابن قتيبة ، قالوا فى قول الله تعالى « واتخذ الله ابراهيم خليلا » أي فقيرا الى رحمته ، وجعلوه من الخلّة (بفتح الخاء) استيحاشا من أن يكون الله تعالى خليلا لأحد من خلقه ، واحتجوا بقول زهير :

وان أتاه خليل يوم مسألة يقول لا غائبٌ مالى ولا حَرِم

أى : ان أتاه فقير . ويرد ابن قتيبة عليهم ردا منطقيا فيقول : « فأية فضيلة فى هذا القول لابراهيم صلى الله عليه وسلم ، أما تعلمون أن الناس جميعا فقراء الى الله تعالى ؟ وهل ابراهيم فى « خليل الله » الا كما قيل : موسى كليم الله وعيسى روح الله » [1] . وقالوا فى قوله تعالى « وقالت اليهود يد الله مغلولة » : ان اليد هنا النعمة لقول العرب : « لى عند فلان يد أى نعمة ومعروف » . ويناقشهم ابن قتيبة فيقول : « وليس يجوز أن تكون اليد ههنا النعمة لأنه قال : « غلّت أيديهم » معارضة عما قالوه فيها ، ثم قال : « بل يداه مبسوطتان » لأن النعم لا تغل ، ولأن المعروف لا يكنى عنه باليدين كما يكنى عنه باليد ، الا أن يريد

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٨٤ .

جنسين من المعروف فيقول : « لى عنده يدان ، ونعم الله أكثر من أن يحاط بها » (١) .

وهكذا نراهم يفسرون آيات الله تفسيرا خاطئا ويؤولونها تأويلا سيئا كان له أثر خطير فى المعتقدات الاسلامية . وقد أسرفوا فى هذا التأويل اسرافا ممقوتا انحدر بهم الى هاوية الكفر والالحاد ، وكثرت بسبب ذلك الملل والنحل ، وكثر العبث بكتاب الله فى غير تورع أو تحرج . ومن هذه الفرق الروافض ، ومنهم جماعة يقال لهم « البيانية » ، وهم ينسبون الى رجل يقال له « بيان » . وقد بلغ من قحة « بيان » هذا أنه قال لأنصاره : « الىّ أشار الله تعالى اذ قال : هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين » : ومنهم « المنصورية » أصحاب « أبى منصور الكسف » ، وكان يقول لأصحابه : « فىّ نزل قوله تعالى : وان يروا كسفا من السماء ساقطا » . ومنهم « الغرابية » وهم الذين ذكروا أن عليا رضى الله عنه كان أشبه بالنبى صلى الله عليه وسلم من الغراب بالغراب ، فغلط جبريل عليه السلام حيث بعث الى علىّ لشبهه به . وبعض هؤلاء الطوائف يقولون فى قوله تعالى : « ان الله يأمركم أن تذبحوا بقرة » انها عائشة رضى الله عنها . وفى قوله : « فقلنا اضربوه ببعضها » انه طلحة والزبير . ويقولون ان الخمر والميسر هما أبو بكر وعمر ، والجبت والطاغوت هما معاوية وعمرو ابن العاص الى غير ذلك من فاسد المعتقدات وباطل التأويلات (٢) .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٨٦ وما بعدها .

ولا شك أن زعماء المتكلمين ما كانوا يرغبون فى أن يصل الفساد الى هذا الحد البغيض ، ولكن تقع عليهم تبعة ذلك ، لأنهم فتحوا باب التأويل للقرآن والسنة على مصراعيه . وما أشبههم بأصحاب الرأى الأولين الذين جعلوا للعقل المقام الأول فى التشريع ، فجاء مَن بعدهم وضلّوا سواء السبيل .

ويلاحظ أن ابن قتيبة كان يستعين فى ردّه عليهم بتضلّعه فى الأدب واستبطانه لأسرار اللغة .

وللمتكلمين رأى غريب فيما يستحقه فاعل الخير من الشكر لا أرى بأسا من أن أثبته هنا : « يقول أحدهم : لا يستحق أحد من أحد شكرا على شىء فعله به أو خير أسداه اليه ، لأنه لا يخلو أن يكون فعل ذلك طلبا للثواب من الله تعالى فانما الى نفسه قصد ، أو يكون فعله للمكافأة فانه الى الربح ذهب ، أو يكون فعله للذكر والثناء ففى حظه سعى .. أو فعله رحمة له ورقة وقعت فى قلبه فانما سكن بتلك العطية وداوى بها من دائه »[1] . وقد قال بهذه النظرية أحد الفلاسفة المعاصرين وهو الفيلسوف الفرنسى « برجسون Bergson » ، وظن بعض الباحثين أن هذه النظرية جديدة طلع بها على الناس « برجسون » وسماها « الغيرية » . وفحواها أن الانسان لا يعمل الخير حبا فى الخير لذاته ، وانما هو يعمله حبا لنفسه ، لأنه — أيّا ما كانت الثمرة التى يجنيها من فعل الخير — يبغى لنفسه الخير كما ذكر بعض المتكلمين .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٦١ .

وانى لا أوافقهم على ذلك لأن فاعل الخير يجب أن ينال حقه من الشكر ، لأنه قدم الخير لغيره ، فجلب له النفع والرضا بصرف النظر عما يبتغيه من ورائه . ويرد ابن قتيبة عليهم فيقول : « وهذا خلاف قول النبى صلى الله عليه وسلم : لا يشكر الله من لا يشكر الناس » . ولا شك أن ذلك هو خير ما يمكن أن يكون من قواعد المعاشرة والاجتماع ، وما أجمل قول الرسول الكريم مستعيذا بالله ممن لا يقابل المعروف بالشكر : « أعوذ بالله من معروف لا يشكر » .

مهما يكن من شىء فقد انبرى ابن قتيبة على رأس زعماء أهل السنة يردّون على هؤلاء الضالين من المتكلمين ، ويذودون عن حرمة الدين فى حرارة واخلاص . وقد كان يحزنه أن يرى بعض زعماء المعتزلة لا يكترثون بالدين ، ويسخرون من بعض فرائضه . وكان الجاحظ لا يهتم بتأدية الصلاة مما سنشير اليه فى حينه . وكان النظّام وأبو الهذيل العلاف لا يُرضيان الله فى سلوكهما الشخصى . ويُروى عن ثمامة بن أشرس أنه رأى قوما يتعادون يوم الجمعة الى المسجد لخوفهم فوت الصلاة فقال : « انظروا الى البقر ، انظروا الى الحمير » ثم قال لرجل من أصحابه : « ما صنع هذا العربى بالناس ؟ » (١) .

من أجل ذلك كله كان ابن قتيبة يرى أهل الكلام فى قولهم وعملهم حربا على الدين ، وأنهم كانوا سببا فى فشوّ الجدل ،

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٦٠ .

مما قسم الناس شيعا ونحلا ، وصبغ العقيدة الاسلامية بصبغة التعقيد ، مع أنها عقيدة سمحة واضحة لا غموض فيها ولا التواء.

وقد صور ابن قتيبة حال المسلمين آنذاك فى مقدمة كتاب « الاختلاف فى اللفظ والرد على المشبهة والجهمية » فقال : « أصبح الناس الا قليلا ممن عصم الله مفتونين ، وفيما يوبقهم خائضين .. وعما كلفهم معرضين ، وان دُعوا أنفوا ، وان وُعظوا هزأوا ، وان سئلوا تعسفوا .. وصاروا شيعا ، فهم يتنابزون بالألقاب ويتسابّون بالكفر ، ويتعاضدون بالبخل ، ويتناصرون على الهوى ، وعاد الاسلام غريبا كما بدأ .. الخ » . ثم أخذ يقارن بين حال هؤلاء المسلمين وحال السلف الصالح ، وقلبه يتفطر أسى وحسرة فيقول : « وكان طالب العلم فيما مضى يسمع ليعلم ، ويعلم ليعمل ، ويتفقه فى دين الله لينتفع » الى أن يقول : « فقد صار طالب العلم الآن يسمع ليجمع ، ويجمع ليذكر ، ويحفظ ليغالب ويفخر . وكان المتناظرون فى الفقه يتناظرون فى الجليل من الواقع .. فينفع الله به القائل والسامع ، فقد صار أكثر التناظر فيما دقّ وخفى وفيما لا يقع ، وصار الغرض فيه اخراج لطيفة وغوصا على غريبة وردا على متقدم .. الخ » .

وخاتمة القول أن المتكلمين — وبخاصة المعتزلة — كانوا سببا فى الانقسام بين المسلمين وفى تشعب الآراء . ولكن ذلك لا يمنعنا من أن نقرر فى صراحة أنهم — كمسلمين — وقفوا موقفا محمودا موفقا فى الرد على الملحدين والدهريين ومَن على شاكلتهم من أرباب الديانات والعقائد الذين هاجموا الاسلام وائتمروا به .

الفصل الرابع

ابن قُتَيْبَة ومشكلة خلق القرآن

وقفنا فى الفصل السابق على الخلاف المستحكم الذى كان بين أهل الحديث وبين أهل الكلام ، وعلى الأخص المعتزلة . وبيّنا أسباب هذا الخلاف ، وعرفنا بلاء ابن قتيبة زعيم أهل السنة فى هذا النزاع . وقد رأينا أن نخص سببا من تلك الأسباب بحديث مستفيض ، وهو « مشكلة خلق القرآن » ، لأنها شغلت أذهان المسلمين زمنا طويلا حتى لقد سموها « محنة » . وقد أوذى بسببها كثير من أئمة المسلمين ايذاء شديدا ، مما وضع فى صحيفة الخليفة المأمون نقطة حالكة السواد ، لأنه هو الذى حمل العبء الأكبر من هذه المشكلة ورعاها بالقول والعمل ، مستعينا بجاهه وسلطانه . ويقول السيوطى عن المأمون : « وله محاسن وسيرة طويلة ، لولا ما أتاه من محنة الناس فى القول بخلق القرآن » (١) .

ومشكلة خلق القرآن ليست وليدة العصر العباسى ، فقد وُجدت بذورها فى العهد الأموى ، يقول ابن نباته : « ان الجعد

---

(١) تاريخ الخلفاء ص ٣١١ .

ابن درهم قد أظهر مقالته بخلق القرآن أيام هشام ، فأخذه وأرسله الى خالد القسرى أمير العراق وأمره بقتله ، فحبسه خالد ولم يقتله، فبلغ الخبر هشاما ، فكتب الى خالد يلومه ويعزم عليه أن يقتله ، فأخرجه خالد من الحبس فى وثاقه ، فلما صلى العيد يوم الأضحى قال فى آخر خطبته : « انصرفوا وضحّوا يقبل الله منكم ، فانى أريد أن أضحّى اليوم بالجعد بن درهم فانه يقول : ما كلم الله موسى ، ولا اتخذ ابراهيم خليلا ، تعالى الله عما يقول الجعد علوا كبيرا . ثم نزل وذبحه » (١) . ويقول ابن نباتة ان الجعد كان يسكن دمشق ويعلّم مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أميـة فنسب اليه وقيل له « مروان الجعدى » . ثم يذكر ابن نباتة كذلك أن الجعد أول من تكلم بخلق القرآن من أمة محمد بدمشق ، ثم نزل بالكوفة فتعلم منه الجهم بن صفوان .

وهذا يدل على أن القول بخلق القرآن بدعة نبتت فى العصر الأموى ، ولكنها لم تجد التربة التى تنمو فيها وتترعرع . والظاهر أنها غزت الفكر الاسلامى من أهل الديانات الأخرى ؛ فابن الأثير يذكر أن أحمد بن أبى دؤاد الذى كان يقول بخلق القرآن قد أخذ ذلك عن اليهود ، ويروى هذا الخبر فى سلسلة يصل سندها الى لبيد بن الأعصم اليهودى الذى سحر النبى صلى الله عليه وسلم ، وكان يقول بخلق التوراة (٢) .

وقد قويت هذه البدعة فى العصر العباسى على أيدى المتكلمين

---

(١) سرح العيون ص ١٨٥ .
(٢) تاريخ ابن الأثير ٢٦/٧ .

وجهروا بها فى زمن المأمون ، ووجدوا منه عضدا قويا حتى انه كان يحمل الناس حملا على اعتناقها بحد السيف/. ولم يعتنقها المعتزلة وحدهم كما يعتقد البعض ، بل قالت بها طوائف كثيرة من المتكلمين ، ويقول الامام ابن تيمية : « وهذا القول « أى خلق القرآن » لم يكن مختصا بالمعتزلة كما يظنه بعض الناس ، فان كثيرا من أولئك المتكلمين أو أكثرهم لم يكونوا معتزلة ، وبشر المريسى لم يكن من المعتزلة ، بل فيهم نجارية « أتباع حسين النجار » ، وفيهم ضرارية « أتباع ضرار بن عمرو » ، وفيهم مرجئة ومنهم بشر المريسى ، ومنهم جهمية محضة كابن أبى دؤاد »[1] . ويمضى ابن تيمية قائلا : « وأما اثبات الصفات له وأنه يُرى فى الآخرة وأنه يتكلم بالقرآن وغيره ، وكلامه غير مخلوق ، فهذا مذهب الصحابة والتابعين لهم باحسان وأئمة المسلمين وأهل السنة والجماعة من جميع الطوائف » . وقد رد ابن تيمية على القائلين بخلق القرآن فى كتابه هذا بافاضة ، ولا يتسع المقام لذكر هذا الرد ، وهو سنّى من أصحاب مذهب الامام أحمد بن حنبل .

ويظهر من كلام ابن قتيبة أن جماعة من أهل الحديث قد وقعوا فى هذه الهوة وتصدى لهم سوادهم ، وقام بين الفريقين خلاف شديد أزعج ابن قتيبة ، وسنعرض لذلك عند بسط رأيه .

ولقد شمّر المأمون عن ساعديه ، وقام ينشر القول بخلق القرآن فى جميع أنحاء الامبراطورية الاسلامية ، ويبطش بمخالفيه

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ٤٢ .

فى غير رحمة . وهذا أمر لا بدع فيه ؛ فقد كان متعصبا لفارس مسقط رأس أمه وزوجه ، شديد الميل الى العلويين . وكان تلميذا ليحيى بن المبارك الزيدى الذى كان يتهم بالاعتزال . ولا شك أن المأمون قد تأثر بأستاذه الذى وكل اليه أمر تأديبه منذ صباه فى أيام الرشيد .

وكان المأمون شديد الولع بعقد مجالس للكلام فى مختلف البحوث . وقد دعاه ذلك الى أن يضم الى مجلسه كل متكلم حاذق بصير بمداخل القول ومخارجه ، مثل أبى الهذيل العلاف وابراهيم بن سيار وثمامة بن أشرس . وكان معجبا بالأخير أشد اعجاب ، حتى لقد عرض عليه الوزارة مرتين فرفضها ، وهؤلاء جميعا من كبار مشيخة الاعتزال . وكان من خاصة جلاس المأمون أحمد بن أبى دؤاد الذى كان يعد من رءوس أهل الكلام ، وكان خطيبا بليغا وشاعرا فصيحا ، وقد قربه المأمون اليه ، ثم جعله المعتصم قاضى قضاته خلفا ليحيى بن أكثم . وكان ابن أبى دؤاد يقول بخلق القرآن .

وكان المأمون — الى جانب ذلك — متأثرا بما ترجم من فلسفة اليونان ومنطقهم ، ويقول عنه السيوطى : « وبرع فى الفقه والعربية وأيام الناس ، ولما كبر عنى بالفلسفة وعلوم الأوائل ومهر فيها ، فجره ذلك الى القول بخلق القرآن »[1] .

كل هذه الأمور مجتمعة خلقت من المأمون شخصا يحب الحرية

---

(1) تاريخ الخلفاء ص ٣١٠ .

ويكلف بها كلفا لا حد له . وقد بلغ من حبه للحرية الفكرية أن أباح للمسيحيين حرية المناقشة فى أى الدينين أفضل : الاسلام أم المسيحية ؟ . وفسح فى المجال أمام العلماء فى مجلسه ، ليتناقشوا فى نظريات كان البحث ممنوعا فيها ، كعلاقة الانسان بخالقه ، وطبيعة الألوهية وغير ذلك . وكان يعتقد بالقول بخلق القرآن ، وأخيرا أعلن تأييده لهذا المذهب مخالفا بذلك العقيدة السائدة التى تقول ان القرآن أزلى غير مخلوق .

ومن ذلك نستخلص أن المأمون قد نهج فى حياته العقلية نهجا فيه شيء من الشذوذ بالقياس الى أسلافه الخلفاء .

ويحدثنا المؤرخون عما سمى فى مصر « بالبدع المأمونية الأربع » [1] : فالبدعة الأولى هى لبس الخضرة وتقريب العلوية وابعاد بنى العباس . ويذكر أبو الفدا أن المأمون فى سنة ٢١٢ : « أظهر القول بخلق القرآن وتفضيل على بن أبى طالب رضى الله عنه على جميع الصحابة ، وقال هو أفضل الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم » [2] . ويقول صاحب تاريخ الخلفاء ان المأمون « فى سنة ٢١٢ أظهر القول بخلق القرآن مضافا الى تفضيل علىّ على أبى بكر وعمر ، فاشمأزت النفوس منه ، وكاد البلد يفتتن ، ولم يلتئم له من ذلك ما أراد فكف عنه سنة ٢١٨ » [3] . ويقول قبيل ذلك انه « أى المأمون » أمر بأن ينادى : « برئت الذمة ممن

---

(١) عصر المأمون ٢٩٣/١ .
(٢) تاريخ ابى الفدا ٣١/٢ .
(٣) تاريخ الخلفاء ص ٣١٣ .

ذكر معاوية بخير ، وان أفضل الخلق بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم على بن أبي طالب » . وقد ثار عليه بنو رحمه ، وتزلزل تحته كرسى الخلافة لولا ارتجاعه .

والبدعة الثانية القول بخلق القرآن . والبدعة الثالثة ما كتبه الى نائبه ببغداد أن يأخذ الجند بالتكبير اذا صلوا الجمعة وبعد الصلوات الخمس . ثم أباح المأمون سنة ٢١٥ زواج المتعة فقال الناس : هذه بدعة رابعة . ولم يعدل عن اباحة المتعة الا بعد أن أقام عليه الحجة القاضى يحيى بن أكثم [1] . فقد بين له أن زوجة المتعة ليست زوجة وليست ملك يمين ، ولذلك لا ترث ولا تجب نفقتها ولا ينسب الولد منها كما هو الشأن فى الزوجة الشرعية ، والله تعالى يقول : « والذين هم لفروجهم حافظون الا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فانهم غير ملومين ، فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون » . وعلى ذلك يكون زواج المتعة زنا ، وعامة أهل الاسلام على هذا سوى الشيعة والرافضة .

وهكذا كان المأمون متقلبا فى آرائه وشعوره ، سواء فى ذلك المسائل السياسية والمسائل الدينية . ويرجع هذا التقلب — فيما يرى الأستاذ « وليم موير Sie William Muir » فى كتابه « الخلافة » — « الى نزعته الفارسية التى ورثها عن أبيه وأمه ، والبيئة التى ربى فيها من جهة ، والى غريزة حبه للاستسلام بتأثير من حوله ، كما كان حاله مع الفضل بن سهل من جهة

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ص ٢١٠ للمرحوم الشيخ الخضرى .

أخرى » [1] . فلا عجب اذا نشأ عن ذلك كله فى السنوات الأخيرة من حكم المأمون مزيج من حرية الأفكار والتعصب كان من أقوى العوامل فيما لحق الدولة بعده من ضعف وانحلال .

ولقد أثار المأمون بمسألة خلق القرآن فتنة كبيرة ، جعلت المسلمين يختلفون فيما بينهم اختلافا شديدا . وقد أراد أن يحمل الناس على القول بذلك بحد السيف ، فكتب وهو فى مصيفه بالرقة الى نائبه على بغداد اسحاق بن ابراهيم الخزاعى (ابن عم طاهر بن الحسين) كتابا يأمره بامتحان العلماء يقول فيه : « وقد عرف أمير المؤمنين أن الجمهور الأعظم والسواد الأكبر من حشوة الرعية وسفلة العامة .. أهل جهالة بالله وعمى عنه وضلالة عن حقيقة دينه .. الخ » [2] . وفى هذا الكتاب يحمل المأمون حملة شعواء على أهل السنة والجماعة ، لأنهم لا يؤمنون بمقالته ، ويأمر نائبه بأن يجمع من بحضرته من القضاة ، ويقرأ عليهم كتابه ، ويرى رأيهم فيه ، وأن يكتب اليه بعد ذلك عمن امتنع ، ويقول المأمون مهددا : « وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين فى عمله ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته بمن لا يوثق بدينه وخلوص توحيده ويقينه .. وأنه لا توحيد لمن لم يقر بأن القرآن مخلوق » . وهناك رسالة معروفة باسم « رسالة الحيدة » تشير الى المناظرة التى جرت بين عبد العزيز بن يحيى المكى وبين بشر ابن غياث المريسى بحضرة المأمون فى مسألة خلق القرآن ، وفيها

---

(1) The Califate, Its Rise, Decline and Fall. P. 509.

(2) اقرأ هذا الكتاب فى تاريخ الخلفاء ص ٣١٣ .

يقول عمرو بن مسعدة كاتب المأمون لعبد العزيز بن يحيى قبيل المناظرة : « أيها الرجل قد حملت نفسك على أمر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهها ، وتعرضت لما لا قوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك الا السيف . فانظر لنفسك وبادر أمرك قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة فلا تنفع الندامة ، ولا يقبل منك معذرة ولا تقام لك عثرة » [١] .

وقد أمر المأمون بأن يكتب الى الآفاق بذلك مع التهديد والايعاد ، وقد أجاب بعض العلماء تقية لا ايمانا بالرأى ، فكان يحيى بن معين وغيره يقولون : « أجبنا خوفا من السيف » [٢] . وامتنع كثير من الأئمة فأشخصوا الى المأمون ، وعلى رأسهم أحمد ابن حنبل وبشر بن الوليد الكندى وأبو حسان الزيادى وغيرهم [٣] ، فأوذوا فى سبيل ذلك ايذاء شديدا , وأمر الامام ابن حنبل معروف ؛ فقد أبى عليه ايمانه وشممه أن يتبع التقية ، فجهر بمخالفة هذا الرأى « واحتج على أن الله يرى ، وأن القرآن غير مخلوق بالحجج العقلية والسمعية » [٤] ، فلاقى من ضروب التعذيب ما تقشعر منه الأبدان [٥] . وقد أمر الخليفة المعتصم بضربه سنة ٢٢٠ حتى تقرحت رجلاه ، ثم حبسه ، ويقال انه مات فى الحبس ، ولم يسمع

---

(١) أمراء البيان ٢٠٩/١ .
(٢) تاريخ الخلفاء ص ٣١٥ .
(٣) المصدر نفسه .
(٤) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٧ .
(٥) انظر وفيات الأعيان ١٧/١ .

أشهر من جنازته ؛ فقد حضرها ستمائة ألف رجل وستون ألف سيدة [١] . وقد وضع الأستاذ « و . م . پاتون W. M. Patton » رسالة قيمة عنوانها « أحمد بن حنبل والمحنة [٢] Ahmed B. Hanbal and The Mihna » بيّن فيها باسهاب موقف الامام ابن حنبل من هذه المحنة وما لاقاه فى سبيل عقيدته من قسوة واضطهاد .

أفرأيت كيف أوذى هذا العالم الجليل بسبب تلك المشكلة التى سماها الناس « محنة » ، وهو الذى يقول الامام الشافعى فى حقه : « خرجت من بغـداد وما خلفت أتقى ولا أفقـه من ابن حنبل » [٣] . ويقول فيه أبو ثور : « لو أن رجلا قال ان أحمد ابن حنبل من أهل الجنة ما عنف على ذلك ؛ وذلك أنه لو قصد رجل خراسان ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح . وكذلك لو قصد الشام ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صـالح . وكذلك لو قصد العراق ونواحيها لقالوا أحمد بن حنبل رجل صالح . ولو عنف هذا على قوله بطل الاجماع » [٤] .

وقد أرسل ابن حنبل رسالة الى المتوكل يقول فيها : « لا أحب الكلام فى شىء من ذلك الا ما كان فى كتاب الله أو فى حديث عن

---

(١) الفهرست ص ٢٢٩ ، واقرأ تاريخ ابن حنبل مفصـلا فى كتاب « أحمد بن حنبل » للشيخ محمد أبى زهرة .

(٢) ترجم هذا الكتاب أخيرا الى اللغة العربية .

(٣) وفيات الأعيان ١/١٧ .

(٤) مناقب الامام أحمد لابن الجوزى ص ١٢٤ .

رسول الله صلى الله عليه وسلم أو عن الصحابة والتابعين وأما غير ذلك فان الكلام فيه غير محمود »[1] .

وقد قوى مركز المعتزلة خاصة والمتكلمين عامة حين اعتنق الخلفاء مذهب الاعتزال وآزروا فكرة خلق القرآن بأيدهم وسلطانهم كما عرفنا فى زمن المأمون والمعتصم . وقد حذا الواثق حذو أبيه وعمه ، ويقول المسعودى : « وسلك الواثق فى المذهب « يعنى الاعتزال » مذهب أبيه وعمه من القول بالعدل أى الاعتزال »[2] . فلما جاء المتوكل انصرف عن المعتزلة فانصرفوا عنه ، وكاد لهم وكادوا له .

وكان المعتزلة ينتهزون فرصة قوتهم ليوقعوا بأعدائهم من أهل السنة . وبلغ من غلوهم فى نشر رأيهم وتعصبهم لبدعتهم أنه لما حدثت مفاداة بين الأسرى المسلمين والأسرى الروم فى زمن الواثق سنة ۲۳۱ أرسل أحمد بن أبى دؤاد رسولا من قبله يمتحن الأسرى فى ميولهم الدينية ، حتى لا يفدى منهم من لا يقول بخلق القرآن[3] .

وقد أنكر هذه البدعة سائر المسلمين ، وأيدهم فى انكارها فريق منهم مكّن الله لهم فى الجنوب الغربى من أوربا ، وهم مسلمو الأندلس . وكان يعاصر المأمون منهم « الحكم بن هشام » ثالث

---

(۱) تفسير سورة الاخلاص ص ٤٩ .
(۲) مروج الذهب ۲ /۲۷۸ .
(۳) الدولة العباسية ص ١٤٥ .

أمراء بنى أمية، ثم ابنه عبد الرحمن. وقد قال شاعرهم أبو خلف المعافرى :

لا والذى رفع السما ء بغير عمد للنظر
ما قال خلق فى القرا ن بخلقه الا كفر
لكن كلام منزل من عند خلاّق البشر [1]

ولقد جرّت مشكلة خلق القرآن فى أعقابها أمورا بغيضة ما كان أغنى المسلمين عنها. وابن قتيبة يصور ذلك فيقول : « ولقد ألف الناس قول « غير مخلوق » وأنسوا به، حتى انه ليخيّل الىّ أن رجلا لو ادعى أن العرش غير مخلوق وأن الكرسى غير مخلوق. لوجد لذلك أشياعا ينتحلون السنة » [2]. وغلوا فى ذلك غلوا أوقعهم فى هاوية الزيغ والمروق، فقد « ذهب قوم من منتحلى السنة الى أن الايمان غير مخلوق خوفا من أن يلزمهم أن يقولوا « لا اله الا الله » مخلوق اذ كانت رأس الايمان » [3]. وقد شغل هذا الأمر طائفة من أهل العلم فى زمن ابن قتيبة، فقال بعضهم : « ان كان المراد بالايمان المدلول عليه باسم « المؤمن » من أسماء الله الحسنى فهو كباقى صفاته سبحانه قديم غير مخلوق. وان كان المراد الايمان المقابل للكفر من فعل العبد فمخلوق كبقية أفعال العباد ». وقال آخرون : « ان فى الايمان جهتين : جهة كونه هداية من الله والهادى كباقى أسماء الله الحسنى، وجهة كونه كسبا للعبد

---

(١) نفح الطيب ١/١١٧ .
(٢) الاختلاف فى اللفظ ص ٦٨ .
(٣) الاختلاف فى اللفظ ص ٦٧ .

فيكون كبقية أكساب العباد » . أما رأى ابن قتيبة فهو أن « الايمان مخلوق لأنه لفظ باللسان وعقد بالقلب واستعمال للجوارح، وكل هذه أفعال للعباد، ثم كل هذه غرائز ركبها الله فى العباد وسماها الرسول صلى الله عليه وسلم ايمانا »[1] . وهو قريب من الشق الأول من الرأيين السابقين .

وقد ذهب قوم — جريا على هذا النمط — الى أن روح الانسان غير مخلوقة ، واستدلوا على ذلك بقوله تعالى فى آدم « فنفخت فيه من روحى » ، ونسوا أن ذلك هو النصرانية بعينها كما يقول ابن قتيبة ، وهو يستطرد فيقول انه قد أجمع على أن الله فالق الحب وبارىء النسمة ، أى خالق الروح ، ويستشهد بقول النابغة الجعدى :

من نطفة قدرها مقدرها يخلق منها الانسان والنسما

والحق أن رد ابن قتيبة ضعيف ، لأن من الجائز أن يكون المراد « ببارىء النسمة » جاعل الروح فى الجسد . ويقول بعضهم ان الروح مخلوقة منذ أن فطر الله السموات والأرض ، فاذا اكتمل الجنين بث الخالق القادر فيه الروح . ثم ان بيت النابغة الجعدى لا ينهض دليلا .

وقد كان ابن قتيبة ممن خالفوا القول بخلق القرآن بطبيعة الحال . ويذكر بعضهم أن لابن قتيبة كتابا يسمى « الرد على القائل بخلق القرآن » ، ولكن هذا الكتاب لم يصل الينا . بيد

---

(١) الاختلاف فى اللفظ ص ٧٠ .

أنه بسط رأيه في هذه المشكلة في أحد كتبه التي بين أيدينا ، وهو كتاب « الاختلاف في اللفظ والرد على المشبهة والجهمية » .

ويبدو لي أن ابن قتيبة لم يشترك في هذه المحنة اشتراكا عمليا ، لأنه كان — في العهد الذي نادى فيه المأمون — بخلق القرآن — لا يزال في المهد صبيا . فقد ولد ابن قتيبة ٢١٣ وتوفي المأمون سنة ٢١٨ . وفي زمن المعتصم كان غلاما رطب العود لا يقوى عقله على أن يشارك في هذه المحنة ، وقد توفي المعتصم سنة ٢٢٧ . ويمكن أن يقال ان ابن قتيبة ربما شارك فيها في أواخر عهد الواثق الذي توفي سنة ٢٣٢ ، وقد أصبح فتى يافعا يقدر على أن يأخذ بنصيبه من هذه الأحداث ، ولكن لم يرد له ذكر بين هؤلاء الذين امتحنوا في عقيدتهم فآثر بعضهم التقية ، وأصر البعض الآخر على القول بأن القرآن غير مخلوق ، مع أن ابن قتيبة أبعد ذكرا وأسمى منزلة بين العلماء من بشر بن الوليد الكندي وأبي حسان الزيادي وغيرهما من أهل السنة الذين ورد ذكرهم في هذه المحنة .

ويغلب على ظني أنه ألف كتابه في الرد على القائلين بخلق القرآن في زمن المتوكل ، لأن هذا الخليفة خالف سالفيه وانصرف عن المعتزلة الى أهل السنة . أضف الى ذلك أنه كان على صلة بوزيره أبي الحسن عبيد الله بن يحيى بن خاقان .

وكان ابن قتيبة جزعا متألما لما آلت اليه حال المسلمين بسبب هذه المشكلة ، فقد جرت عليهم الأحقاد ، وبثت بينهم الفرقة ، فجرح بعضهم البعض ، وأكفر بعض الآخر . وقد عز عليه أن يدب

الخلاف بين أهل السنة أنفسهم بسبب هذه المسألة التى أوجدها فى الأصل أهل الكلام . وهو يرى أن الأمر هين لا يدعو الى هذا الخلاف لأن لكلٍّ وجهة هو موليّها . ولعل من أهم الأسباب التى حدت به الى تأليف كتابه « الاختلاف فى اللفظ » محاولة التوفيق بين الفريقين المختلفين من أهل السنة . ومنه نستطيع أن نقف على رأيه فى مسألة خلق القرآن :

يقول ابن قتيبة : « ثم انتهى بنا القول الى ذكر غرضنا من هذا الكتاب من اختلاف أهل الحديث فى اللفظ بالقرآن وتشانئهم واكفار بعضهم بعضا . وليس ما اختلفوا فيه مما يقطع الألفة ، ولا مما يوجب الوحشة »[1] . وهو يرى أن سر اختلافهم ناجم من أنهم « لم يكن معهم آلة التمييز ولا فحص النظارين ولا علم أهل اللغة »[2] . ومضى ابن قتيبة فقال بعد ذلك : « ان القراءة قد تكون قرآنا لأن السامع يسمع القراءة ، وسامع القراءة سامع القرآن ، وقال الله عز وجل : « فاستمعوا له » ، وقال : « حتى يسمع كلام الله » . والعرب تسمى القراءة قرآنا ، قال الشاعر فى عثمان بن عفان رضى الله عنه :

ضحّوا بأشمط عنوان السجود به
يقطّع الليـــــل تسبيحا وقرآنا

أى « تسبيحا وقراءة » . وقال أبو عبيد : « يقال قرأت قراءة وقرآنا بمعنى واحد » ، فجعلهما مصدرين لقرأت ، وقال الله تعالى

(١) الاختلاف فى اللفظ ص ٥٠ .
(٢) الاختلاف فى اللفظ ص ٥١ .

« وقرآن الفجر ان قرآن الفجر كان مشهودا » أى قراءة الفجر . فيعتقد واحد من هذه الجهات أن القراءة هى القرآن غير مخلوق ، ويفكر آخر فى القراءة فيجدها عملا » . ويبحث ابن قتيبة عن وجه للتوفيق بين الفريقين يوحى به التخريج اللغوى السابق فيقول : « وعدل القول فيما اختلفوا من القراءة واللفظ بالقرآن أن القراءة لفظ واحد يشتمل على معنيين : أحدهما عمل والآخر قرآن ، الا أن العمل لا يتميز من القرآن كما يتميز الأكل من المأكول ، فيكون المأكول الممضوغ والمبلوع ، ويكون الأكل المضغ والبلع . والقرآن لا يقوم بنفسه وحده كما يقوم المأكول بنفسه وحده ، وانما يقوم بواحدة من أربع « كتابة أو قراءة أو حفظ أو استماع » . ثم أراد أن يوضح ذلك فقال : « فهو (أى القرآن) بالعمل فى الكتابة قائم ، والعمل خط وهو مخلوق ، والمكتوب قرآن وهو غير مخلوق . وهو بالعمل فى القراءة قائم ، والعمل تحريك اللسان واللهوات بالقرآن وهو مخلوق ، والمقروء قرآن وهو غير مخلوق ، وهو بحفظ القلب قائم فى القلب ، والحفظ عمل وهو مخلوق ، والمحفوظ قرآن وهو غير مخلوق . وهو بالاستماع قائم فى السمع ، والاستماع عمل وهو مخلوق ، والمسموع قرآن غير مخلوق » [1] . وأراد أن يقرّب ذلك الى الأفهام فقال : « مثل لون الانسان لا يقوم الا بجسمه ، ولا تقدر أن تفرّ اللون فى وهمك حتى يكون متميزا من الجسم . وكذلك

---

(١) انظر الاختلاف فى اللفظ ص ٦٣ وما بعدها .

القدرة لا تقدر أن نفردها عن الجسم . وكذلك الاستطاعة والحركة ، كل واحدة منهما لا تفرد ، وانما تقوم بالجسم والجارحة ولا تنفرد عنهما . كذلك القرآن يقوم بتلك الخلال الأربع التى ذكرناها ، ولا يستطيع أحد أن يتوهمه منفردا عنها ، فاذا قلت : قرأت أو تلوت أو لفظت ، دل قولك على فعل وقرآن ؛ كل واحد منهما قائم بالآخر غير متميز منه .. فان قال قائل : ما تقول فى القراءة ؟ قلت : قرآن متصل بعمل ، فان قال : أمخلوق هو أم غير مخلوق ؟ قلت : سألت عن كلمة واحدة تحتها معنيان : أحدهما مخلوق وهو العمل ، والآخر غير مخلوق وهو القرآن » . وشبه ذلك « برجلين نظرا الى جمرة فقال أحدهما : هى جسم ، وقال الآخر : هي نار ، فهما صادقان ، لأن كلا منهما ذكر شيئا ذا معنيين بأحد معنييه » .

وبذلك استطاع ابن قتيبة أن يقف من هذه المشكلة موقفا وسطا بيّن فيه أنه لا خلاف بين أهل السنة فى هذه المشكلة التى شغلت المسلمين حقبة طويلة امتلأت بالاضطهاد والتصدى .

وأنا أرى أن ابن قتيبة قد وفق فى ذلك أيما توفيق ، وساعده على ذلك المامه الواسع بألفاظ اللغة ووقوفه على أسرارها .

وهنا أرى لزاما علىّ أن أذكر أن الرواة ذكروا أن الامام « البخارى » قد ابتلى كذلك بهذه الفتنة ، وكان ممن يتوسط فيها [1] . وأنا لا أستطيع أن أقرر بطريق الجزم أى الرجلين أخذ

---

(1) انظر تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلانى ٩/٤٧ وشذرات الذهب ٢/١٣٤ .

من الآخر ، لأن الاثنين كانا متعاصرين ؛ فقد مات البخـــارى سنة ٢٥٦ ، ومات ابن قتيبة بعده بعشرين عاما ، وكانا تلميذين لاسحاق بن راهويه فى وقت واحد .

وعلى أية حال فقد فصّل ابن قتيبة الرأى ووضّحه بالأمثلة الكثيرة التى تعتمد على الثقافة اللغوية .

الفصل الخامس

مذهب ابن قتيبة

في الواقع لا نستطيع أن نجزم برأى فى مذهبه الفقهى . ويبدو لى أنه لم يكن مجتهدا ، له مذهب خاص فى الفقه كأغلب علماء عصره . ومن المحقق أنه لم يكن شافعيا ولا مالكيا ولا حنفيا ؛ اذ لم يذكره السبكى فى طبقات الشافعية ، ولم يرد له ذكر فى « الديباج المذهب » لابن فرحون بين المالكية كما ذكر ابنه القاضى أبا جعفر أحمد ، مع أن ابن حجر العسقلانى يذكر أن بعضهم يقول : « انه يذهب الى مذهب مالك » [1] . وخلا كذلك كتاب « طبقات الحنفية » للكنوى من اسمه ، ولم يذكره صاحب « الجواهر المضية فى طبقات الحنفية » .

ولكن الذى لا شك فيه أنه كان يميل الى أحمد بن حنبل ، ويذهب مذهبه فى الأخذ بالحديث ، وبذلك تكون نسبته الى أحمد كنسبة البخاري الى الشافعى. ويقول الامام ابن تيمية : « وابن قتيبة من المنتسبين الى أحمد واسحاق والمنتصرين لمذاهب السنة

---

(1) لسان الميزان ٣/٣٥٧ .

المشهورة » (١) . وبمثل ذلك يقول صاحب كتاب « التحديث بمناقب أهل الحديث » كما يقول العلماء . وينكر الدكتور اسحاق موسى الحسينى فى رسالته أثر ابن حنبل فى ابن قتيبة ، ويرى أن ذلك الأثر يرجع الى ابن راهويه وحده ، ويعلل ذلك بأنه لم يجهر بمخالفة القائلين بخلق القرآن كما فعل ابن حنبل ، وانما اتبع مذهب التقية الذى اعتنقه ابن راهويه عملا بتعاليم الدين التى توجب طاعة الامام على أية حال (٢) . وهذا التعليل لا يلقى منى قبولا ، لأن ابن قتيبة لم يرد له ذكر ابان اشتداد هذه المحنة فى زمن مؤيديها من الخلفاء ، لأنه كان غلاما حدثا وقتذاك . هذا الى أن الذين اتبعوا التقية لم يلجئوا اليها الا نجاة بأنفسهم ، لا عملا بتعاليم الدين . لأن ابن راهويه وابن قتيبة يعلمان حق العلم أن الرسول يقول : « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » ، ويعرفان كذلك قول أبى بكر : أطيعونى ما أطعت الله فيكم فان عصيته فلا طاعة لى عليكم » . فالدين اذن لا يوجب طاعة ولى الأمر الضال . ثم انه ليس من الحتم أن يتبع التلميذ أستاذه فى كل ميوله وصفاته ، فقد يكون الأستاذ شجاعا جرىء القلب ويكون التلميذ على نقيضه ، ويمكن أن يقال عكس ذلك . على أن ابن راهويه نفسه كان من جلة أصحاب ابن حنبل كما يقول ابن النديم (٣) . وكل ما نقوله هو أن ابن قتيبة تأثر بابن حنبل كرجل حديث .

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .
(٢) انظر رسالة الدكتور الحسينى ص ٨٦ .
(٣) الفهرست ص ٢٣٠ .

ونحن اذا نظرنا الى الامام ابن حنبل وجدنا أنه رجل حديث لا رجل فقه ، فالطبرى لم يعتبر مذهبه بين مذاهب الفقهاء . وذكره المقدسى فى المحدثين لا فى الفقهاء . واقتصر ابن عبد البر فى كتابه « الانتقاء » على الأئمة الثلاثة : أبى حنيفة ومالك والشافعى ، ويفهم ذلك من عنوان الكتاب نفسه . وابن قتيبة نفسه لم يذكره فى كتاب « المعارف » بين الفقهاء . وعدّه بعضهم من أرباب المذاهب ، وبخاصة المتأخرين . والحق أن فقه ابن حنبل يجنح الى الحديث ، فاذا وجد حديثا صحيحا اعتدّ به ولم يلتفت الى غيره ، واذا وجد فتوى من الصحابة عمل بها ، ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوى ، ويكره الفتوى فى مسألة ليس فيها أثر . ولم يترك ابن حنبل كتابا فى الفقه على نمط خاص . وكل ما روى له فى الفقه مسائل سئل عنها فأفتى فيها . فهو فى الواقع ذو أثر فى الحديث أبقى منه فى الفقه . وكان ابن قتيبة أشد اتصالا وأكثر تأثرا بابن راهويه من ابن حنبل . وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان ابن قتيبة كان من أهل السنة الذين يعتدون كثيرا بالحديث ، كما كان يفعل أستاذه أحمد بن حنبل .

وكان ابن قتيبة من أعلم الناس بالفقه والحديث . وابن تيمية يقول فى معرض الرد على ابن الأنبارى : « وليس ابن الأنبارى بأعلم بمعانى القرآن والحديث وأتبع للسنة من ابن قتيبة ولا أفقه فى ذلك ، وان كان ابن الأنبارى من أحفظ الناس للغة ، لكن باب فقه النصوص غير باب حفظ ألفاظ اللغة »[1] .

---

(1) تفسير سورة الاخلاص ص ٩٥ .

والظاهر أن ابن قتيبة كان يعتد « بالاجماع » ، وربما كان يؤثره أحيانا على الحديث لأن الأخير — كما يرى — معرّض للتحريف والتصحيف حين ينقله الناقلون [1] . ويذكر ابن قتيبة أن مالك بن أنس كان يروى الحديث ويتبعه بقوله : « والعمل ببلدنا على كذا وكذا » [2] مما يخالف نص الحديث .

والأمر الذى يدعو الى الغرابة أن الدكتور اسحاق الحسينى يعتبر ابن قتيبة صاحب مدرسة خاصة فى الفقه [3] . وأنا لا أدرى من أى شىء تيسّر له استنباط ذلك . وكل ما عرف له من آراء فقهية لا يعدو رأيه فى أنواع الخمور التى لا تفقد الوعى والتى أحلّتها بعض المذاهب ، وكذلك لعب الشطرنج الذى يجمع الفقهاء على اباحته . والرأى عند ابن قتيبة أن كليهما مكروه ، ولذلك ينصح المسلمين الصالحين باتباع قول عمر بن عبد العزيز رضى الله تعالى عنه : « ان استطعت أن تدع شيئا مما أحلّ الله لك يكون حاجزا بينك وبين ما حرّم عليك فافعل » [4] . وفى الشطرنج يقول ابن قتيبة : « والذى عندى أنها لعب وفيها ما شغل عن ذكر الله وعن الصلاة فأكرهها من غير أن أبلغ بها حد الميسر فى التحريم وحد النرد فى التشبيه به » [5] . وأنا أعزو هذا الى شدة احترازه فى الدين بسبب تقواه العميقة .

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٣٣١ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٣٢ .
(٣) انظر رسالة الحسينى ص ٩٥ .
(٤) كتاب الأشربة ص ٦٤ .
(٥) الميسر والقداح ص ٣٧ .

وقد اختلفوا فى مذهبه الاعتقادى ، فقال بعضهم انه من المشبّهة ، فقد روى الحافظ الذهبى أن الدارقطنى قال : « كان ابن قتيبة يميل الى التشبيه ، منحرفا عن العترة ، وكلامه يدل عليه » [1] . ولكن هذا الكلام مردود فى ذاته لأن لابن قتيبة مؤلفا فى الرد على المشبهة والجهمية ، وربما حذا فى ذلك حذو أستاذه ابن حنبل الذى يقول عنه ابن النديم انه وضع كتابا فى الرد على المشبهة الجهمية [2] . والقارىء لكتاب ابن قتيبة يدرك فى غير خفاء أنه قد شن حملة شعواء على المشبهة ونسبهم الى الافتراء على الله فى أحاديث التشبيه [3] ، ونعى عليهم تفسيرهم لبعض ألفاظ القرآن تفسيرا بغيضا يوافق مذهبهم ، وفيه تجريح لعقيدتهم . وقد أبلى بلاء حسنا فى الرد عليهم يُذكر له بالحمد . وأنت حين تتصفح كتابيه « تأويل مختلف الحديث » و « الاختلاف فى اللفظ » تدرك صدق بلائه فى هذا الميدان ، وتوقن ببراءته من تهمة التشبيه .

ويقول البيهقى انه كان كرّاميا [4] أو يرى رأيهم ، وهم أصحاب « أبى عبد الله محمد بن كرّام » الذى كان ممن يثبت الصفات الالهية ، الا أنه ينتهى فيها الى التجسيم والتشبيه على ما ذكره الشهرستانى [5] . وليس لدينا ما يثبت ذلك .

---

(١) ميزان الاعتدال ٧٦/٢ .
(٢) الفهرست ص ٢٢٩ .
(٣) انظر تأويل مختلف الحديث ص ٧ وما بعدها .
(٤) انظر بغية الوعاة ص ٢٩١ ولسان الميزان ٣٥٧/٣ والنجوم الزاهرة ٧٥١/٣ .
(٥) انظر الملل والنحل على هامش ابن حزم ١٤٤/١ .

والذي لا مرية فيه أن ابن قتيبة من أهل السنة ومن زعمائهم ، وكان لأهل السنة مثل الجاحظ للمعتزلة . ونحن نستشف من كتبه أن معتقداته هى معتقدات أهل السنة .

واختلفوا كذلك فى توثيقه وتكذيبه أى فى كونه صادق الرواية أو كاذبها ؛ فقد نقل السيوطى والداودى وابن حجر عن الحاكم « محمد بن عبد الله النيسابورى » قوله : « أجمعت الأمة على أنه كذاب » . ولكن سائر العلماء أجمعوا على توثيقه كالخطيب البغدادى وابن تيمية والحافظ الذهبى والسيوطى وابن النديم والقفطى والداودى وابن خلكان وابن قاضى شهبة وابن كثير وابن الأثير وابن الجوزى والموسوى وابن العماد الحنبلى وغيرهم، ووضعوه فى المكان الأسمى من الصدق والورع ، وردوا على من جرحه ، ولا يسع الواحد منهم الا أن يقول : « كان ثقة ديّنا فاضلا صادق الرواية » . ويعلق بعضهم على قول الحاكم الذى سقناه ، فيقول الذهبى مثلا : « ان هذه مجازفة قبيحة وكلام من لم يخف الله » ، ثم يقول : « وما علمت أحدا اتهم القتيبى فى نقله مع أن الخطيب قد وثقه » ، ويمضى قائلا : « وما أعلم أن الأمة أجمعت الا على كذب الدجال ومسيلمة » . ويقول السيوطى فى بغية الوعاة : « كان رأسا فى العربية واللغة والأخبار وأيام الناس ، ثقة ديّنا فاضلا » .

وانى أستطيع أن أقول فى اطمئنان ان ابن قتيبة كان رجلا ورعا ، ديّنا ، ثقة ، صادق الرواية .

وهناك شبهة ظالمة وجهت اليه كذلك ، وهى اتهامه بالانحراف

عن أهل البيت الكريم . ولكن النظرة الخاطفة لكتبه تدحض هذه التهمة فى غير عسر وتثبت عكسها ؛ فقد كان ابن قتيبة يميل الى علىّ بن أبى طالب وآله — رضى الله عنهم أجمعين — ميلا شديدا . ونحن نستشف ذلك من ثنايا كتبه فى كل فرصة مناسبة . فهو لا يذكر عليا الا مقرونا بآيات الاجلال والاكبار ، وأحيانا يقرن اسمه بهذه العبارة التى اختص بها الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى « صلوات الله عليه »(1) . ولم يضف ابن قتيبة هذه العبارة الى أحد بعد النبى — فيما أعلم — الا الى علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه . ويتضح ميله الى علىّ وآله من عنايته الملحوظة بالحديث عن أولادهم وأحفادهم حتى زمنه فى افاضة وتفصيل لم يتمتع بهما سائر الخلفاء والصحابة (2) ، ولا يذكر واحدا منهم فى الغالب الا قفاه بهذه العبارة « رحمة الله عليه وعلى آبائه الطاهرين » . ولا يذكر « الحسين » خاصة الا استمطر رضوان الله عليه وصبّ اللعنات على قاتليه (3) . وابن قتيبة لا يقف عند هذا الحد ، بل يحث على حب آل البيت الكريم ، ويرى أن مناصرتهم « خير ما ينفع المرء فى يوم المعاد وآجل الآخرة » (4) .

ولعل سر هذا الحب هو بلاء علىّ كرم الله وجهه فى الاسلام وقرابته الوثيقة من الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم ومصاهرته له ، ثم ما لاقاه الطالبيون من ألوان الاضطهاد والظلم ، مما دعا

(1) انظر عيون الأخبار ١/٣٥ ، ١/٩٩ .
(2) انظر كتاب المعارف ص ٩٠ وما بعدها .
(3) انظر المعارف ص ١٥٩ ، ٢٥١ .
(4) انظر مقدمة الشعر والشعراء .

القلوب الى أن تعطف عليهم وتميل اليهم حتى أيامنا . وقد ألف « أبو الفرج الأصبهانى » كتابا سماه « مقاتل الطالبين » وصف فيه ما نزل بهم من ضروب الايذاء والتقتيل ، مما يخلع الأفئدة ويفتت الأكباد . وابن قتيبة — كانسان مسلم نبيل — يجزع من الظلم والبغى ، وبخاصة اذا وقع ذلك على عترة الرسول صلى الله عليه وسلم .

ولم يكن ابن قتيبة يغلو فى هذا الحب غلواً يفسد عليه دينه كما يفعل أهل الشيعة . فلم يكن يضيف الى علىّ مالم يأت به الدين ، ولم يكن يغمطه حقه من شرف المكانة وصدق البلاء بين الصحابة والمسلمين جميعا . ولذلك نراه يلوم المتطرفين من الجانبين فيقول : « وقد رأيت هؤلاء أيضا حين رأوا غلوّ الرافضة فى حب علىّ وتقديمه على من قدّمه رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته عليه ، وادعاءهم له شركة النبى صلى الله عليه وسلم فى نبوته ، وعلم الغيب للأئمة من ولده ، وتلك الأقاويل والأمور السرية التى جمعت الى الكذب والكفر افراط الجهل والغباوة ، ورأوا شتمهم خيار السلف وبغضهم وتبرأهم منهم — قابلوا ذلك أيضا بالغلو فى تأخير علىّ كرم الله وجهه وبخسه حقه .. ونسبوه الى الممالأة على قتل عثمان رضى الله عنه ، وأخرجوه بجهلهم من أئمة الهدى الى جملة أئمة الفتن ، ولم يوجبوا له اسم الخلافة لاختلاف الناس عليه ، وأوجبوها ليزيد بن معاوية لاجماع الناس عليه ، واتهموا من ذكره بغير خير . وتحامى كثير من المحدثين أن يحدثوا بفضائله كرّم الله وجهه أو يظهروا ما يجب له ، وجعلوا

ابنه الحسين عليه السلام خارجيا ، شاقا لعصا المسلمين ، حلال الدم لقول النبى صلى الله عليه وسلم : « من خرج على أمتى وهم جميع فاقتلوه كائنا من كان » .. وإن ذكر ذاكر قول النبى صلى الله عليه وسلم : « من كنت مولاه فعلىّ مولاه » و « أنت منى بمنزلة هارون من موسى » وأشباه هذا التمسوا لتلك الأحاديث المخارج لينتقصوه ويبخسوه حقه بغضا منهم للرافضة والزاما لعلىّ عليه السلام بسببهم مالا يلزمه . وهذا هو الجهل بعينه »[1] . ثم يبين ابن قتيبة إيثاره للقصد والانصاف فيقول : «والسلامة لك ألا تهلك بمحبته ولا تهلك ببغضه ، وألا تحتمل ضغنا عليه بجناية غيره . فان فعلت فأنت جاهل مفرط فى بغضه . واللازم أن تعرف له مكانه من رسول الله صلى الله عليه وسلم بالتربية والأخوة والصهر والصبر فى مجاهدة أعدائه وبذل مهجته فى الحروب بين يديه ، مع مكانه فى العلم والدين والبأس والفضل ، من غير أن تتجاوز به الموضع الذى وضعه به خيار السلف لما تسمعه من كثير من فضائله ، فهم كانوا أعلم به وبغيره ، ولأن ما أجمعوا عليه هو العيان الذى لا يشك فيه »[2] .

هذا هو رأى ابن قتيبة فى علىّ وآل بيته الكرام . ومنه نعرف أن ابن قتيبة كان يكنّ لهم أصدق الحب والاعظام من غير أن ينزلق بعقيدته الى مهاوى الزيغ والمروق . فمن الظلم الصارخ أن يتهمه بعض خصومه بأنه كان منحرفا عن العترة الكريمة رضى الله عنهم أجمعين .

---

(١) الاختلاف فى اللفظ ص ٤٧ . (٢) المصدر نفسه .

الفصل السادس

ابن قتيبة المحدث

لم يكن ابن قتيبة محدثا تحديث البخارى ومسلم وغيرهما من أصحاب الجوامع الذين عنوا بجمع الحديث وسنده وتبويبه ، وانما كان معنيا بناحية أخرى فى الحديث ، تلك هى ناحية الدفاع عنه فى تخريج الأحكام ، وشرح غريبه ، وتأويل مختلفه ، واستبعاد الموضوع منه ، ورد الشبه عن أهله والذود عنهم . وهذا أمر طبيعى لأنه كان زعيم أهل السنة ومن المقدمين فيهم . ويلقبه ابن تيمية « بحجة الأدب المنتصب للدفاع عن أهل الحديث » . فهو فى الحقيقة قد أدى للحديث خدمة من نوع آخر قد لا تقل عن صنيع البخارى وأصحابه . ولا ريب فى أن ذلك كله كان يتطلب منه احاطة واسعة بالحديث وروايته . وقد رواه عن شيخين مشهورين هما اسحاق بن راهويه وأبو حاتم ، فضلا عن الامام ابن حنبل . وقد حدث عنه ابنه القاضى « أحمد وابن درستويه الفارسى »[1] . وكان ابن قتيبة ورعا ، تقيا ، صادقا فيما يرويه

(1) بغية الوعاة ص ٢٩١ ومرآة الجنان ٢/١٩١ .

كما بينا . وابن تيمية يضعه فى أعلى درجات الصدق والورع ، ويذكر أن أهل المغرب كانوا يعظمونه ويقولون : « من استجاز لوقيعة فى ابن قتيبة يتهم بالزندقة »[1] ، ويقولون : « كل بيت ليس فيه شىء من تصنيفه لا خير فيه » . ويعتبر ابن قتيبة حقا من كبار المشتغلين بالحديث وتفسيره ، وله كتب فى غريب الحديث ومشـــكله وتأويل مختلفة . وقد يكون الأدب هو الذى جر ابن قتيبة « الأديب » الى أن يشتغل بغريب الحديث ، وقد يكون العكس هو الصحيح . والمشاهد أن رواة الأدب هم الذين جعلوا غريب الحديث علما وخصوه بالتدوين . وأول من فعل ذلك منهم أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة ٢١١ بعد أن ناهز المائة ، فانه جمع من ألفاظ غريب الحديث كتيبا صغيرا ذا أوراق معدودة[2] ، ويقال انه عرضه على عبد الله بن طاهر فاستحسنه وقال : « ان عقلا بعث صاحبه على عمل مثل هذا الكتاب لحقيق ألا يخرج عنا الى طلب المعاش » ، وأجرى له عشرة آلاف درهم فى كل شهر ، فلزمه ذلك . ثم جمع النضر بن شميل المتوفى سنة ٢٠٤ كتابا أكبر من ذلك شرح فيه وبسط . ثم صنع مثل ذلك عبد الملك بن قريب الأصمعى المتوفى سنة ٢١٣ فأجاد ، وفعل ذلك محمد بن المستنير المعروف « بقطرب » المتوفى سنة ٢٠٦ وغيره من أئمة اللغة . وبعد ذلك جاء أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ ووضع كتابه الذى قرر به هذا الفن . ويقول ابن الأثير فى مقدمة « النهاية »

---

(١) تفسير سورة الاخلاص ص ٨٦ .

(٢) الفهرست ص ٢١١ .

بعد أن أشار الى مؤلفات السابقين لأبى عبيد بن سلام الذين أشرنا اليهم : « واستمرت الحال الى زمن أبى عبيد القاسم بن سلام وذلك بعد المائتين ، فجمع كتابه المشهور فى غريب الحديث والآثار الكثيرة والمعانى اللطيفة والفوائد الجمة ، فصار هو القدوة فى هذا الشأن . وقال فيما يروى عنه : « انى جمعت كتابى هـذا فى أربعين سنة » .. ثم جاء عصر أبى محمد عبد الله بن مسلم ابن قتيبة الدينورى رحمه الله فصنف كتابه المشهور فى غريب الحديث والآثار حذا فيه حذو أبى عبيد ، ولم يودعه شيئا من الأحاديث المودعة فى كتاب أبى عبيد الا ما دعت اليه حاجة من زيادة وشرح بيان ، فجاء كتابه مثل كتاب أبى عبيد أو أكبر منه » . ويذكر ابن الأثير أن ابن قتيبة قال فى مقدمة كتابه : « وقد كنت زمانا أرى أن كتاب أبى عبيد قد جمع تفسير غريب الحديث ، وأن الناظر فيه مستغن به ، ثم تعقبت ذلك بالنظر والتفتيش والمذاكرة ، فوجدت ما ترك نحواً مما ذكر ، فتتبعت ما أغفل وفسرته على نحو ما فسر » [1] . وهذا الكتاب لم يصل الينا . وقد أشار الأزهرى الى أنه تصفح هذا الكتاب ضمن كتب ابن قتيبة [2]

والرواة يذكرون أن كتاب ابن قتيبة كان ضخما عظيما ، وقد قرظه أكثر من واحد . ويذكرون له كتابا آخر اسمه « اصلاح غلط أبى عبيـد فى غريب الحديث » ، ويظهر أنه استدرك فيه على

---

(١) انظر مقدمة « النهاية » لابن الأثير ص ٤ .

(٢) تهذيب اللغة ١/ ١٥ .

أبى عبيد ، وقد يكون هـذا الكتاب هو عين سابقه « غريب الحديث » .

والمرجح أن كتاب « غريب الحديث » من بواكير مؤلفاته ، فقد ألفه قبل « تأويل مختلف الحديث » [1] وقبل كتاب « الأشربة » [2] وقبل « الشعر والشعراء » [3] وقبل « أدب الكاتب » [4] وقبل « عيون الأخبار » [5] لأنه يشير اليه فى تلك الكتب كلها ويحيل عليه .

ومهما يكن من شىء فلا جدال فى أن ابن قتيبة يعتبر من كبار رجال الحديث والمشتغلين به . وان كتبه التى صنفها فيه لتدل على أنه قد وعى منه قدرا ضخما . ومن المحقق أن ولايته لقضاء دينور قد حفزته كذلك الى رواية الحديث ودراسته ليستعين به فى الفصل بين الناس . وكان رجلا متحرزا يخشى الله أشد خشية ، فكان لا يصدر حكما الا اذا اطمأن الى أنه يرتكز على دليل مكين من الكتاب أو السنة . ولهذا نراه يشتغل برواية الحديث وتنقيته والتأليف بين متناقضه وتفسير غريبه والذود عن المحدثين بكل ما أوتى من قوة . ولهذا السبب عينه اشتغل بتفسير بعض آيات القرآن ، ووضع كتابا فى مشكله وغريبه .

وفى كتاب « تأويل مختلف الحديث » — وهو الكتاب الذى

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٤ .
(٢) الأشربة ص ١٠٩ .
(٣) الشعر والشعراء ص ٤٤٢ ليدن .
(٤) أدب الكاتب ص٧١ ليدن .
(٥) عيون الأخبار ٩/٤ .

بقى لنا من كتبه فى الحديث — تتجلى عقليته وسعة أفقه وقوة منطقه فى مناقشة أعداء الحديث من أصحاب الرأى والكلام . وهو يتناول آراء معارضيه فى تؤدة وروية ، ويفندها ، ويبين لهم أنهم يحمّلون الأحاديث مالا ترمى اليه ولا يقصده النبى الكريم ولا يحتمله منطوقها . وهو يؤيد كلامه بالأدلة النقلية والعقلية ، ويبين مدى خطورة آرائهم على الدين ، لأنهم يحدثون ثغرات ينفذ منها أعداء الدين وضعاف الايمان . وقد أشرنا فى فصول سابقة الى محاولاته الرشيدة فى رد المآخذ عن أهل الحديث ، ولهذا اعتبروه زعيمهم والمنافح الأكبر عنهم .

وهذا الكتاب وضعه ابن قتيبة ليوفق بين الأحاديث التى يُدعى فيها التناقض والاختلاف . ولا يتسع المقام هنا لأن أورد جميع محاولاته تلك ، وحسبى أن أسوق لك بعض الأمثلة منها :

« قالوا حديثان متناقضان : رويتم عن وكيع عن الأعمش عن أبى صالح عن أبى هريرة عن النبى صلى الله عليه وسلم أنه قال : « اذا انقطع شسع نعل أحدكم فلا يمش فى نعل واحدة » . ورويتم عن مندل عن الليث عن عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه عن عائشة رضى الله عنها قالت : « ربما انقطع شسع نعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فمشى فى النعل الواحدة حتى يصلح الأخرى » ، قالوا : « وهذا خلاف ذاك » (١) .

وينبرى ابن قتيبة للتوفيق بين الحديثين فيقول : « قال

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٠٨ .

أبو محمد ونحن نقول : ليس هاهنا خلاف بحمد الله تعالى لأن الرجل كان ينقطع شسع نعله فينبذها أو يعلقها بيده ويمشى فى نعل واحدة الى أن يجد شسعا ، وهذا يفحش ويقبح فى النعلين والخفين وكل زوجين من اللباس يستعمل فى اثنين فيستعمل فى واحد ويترك الآخر ، وكذلك الرداء يلقى على أحد المنكبين ويترك الآخر . فأما أن ينقطع شسع الرجل فيمشى خطوة أو خطوتين أو ثلاثا الى أن يصلح الآخر فان هذا ليس بمنكر ولا قبيح » . ثم يقول بعد ذلك : « وحكم القليل يخالف حكم الكثير فى كثير من المواضع . ألا ترى أنه يجوز للمصلى أن يمشى خطوة وخطوتين وخطوات وهو راكع الى الصف الذى بين يديه ، ولا يجوز له أن يمشي وهو راكع مائة ذراع .. ولا يجوز له أن يعمل عملا يتطاول . ويبتسم فلا تنقطع صلاته ويقهقه فتنقطع » . ولعلك توافقنى على أن ابن قتيبة قد وفق فى هذا التأويل أيما توفيق .

وهاك مثلا آخر : « قالوا : حديثان متناقضان ،قالوا : رويتم عن عائشة أنها قالت : ما بال رسول الله صلى الله عليه وسلم قائما قط » . ثم رويتم عن حذيفة أنه بال قائما ، وهذا خلاف ذلك »[1] .

ويرد ابن قتيبة عليهم قائلا : « ونحن نقول ليس هاهنا بحمد الله اختلاف ، ولم يبل قائما قط فى منزله والموضع الذى كانت تحضره فيه عائشة رضى الله تعالى عنها ، وبال قائما فى المواضع التى لا يمكن أن يطمئن فيها اما للثق فى الأرض أو طين أو قذر .

---

(1) تأويل مختلف الحديث ص ١١٠ .

وكذلك الموضع الذى رأى فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم حذيفة يبول قائما كان مزبلة لقوم فلم يمكنه القعود فيه ولا الطمأنينة . وحكم الضرورة خلاف حكم الاختيار » وهذا تأويل سليم يطمئن العقل اليه .

وابن قتيبة — على شدة تعصبه للحديث وأهله — كان يرفض الأحاديث التى يجل عنها مقام النبى الكريم أو التى تجنح الى الخرافات أو تزيد فى شكوك المرتابين ، مثل : « من قرأ سورة كذا وكذا أسكن من الجنة سبعين ألف قصر ، فى كل قصر سبعون ألف مقصورة ، فى كل مقصورة سبعون ألف مهاد .. الخ . ومثل قولهم إن الفأرة يهودية وانها لا تشرب ألبان الابل ، كما أن اليهود لا تشربها [1] . ومثل الحديث الذى قيل عن « عوج ابن عنق » وضخامة جسمه ، وتصوير هذه الضخامة تصويرا لا يصدقه العقل . ومثل أحاديث عرق الخيل ، وعبادة الملائكة ، وقفص الذهب الذى يحمل على جمل أورق [2] . وغير ذلك من الأحاديث الكاذبة التى أضيفت الى النبى كذبا ومينا ، وأنت واجد الكثير منها فى كتاب « تأويل مختلف الحديث » وكلها تحمل فى طياتها دلائل اختلاقها .

وقد اتهمه الدكتور اسحاق الحسينى بأنه كان لا يفرق بين الأحاديث الموضوعة والأحاديث الصحيحة ، وأن جل همه كان موجها الى التوفيق بين الأحاديث المتناقضة والبحث عن الأحاديث

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٩ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٥٤ .

التى يؤيد بها آراءه . وهذا كلام بعيد عن الصواب ؛ فقد رفض ابن قتيبة كثيرا من الأحاديث ، وبيّن أوجه رفضها ، وعرض لأسباب وضع الأحاديث . وهو فى نظرى أول من تعرض لتعليل اختلاق الأحاديث . وهذا دليل كبير على أنه يعترف بوجود أحاديث موضوعة . وقد بذل قصاراه فى التوفيق بين الأحاديث التى يبدو بينها الاختلاف ، ووفق فى ذلك كثيرا فى كتاب « تأويل مختلف الحديث » .

وكل ما آخذه عليه أنه كان فى بعض الأحيان النادرة لا يرد بعض الأحاديث غير المعقولة المنسوبة الى الصحابة ، مستبعدا أن يتعمدوا على الرسول الكذب . وكان فى استطاعته أن يُرجع تلك الأحاديث الى الاختلاق . وربما كان هذا هو السبب فى أن الحاكم اتهمه بالكذب ، وقال مثل ذلك من بعده ابن حجر . والواقع أن الذى جرّ عليه هذه التهمة هو تحرّزه — لشدة تقواه — من اتهام الصحابة بالكذب . ومن ذلك بعض الأحاديث التى ذكرها فى «كتاب العرب » يدعم بها قوله فى تفضيل العرب . ولكنه على العموم رجل صادق متحرز ، وقد شهد له بذلك سواد المؤرخين كما أسلفنا . ولعل الدكتور الحسينى رماه بهذه التهمة لأنه رآه باخعا نفسه وباذلا جهده فى التوفيق بين الأحاديث التى يبدو فيها التناقض ، مع أنه — فى الواقع — لم يكن متعسفا فى التأويل ولا محمّلا الألفاظ مالا تطيق .

ولقد أرجع ابن قتيبة وجود الأحاديث المختلقة الى أربعة مصادر :

١ — الزنادقة الذين يدسون الأحاديث المرذولة عمدا ليشوهوا قول النبى الكريم .

٢ — القصّاص ، فانهم كانوا يجتذبون العوامّ اليهم بذكر الغريب والأكاذيب من الحديث « ومن شأن العوام القعود عند القاص ما كان حديثه خارجا عن فطر العقول » [١] .

٣ — الخرافات التى كانت أخبارا متقادمة يرويها الناس فى الجاهلية ، كقولهم ان الضب كان يهوديا عاقا فمسخه الله تعالى ضبا ، ولذلك قال الناس : « أعق من ضب » [٢] . وكقولهم فى الهدهد ان أمه ماتت فدفنها فى رأسه ، فلذلك أتننت ريحه [٣] . وغير ذلك من الخرافات الغريبة التى أورد ابن قتيبة كثيرا منها فى كتابه .

٤ — أعداء أهل الحديث ، وقد دسوا أحاديث مختلقة ليحطوا من قدرهم وليصوروهم أمام الناس بأنهم ذوو عقول تافهة لا يجوز لأحد أن يأخذ بشرعتهم أو يؤمن بآرائهم .

ويرى ابن قتيبة كذلك أنه كان من أخطر الناس على الحديث هؤلاء الذين لا يحسنون التحديث ولا يفقهون ما يقولون ، فيصحّفون ويخطئون ، ويضيفون — بسبب جهلهم — الى الرسول الكريم أحاديث على هذا الوجه تبرأ منها الشريعة الغراء . وقد ذكر ابن قتيبة أمثلة كثيرة تنبىء عن جهلهم الفاضح . ويصف

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٣٥٨ .
(٢) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٢ .
(٣) تأويل مختلف الحديث ص ٣٦٣ .

هؤلاء المتعالمين بالحديث بأن الناس كانت تقبل عليهم وتأخذ عنهم « وكلما كان المحدث أموق « أى أحمق وغبيا » كان عندهم أنفق ، واذا كان كثير اللحن والتصحيف كانوا به أوثق ، واذا ساء خلقه وكثر غضبه واشتد حدة وعسرة فى الحديث تهافتوا عليه » [1] . وكانوا يعمدون الى المظاهر الشاذة ، ويأتون أفعالا غير مألوفة ليدخلوا فى روع الناس هيبتهم والثقة بهم ، ومنهم رجل يسمى « الأعمش » كان يقلب الفرو ويلبسه ويطرح على عاتقه منديل الخوان ، وقد سأله رجل عن اسناد حديث فأخذ بحلقه وأسنده الى الحائط وقال : هذا اسناده » ، ويقول فيه ابن قتيبة : « ان الأعمش هذا كان يأتى حماقات كثيرة لا نحسبه كان يظهرها الا لينفق بها عندهم » .

ذلك كان صنيع هؤلاء الجهلة وبئس ما كانوا يصنعون . فأين هم من كرام الصحابة الذين كانوا يتحرزون من رواية الحديث ويتوقون الاكثار منها خشية أن يدخلها الشوب والتحريف ، لأن المكثر — وان جاء بالصحيح — قد لا يسلم من الزيادة أو النقصان فى الرواية ؟ أفما كان الأولى بهؤلاء الأفاكين أن يعوا قول النبى الكريم : « من تعمد على كذبا فليتبوأ مقعده من النار » ؟ وأما سمعوا أن أجلة الصحابة كانوا يتحرجون من التوسع فى الرواية كالزبير بن العوام وأبى عبيدة بن الجراح والعباس ابن عبد المطلب ؟ وأما علموا أن بعضهم لا يكاد يروى شيئا ؛

---

(١) تأويل مختلف الحديث ص ١٣ .

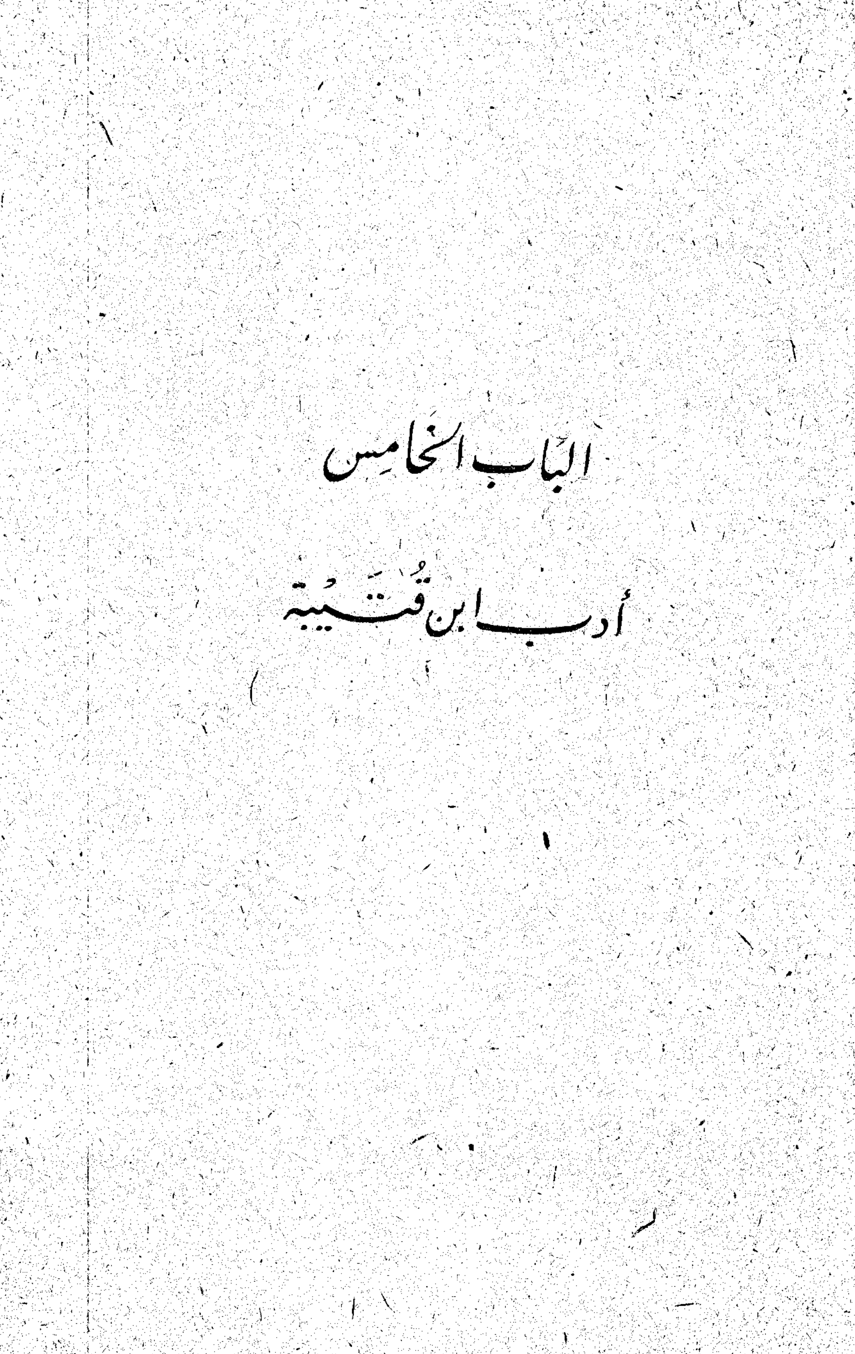
كسعيد بن زيد وهو أحد العشرة المشهود لهم بالجنة ؟ [1] ثم أما عرفوا أن أبا حنيفة لم يصح عنده الا سبعة عشر حديثا ، وأن مالكا — وهو من زعماء أهل الحديث — لم يصح عنده الا ثلثمائة حديث ؟ [2] ألا قبّحهم الله وجعل مثواهم النار وساءت مصيرا .

وبعد : فقد أدركنا الآن أن ابن قتيبة كان واسع العقل ، وأنه كان محدثا من لون آخر ، لا يقتصر فى الحديث على روايته كما صنع أصحاب الصحيحين والمسانيد ، ولكنه يتناوله بالتفنيد تناول الأديب اللغوى الفقيه المنطقى . وهو بذلك يكون قد أدى للحديث خدمة جليلة .

والرواة يذكرون أنه قد حدّث عنه كثير من العلماء ، وعلى رأسهم ابنه القاضى « أبو جعفر أحمد بن قتيبة » و « أبو محمد عبد الله ابن جعفر بن درستويه » . ويقال ان ابنه أحمد حدّث بكتب أبيه كلها بمصر حفظا ، ولم يكن معه كتاب ، وكان قد رحل اليها سنة ٣٢١ وولى قضاءها ومات بها سنة ٣٢٢ هـ [3] . وقد أخذ العلم عن ابنه حفيده « أبو أحمد عبد الواحد بن أحمد بن عبد الله ابن مسلم بن قتيبة » ، وقد ولد فى بغداد فى حياة جده سنة ٢٧٠ وانتقل الى مصر مع أبيه ، وروى فيها كتب جده عن أبيه

---

(١) تاريخ آداب العرب للرافعى ١/٢٧٨ .
(٢) الانتقاء ص ١٢٨ .
(٣) تاريخ بغداد للبغدادى ٤/٣٢٩ ، وتاريخ ابن كثير ١١/٤٨ ، وتاريخ مصر وولاتها الكندى ص ٥٤٦ ليدن .



الباب الخامس

أدب ابن قتيبة

الفصل الأول

خصائص أدب ابن قُتَيبة

ونقصد بالأدب العلوم اللسانية وتشمل الشعر والنثر بأنواعه والنقد والنحو واللغة والأخبار والتاريخ والأنساب . تلك هى العلوم التى كان لابد للأديب أن يلم بها الماما طيبا فى العصر العباسى ، وكانت علوم التفسير والحديث فى ذلك الحين أكثر دخولا فى نطاق الأدب منها فى نطاق الفقه ، لأنها تعتمد على الدراسات اللغوية التى هى من صميم الأدب .

وقد كان ابن قتيبة خير أنموذج للأديب فى ذلك العهد على حد التعريف الذى بينّا ، فقد أصاب من كل علم منها قدرا ضخما جعله مرجعا لطلاب المعرفة والثقافة .

ولقد اتسعت هذه العلوم فى ذلك العصر اتساعا جعل العالم يقصر همه على التخصص فى علم من تلك العلوم . فنرى فى هذا العصر نحاة مثل سيبويه وتلميذه الأخفش الأوسط والكسائى والفراء والمبرد وثعلب ، ولغويين مثل الأصمعى وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة وابن الأعرابى ، ورواة للشعر والأخبار كالمفضل الضبى وخلف الأحمر وتلميذه محمد بن سلام الجمحى وحماد الراوية

وتلميذه الهيثم بن عدى وأبى بكر بن عياش ويموت بن المزرع ، ومؤرخين مثل ابن سعد والبلاذرى والمدائنى وتلميذه الزبير ابن بكار والطبرى . ونرى من بين هؤلاء من له آراء فى النقد .

فاذا عرفنا أن ابن قتيبة لم يقتصر على علم واحد من تلك العلوم ، بل كان ذا حظ وافر فى كل منها ، واذا عرفنا أنه كان رجل دين قد استوعب علومه المختلفة من تفسير وحديث وفقه أيما استيعاب ، واذا عرفنا أنه قد أضاف الى هذه العلوم الدينية واللسانية دراية لا بأس بها بالعلوم التى استحدثت فى عصره ، واذا عرفنا كذلك أنه كان ملما بلغة الفرس وتاريخهم وأحوالهم — أقول اذا عرفنا ذلك كله أدركنا أن هذا الرجل كان موسوعة علمية تمثل ثقافة ذلك العصر خير تمثيل كما قلنا .

فابن قتيبة عالم أديب قد ألمّ بجميع آلات الأدب وما يتصل به . ولقد وضع لنا حدا للعالم والأديب لا أرى بأسا من ذكره مرة أخرى فقال : « من أراد أن يكون عالما فليطلب فنا واحدا ، ومن أراد أن يكون أديبا فليتسع فى العلوم » [1] . فمن الحق له علينا أن نختصه اذن بصفة « الأديب » دون غيره ، لأنه نهل من موارد جميع العلوم . ثم أراد أن يزيد ذلك تقريرا فقال : « اذا أردت أن تكون عالما فاطلب فنا واحدا ، واذا أردت أن تكون أديبا فتفنن فى العلوم » [2] . وهو فى الواقع يقرر معنى كلمة « الأدب » الواسع الذى كان يفهم منها فى ذلك الحين . وقد أدرك العلماء ذلك ؛

---

(١) العقد الفريد ٢/٢٠٨ ط لجنة التأليف .
(٢) العقد الفريد ٢/٤٢٣ .

فيقول عنه ابن النديم : « كان ابن قتيبة عالما باللغة والنحو وغريب القرآن ومعانيه والشعر والفقه ، كثير التصنيف والتأليف » [1] .
ويقول عنه ابن الأنبارى : « كان فاضلا فى اللغة والنحو والشعر متفننا فى العلوم » [2] . ويقول ابن كثير : « هو صاحب المصنفات البديعة المفيدة المحتوية على علوم جمة نافعة » [3] . ويقول مثل ذلك كل من ترجموا له .

ويطلق بعضهم عليه لفظ « النحوى » ولفظ « الكاتب » و « الكاتب العالم » و « الفقيه اللغوى » [4] . ويصفه الموسوى وصفا جامعا فيقول : « هو الشيخ الامام المتقدم الأديب أبو محمد عبد الله بن مسلم اللغوى النحوى .. الخ » [5] .

ولم يعرف عن ابن قتيبة أنه نظم شعرا . وقد ذكر له ابن قاضى شهبة فى طبقاته ثلاثة الأبيات الآتية فى الغزل :

يا من مودته بالعيـــــان . فان غاب كانت مـــع الغائب
يـــا من رضى لى من وده بفعل امـــرىء قاطع قاضب
بأية جـــرم قد أقصيتنى وألقيت حبلى على غاربى [6]

وهذه الأبيات لا تحمل روح ابن قتيبة ، اذ ليس من المعقول أن يصدر عن هذا الرجل الجاد المتوقر مثل هذا الشعر . ولو كان

---

(١) الفهرست ص ٧٧ .
(٢) نزهة الألباب ص ٢٧٢ .
(٣) البداية والنهاية ٤٨١/١١ .
(٤) الأنساب ص ٤٤٣ وطبقات ابن قاضى شهبة ٥٢/٢ .
(٥) روضات الجنات ص ٤٤٧ .
(٦) طبقات ابن قاظى شهبة ٥٢/٢ .

لابن قتيبة شعر لدوّنه فى مؤلفاته . وقد ذكر فى عيون الأخبار كتاب اعتذار له لا يتجاوز السطرين ثم ذيله بقوله : وحضرنى هذا البيت على ارتجال فوصلت به قولى :

لك الحق ان تعتب علىّ لأننى
جفوت واما تغتفر فلك الفضل [1]

وهذا البيت هو الشعر الوحيد الذى لا يشك فى نسبته الى ابن قتيبة .

والمعروف أن ابن قتيبة تلقّى علومه الأدبية فى المدرسة الأصمعية التى كان لأستاذها الأول الفضل الأكبر فيما وصل الينا من لغة وشعر وأخبار . ويبدو لى من كتب ابن قتيبة أن الفضل فيما قدمه لنا من ذخيرة أدبية يرجع الى أستاذه أبى حاتم السجستانى أحد تلاميذ المدرسة الأصمعية ، وكان هذا الأستاذ دقيق الفهم لمعانى النصوص واستخراج المعمى من الشعر ، مع علم واسع باللغة والاعراب [2] كما يقول أبو الطيب بن على اللغوى . وتتصل معظم روايات ابن قتيبة بهذا الأستاذ العظيم . وكان أبو حاتم سببا فى أن يقف تلميذه ابن قتيبة على اتجاه مدرسة أخرى كانت تعاصر مدرسة الأصمعى فى البصرة وهى مدرسة أبى عبيدة معمر بن المثنى الذى أخذ السجستانى منها أيضا قدرا طيبا من الحديث واللغة . ولم يتردد ابن قتيبة فى أن يأخذ ما يعجبه من مدرسة الكوفة على الرغم من معارضتها لمدرسة البصرة حين

(١) عيون الأخبار ٢/١٠٢ .
(٢) مراتب النحويين ص ١٢٢ مخطوط .

نزح علماؤها الى بغداد ، لأنه كان مولعا بالعلم أيّا كان لونه ومنبعه ، ولهذا نراه يروى للأصمعى كما يروى للفراء والمفضل الضبى .

وقد صقل ذهنه اطلاعه على نتائج القرائح الفارسية فى لغته الأصيلة وقراءته للمؤلفات الأجنبية التى ترجمت الى العربية حتى زمنه ، وتبلورت فى ذهنه كل هذه الثقافات المتنوعة التى لم تجتمع لأحد من معاصريه ، فخرج على الناس بهذه الآراء الثورية فى النقد الأدبى ، وسنعرض لها بالتفصيل فى فصل خاص .

وليس من العجيب أن يكون موقف ابن قتيبة من الأدب مناقضا لموقفه من الفقه والتشريع ؛ فقد رأينا فى الفصول السابقة أنه كان يأخذ نفسه بقيود النصوص القرآنية والسنية ما أمكنه ذلك ، ولاقى فى سبيل ذلك عناء شديدا ، ولكنه يرى أن يتحرر النظر فى الأدب من كل قيد ، وهذا فى رأيى فهم رشيد ، ذلك أنه يخشى على الدين أن تثلم حرمته الحرية الفكرية المطلقة ، ولكنه يرى أن الأدب لا ينهض ولا يرقى الا اذا أظلّت مقاييسه الحرية بأوسع معانيها .ولهذا نراه يدرس كل أنواع الشعر مهما تباينت أغراضها ، فلا يمنعه دينه ووقاره من أن يظهر اعجابه بالشعر الخليع فى الغزل والخمر اذا وجد فيه فنا قويا آسرا .

ولا شك أن أفكاره الأدبية كانت مسايرة للتطور الفكرى فى هذا العصر الذهبى الذى كان ميدانا للصراع بين المذاهب القديمة والحديثة . ولهذا نرى كتبه معبرة أصدق تعبير عن الاتجاهات الثقافية التى تمخض عنها هذا العصر .

وليس هناك ريب فى أن ابن قتيبة قد تناول آراء سابقيه بذوق رفيع وثقافة عالية وعقل مرتب مصقول ، ففندها وأسبغ عليها شخصيته واستخلص منها آراء جريئة كان لها أثر بعيد فى النقد الأدبى . ويمكننا أن نقول ان هذه الآراء قد حسمت النزاع بين المدرستين القديمة والحديثة وقضت للأخيرة بالانتصار ، وكانت القنديل الذى أنار الطريق أمام نقاد الأدب فيما بعد .

وتمتاز كتب ابن قتيبة الأدبية بالخصائص الآتية :

الخصيصة الأولى : كان ابن قتيبة ذا عقلية منظمة مصقولة ، ولذلك جاءت كتبه وليدة هذا الفكر المنسق . فقد كان التأليف ساذجا لا يعنى فيه الا بالاختيار ، فمسألة من هنا ومسألة من هناك واستطراد لا ضابط له ، ومسائل من واد مفرقة فى الكتاب ، ومسائل مجتمعة لا يجمعها موضوع . ونلحظ ذلك كله فى البيان والتبيين ، والحيوان ، والكامل . ولكن الأمر يختلف فى كتاب عيون الأخبار ، ففيه تشعر بأن كتب المختارات الأدبية قد انتقلت خطوات نحو التوفق والكمال على يد ابن قتيبة ، وذلك لأنه رتب المختارات وبوّبها وجمع ما تشابه تحت عنوان واحد ، مثل كتاب السلطان وكتاب الحرب وكتاب الطعام وكتاب النساء .. الخ . وبذلك يسهل على الباحث أن يجد ضالته فى غير عناء . وهو حين يتناول الموضوع يستقصى استقصاء شاملا ؛ فاذا تحدث عن السلطان مثلا يتكلم عن صحبته ، وآدابها ، واتقاء شره ، واختيار عماله وكتابه وبطانته وكل ما يتصل به ، موردا فى ثنايا ذلك المأثور من القول الحكيم والشعر الرائع والنادرة اللطيفة والفكاهة

البارعة . كل ذلك فى سلسلة متماسكة الحلقات ، ولا ينتقل من نقطة الى أخرى من غير أن يرشح لها باستطراد مناسب كأن يقول : وشبيه بهذا قول فلان ، ومن هذا ما قرأت فى كتاب للهند ، ونظيره قول أرسطو .. وهكذا نراه لا يستطرد استطراد الجاحظ أو المبرد ، بل يمضى فى الموضوع الذى يتناوله قدما حتى يوفيه حقه ، ثم ينتقل الى غيره .

ويرجع هذا التنسيق — فيما أعتقد — الى عدة أسباب : أولها اشتغاله بالقضاء ، والقضاء يبرأ من الفوضى ولا يقف الا على قواعد قوية من التنظيم والترتيب . وثانيهما المامه باللغة الفارسية ووقوفه على مؤلفات الفرس التى كانت — من غير شك — نتاج عقول متحضرة تعاقبت عليها أحقاب طويلة . ولهذا السبب نفسه يرجع تنظيم مؤلفات غيره ، فأزعجه ما فيها من خلط وفوضى ، فاحترز من ذلك فى كتبه .

وهناك أمر نلحظه فى كتاب « عيون الأخبار » ، فالجاحظ والمبرد فى كتابيهما « البيان والتبيين » و « الكامل » — وهما من كتب المختارات — كانا يعنيان عناية خاصة بالنتاج العربى ، وعلى الأخص المبرد . أما ابن قتيبة فانه يوسّع اختياره ، فيضيف الى النتاج العربى نتاجا فارسيا وهنديا وأقوالا من التوراة والانجيل والزبور . وفى كل ذلك يختار أطايب الأخبار والأقوال وأدناها الى النفوس .

أما سائر كتب ابن قتيبة — وأسميها الكتب الموضوعية — فانها تتناول موضوعا بالذات فى الغالب لا تتعداه ، مثل أدب

الكاتب والشعر والشعراء وكتاب المعانى وكتاب المعارف . ويقول الأستاذ « نيكلسون » : « ان كتب ابن قتيبة تعتبر من المؤلفات القيمة المنظمة التى تتناول موضوعا بالذات »[1] .

الخصيصة الثانية : وفى كتب ابن قتيبة ظاهرة بارزة ؛ تلك هى توخيه الايجاز لتسهل روايتها وليمكن الانتفاع بها على أوسع نطاق . والجاحظ يختلف عنه فى هذه الناحية ، ولعل الاستطراد من خصائص التطويل .

وأنت حين تتصفح كتب ابن قتيبة الموضوعية مثل أدب الكاتب والمعارف وغيرهما تحس أنه لا يعنى الا باللباب دون القشور . انظر اليه يقول فى مقدمة أدب الكاتب : « فعلت لمغفل التأدب كتبا خفافا فى المعرفة وفى تقويم اللسان واليد ، يشتمل كل كتاب منها على فن ، وأعفيته من التطويل والتثقيل » . فكتبه فى الواقع مركزة ان صح هذا التعبير . وقد اعتذر عن شدة ايجازه فى كتاب « المعارف » فقال فى مقدمته : « وكان غرضى فى جميع ما اقتصصت الايجاز والتخفيف والقصد والمشهور من الأنباء دون المغمور ، ولما يجرى له سبب على ألسنة الناس دون ما لا يجرى له سبب . ولو قصدت الاستقصاء لطال الكتاب حتى يعجز عن نسخه فضلا عن حفظه ، ولاختلط الخفىّ بالجلىّ فمجّته الآذان وملّته النفوس ، والنفس الى ما تعلم منه سببا أكثر تطلعا وأشد استشرافا ، وهو بها ألصق ولها آلزم » . وفى مقدمة الشعر والشعراء أشار الى أن

---

(١) A Literary History of The Arabs p. 364.

كتابه لم يستوعب جميع الشعراء قدماء ومحدثين ، ولكنه انتقى المشهورين منهم دون المغمورين ، والا لطال حبل الكلام الى مدى بعيد .

وابن قتيبة لا يوجز فى نفس المادة فحسب ، ولكنه يوجز فى طريقة سوقها ، لأن الايجاز « تبدو به مقاتل المؤلف » على حد قوله .ولهذا نراه ينوّه بمزية الايجاز فى التأليف فى مواطن كثيرة .

هذا صنيع ابن قتيبة فى الكتب التى وضعها لتقديم المعارف للناس . أما الكتب التى يحاجّ بها خصومه ، والتى يتبين فيها أسلوبه الخاص ، مثل كتاب العرب وكتاب الأشربة وكتاب الاختلاف فى اللفظ ، فهى تجنح إلى التطويل .

الخصيصة الثالثة : ان كتب ابن قتيبة — فى غالب الأمر — يتعلق بها غرض الافادة ، ولذا تراها كلها تتسم بالحرص على افادة المتأدبين وطلاب المعرفة ، وقل أن تخلو مقدمة من مقدماتها من الاشارة الى ذلك . وأنت حين تقرأ تلك الكتب تشعر أنها تسد فراغا كبيرا كان الناس يحسون به فى ذلك الزمان ، ولا زلنا نحن نحس بأنها ترضى حاجاتنا فى نواح كثيرة . وكل كتاب من كتبه قد ألفه — فى الغالب — لضرورة ألحت عليه . فكتاب أدب الكاتب مثلا وضعه لأنه رأى الخطأ يتسرب الى ألسنة الناس والى أيديهم ، ولأنه قد آلمه أن يرى الناس يزوّرون عن علوم الدين والعربية الى العلوم الأجنبية ، فعمل لهم كتبا خفافا فى تقويم اليد واللسان . على أنه قد حثهم على ألا يغفلوا هذه العلوم الأجنبية وبخاصة المتأدبين ومن يشتغلون بوظائف الكتابة حتى

تتم لهم عناصر التأدب ، لأن الجهل بها تجعل المتأدب « ناقصا فى حال كتابته » ، ولذلك نراه يضع لهم فى هذا الكتاب دستورا يأخذون أنفسهم به ويسيرون على هديه ؛ فبين ما يجب عليهم أن يستوعبوه من ألوان المعارف المختلفة ، وحثهم على ألا يعتمدوا على النظر دون الناحية العملية ما أمكنهم ذلك « لأن المخبر ليس كالمعاين » . ثم نصحهم بالابتعـاد عن غريب القول ومعقّده ، وأوضح لهم ما يجب أن يعرفه الكاتب من أقدار الرجال المكتوب اليهم « فلا يُعطى خسيس الناس رفيع الكلام ولا رفيع الناس خسيس الكلام » ، وهو يأخذ على الكتاب أنهم لا يلاحظون ذلك . ولم يفته أن يستشهد بآيات من التنزيل الحكيم وكلام العرب . وبين لهم كذلك أنه يجب أن يبرأ الكتاب من التناقض ؛ فلا يصدر بألفاظ الدعاء مثل : « أكرمك الله وأبقاك » ، فاذا توسط كتابه وعدّد على المكتوب اليه ذنوبا قال : « فلعنك الله وأخزاك » ، ويتساءل ابن قتيبة : « كيف يكرمه الله ويلعنه فى حال ؟ وكيف يُجمـع بين هذين فى كتاب ؟ » . وبين لهم أيضا أن الايجاز لا يُستحب دائما ، وكذلك الاطناب ، واستشهد بكتاب الله الكريم .. و .. وغير ذلك من النصائح القيمة . وكتاب المعارف وضعه لأنه رأى الناس يجهلون أجدادهم الذين ينتسبون اليهم ، ولهذا يصطفى الكثير منهم رجلا نابها وينتسبون اليه ، وربما لم يكن لهذا الرجل عقب . وهو يشير الى ذلك فى مقدمة الكتاب . ولذا نراه يورد شذرات تاريخية طريفة كان الناس فى مسيس الحاجة اليها . وكتاب عيون الأخبار وضعه ليعطى المتأدب قدرا

طيبا « من المتخيَّر من كلام البلغاء وفطن الشعراء وسير الملوك وآثار السلف .. ليروض نفسه على الأخذ بما فيها من سنة حسنة وسيرة قويمة وأدب كريم وخلق عظيم ، ويصل بها كلامه اذا حاور وبلاغته اذا كتب » . وكتاب الميسر والقداح صنفه استجابة لسائل . وكتاب الأشربة ألفه لأنه رأى الخلاف قد احتدم بين أمناء الشرع فى تلك المسألة ، فأراد هو الآخر أن يدلى بدلوه فى الدلاء علّه يضع حدا لهذا الخلاف . وكتاب الشعر والشعراء ألفه ليبصّر الناس بالقسطاس المستقيم حين يفاضلون بين الشعراء حتى يكون حكمهم بريئا من التحيز والهوى .

ولحرصه على افادة الناس نراه يقرر أن لكل مقام مقالا ، وهذا المبدأ ليس ببعيد أن يكون قد اشتق منه التعريف العام للبلاغة ، ولهذا نراه ينبه الكتاب الى أن يراعوا مستوى الذين يكتبون لهم ، وينصحهم باستعمال الكلمات السهلة التى لا يستعصى فهمها على أفهام جمهرة الناس ، ولذا قيل « أسير الشعر والكلام المطمع ، أى الذى يطمع فى مثله من سمعه وهو مكان النجم من يد المتناول » [1] .

وهكذا نراه يؤلف كتبه — فى الغالب — لغرض افادة الناس ، ولغيرته على العربية وعلومها أن يتسرب اليها اللحن والاهمال . وليس من العسير أن ندرك سرذلك ، فقد كان ابن قتيبة رجلا مسلما عميق الايمان ، يخلص لدينه أشد اخلاص ويحب العرب

---

(1) مقدمة الشعر والشعراء ص ٥٠ تحقيق الشيخ شاكر .

أصدق حب ، ولذلك نراه يهب نفسه للدفاع عن لغة الاسلام وعلومها ، وكان وكده الأكبر أن يرتفع شأن المسلمين ليستووا أمة عزيزة فاضلة . ومن أجل ذلك كله نرى أن كتبه وحدة لا تتجزأ ، أعنى أن كلا منها يكمل غيره ، ويظهر لنا هذا من احالته الى مختلف كتبه .

الخصيصة الرابعة : من أبرز مؤلفات ابن قتيبة الأدبية أنه يتبع فى بعضها طريقة فذة لم يتبعها أحد قبله ، وهى استنباط حقائق صادقة عن المجتمع العربى القديم وتصويره فى وضوح تام من الأشعار والأمثال التى أثرت عنهم . وتلك طريقة علمية كان بعضهم يظن أنها استحدثت فى العصر الحديث . وهذه الطريقة ظاهرة جدا فى كتاب الميسر والقداح وفى كتاب الأنواء وفى كتاب المعانى . وسر ابتكاره لهذه الطريقة الفذة يرجع الى تنوع نشاطه العقلى : فهو كرجل فقه كان عليه أن يدرس القرآن والحديث دراسة طيبة حتى يتفهم معانيهما تفهما تاما يصونهما من سوء التأويل والتفسير . وهو كقاض كان عليه أن يبحث فى الآراء المتباينة ويستنبط ما يطمئن اليه ليصدر الحكم الصحيح ويقضى بين الناس بالقسطاس المستقيم . وهو كمدرس كان عليه أن يجمع مادة مناسبة طيبة غزيرة متنوعة فى تنسيق وترتيب ويتناولها بالشرح والتعليق واستخلاص ما تؤدى اليه معانيها من الحقائق الاجتماعية والخلقية . وهذا هو السر فى كون مؤلفاته فى نواح مختلفة .

الخصيصة الخامسة : تقوم كتب ابن قتيبة الأدبية — ويشترك فى ذلك بعض كتب القدامى الأدبية — على تربية الملكة العربية

وتحبيب اللغة الى الدارسين والعناية بها ، وتزجية أوقات الفراغ بالمفيد المجدى من لغة العـرب وأساليبهم وأخبارهم وسمرهم وحكمهم وأمثالهم والمختار من أشعارهم .

ونحب أن نقول ان كتبه كسائر كتب القدماء تخفى فيها شخصيته الأدبية غالبا . فجلها — كما ترى — تعتمد على ايراد المعلومات ، وليس للمؤلف فضل الا جمعها وبسطها . وأستاذنا الدكتور طه حسين يرى ان شخصية الجاحظ القوية تكاد تكون منعدمة في البيان والتبيين [1] ، وقل مثل ذلك فى ابن قتيبة والمبرد وصاحب الأغانى . ولذلك لا نسمى هذه المؤلفات أدبا بمعنى أدب الفكر وفنه وجماله ، بل بمعنى أدب النفس وتثقيفها وتربيتها ، فهى كتب ثقافية لغوية ، حتى ما يقرؤها أعجمى الا خرج منها عربيا أو هوى العربية . وأنا أقصد بذلك كتب الجمع والمختارات .

والمتصفح لأحد هذه الكتب القديمة يشعر كأنما يصاحب من الكتاب أعرابيا فصيحا يسأله فيجيبه ويستهديه فيرشده ، ومن ثم جاءت هذه الكتب التى من باب واحد (مثل عيون الأخبار والبيان والتبيين والكامل والعقد والأمالى) على نسق واحد لا يختلف فى الجملة ؛ فهى أخبـار وأشـعار ولغة ، وانما تتفاوت بالزيادة والنقص والاختصـار والتبسيط والتخفيف والتثقيل والتنظيم والفوضى وغير ذلك . وانى لأذكر أنى قرأت للمرحوم الأستاذ

---

(١) انظر المقدمة التى وضعها الدكتور طه حسين بالفرنسية لكتاب نقد النثر وترجمها المرحوم الأستاذ عبد الحميد العبادى ص ١ .

« مصطفى صادق الرافعى » فى أحد كتبه وصفا دقيقا لهذه الكتب القديمة يقول فيه انها كتب جغرافية للغة وألفاظها وأخبارها ، اذ كانت مثل كتب الجغرافيا ، متطابقة كلها على وصف طبيعة ثابتة لا تتغير معالمها .

وسبب فناء شخصية الأديب فى ذلك الحين أن العقول لم تكن بعد قد وصلت الى مدى من التطور تستطيع فيه أن تنتج أبحاثا أدبية تظهر فيها شخصية المؤلف .

ويصور أستاذنا المرحوم أحمد أمين ابن قتيبة من هذه الناحية فيقول : « كان واسع الاطلاع ، يعرف كثيرا ويجمع كثيرا ويؤلف كثيرا . وقد يكون فى ذلك قريبا من الجاحظ . وكل ما وصلنا من تأليفه يدل على أنه عالم أديب اتصل بنواح كثيرة من العلم .. ولكنه يفهم من التأليف أنه يجمع ويجمع عن سعة واطلاع من غير أن يظهر نفسه فيما يجمع »(1) .

وفى رأيى أن ابن قتيبة لم تظهر شخصيته الا فى حالتين :

الأولى : حين حاول أن يجعل النقد علما له قواعد وأصول ومناهج ، وسنعرض لذلك بالتفصيل فى فصل خاص .

الثانية : حين يجادل خصومه من أهل الرأى والكلام والشعوبية ويدرأ مطاعنهم ، فانه اذ ذاك يصاول ويطاول ويحاج ويجادل ، فتبدو عقليته ويظهر منطقه .

وبعد ، فهذه هى الخصائص التى يمتاز بها أدب ابن قتيبة . والآن أريد أن أتناول هذا الأدب بشطريه : الانشائى والوصفى .

---

(1) ضحى الاسلام ١/٣٠٤ .

الفصل الثاني

أدب ابن قُتَيْبَة الإنشائي

الأدب الانشائى هو الذى يصور تأثر النفس بما يروعها من منظر ، وما يعجبها من مشهد ، وما يؤثر فيها من حدث . وتوضيح ذلك أنه اذا راع الانسان منظر من المناظر ، فصوّر ما تحس به نفسه من الروعة وما يملؤها من التـــأثر فى لفظ جميـــل ملائم للموضوع رقة أو فخامة ، فانه يكون قد أنشأ أدبا ، أى أحدث أثرا فنيا لم يكن له وجود من قبل . فموضوع الأدب الانشائى اذن هو الطبيعة وتصوير مشاعرنا وأحاسيسنا حيالها .

واذا تناول الانسان هذا الأثر الفنى وسجّل رأيه فيه ساخطا أو راضيا أو معللا ، كان هذا الذى سجله أدبا وصفيا . واذن فموضوع الأدب الوصفى هو الأدب الانشائى نفسه .

وقد تمخض هذا النوع الوصفى عن لونين لهما شأن خطير فى الحياة الأدبية ، هما النقد الأدبى وتاريخ الأدب .

هذه مقدمة يسيرة سقتها لأطبقها على أدب ابن قتيبة . وأنا أرى أن ابن قتيبة لم يكن له أدب من النوع الانشائى ؛ فلم تدفعه الأحاسيس النفسية الى أن يعبر عن دخيلة نفسه ، راضيا أو ساخطا ،

مبتهجا أو حزينا ، ولم تحفزه مناظر الطبيعة أو الأحداث الدنيوية الى أن ينطلق لسانه بتصويرها ، مبينا شعوره نحوها . ولم أعثر له على أى أثر انشائى من هذا اللون فى جميع كتبه التى وصلت الينا ، اللهم الا بضعة سطور وردت له فى عيون الأخبار لا غناء فيها ، ولا يصـــح أن تتخذها صورة لأدبه الانشائى ، وهى فى الاعتذار والشكر ، ويبدو لى أنه كتب فى الاعتذار على غـير حقيقة ، لأنه لم يذكر المعتذر اليه ، وربما يكون قد كتبها على سبيل المثال . أما كتاب الشكر فهو بضعة سطور وجهها الى محمد ابن عبد الله بن طاهر . وفى كل ذلك يبدو أثر التكلف الظاهر .

والسبب فى أن ابن قتيبة لم يكن له أدب انشائى — فيما أرى — أمران :

أولهما : أنه كان رجلا قليل الاختلاط بالناس كما يبدو من آثاره ، وبخاصة علية القوم وكبار رجال الدولة . فلم يكن هناك من سبب يدعوه الى أن ينشىء الرسائل الاخوانية فى التهنئة والحب والعتاب والاستمناح وما شابهها ، اذ لم يهج قلبه شىء من ذلك .

وثانيهما : أنه كان رجلا يعتمد على العقل أكبر اعتماد فى حياته العملية . وربما كان للظروف التى أحاطت به دخل كبير فى ذلك ، فقد شاءت أن يكون زعيم أهــل السنة والذائد عن حياضهم ، فشمر عن ساعديه ، وقام يدافع عنهم ويرد كيد أعدائهم . وشاءت الظروف كذلك أن يكون عصره عصر تطور وانتقال ، فهاله — وهو الشديد الغيرة على الدين والعربية — أن ينصرف

عنهما كثير من شباب العلم ويقبلوا على العلوم الأجنبية ، وأن يقعوا — نتيجة لذلك — فى أخطاء مبعثها الجهل وقلة الاهتمام . وقد رأى من واجبه أن يقاوم هذا التيار ، وأن يبصّر هؤلاء الناس بالطريق السوى الأمثل .

وذلك كله — من غير شك — يحتاج الى العقل الذى هو وسيلة الغلبة والاقناع . ومن ثم أصبح العقل راصدا له فى جميع مصنفاته الأدبية وغير الأدبية . والمعروف من حد الأدب الانشائى — كما بينا — أنه يعتمد على العاطفة كثيرا ، لأنه وليد المشاعر ، ولهذا خلا أدب ابن قتيبة أو كاد من الأدب الانشائى .

وأحب أن أضيف الى ذلك أن تكوين عقله وحسه لم يكن يكتمل فيهما روح الأديب الفنان . وأنا أعتقد أن ظروفه — التى أشرت اليها — كانت عاملا قويا فى تكييف عقله وحسه تكوينا علميا . ولذلك كان نشاطه الأدبى متجها الى الناحية التى تعتمد على العقل كثيرا ، وهى ناحية الأدب الوصفى ، لأن روحه روح الأديب العالم ان صح هذا التعبير . وهذا هو السبب فى أنه أراد أن يُخضع الأدب لضوابط ومقاييس محددة . ولذلك كان ذا أثر بالغ فى الأدب الوصفى ، وسنفصل ذلك فى الفصل المقبل .

بيد أننى — مع شىء من التجاوز — رأيت أن أتناول أحد مؤلفاته واجعله موضوعا لهذا الفصل ، وهو « كتاب العرب » ، لأنه أقرب مؤلفاته الى الأدب الانشائى ، وان شئت الدقة فقل انه « أدب جدلى » ، وفيه تحس بشىء من العاطفة المشبوبة بالحب للعرب والحنق على الشعوبية ، وتحس فيه كذلك نزوعا الى التأنق

فى اللفظ والعناية بالأسلوب ، ولذا كان أسلوبه فى هذا الكتاب خير ما كتبه .

ولما كانت الدعامة التى يقوم عليها هذا الكتاب هى «الجدل» ، فقد رأيت أن أبيّن كيف كان ابن قتيبة ينهج طريقه فى مجادلة الشعوبية . ومن نافلة القول أن أشير هنا الى أن كتب ابن قتيبة الدينية التى كان يحاجّ فيها خصومه من أهل الرأى والكلام لم تكن جدلا بالمعنى الصحيح ، وانما كانت ردّ شبه وتصحيح تأويل . ولكنه فى هذا الكتاب يتناول مغامز الشعوبية ومطاعنهم ضد العرب ويفندها ويدحضها فى أسلوب قوى أقرب الى الجدل منه الى أى شىء آخر .

وقد صنف الجاحظ فصلا بدأ به الجزء الثالث من « البيان والتبيين » فى الرد على الشعوبية وسماه « كتاب العصا » . ولكن الفرق كبير جدا بين الكتابين . ولعل أبرز ميزات « كتاب العرب » أنه رد قوى مركّز على الشعوبية ، وبيان مفصل لمكارم العرب قد برىء من عيوب الاستطراد ، ولا نلحظ ذلك فى كتاب العصا .

وانه لصنيع جليل من ابن قُتيبة أن يقف على رأس المدافعين عن العرب فى ذلك العصر الذى ذهبت فيه ريحهم ، وغلبوا على أمرهم ، وأقصوا عن أمور الدولة ، ولهج الأعاجم بذمهم وثلبهم ، وما دفعه الى ذلك الا حبه لدين الله الحنيف . وبلغ من شدة اخلاصه للعرب أن اتهمه البيرونى بأنه « مفرط فيما يخوض فيه ، وغير خال من الأخلاق الجبلية فى الاستبداد بالرأى . وكلامه فى هذا الكتاب « أى كتاب العرب » يدل على احن وترات بينه

وبين الفرس » [1] ، ولست أجد سببا يدفع ابن قتيبة الى أن يضطغن للفرس — وهو الذى انحدر من أصلابهم — الا انصافه للعرب الذين كانوا غرضا لسهام الشعوبية . فلم يكن مفرطا فيما يخوض فيه كما اتهمه البيرونى ، وانما كان رجلا يدرأ الباطل ويحق الحق فى منطق سليم . وهذا ما لمسناه فى الجزء الذى وصل الينا من كتاب العرب . وليس ببعيد أن يكون الافراط الذى لحظه البيرونى فى الجزء المفقود من الكتاب .

وقد بدأ ابن قتيبة كتابه بذكر الحسد الذى حدا بالشعوبية الى أن « تدفع عن العرب كل فضيلة ، وتلحق بهم كل رذيلة ، وتغلو فى القول ، وتسرف فى الذم ، وتبهت بالكذب ، وتكابر بالعيان » . وبين أن الحاسد كافر بنعمة الله كنود لربه ، فقد قال ابن مسعود : « لا تعادوا نعم الله ، قيل : ومن يعادى نعم الله ؟ قال : حاسد الناس » .

وهذا البدء — كما ترى — مناسب للموضوع ، لأن للحسد مبعثه الشعور بالتفاضل ، فينفس المفضول على الفاضل ، فيلحق به المثالب . ثم دخل بعد ذلك فى صميم موضوعه .

وأول ما لفت نظره أنه رأى أن أرسخ الشعوبية عداوة وأشدهم نصبا للعرب هم « من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أكرة القرى . فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم وأهل الديانة فيعرفون ما لهم وما عليهم » . وقد ذكر أن هؤلاء الشانئين

---

(1) الآثار الباقية عن القرون الخالية لمحمد أحمد البيرونى ص ١٣٨ طبعة حيدر آباد .

قد لهجوا بذم العرب « لأن منهم قوما تحلّوا بحلية الأدب فجالسوا الأشراف ، وقوما اتسموا بميسم الكتابة ، فقرّبوا من السلطان ، فدخلتهم الأنفة لآدابهم والغضاضة لأقدارهم من لؤم مغارسهم وخبث عناصرهم » . وابن قتيبة يشير بذلك الى بعض الكبراء الذين أوصلتهم مواهبهم الى المناصب العالية ، والذين يحملون فى نفوسهم بغضا دفينا للعرب ، مثل طاهر بن الحسين والفضل ابن سهل وأخيه الحسن ويروى التاريخ أن أحد الشعوبية — ويظن أنه أبو عبيدة معمر بن المثنى — ألف كتابا فى مثالب العرب فأجازه طاهر بن الحسين بثلاثين ألفا » [1] ، ومن هؤلاء من يلحقون أنفسهم بأشراف العجم ويعتزون الى ملوكهم وأساورتهم زورا . ثم يبين أن الشعور بالنقص يدفع بصاحبه الى أن يثلب غيره من الناس « فهو ان عرف خيرا ستره ، وان ظهر حقره ، وان احتمل التأويلات صرفه الى أقبحها ، وان سمع سوءا نشره ، وان لم يجده تخرّصه ، وصدق من قال :

ان يعلموا الخير يخفوه وان علموا
شراً أُذيع وان لم يعلموا بهتوا

ولذلك تراه يعيب الناس بفضل عيبه ، وينتقصهم بحسب نقصه ، ويذيع عوراتهم ليكونوا شركاءه فى عورته ، وقال الشاعر :

ويأخذ عيب الناس من عيب نفسه
مراد لعمرى ان أردت قريب »

(1) الوزراء والكتاب للجهشيارى ص ١٢٩ .

ويعجب ابن قتيبة من ذلك فيتمثل بقول الشاعر :

وأجرأ من رأيت بظهـر غيب ... على عيب الرجال ذوو العيوب

وهو بذلك يقرر ظاهرة انسانية عامة يعانى المجتمع البشرى الكثير من ويلاتها . وقد ضرب مثلا لذلك زياد بن أبى سفيان حين كثر طعن الناس عليه وعلى معاوية فى استلحاقه عمل كتابا فى المثالب لولده وقال : من عيّركم فقرعوه بمنقصته ، ومن ندّد عليكم فابدهوه بمثلبته ، فإن الشر بالشر يتقى والحديد بالحديد يفلح » . وكذلك كان حال أبى عبيدة معمر بن المثنى فلقد « كان أغرى الناس بمشاتم الناس وألهجهم بمثالب العرب ، وحاله فى نسبه وأبيه الأقرب اليه حال نكره أن نذكرها .. وهى مشهورة ، ولكن كرهنا أن تدوّن فى الكتب وتخلّد على الدهر ، ولا سيما وهو رجل يُحمل عنه العلم ويُحتج بقوله فى القرآن » .

ثم عرض ابن قتيبة لمآخذ الشعوبية واحدا واحدا ، وفنّدها ، وبيّن أوجه الخطأ فى كل منها ، وجعل من مثالب العرب مناقب ؛ فهم يتزرون بقوس حاجب ، ويذهبون فى ذلك الى خساسة العود وقلة ثمنه . ولكن هذا كلام يقال على مذاهب التجار والسوق فى الرهون والمعاملات . وانما رهنها العرب لما فى ذلك من معنى المسالمة وكف الأذى ، لأن سلاح الرجل عزّه وشرفه . وقد ساق ابن قتيبة أمثلة لبيان هذه العادة عند العرب ؛ فهذا سيّار بن عمرو الفزارى قد ضمن لبعض الملوك ألف بعير ورهنه قوسه فقبلها منه على ذلك وساقها اليه ، وفيه يقول القائل :

ونحن رهنّا القوس ثم تخلّصت

بألف على ظهر الفزارى أقرعا

ولما قتل وكيعُ بن أبى سود التميمى قتيبة بن مسلم الباهلى بخراسان ، وبلغ ذلك سليمان بن عبد الملك وهو بمكة حاجا خطب الناس بمسجد عرفات وذكر غدر بنى تميمم واسراعهم فى الفتن وتوثّبهم على السلطان ، فقام الفرزدق ففتح رداءه وقال : « يا أمير المؤمنين ، هذا ردائى رهنا بوفاء تميم ومقامها على طاعتك » .

ويستخلص من ذلك أنك « اذا رأيت العرب تنسُب الى شىء خسيس فى نفسه فليس ذلك الا لمعنى شريف فيه » .

ويعجبنى من ابن قتيبة اعتصامه بالانصاف ما وسعه ذلك ؛ فهو لا يضيف الى العرب من المفاخر ما ليس لها فيقول : ولم يدع أحد أنه كان للعرب فى دولة العجم مثل ملكها وأموالها وعددها وسلاحها وحريرها وديباجها » .

ويتخذ ابن قتيبة فى حجاجه أسلوب الجدل بكل مقوماته ؛ فهو يفرض أسئلة محتملة ويرد عليها ، كأن يقول : « فان قيل كذا كان الرد كذا » .

ويعجب ابن قتيبة من ادعاء هؤلاء العجم أنهم من أبناء اسحاق وهو ابن سارة الحرة ، بينما العرب من نسل اسماعيل وهو ابن هاجر الأمَة ، ويقول قائلهم :

فى بلدة لم تصل عُكل بها طُنبا

ولا خباء ولا عكّ وهمدان

ولا لجَــرم ولا بهــراء من وطن

لكنها لبني الأحــرار أوطــــان

أرض تبنّى بها كسرى مناسكه

فما بها من بني اللخنـــاء انسان

فبنوا الأحرار عندهم العجم من ولد اسحاق بن سارة ، وبنو اللخناء عندهم العرب من ولد اسماعيل بن هاجر . ويدفع ابن قتيبة ذلك بأن كل أمة ليست لخناء [1] . وهاجر قد طيبها الله من كل دنس وارتضاها للخليل فراشا ، وكانت أحظى نسائه عنده ، وقد شرفها الله بأن جعلها أمّاً لاسماعيل ومحمد عليهما الصلاة والسلام .

ثم عرّج ابن قتيبة على التاريخ يستأديه ما يدعم به حجته ، فذكر أن الاماء أنجبن بعض عظماء الخلفاء والقواد والأخيار وكرام الناس .

على أن ابن قتيبة لا يسلّم بأن العجم من أولاد اسحاق فيقول : « والنسّاب لا يعرفون لأهل فارس ولا للنبيط فى اسحاق بن ابراهيم حظا » . وهو يبين ذلك بذكر من نسلوا من اسحاق ومن نسلوا من أخيه اسماعيل بالتفصيل مما يمحق ادعاءهم الانتساب الى اسحاق .

ثم أخذ يقارن بين العرب والعجم ، ويبين وجوه الأفضلية عند العرب قائلا : « ثم تتساوى العرب وفارس فى أن الفريقين ملكوا ،

(١) اللخناء هى الأمة الممتهنة فى رعى الابل وسقيها ، واللخناء أيضا هى القبيحة الرائحة .

وتفضلها العرب بأن قواعد ملكها نبوّة ، وقواعد ملك فارس استلاب وغلبة ، وتفضلها العرب بأن ملكها ناسخ وملك فارس منسوخ ، وتفضلها بأن ملكها متصل بالساعة وملك فارس محدود ، وتفضلها العرب بأن ملكها واغل فى أقاصى البلاد داخل فى آفاق الأرض وملك فارس شظية منه » . وأنت ترى أن ابن قتيبة على حق فيما يقول .

ويعجبنى من ابن قتيبة أنه يؤثر الصدق دائما ، فلا يفترى على الفرس ، ولا يضيف الى العرب من المكارم ما ليس لهم ، ولكنه يتخذ سبيل الاقناع بالمقارنة الصائبة الدقيقة .ولا يمنعه اصالته من الفرس أن يعطى كل ذى حق حقه وأن يبين الفاضل من المفضول ، انظر اليه يقول : ولا أبخس أحدا حقه ، ولا أتجاوز به حده . فلا يمنعنى نسبى فى العجم أن أدفعها عما تدعيه لها جهلتها .. وأرجو ألا يطلع ذوو العقول وأهل النظر منى على ايثار هـوى ولا تعمد لتمويه » .

وابن قتيبة لا يعمد الى ما يعمد اليه غيره من ذكر الأحاديث الطوال عن أخبار العرب وأيامهم للدلالة على مفاخرهم ، وانما هو يعمد الى مواطن الفضل التى لا يمكن أن ينكرها منكر ، لأن الأخبار والخطب قد دخلها كثير من الوضع كما يقول .

وانك لتجد البون شاسعا بين كتاب الجاحظ « العصا » وكتاب ابن قتيبة . فكتاب « العصا » اذا قيس بكتاب « العرب » فى الدفاع عن العرب لا يُعد شيئا مذكورا . فالجاحظ لا يتكلم الا عن العصا وما شابهها مما يُعد من لوازم العرب كالمخصرة

والقوس ونحو ذلك ، ويدافع عن استعمال العرب لها ، ويبين مزاياها ، ويورد الحكايات فى فضلها ، ويذكر أن من رسل الله من اتخذها رفيقا مثل موسى وسليمان عليهما السلام . وفى خلال ذلك يستطرد استطرادا ينأى به عن الموضوع . ولا يخرج دفاع الجاحظ عن هذا النطاق .

أما ابن قتيبة فهو المحامى القدير الذى يتناول مطاعن الخصوم كلها ويفندها ويرد عليها فى منطق قوى سليم ، ثم ينقّب عن مثالبهم فيسردها ، وعن مناقب العرب فينشرها فى غير مين أو كذب .

واقرأ معى قوله يعدد محامد العرب : فانها « أى العرب » لم تزل فى الجاهلية تتواصى بالحلم والحياء ، وتتعاير بالبخل والغدر والسفه ، وتتنزه من الدناءة والمذمة ، وتتدرب بالنجدة والصبر والبسالة ، وتوجب للجار من حفظ الجوار ورعاية الحق فوق ما توجبه للحميم الشفيق ، فربما بذل أحدهم نفسه دون جاره ، ووقى ماله بماله ، وقتل دون حميمه » .

ويمضى ابن قتيبة فى تبيان مناقب العرب وردّ مطاعن شانئيهم ، مفترضا مثالب قد تُوجّه اليهم ويدحضها فى بيان منطقى سليم . وهو يسوق فى خلال ذلك القصص والحكايات التى تبين صفاتهم العالية ، ويطعّم ذلك بما أثر عنهم من رائع الشعر وبليغ الحكم . من مثل قول قيس بن عاصم يذكر قومه :

لا يفطنون لعيب جارهم ... وهم لحفظ جواره فطن

وقول مسكين الدارمى فى رعاية الجار :

نارى ونار الجار واحدة ... واليه قبلى تنزل القدر

ما ضرّ جـــارا لى يجاورنى   ألا يكون لبـــــابه ستر

وقول الحطيئة يذكر محاسن قومه :

أولئك قوم ان بنــوا أحسنوا البنــا
وان عاهدوا أوفوا وان عقدوا شدّوا
يسوسون أحلاما بعيـــدا أناتهــا
وان غضــبوا جاء الحفيظة والجــد

وقول أرطأة بن سُهيّه فى اكرام الضيف :

وما دون ضيفى من تلاد تحـــوزه
الى النفس الا أن تصـــان الحلائل

وغير ذلك من الأشعار الرائعة المنبثة فى الكتاب ، وكلها ناطقة بما كان للعرب من صفات حميدة وشيم مرضية .

نعم ان فيهم من كان على غير تلك الخصال — وهم قلة قليلة — مثل مُزرّد وحميد الأرقط اللذين هجوا الأضياف ، ووصفاهم « بكثرة الأكل وجودة اللقم » . ومن الغريب أن يتخذ الشعوبية هذين الشاعرين مثلا للعرب جميعا ، وينسون أن كل جنس من الناس فيه الطيب وفيه الخبيث ، وهذا أمر درجت عليه الطبيعة منذ القدم ، وانما يأخذ ابن قتيبة بالغالب الأشهر .

على أن ابن قتيبة لا يترك ثغرة من غير أن يرتقها ، فهو يذكر أن لهذين الشاعرين ظروفا خاصـــة دفعتهما الى أن يذما الكرم والأضياف لا داعى لذكرها ، ويرى أن لهما أثارة من العـــذر فيما سلكا . ولكن الكرم خلة أصيلة فى العرب ، بل هى من أظهر

خلالهم ، لأن طبيعة بلادهم تخلقها . واننا لنقرأ أخبارا غريبة فى هذا الباب ، وقد ذكر ابن قتيبة طرفا منها فى كتابه .

ويعيّر الشعوبية العرب بخبيث المطعم كالعلهز والحيات ، وخبيث المشرب كالفظ والمجدوح . ويرد ابن قتيبة عليهم فى صدق خال من المكابرة والمغالطة قائلا : « ان هذا وأشباهه طعام المجاوع والضرورات وطعام نازلة القفر والفلوات .. وانما يكون هذا عيبا لو كانت العرب مختارة له فى حالة اليسر .. فأما حال الضرورة فالناس كلهم يعسرون .. فمن لم يجد اللحم أكل اليربوع والضب ، ومن لم يجد الماء شرب المجدوح والفظ » . ولكم سمعنا أن كثيرا من الناس فى ساعة العسرة يتناولون من المأكل والمشرب ما تعافه النفس ويقشعر منه البدن . والتاريخ يحدثنا أن الناس ابان القحط والجدب يأكلون لحوم الموتى ، كما حدث فى زمن المستنصر الفاطمى ، والسنة الشهباء يحل حرامها كما يقول الشاعر .

على أن ابن قتيبة قد أورد شعرا لبعض مياسير العرب يشعر برفاهة العيش وأرستقراطية الحياة ، ويقول : « وأما ذوو النعمة واليسار والأقدار فقد كانوا يعرفون أطايب الطعام ويأكلونها ويأخذون بأحسن الأدب عليها » ، ويقول قائلهم :

فما لحم الغراب لنا بزاد ولا سرطان أنهار البريص

ويذكر ابن قتيبة أن العرب كان لهم ذوق راق فى اختيار أطايب الطعام وفى آدابه ، ومن ذلك قولهم : « أطيب اللحم عوذه » يريدون ما ولى العظم ، كأنه عاذ به . ولا يزال الناس يستطيبون ذلك حتى الآن . وكانوا يكرهون أكل الدماغ ، ومنهم

من يعاف الية الشاة ، وكانوا يقولون فى آداب الأكل : « اذا أكلتم فسموا وأدنوا » يريدون « كلوا مما بين أيديكم » ، ويحثون على غض النظر عن أطراف الأكيل ، ويقول شاعرهم :

وللموت خير من زيارة باخـــــل
يلاحظ أطراف الأكيل على عمـــد

وكانوا يمدحون بقلة الأكل ، ويعيبون بالشره والنهم . ومن خير ما أثر عنهم قول الأحنف بن قيس : « جنّبوا مجلسنا ذكر النساء والطعام ، فانى أبغض أن يكون الرجـل وصافا لبطنه وفرجه » . وكان يعتدون المروءة فى أن يترك الرجل الطعام وهو يشتهيه ، ويقول حكيمهم : « أقلل طعاما تحمد مناما » ، ويقول : « غلبت بطنتى فطنتى » . وقد أدركوا أن البطنة توهن العقل ، وفى ذلك يقول عمرو بن العاص لمعاوية يوم حكم الحكمان : « أقلوا الطعـام ، فوالله ما بطن قوم الا فقدوا بعض عقولهم ، وما مضت عزمة رجل بات بطينا » .

وأظنك توافقنى على أن ابن قتيبة قد استوعـب كل آداب المائدة التى وقف عليها العرب ، وهى لا تقل عما يعرفه أهل القرن العشرين فى هذه الناحية ، وصدق ابن قتيبة حين قال : « فكيف تكون المعرفة بالطعام والأدب عليه الا كما وصفنا » .

ثم تناول ابن قتيبة بعد ذلك صفات العرب البارزة كالشجاعة والأنفة والحمية والعقل وما شابه ذلك من الصفات التى اشتهر بها العرب . وقد تناول ابن قتيبة ذلك على طريقته المعهودة من

الجدل المنطقى السليم القائم على المقارنة بين الفريقين ثم استخلاص وجوه الأفضلية عند العرب .

ويذكر ابن قتيبة بعد هذا كله أن من أعظم مفاخر العرب أنه كان فيهم فى الجاهلية بقايا من الحنفية يتوارثونها عن اسماعيل عليه السلام ، كحج بيت الله الحرام ، وزيارته ، والختان ، والطلاق ، والعتق ، وتحريم ذوات المحارم بالقرابة والرضاع والصهر ، والايمان بالملكين . وكان الفرس فى ذلك الوقت يعمهون فى ضلال المجوسية .

ويقول ابن قتيبة ان أعظم ما تعتز به العرب وتتيه به على جميع الشعوب قاطبة أن الله تعالى قد أرسل فيهم رسولا من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة ، « فكان عليه الصلاة والسلام ناسخ كل شرعة وحائز كل فضيلة ، فجمع كلمتها ولم شعثها ، ومكن لها فى البلاد ، وأوطأها رقاب الأمم ، وجعل فيها خلافة النبوة ، وخاطبها يومئذ ولا عجم فيها فقال : « كنتم خير أمة أخرجت للناس » فلها فضل هذا الخطاب » .

ثم عرج ابن قتيبة أخيرا على قريش ، فبين أنها أفضل العرب ، وغلا فى ذلك حتى انه اعتبر من يقدم عليها أحدا أو يسوى بها قبيلة فاسد الاسلام ، ولا يصح عقده ، واستشهد على ذلك بأحاديث يبدو فيها أثر الوضع والانتحال . وليس من شك فى أن قريشا — وهى الأرومة التى نشأ منها النبى الكريم — قد شرفت وعلا قدرها به ، وما أصدق قول ابن الرومى :

كم من أب قد علا بابن له شرفا كما علا برسول الله عدنان

وقد ختم ابن قتيبة كتابه بالاشارة الى أن أهل خراسان يلون العرب فى الشرف ، لأنهم « أهل الدعوة وأنصار الدولة » كما يقول . وذكر قصة تبين أسبقيتهم على أهل فارس فى السؤدد ، وهى قصة أشبه بالخرافات ولا داعى لذكرها .

والواقع أن ذلك يعتبر منه تحيزا لوطنه الأصلى ، اذ أن أباه من « مرو » ، وهى مدينة خراسانية . والوجه الذى يقيم عليه الأفضلية — وهو كونهم أهل الدعوة وأنصار الدولة — ليس شيئا ذا بال يرجّح كفتهم على أهل فارس .

وبهذا ينتهى الكتاب الذى وصل الينا والذى نشره المرحوم كرد على ، ولا شك أنه لم يصل الينا بأكمله ، لأنه قُطع قطعا ، ولأنه أشار فى ثناياه الى أمور وعد بذكرها مفصلة ولم نجدها ، ومن الجائز أن يكون قد استوعبها فى الجزء المفقود من الكتاب .

وقد عثرت فى « العقد الفريد » على فصل عنوانه « اليتيمة فى النسب وفضائل العرب » [١] ، وقد نقل الألوسى فى « بلوغ الأرب » جزءا منه [٢] . ويظن بعض الباحثين أنه جزء من كتاب العرب ، ولكنى أخالفهم فى ذلك ، لأن هذا الجزء يغاير منهج الكتاب فى أساس الجدل . فالكتاب — كما رأينا — يقوم على أن العجم يرون أنفسهم خيرا من العرب ، ويحاولون تقرير ذلك ، وابن قتيبة يرد عليهم ويبين خطأهم ويسوق الأدلة الواضحة على أن العرب أفضل منهم .

---

(١) العقد الفريد ٧٢/٢ طبعة المطبعة الأزهرية .
(٢) بلوغ الأرب ١٦٩/١ .

أما هذا الفصل فنرى فيه الفرس يحاولون أن يجعلوا أنفسهم أندادا للعرب ، وأن يقفوا معهم على قدم المساواة ، مستشهدين بآي من الذكر الحكيم وأحاديث النبى الكريم . ويبدو منطقهم فيه أقوى منه فى كتاب العرب ، كما يبدو فيه ردّ ابن قتيبة متهافتا ضعيفا . ولذلك تراه يخضع أخيرا لمنطق العقل السليم ، وينقض ما بنى كما يقول ابن عبد ربه الذى أخذ عليه هذا التناقض ، يقول ابن قتيبة : « وأعدل القول عندى أن الناس كلهم لأب وأم ، خلقوا من تراب وأعيدوا الى التراب .. فهذا نسبهم الأعلى الذى يردع به أهل العقول عن التعظيم والكبرياء والفخر بالآباء ، ثم الى الله مرجعهم فتنقطع الأنساب وتبطل الأحساب الا من كان حسبه التقوى أو كانت ماتّته طاعة الله » .

وليس ببعيد أن يكون هذا الفصل الذى وجدته فى « العقد الفريد » قطعة من رسالة أخرى وضعها ابن قتيبة فى الرد على الشعوبية كذلك .

مهما يكن من شىء فكتاب العرب يمثل بحق عقلية ابن قتيبة الجدلية ، ويدل على درايته الفائقة بالتاريخ والأنساب . وأسلوبه فى الجدل سمح ، فيه شىء من حسن الديباجة وصفاء الطبع .

ونستطيع مما سبق أن نلخص مذهبه الجدلى فى الأمور الآتية :

١ — تحدوه فى جدله نزعة دينية تدل على ايمانه العميق .

٢ — يثق فى نفسه وثوقا شديدا ، ويؤمن بأن الحق فى جانبه ،

ويتضح ذلك من افتراضه مطاعن قد توجه الى العرب ، ويرد عليها في قوة ومقدرة .

٣ — في جدله شيء من السخرية التي تخفف عن القاريء صرامة الجدل وجده .

٤ — يستشهد كثيرا بالنصوص الشعرية ، ويحسن اختيارها مما يجعلنا نعتقد أنه لم يحرم حاسة الذوق الأدبي .

٥ — يعمد في جدله الى طريقة علمية لم يسلكها غيره ، وهي بسط خصائص الطرفين « الفرس والعرب » في أمانة وصدق ليستطيع القاريء أن يدرك في سهولة الفاضل والمفضول .

٦ — ويمتاز ابن قتيبة بالشمول والاحاطة في جدله ، أعني أنه لا يترك ثغرة أو مظنة طعن الا تصيدها وانبرى للدفاع في حرارة واخلاص .

٧ — يعني في جدله — وفي هذا الكتاب بالذات — باختيار الألفاظ ، والتأنق في الأسلوب ، والاستعانة بالصور البيانية للايضاح وتجميل الكلام ، كما يعني كذلك بذكر بعض المحسنات البديعية ، وبخاصة الجناس والسجع .

٨ — يحس القاريء أن ابن قتيبة يدافع عن قضية كلية ، ولذلك نراه يجند كل ما أوتي من جهد وثقافة ومنطق لرد مطاعن الشعوبية . وكان يرى أنه في حاجة الى الاستعانة بالأحاديث ، فكان لا يتحرج من رواية الأحاديث الموضوعة ، مع أنه كان في غنى عن روايتها ، لأن الحق كان بجانبه غالبا .

الفصل الثالث

أدب ابن قُتَيْبَة الوصفى

ذكرنا أن الأدب الوصفى شقان : النقد وتاريخ الأدب . أما النقد فلابن قتيبة فيه أثر عظيم ، ولذا رأينا أن نفرد له فصلا خاصا نبين فيه جهود ابن قتيبة فى هذا الباب .

وأما تاريخ الأدب فسنبين فى هذا الفصل مدى خطوات ابن قتيبة فيه وأثره فى هذه الناحية .

والكتاب الذى يمثل اتجاهه فى التاريخ الأدبى هو كتاب « الشعر والشعراء » وقد أودع فى المقدمة مذاهبه فى النقد ، وسنوقفك عليها فى الفصل التالى . أما الكتاب فهو سجل لعدد ضخم من الشعراء وأخبارهم وشىء من أشعارهم منذ العصر الجاهلى حتى منتصف القرن الثالث الهجرى . وهو كتاب قيّم جدا ، ويعتبر من أهم المراجع الأدبية لتراجم الشعراء ومعرفة ملابسات بعض أشعارهم .

ولم يسبق ابن قتيبة فى التأليف فى الشعراء الا محمد بن سلام الجمحى ، فقد وضع كتابه المعروف « طبقات الشعراء » ، ولم يترجم فيه لكل شاعر ، وانما كان جلّ همه ايراد آراء القدماء

فى الشاعر ليضعه فى طبقته ، وقلما يذكر خبرا مقتضبا عنه ، ويُردف ذلك بذكر بضعة أبيات من شعره . وسنعرض للمقارنة بين الكتابين بالتفصيل فى فصل خاص . ولا شك أن ابن سلام قد لفت نظر المؤلفين الى وضع كتب فى تراجم الشعراء . وأول من حذا حذوه ابن قتيبة ، ولكنه نحا بمؤلفه نحوا آخر تدركه من حديثنا عنه .

والمتصفح لكتاب ابن قتيبة يشاهد أنه لم ينهج فى تأليفه منهجا خاصا من حيث ترتيب الشعراء ؛ فقد بدأه بامرىء القيس لأنه شيخ الشعراء وباجس عين الشعر لهم كما يقولون ، ثم أردفه بزهير بن أبى سلمى مع أن من الشعراء الذين ذكرهم بعده من هم أقدم منه ، أمثال طرفة والحارث بن حلّزة وعمرو بن كلثوم .

ولا يمكننا أن نقول انه اتخذ الشهرة والقدرة الفنية هدايته فى الترتيب ، لأنه ذكر مثلا المتلمس والمسيب بن علس قبل طرفة وأعشى قيس . فهو يقدم شعراء خاملين على فطاحل لامعين كما ترى .

والملاحظ أنه يعاقب فى أحيان كثيرة بين الشعراء الذين تربط بينهم رابطة الدم أو القرابة أو الأصالة القبلية ، ولعل السر فى ذلك راجع الى تداعى الأفكار فيما أعتقد . فمثلا ترجم لزهير ابن أبى سلمى ثم لابنه بعده ، وترجم للمرقش الأكبر ثم للأصغر وهو أخوه فى رواية وابن أخيه فى رواية أخرى ، وترجم لخفاف ابن ندبه السُّلمى وبعده لابنة عمه الخنساء وهما من بنى سليم . وترجم للأضبط بن قُريع وبعده للمستوغر لأنهما من بنى كعب

ابن سعد . وترجم للمثقب العبدى ثم للممزق العبدى لأنهما من نكرة .

والأخوة — بطبيعة الحال — من أقوى أسباب تداعى الأفكار ، ولذلك نراه يتناول الشاعرين الأخوين فى ترجمة واحدة كما صنع مع مالك ومتمم ابنى نويرة ، ومع سويد ويزيد ابنى خذاق وهما شاعران قديمان كانا فى زمن عمرو بن هند ، ومع كعب وعميرة ابنى جعيل ، وغيرهم .

وقد يدعوه الى ذلك روابط أخرى لمثل رابطة العشق والغرام ، ولذلك نراه يترجم لتوبة بن الحمير عاشق ليلى الأخيلية ، ثم يترجم لها بعده .

وهناك رابطة أخرى من لون آخر تستدعى ذكر القرين بقرينه ؛ فترجم لجرير والفرزدق والأخطل على التوالى . ولم يراع فى ذلك كبر السن بدليل أنه جعل الأخطل آخر الثلاثة مع أنه كان أسنهم . ويبدو لى أنه رتبهم على حسب أقدارهم الفنية لأن جريرا أعلاهم كعبا . ثم ترجم بعدهم للبعيث لصلته بهم ، اذ شارك فى الخصومات التى احتدمت بينهم كما نعرف . وقد ذكر بعد ترجمة الأخطل مجموعة طيبة مختارة من شعر هؤلاء الشعراء الثلاثة .

وتمشيا مع هذه الرابطة (رابطة القرينية) نراه يترجم لكثير عزة ثم للأحوص ، وهما غزلان . ثم تركهما وتناول شعراء من لون آخر ، وعاد بعد ذلك الى شعراء النسيب والعشق ، فترجم للمجنون ثم للعرجى . وكذلك ترجم لعروة بن حزام صاحب عفراء ، وبعده لقيس بن ذريح صاحب لبنى .

والرابطة عند ابن قتيبة مهما تنوعت ألوانها تعتبر صلة تدعو الى ذكر الشاعر بذكر قرينه ، فرابطة الصداقة جعلته يترجم للكميت ابن زيد الأسدى ، ثم للطرماح بن حكيم بعده ، لأنه كان بينهما « من المودة والمخالطة مالم يكن بين اثنين على تباعد ما بينهما فى الدين والرأى والأصل » . ولصلة القرابة والفن ترجم للعجاج الراجز ، ثم لابنه رؤبة ، ثم ترجم بعدهما لأبى نخيلة الراجز ، ثم لأبى النجم ، ثم لدكين الراجز ، ثم ترجم لراجز آخر مغمور اسمه « الأغلب » . والرابطة التى تربط بين هؤلاء جميعا فنية خالصة ، ويكادون يتعاصرون .

ونراه يترجم لشعراء هذيل متتابعين ، وقد وضع لهم هـذا العنوان « شـعراء هذيل » ، والرابطة بينهم قبـلية . ويترجم لأبى نواس ، ثم للعباس بن الأحنف ، ثم لصريع الغوانى لأنهم جميعا يتقاربون فى المشارب . وقد حدت به رابطة القرابة الى أن يترجم لأبى الشيص ثم لدعبل ابن عمه .

هذا هو منهج ابن قتيبة فى كتاب « الشعر والشعراء » من حيث ترتيب التراجم . واننا نلاحظ أنه — على كل حال — اتبع الترتيب الزمنى (العصرى) الاجمالى . أعنى أنه ترجم أولا لشـعراء الجاهلية والمخضرمين ، ثم ترجم بعد ذلك لشعراء العصر الأموى ، ثم لشعراء عصر بنى العباس . بيد أنه لم يتبع فى ترتيب شعراء كل عصر الترتيب الزمنى الدقيق كما ذكرنا ، فقد يترجم لشاعر مخضرم أدرك الجاهلية والاسلام قبل شاعر جاهلى لم يدرك الاسلام . وليس لذلك من علة الا علة الرابطة أيا كان نوعها كما ذكرنا .

والخلاصة أن ابن قتيبة لم يراع الترتيب الزمنى الفردى ، ولكنه راعى الترتيب الزمنى المجموعى ان صح هذا التعبير . وكان يشذ عن ذلك أحيانا شذوذا عجيبا : مثال ذلك أنه ذكر بين الشعراء الاسلاميين (فى عصر بنى أمية) شاعرين أحدهما جاهلى وهو دريد بن الصمة ، والآخر مخضرم وهو العباس بن مرداس ، وقد ترجم لهما بعد القطامى الشاعر الأموى . وسبب ذلك — فيما أرى — أنه ربما يكون قد نسى الشاعرين الجاهليين ثم ذكرهما وهو يتحدث عن شعراء العصر الأموى ، فترجم لهما بينهم ، ولم ينقح الكتاب بعد أن انتهى منه فبقيا حيث هما .

ويلاحظ كذلك أن نهاية الكتاب لا تشعر بانتهائه ؛ لأنه دائما يختم كل مصنف من مصنفاته بجملة ختامية يدرك القارىء منها أن الكتاب قد انتهى . وقد ختم الكتاب بترجمة « أشجع السلمى » الذى كان متصلا بالبرامكة . وعلى ذلك يرجح أن للكتاب بقية مفقودة قد تكون طويلة وقد تكون قصيرة ، بل قد تكون صحيفة واحدة . والمهم عندى أن هذا ليس ختاما للكتاب إذ ينتهى بهذه الجملة : « أخذه من قول الآخر وهو ابن الدمينة.. » ثم يذكر البيت . ومما يدل على أن الكتاب ناقص كما وصل الينا أنه خلا من شعراء نابهين ؛ فليس من المعقول أن يغفل ابن قتيبة شاعرا مثل أبى تمام أسير ذكرا من دعبل الخزاعى ، مع أنه توفى قبله ؛ اذ توفى أبو تمام سنة ٢٣١ وتوفى دعبل سنة ٢٤٦.

ويتبع ابن قتيبة فى تراجم الشعراء طريقة غريبة ؛ فهو يبدأ بإيراد اسم الشاعر وبعض أخباره ، ثم يذكر بعض النصوص

المختارة له ، كل ذلك فى ايجاز شديد . وبعد ذلك يتناول الشاعر فى شىء من الاطناب مرة أخرى . وتلك طريقة لها مزاياها ولها عيوبها ، ومن مزاياها أنها تعطى القارىء أول الأمر صورة موجزة عن الشاعر ، فان شاء المزيد واصل القراءة فى الترجمة المفصلة . وهذه مجدية للقارىء العَجِل الذى ينشد الفكرة العاجلة فحسب . ومن عيوبها أنه يكرر فى غير ما جدوى فيضيع شطرا من وقت القارىء ويبعث اليه شيئا من السأم والملل ، بسبب هذا التكرار الذى لا داعى له . ويلاحظ أن ابن قتيبة فى الترجمة المفصلة — فضلا عن التكرار — يذكر نصوصا وأخبارا تختلف بعض الشىء عن الترجمة الموجزة . وقد يصل هذا الاختلاف الى اسم الشاعر وآبائه فى زيادة أو نقصان وفى بنية الأسماء أحيانا . وهذا الاختلاف من الكثرة بحيث لا تكاد تخلو منه ترجمة مزدوجة . وأنا أعزو سر ذلك الى أن الكتاب قد ألّفه المؤلف على فترتين ؛ ومن المرجح أنه وضع الترجمة الموجزة فى الفترة الأولى ، ثم مضت أزمان تجمعت لديه فيها معلومات أخرى ، فذكرها برمتها بعد الترجمة الأولى من غير تنقيح أو توفيق بين الترجمتين . وهذا بلا شك عيب لا تخلى منه ابن قتيبة ، لأن القارىء لا يدرى بأيهما يأخذ وعلى أيهما يعتمد . وهذه التراجم المزدوجة اختص بها المؤلف مشهورى الشعراء دون سواهم .

والمشاهَد فى هذه التراجم عامة أن ابن قتيبة لا يذكر شيئا ذا غناء عن حياة الشاعر الأولى ، والعوامل التى اختلفت عليه وأثرت فى منحاه الفنى . ويلتمس له العذر فى ذلك وبخاصة

بالنسبة للشعراء الأقدمين الذين لا يكاد يُعرف عن حيواتهم الأولى شىء .

ومن حق التاريخ الأدبى علينا أن نقول ان التراجم التى ساقها ابن قتيبة فى كتابه هذا لا تعدو أن تكون جملة من أخبار كل شاعر وقدرا من أشعاره ليس غير . على أنه لم يتحرَّ فى أخباره الدقة والتمحيص ، ولذلك دخلها شىء غير قليل من التناقض والخرافات . فلا يحق لنا أن نطلق على هذه التراجم ما نسميه بالتاريخ الأدبى لأنها بعيدة عنه كل البعد .

فلم يكن ابن قتيبة اذن مؤرخا أديبا بالمعنى الذى تفهمه نحن المشتغلين بالأدب فى عصرنا الحديث ، لأنه لم يتحدث عن العوامل التى اختلفت على الشاعر ومدى تأثير البيئة والزمان فى انتاجه الفنى . وله آراء يسيرة تدخل فى صميم تاريخ الأدب ، ولكنها لا تعدو أن تكون لمحات خاطفة متفرقة تنعدم فيها خصائص المنهاج العلمى ، وهى — على كل حال — تدل على شىء من ثقوب الفكر والاحساس الفنى ، لأنها تشير الى علل بعض الظواهر الأدبية ، فيقول مثلا : « وهذه عندى قصة الكميت فى مدح بنى أمية وآل أبى طالب ، فانه كان يتشيع وينحرف عن بنى أمية بالرأى والهوى ، وشعره فى بنى أمية أجود منه فى الطالبين . ولا أرى علة ذلك الا قوة أسباب الطمع وايثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » [1] . وقد يكون هذا حقا ، فالطمع فى العطية

---

(1) الشعر والشعراء ص ٢٤ تحقيق الشيخ شاكر .

— لشدة الحاجة — يغلب حرارة الصدق فى العاطفة . وقد حكى أن أحمد بن يوسف الكاتب قال لأبى يعقوب الخريمى : «مدائحك لمحمد بن منصور بن زياد كاتب البراكمة أشعر من مراثيك فيه وأجود ، فقال : « كنا يومئذ نعمل على الرجاء ونحن اليوم نعمل على الوفاء ، وبينهما بون بعيد »[1] . والخريمى يتكلم بلغة الواقع ، وصدق من قال : اللُّها تفتح اللَّها » .

ومن هذه النظرات الثاقبة أنه يضع أحيانا للشاعر سمات تحدد منحاه الفنى ، فيقول مثلا عن أوس بن حجر : « كان عاقلا فى شعره كثير الوصف لمكارم الأخلاق ، وهو من أوصفهم للحُمر والسلاح ولا سيما القوس ، وسبق الى دقيق المعانى والى أمثال كثيرة »[2] ، وكذلك صنع مع زهير والحطيئة وذى الرمة .

ويمكننا أن نقول فى اجمال ان ابن قتيبة كان مؤرخا مستقرئا للنصوص ان صح هذا التعبير . فهو يذكر البيت للشاعر مثلا ، ثم يذكر الشعراء الذين تناولوا معناه ، وأحيانا يبدى رأيه ، فيذكر أن هذا الشاعر قد أحسن الأخذ ، وذاك أفسد المعنى وتخلف عن الشاعر الأصيل . وابن قتيبة قد أفاد اللغة افادة جليلة لأنه ساعد على حصر المعانى التى تناولها شعراء العربية حتى العصر العباسى الثانى ، وبيّن لنا تأثر بعض الشعراء بالبعض الآخر ، فكان كتابه هذا الدعامة القوية التى أقام عليها مؤلفو السرقات الشعرية مصنفاتهم أمثال الآمدى والقاضى الجرجانى وغيرهما .

---

(١) المصدر نفسه .

(٢) الشعر والشعراء ٩٩ طبعة ليدن .

وهناك ناحية يجب ألا نغفلها وهى أن ابن قتيبة لا ينسى أنه ينبهك الى أن هذا الشاعر أول من طرق هذا المعنى ، وأن ذلك أول من تناول فى شعره ذلك الأمر . وقد تتبعت عددا من أقواله تلك فى مراجع الأدب ودواوين الشعراء لأعرف مبلغ صحتها فألفيته أمينا صادقا فى كل ما يقوله .

وكتاب ابن قتيبة يعتبر سجلا قيما لعدد كبير من الشعراء لا يستغنى عنه باحث أو أديب ، ويعتبر كذلك مرجعا هاما لكثير من النصوص الشعرية وملابساتها ، وبخاصة ما يستجاد منها فى نظره .

ويؤخذ عليه أنه كثيرا ما يعتمد فى الاستجادة على آراء السابقين . وهو بذلك يتنكب الطريق السوى الذى رسمه لنفسه فى المقدمة من أنه لا يتبع سبيل التقليد فى الحكم على الشعر والشعراء . ولهذا نراه أحيانا يذكر للشاعر أبياتا على أنها مما يستجاد له فى حين أنها ليست من خير شعره ، لكنه يأخذ برأى السابقين .

ونراه يعنى بسرد كثير من أخبار بعض الشعراء ، فى حين نراه يوجز فى أخبار البعض الآخر ايجازا غير محمود ، بل انه يترك المهم منها ولو كان خاصا بالفحول .

ومما نعيبه عليه أنه يذكر للشاعر أشعارا فى الترجمة ، ثم يمضى قليلا ويكرر هذه الأشعار من غير أن يكون هناك مبرر لذلك ، وقد يرويها مع تغيير فى بعض ألفاظها . وكثيرا ما ينصرف عن الشاعر الذى يترجم له ويتناول شاعرا آخر ، ذاكرا أخباره

وبعض أشعاره لوجود صلة قريبة أو بعيدة بين الشاعرين ، فاذا تناول الشاعر الآخر كرر ما قاله فى ترجمة الأول . وسبب ذلك أن التأليف فى ذلك العهد كان فى طفولته ، ولذلك نراه أحيانا يجنح الى الاستطراد الذى يشبه الخلط . وليس هذا بدعا ، فالتأليف فى أول عهده كان يفهم منه تقييد كل ما يسنح على الخاطر مما يتصل بالموضوع قريبه وبعيده . فلما جاء ابن قتيبة هذبه وخطا به نحو الرقى ، ولكنه مع ذلك لم يسلم من عدوى الاستطراد .

ويؤخذ عليه أنه يخالف جمهرة الأدباء فى بعض الأمور ، حتى لقد ينفرد وحده برأى لا يقره عليه أحد . ولا زلت أذكر — حين كنت أعد رسالة الماجستير عن زهير بن أبى سلمى — أنه نسبه الى غطفان أصلا وموطنا ، مع أن الرواة يجمعون على أنه «مزنى» أصلا « غطفانى » موطنا ، والتحقيق يؤيد ذلك . وهو ينسب قيس بن الملوح « مجنون ليلى » الى بنى جعدة بن كعب بن ربيعة ابن عامر بن صعصعة ، والرواة يجمعون على أنه من بنى عذرة المشهورة بالحب العذرى العفيف .

ويعاب عليه كذلك أنه يضرب صفحا عن ذكر الصفة اللصيقة بالشاعر ، فقد ذكر مثلا عن أبى العتاهية أنه رُمى بالزندقة ، ونسى أنه كان ألهج الشعراء بالزهد والحث على نبذ الدنيا وعدم التهالك عليها . أما الزندقة فقد رُمى بها فى حُميّا شبابه ، ثم انقلب الى زاهد ورع طيلة حياته . ولا يطوف بخاطر انسان اسم أبى العتاهية

من غير أن يقترن بالزهد والورع . ومن الغريب أنه يروى له أبياتا في الزندقة ولا يذكر له بيتا واحدا في الزهد الذى اشتهر به .

ويؤخذ عليه أيضا أنه أهمل فحولا من الشعراء كان يجب أن يترجم لهم ، فلم يترجم لأبى تمام وقد توفى قبله بما يقرب من نصف قرن ، ولا للبحترى وابن الرومى وقد عاصراه ، والثلاثة من فحول الشعراء . وهو بذلك يحيد عن مبدئه الذى رسمه فى المقدمة . فان قيل انه لا يحتج بشعرهم قلنا انه ترجم لشعراء كثيرين محدثين أقل منهم شاعرية ، ولا يحتج بشعرهم ، لأن آخر من يحتج بشعره هو بشار بن برد كما يقولون . ويحتمل أن يكون قد ذكرهم فى الجزء المفقود من الكتاب .

ويعاب عليه أنه يأتى بأخبار كثيرة فيها خرافة من غير أن يقيسها بمقياس العقل ، مع أن عنايته بالدراسة تبدو فى هذا الكتاب أكثر منها فى غيره . والأمثلة على ذلك كثيرة ، فمن ذلك أنه يذكر أن عبيد بن الأبرص عاش أكثر من ثلثمائة سنة [1] ، وأن المستوغر بن ربيعة بن كعب السعدى عاش ثلثمائة سنة وعشرين سنة ، ومن الغريب أنه يروى له شعرا يؤيد ذلك :

ولقد سئمت من الحيـــاة وطولها
وعمّرت من عـدد السـنين مئينا
مائة حدتها بعـــدها مائتان لى
وازددت من بعد الشهور سنينا [2]

---

(١) الشعر والشعراء ١٤٤ ط ليدن .
(٢) الشعر والشعراء ٢٢٧ ليدن .

ولعلنا نذكر أن لبيد بن ربيعة له بيت صدره هو نفس الشطر الأول من البيت الأول .

ومن العيوب التى لا تغتفر له أنه يضيف شعرا الى شاعر ، ثم ينسبه الى شاعر آخر حين يترجم له . ومن ذلك أنه أضاف هذا البيت الى زهير :

لو كنت من شىء سوى بشر   كنت المنوّر ليلة القـــدر [1]

وهذا البيت من قصيدة موجودة فى ديوانه مطلعها : لمن الديار بقنة الحجر .

ثم عاد ونسب البيت الى المسيب بن علس حين ترجم له [2] .
وهذا تخبط منه . وهناك بعض الأمثلة لهذا التخبط منبثة فى الكتاب .

ولعل من أقوم ما احتواه هذا الكتاب هذه الذخيرة الضخمة من آراء القدماء فى الشعراء وأشعارهم ، وهو بذلك يقدم لمؤرخى نقد النصوص أجل صنيع . وقد يتناول أحيـانا بعض الأبيات المستحسنة بالشرح ليبين موطن الجمال فيها ، ولكنه قد يخطىء فى هذا الشرح . وغريب من ابن قتيبة أن يعجز فهمه عن ادراك معانى بعض الأبيات ، وهو العالم اللغوى الكبير ، ومن أمثلة ذلك أنه يشرح بيت النابغة المعروف :

ولست بمستبق أخا لا تلمه   على شعث أى الرجال المهذب

فيقول : « يقول من لم تصلحه وتقومه من النـاس فلست

---

(١) الشعر والشعراء ٥٨ ط ليدن .
(٢) الشعر والشعراء ص ٨٤ طبعة ليدن .

بمستبقيه ولا راغب فيه » (١) . وهذا التفسير — كما ترى — بعيد كل البعد عن الغرض الذى يرمى اليه الشاعر . والبيت حكمة معروفة متداولة تناولها شعراء كثيرون فى صور مختلفة . وقد وقع له مثل هذا القصور فى بعض كتبه الأخرى ؛ فيقول فى « كتاب الأشربة » فى شرح بيت زهير :

أخو ثقة لا تهلك الخمر ماله ولكنه قد يهلك المال نائـــله

« يريد أنه يعطى اذا بخلت النفوس » (٢) . وأنت ترى أن مفهوم البيت ومنطوقه لا يؤديان مثل هذا المعنى ، فالشاعر يريد أن يصف ممدوحه بأنه رجل متصوّن ، لا يغشى مجالس الشراب ، ولا يتلف ماله فيها ، ولكنه يتلفه فى البذل والعطاء . وفى كتاب المعانى الكبير أمثلة لهذا الشرح الخاطىء .

وانى لتعرونى الدهشة حقا حين أجد ابن قتيبة الأديب العالم يزل هذه الزلات التى لا يقع فيها أبسط العقول ، واذ ذاك يمر بخاطرى قول الأزهرى فى ابن قتيبة بعد أن وثقه فيما يرويه : « فأما ما يستبدّ فيه برأيه من معنى غامض أو حـرف من علل التصريف والنحو مشكل ، أو حروف غريب ، فانه ربما زل فيما لا يخفى على من له أدنى معرفة » (٣) .

وأنا أعزو سرّ ذلك الى ما ركّب فى طبيعته من التناقض الذى يسيطر عليه فى بعض الأحايين : فهو يضع للنقد الأدبى مبادىء

---

(١) المصدر نفسه ص ٨٧ .
(٢) الأشربة ص ٦٨ .
(٣) تهذيب اللغة ١/١٥ مخطوط .

جليلة ، منها تقويم الشعر من حيث هو شعر بدون نظر الى زمن قائله وآراء الأدباء فيه ، ولكنه كثيرا ما يتنكب هذا المبدأ القويم ويعتمد على آراء القدماء فى حكمه ، ويضرب صفحا عن الشاعر المحدث مهما كان مجيدا . وتجده يخوض فى أعمق الأبحاث الأدبية والدينية ويلمس أغوارها ، ويعجز فى الوقت نفسه عن فهم بيت سهل من الشعر . وتراه يؤمن بمسألة الانتحال فى الحديث ويتوقى رواية الأحاديث الموضوعة ، ثم تجده يدعم آراءه أحيانا بأحاديث لا يخفى فيها أثر الانتحال .

والظاهر أن ابن قتيبة كان يشعر بأخطائه ، فكان يلتمس لنفسه المعذرة بأنها زلات لا يسلم منها أى عالم مهما بلغ علمه ، والكمال لله وحده جل شأنه . وفى ذلك يقول : « ولا أعلم أحدا من أهل العلم والأدب الا وقد أسقط فى علمه ، كالأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وسيبويه والأخفش والكسائى والفراء وأبى عمرو الشيبانى ، وكالأئمة من قراء القرآن والأئمة من المفسرين . وقد أخذ الناس على الشعراء فى الجاهلية والاسلام الخطأ فى المعانى وفى الاعراب وهم أهل اللغة وبهم يقع الاحتجاج »[1] ، ثم يقول بعيد ذلك « وليس صنف من الناس الا وله حشو وشوب .. ومن ذا صفا فلم يكن له عيب ؟ ، وخلص فلم يكن فيه شوب ؟ » . ويذكر ابن قتيبة لتقرير ذلك أن بعض فطاحل العلماء كانوا يعترفون بعجزهم عن فهم بعض الأبيات ، فقد سأل أبو عبيدة أبا عمرو بن العلاء

---

(١) تأويل مختلف الحديث ٩٥ .

عن تفسير بيت من الشعر فقال : « ذهب والله الذين كانوا يعرفون تفسيره » [1] . واذن فابن قتيبة — كغيره من العلماء — معرّض للزلل والعثار كما يريد أن يقول .

وهناك سؤال يتردد فى أخلادنا بعد ذلك وهو : هل كان ابن قتيبة ذواقة للأدب ؟ وهل كان يثقف الشعر ويحسن الحكم عليه ؟ الجواب عندى أنه كان كذلك فى الأعم الأغلب . وأبرز ناحية تدفعنا الى هذا الجواب أنه كان يختار فيحسن الاختيار ، ويحكم فيصيب سواء المفصل . والأمثلة على ذلك لا يعيها حصر ، وهى منشورة فى كتبه وبخاصة فى كتابى الشعر والشعراء وعيون الأخبار ، وكلها تدل على أنه كان من أعظم نقاد الأدب فى القرن الثالث ان لم يكن أعظمهم . وهاك نماذج على سبيل المثال لتدرك أنه كان يقدر الشعر ويعرف غثه من سمينه :

يقول ابن قتيبة : « ومما سبق اليه النابغة ولم ينازعه قوله :

فانك كالليل الذى هو مدركى
وان خلت أن المنتأى عنك واسع » [2]

والحق أن هذا البيت من أروع ما قيل فى سعة السلطان وبسطة السيادة . والصورة نفسها رائعة قوية . وانظر اليه فى حكمه العكسى على البيت الذى يليه :

خطاطيف حجن فى حبال متينة ... تمد بها أيد اليك نوازع

فيقول : « رأيت قوما يستجيدونه وهو عندي غير جيد فى

---

(١) كتاب المعانى الكبير ١١٣٧/٢ .
(٢) الشعر والشعراء ٨٠ ليدن .

المعنى ولا فى التشبيه » . وهو مصيب فى حكمه ؛ فان الخطاطيف المحجن قد تعجز عن أن تصل الى الغاية . وهو هنا يستعين فى نقده بالعقل الخالص . وشبيه بهذا رأيه فى بيت آخر عِيبَ على الأعشى وهو قوله فى ملك الحيرة :

ويأمر لليحموم كل عشية
بقتّ وتعليق فقد كاد يسنق [1]

وقالوا : « هذا مما لا يُمدح به رجل من خساس الجنود ، لأنه ليس من أحد له فرس الا وهو يعلفه قتا . ويقضمه شعيرا ، وهذا مديح كالهجاء » . ويرد ابن قتيبة ردا يلتمسه من الحق والواقع فيقول : « ولست أرى هذا عيبا لأن الملوك تُعِدّ فرسا على أقرب الأبواب من مجالسها بسرجه ولجامه ، خوفا من عدو يفجؤها أو أمر ينزل ، أو حاجة تعرض لقلب الملك ، فيريد البدار اليها فلا يحتاج الى أن يتلوّم (يتمكث) على اسراج فرسه والجامه ، واذا كان واقفا غُدّى وعُشّى . فوضع الأعشى هذا المعنى ودلّ به على ملكه وعلى حزمه » [2] . والواقع يؤيد ابن قتيبة .

ولو أحصيت لك جميع نظراته الصائبة فى الشعر فى كتاب الشعر والشعراء لطال بى الحديث ، وحسبى من ذلك ما ذكرت . وقد عقد فى « عيون الأخبار » فصلا بعنوان « حسن التشبيه

---

(١) اليحموم = فرس النعمان بن المنذر ، سمى بذلك لشدة سواده . القت = نوع من العلف . يسنق = يبشم من الشبع والتخمة .
(٢) الشعر والشعراء ١/٢٢ طبعة شاكر .

فى الشعر »[1] ، وأنا أحيلك عليه لتدرك أنه يسوق الأبيات الرائعة التشبيه ، مما يدل على سلامة ذوقه فى الاختيار . ولم يكن يقف عند حد ذكر الأشعار ، بل كان كثيرا ما يبدى رأيه معارضا سابقيه ، ومفنّدا آراءهم ، وهاك مثلا واحدا من كثير : يقول الشاعر :

كأن نيرانهم فى كل منـــزلة   مصبّغات على أرسان قصار[2]

ويقول فيه ابن قتيبة : « الناس يستحسنون هذا ، وأنا أرى أن أقول : الأولى أن يشبّه المصبغات بالنـيران لا النيران بالمصبغات » . وهو يرى ذلك لأن الصفة فى المشبه به دائما أوضح منها فى المشبه ، ولون النار المندلعة الأوار أقوى من لون المصبغات .

ويبدو منه أحيانا ذوق سليم حين يقارن بين الأبيات ، فقد ذكر أن العلماء يرون قول عمرو بن الاطنابة أحسن ما قيل فى الصبر وهـو :

وقولى كلما جشـــأت وجاشت
مكانك تحمـدى أو تستريحى[3]

ويعقب ابن قتيبة قائلا : وأحسن من هذا عندى قول قطرى :

وقولى كلما جشـــأت لنفسى   من الأبطال ويحك لا تراعى
فانك لو سألت بقـــاء يوم   على الأجل الذى لك لم تطاعى

---

(1) عيون الأخبار ١٨٦/٢ .

(2) عيون الأخبار ١٩١/٢ . المصبغات = الثياب التى صبغت ولونت بالصبغ . الأرسان = الحبال . القصار = الذى يحور الثياب ويدقها بالمقصرة وهى قطعة من الخشب .

(3) عيون الأخبار ١٩٣/٢ .

ولعلك توافقنى على أن بيتى قطرى من أروع ما قيل فى الصبر على الحرب ، والحث على الاقدام . واستحسن ابن قتيبة فيما يشبه هذا المعنى قول نهشل بن حَرِّى بن ضمرة :

ويوم كأن المصـــطلين بحرّه   وان لم تكن نار قيام ولا جمر
صبرنا له حتى يبوخ وانمـــا   تفرّج أيام الكريهة بالصبر (١)

وهذان البيتان رائعان فى وصف هول الحرب والصبر عـــلى بأسائها .

على أية حال نستطيع أن نقول ان ذوقه فى الاختيار من خير الأذواق على العموم ، وكتبه فى المختارات تدل على ذلك . واقرأ هذه الأبيات لمحمد بن أبى حمزة مولى الأنصار ، اختارها لأنها أغرب ما قيل فى مصلوب :

لعمرى لئن أصبحت فوق مشذّب
طويل تعفّيك الرياح مع القطـــر
لقد عشت مبسوط اليـــدين مرزّأً
وعوفيت عند الموت من ضغطة القبر
وأفلت من ضيق التراب وغمّـــه
ولم تفقد الدنيا فهل لك من شكر (٢)

والأبيات — من غير شك — شديدة التأثير ، طريفة المعنى . والأشعار التى اختارها للغزل فى عيون الأخبار من أروع ما تقع

---

(١) عيون الأخبار ١/١٢٥ .

(٢) عيون الأخبار ٢/١٩٦ .

عليه عين مختار . ومن ذلك ما ذكره لأبى صخر الهزلى ، وهى قصيدته الرائية التى مطلعها :

أما والذى أبكى وأضحك والذى
أمات وأحيا والذى أمره الأمر

ومنها :

ويا حبها زدنى جوًى كل ليلة
ويا سلوة الأيام موعدك الحشر

وصلتك حتى قيل لا يعرف القلى
وزرتك حتى قيل ليس له صبر

ومنها :

عجبت لسعى الدهر بينى وبينها
فلما انقضى ما بيننا سكن الدهر

اذا ذكرت يرتاح قلبى لذكرها
كما انتفض العصفور بلّله القطر

وختمها بهذا البيت :

هل الوجد الا أن قلبى لو دنا
من الجمر قيد الرمح لاحترق الجمر

وهى قصيدة جميلة عذبة الجرس ، ترددها الألسن لعذوبتها .

واختار أبياتا رقيقة لشاعر لم يذكر اسمه ، وهى فى « أمالى القالى » منسوبة الى يزيد بن الطثرية [1] ونكتفى منها بهذا البيت :

---

(١) أمالى القالى ١/١٩٦ .

وكنت اذا ما جئت جئت بعـــلة
فأفنيت علاتى فأيش أقــــول

ولعل هذا البيت هو الذى أوحى الى شوقى أمير الشعراء أن يقول على لسان المجنون فى رواية « مجنون ليلى » :

كم جئت ليـلى بأسباب ملفقـــة
ما كان أكثر أســـبابى وعـــلاتى

وأورد للمجنون أبياتا من خير ما روى له منها :

وانى لأستغشى ومـــا بى نعســة
لعـل خيـالا منـك يلقى خياليـا
وأخـرج من بين الجلوس لعلنى
أحدث عنـك النفس فى السر خاليا

ويقول المجنون يصور أمله فى الظفر بليلى تصويرا لم يسبق له مثيل :

فان أعط ليلى فى حيــاتى لا يتب
الى الله عبـــد توبة لا أتوبهـــا

ومما ذكره للعباس بن الأحنف :

أشـــكو الذى أذاقونى مودتهم
حتى اذا أيقظونى فى الهوى رقدوا
واستنهضونى فلما قمت منتهضـــا
من ثقل ما حملونى فى الهوى قعدوا

واختار لقيس بن ذريح أبياتا جميلة منها :

تعلّق روحى روحها قبـــل خلقنا
ومن بعد ما كنا نطافا وفى المهـــد
فزاد كما زدنا فأصـــبحناميـــا
فليس وان متنـــا بمنفصم العهد

وهكذا كان ابن قتيبة سليم الذوق حين عمد الى اختيار هذه الأشعار فى الغزل وفى غيره. ولكننى آخذ عليه فى هذا المقام اغفاله أشعار عمر بن أبى ربيعة وجميل وكُثيّر، وهم من زعماء الغزلين.

وكان ذوقه يهديه أحيانا الى معرفة الشعر المصنوع من غيره، ومن ذلك أنه روى أبياتا لنصر بن حجاج ثم قال: « وأنا أحسب هذا الشعر مصنوعا » (١).

وكما كانت له سقطات فى تفسير بعض الأبيات كانت له كذلك سقطات فى اضافة بعض الأشعار الى قائليها تدل على ضآلة حظه من الذوق الفنى. وعلة ذلك عندى التناقض الذى أشرت اليه آنفا والذى يسيطر عليه أحيانا، فبينما تجده رائع الذوق عميق الفكرة، يملأ نفسك اعجابا به واكبارا له، اذا به يبهتك بذوق ضئيل وفكر ضحل. واقرأ له هذه الأبيات يضيفها الى المتلمس:

واصـــلاح القليل يزيد فيه وتقـــوى الله من خير العتاد
وأعلم علم حق غـــير ظن وضرب فى البـــلاد بغير زاد
لحفظ المال أيسر من بُغاه ولا يبقى الكثير مع الفساد(٢)

واللمحة الفنية الخاطفة تنبئنا بأن هذا الشعر لا يقوله شاعر كالمتلمس، فالسهولة البالغة، والألفاظ السمحة اللينة، ثم المسحة

---

(١) عيون الأخبار ٤/٢٤ (٢) الشعر والشعراء ٨٨ ط ليدن.

الدينية التى تغمر الأبيات ، كل ذلك يجعلنا نرفض فى غير تردد نسبتها الى المتلمس .

ويخلط ابن قتيبة أحيانا خلطا يدعو الى الغرابة مبعثه التناقض كذلك ، ومن ذلك أنه نسب الى البعيث هذه الأبيات الأربعة :

ولست بمفراح اذا الدهـــر سرّنى
ولا جـــزع من صرفه المتقـــلب

ولا أتمنى الشـــــر والشر تاركى
ولكن متى أحمل على الشر أركب

ويعتـــــده قوم كثير تجـــارة
ويمنعنى من ذاك دينى ومنصـــبى

فان مســـيرى فى البـــلاد ومنزلى
لبالمنزل الأقصى اذا لم أقـــرّب [1]

وبعد ذلك ببضع صفحات ذكر البيتين الأولين فقط ، ناسبا اياهما الى تأبط شرا .

واذا جرينا وراء تعليله قلنا انها هفوات تعرض لكل عبقرى ، ولا يسلم منها أى انسان .

ومهما يكن من شىء فهفواته قليلة لا تقدح فى عبقريته . وهو على العموم رجل يثقف الشعر ويحسن الحكم عليه .

وأستطيع أن أقول بعد كل ما ذكرت انه وضع لبنة أساسية فى تاريخ الأدب العربى ، بما ساقه لنا من أخبار عدد حافل من الشعراء ، وبما ذكره لنا من تعليل لبعض الظواهر الأدبية .

---

(١) عيون الأخبار ٢٧٥/١ .

الفصل الرابع

أثر ابن قتيبة فى النقد

بينا فى الفصل السابق أثر ابن قتيبة فى الشق الأول من الأدب الوصفى ، وهو تاريخ الأدب ، وعرفنا أن كتابه « الشعر والشعراء» لم يكن من التاريخ الأدبى فى شىء كثير ، وانما كان لبنة طيبة فى أساس هذا العلم .

ونريد فى هذا الفصل أن نبين أثر ابن قتيبة فى الشق الثانى من الأدب الوصفى وهو « النقد » . ولا جدال فى أن آراءه كانت ذات أثر بعيد الغور فى النقد من الناحية النظرية على الأقل . وقد سجل تلك الآراء فى مقدمة كتابه « الشعر والشعراء » .

ولكى ندرك صنيع ابن قتيبة فى هذا الفن يجمل بى أن أذكر كلمة عاجلة عن النقد وتطوره حتى أسلمته المقادير الى ابن قتيبة ، وبذلك نستطيع أن نقف على الخطوات الساذجة التى خطاها النقد فى تؤدة ، والدرجات التى توقلها على يد ابن قتيبة :

كان للعرب فى أخريات العصر الجاهلى مجالس أدب وأسواق يرتادها الناس من كل فج ليشهدوا منافع لهم وليتناشدوا الأشعار .

وكانوا الى جانب ذلك يلتقون فى رحاب الملوك والأمراء من المناذرة والغساسنة وغيرهم يُنشدونهم أشعارهم ، وكان التنافس بينهم يدفعهم الى أن ينقد بعضهم بعضا . وهذه كانت المحاولات الأولى فى النقد . ومن ذلك ما نعرفه من حكومة النابغة المشهورة فى سوق عكاظ . ويروون كذلك أنه « دخل يثرب فغنى بشعره ففطن ، فلم يعد للاقواء » [1] . ويعزون الى طرفة أنه عاب على المتلمس نعته البعير بنعوت النياق وقال : « استنوق الجمل » [2] ، فضحك الناس وصارت مثلا .

وأبلغ من ذلك دلالة على وجود هذا النقد أن الشعر قد أصبح فى هذا العصر فنا يتلقى على أساتذة ، ووجدت له مذاهب مختلفة ، وأصبحنا نرى من الشعراء الجاهليين من كان له أستاذ يروى شعره ويتخرج على يديه ، مسترشدا بمنهجه الفنى ، مثل زهير بن أبى سلمى والحطيئة والأعشى .

ويلاحظ أن هذا النقد الناشىء كان يتجه الى الصياغة والمعانى ويعرض لها من ناحية الصحة والانسجام ، كما توحى به السليقة العربية . فهو نقد فطرى لا يربط بين الشاعر وبين بيئته وزمانه . واذن فلا مراء فى أن ما روى من القصص التى تتضمن النقد التفصيلى مرفوض من أساسه ، كقصة النابغة مع حسان والخنساء وهى معروفة مشهورة ، وكقصة أم جندب الطائية زوج امرىء

---

(١) الشعر والشعراء ص ٤٢ طبعة الشيخ شاكر .
(٢) الشعر والشعراء ص ١٣٥ شاكر .

القيس التى احتكم اليها امرؤ القيس وعلقمة الفحل ، وقضت فيها لعلقمة [1] .

وهناك مسألة أخرى متصلة بالنقد اتصالا وثيقا ، تلك هى قصة « المعلقات » . فهذه القصة — ان صحت — تدل على أن اختيار هذ القصائد دون غيرها حكم ضمنى على جودتها . ولكنى لا أطمئن الى صحتها . وقد تحدثت عنها حديثا مستفيضا فى كتابى عن زهير بن أبى سلمى [2] .

ولما بُعث النبى الكريم رأى أن يجنّد الى جانب حملة القنا والصوارم ، اللسْن المقاويل . وكان عليه الصلاة والسلام أفصح العرب ، يتذوق الكلام البليغ ويخوض فى الشعر مع الوافدين ، وقد أعجب بشعر النابغة الجعدى وقال له : « لا يفضض الله فاك » ، وكان يستنشد الخنساء ويستزيدها ويقول لها : « هيه يا خناس » .

وكان الخلفاء الراشدون رضوان الله عليهم يخوضون مع الوفود التى كانت تفد على المدينة فى الشعر وفى المفاضلة بين الشعراء . وأظهرهم فى هذا الباب الخليفة العظيم عمر بن الخطاب ، وله فى ذلك حكايات كثيرة معروفة . ويعتبر عمر أول من أقام حكما فى النقد على أصول متميزة وأسباب واضحة . ولكنه على أية حال كان نقدا فطريا .

---

(١) انظر هذه القصة بالتفصيل فى كتاب المعانى الكبير ١/ ٨١ .
(٢) انظر كتاب زهير بن أبى سلمى شاعر السلم فى الجاهلية ص ١٨٨ .

وظل النقد على تلك الحال ناشئا يافعا الى قبيل أواخر القرن الأول ، لا يعدو أن يكون نظرات يسيرة تبنى على أمور موجزة من المقاييس الأدبية . ثم تبدّلت الحال غير الحال فى أخريات القرن الأول ، لأن الناس تعمقوا فى فهم الأدب ، ووازنوا بين شعر وشعر وبين شاعر وشاعر ، حتى انه ليمكن القول — فى شيء من التجاوز — ان عهد النقد الصحيح يبتدىء من ذلك الوقت ، وان كل ما سبق له لم يكن سوى نواة أو محاولات فيه . وكتب الأدب مترعة بالأمثلة الكثيرة ، وحسبى أن أسوق لك منها هذه الأمثلة :

ذكر ابن قتيبة أن عبيد الله بن قيس الرقيات أنشد عبد الملك ابن مروان أبياتا رقيقة القافية ، فقال له الخليفة : « أحسنت لولا أنك خنثت فى قوافيك »[1] .

وكانت سكينة بنت الحسين رضى الله عنهما عفيفة برزة ، تجالس الخيرة من الناس ، ويجتمع اليها الشعراء محتكمين ، وكانت ظريفة مزّاحة ، وكان مجلسها نموذجا طريفا (للصالونات) الأدبية فى ذلك الحين . وقد روى أنه اجتمع فى مجلسها ذات مرة راوية جرير وراوية جميل وراوية نصيب وراوية الأحوص ، فأخذ كل منهم يفخر بصاحبه ، فاحتكموا الى سكينة ، فقالت لراوية جرير : أليس صاحبك الذى يقول :

طرقتك صائدة القلوب وليس ذا
وقت الزيارة فارجعى بسلام

(١) الشعر والشعراء ص ٥٢٥ تحقيق الشيخ شاكر .

وأى ساعة أحلى من الطروق ؟ « قبّح الله صاحبك وقبح شعره » . ثم قالت لراوية جميل : أليس صاحبك الذى يقول :

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها
ولكن طلابيها لما فات من عقلى

فما أرى بصاحبك من هوى ، انما يطلب عقله ، « قبّح الله صاحبك وقبح شعره » .

ثم قالت لراوية نصيب : أليس صاحبك الذى يقول :

أهيم بدعد ما حييت فان أمت
فواحزنا من ذا يهيم بها بعدى

فما أرى همه الا فيمن يعشقها بعده ، « قبّحه الله وقبح شعره » . ثم قالت لراوية الأحوص : أليس صاحبك الذى يقول :

من عاشقين تراسلا وتواعدا ليلا اذا نجم الثريا حلقا
باتا بأنعم ليلة وألذّها حتى اذا وضح الصباح تفرقا

قبّح الله صاحبك وقبح شعره ، ألا قال « تعانقا » . ولم تقدّم أحدا منهم فى ذلك اليوم (1) .

وهاك مثلا آخر من النقد الذى ظهر فى ذلك العصر :

أنشد جرير قول عمر بن أبى ربيعة :

سائلا الربع بالبلىّ وقولا هجت شوقا لى الغداة طويلا
أين حى حلوك اذ أنـ ـت محفوف بهم آهل أراك جميلا

---

(1) أغانى ساسى ٧/٥٠ .

قال :

قال : ساروا فأمعنوا فاستقلوا   وبرغمى لو استطعت رحيلا
سئمونا وما سئمنا مقاما   وأحبوا دماثة وسهولا

فقال جرير : « ان هذا الذى كنا ندور عليه فأخطأناه وأصابه هذا القرشى »[1] وكانوا يقولون : « ان جريرا يغترف من بحر والفرزدق ينحت من صخر » .

وقد وجد فى هذا العصر الاسلامى مجالس أدب عامة تشبه مجالس الأدب فى الجاهلية ، كمربد البصرة ومسجد الكوفة . وكانت حلقات الشعر تنتظم فيهما ، وبخاصة فى المربد ، اذ كان يرتاده من حين لآخر جرير والفرزدق والراعى للمهاجاة والتفاخر ، ونشأ عن ذلك ما يعرف « بالنقائض » .

ولعلك تلاحظ معى أن هذه الآراء فى النقد تدل على أن العرب قد فطنوا الى كثير من خصائص الشعر الجيد ، كروعة النغم ورقة الشعور وجودة المعانى وطرافتها ، وتدل على أن النقد قد دقت عبارته ، وأصبح الناقد يجنح الى التعليل بعض الشىء ، ولكنه كان يعتمد — على كل حال — على السليقة والذوق العربيين .

وعلى ذلك نستطيع أن نقول ان النقد ظل فطريا تأثريا بعيدا عن روح العلم ، ولا يعتمد على تحليل النصوص تحليلا يبين خصائصها الدقيقة . وهؤلاء النقدة كانوا عربا خلصا ، ينقدون بدافع من سليقتهم وطبعهم .

(١) أغانى بولاق ١/٤٧ .

أما الذين نطقوا العربية تعلّما ونقدوا الشعر تعلما ، وكانوا يدرسون اللغة ويحللونها ليعرفوا أسرارها وأوجه الجمال والقبح فيها فهم اللغويون والنحويون ، ومعظمهم من الموالى . وكان أثرهم فى النقد خطيرا ، واليهم يرجع الفضل فى تدوين كثير من مقاييسه وأصوله . وهؤلاء هم العلماء الذين خلقتهم الحياة الاسلامية الجديدة .

وقد أخذت هذه الطائفة تستقرىء كلام العرب لتستنبط منه قواعد النحو ووجوه الاشتقاق وأعاريض الشعر ، وأصبح نقدهم للشعر لا يتصل برقته وجودة معانيه ، وانما يتصل بمسايرته للقواعد والأصول التى هداهم اليها استقراؤهم فى الاعراب والوزن والقافية واللغة . وهذا النقد بعيد عن روح النقد الأدبى ولا دخل للذوق فيه .

بيد أن فريقا من هؤلاء العلماء كان يروى الأشعار والأخبار والملح ، وكانوا من أئمة العربية الذين يُرجع اليهم فى حل المشكلات ، ولهم فى نقد الأدب آراء يُعتد بها . وهؤلاء يُعتبرون من النحويين واللغويين الذين قوّوا دعائم النقد الأدبى ، كعنبسة الفيل وميمون الأقرن وعيسى بن عمر الثقفى وأبى عمرو بن العلاء والخليل بن أحمد ويونس بن حبيب ، وكالأصمعى وخلف الأحمر وأبى زيد الأنصارى وأبى عبيدة ومحمد بن سلام الجمحى من البصريين ، والمفضل الضبى وأبى عمرو الشيبانى وابن الأعرابى وحماد الراوية من الكوفيين . والى هؤلاء جميعا يرجع الفضل فى جمع اللغة والأدب وأخذهما من مناهلهما ونشرهما فى الأمصار .

وقد جرهم ذلك الى التعمق فى فهم الشعر وتذوقه وادراك مميزات الشعراء ، فعرفوا مثلا أن جريرا قوىّ الطبع صادق الشعور ، وأن الأعشى يستعمل كثيرا من الأوزان فى شعره ، وأن امرأ القيس قد أتى بمعان لم يسبق اليها وأنه بجس عين الشعر للشعراء .

وكان لهؤلاء اللغويين الفضل الأكبر فى جمع الحجج التى أدلى بها أنصار كل شاعر ، وهذه الحجج كانت من الدعائم القوية التى بُنى عليها النقد وتاريخ الأدب .

وهذه الآراء تعتبر فى جملتها من النقد الذاتى Subjective لأنه نقد يختلف باختلاف الأذواق والثقافات . ولذلك نراهم يختلفون فى تقدير الشعر والشعراء . ويقول يونس بن حبيب : « ما شهدت مجلسا قط ذكر فيه الفرزدق وجرير ، فاجتمع أهل ذلك المجلس على أحدهما » (١) . وهذا الكلام يصور ذاتية النقد ؛ فمن كان يميل الى جزالة الشعر وشدة أسره يقدم الفرزدق ، ومن كان يميل الى الشعر السمح المشرق يقدم جريرا .

ولا ريب أنه كان فى الشعر عناصر جيدة تُرضى الناس جميعا ولا تختلف فيها الأذواق . ويدلنا على ذلك أنهم يكادون يُجمعون على أن امرأ القيس والنابغة وزهيرا والأعشى فى الطبقة الأولى من الجاهليين ، وأن جريرا والفرزدق والأخطل فى الطبقة الأولى من الاسلاميين . واذن فلابد من القول من أنه كان هناك ذوق أدبى عام يقوم على خصائص عامة .

---

(١) الفيث المنسجم ١/١٩٨ .

ونستخلص من أقوال هؤلاء اللغويين النقاد أن المفاضلة كانت تقوم على دعامتين أساسيتين : أولاهما كثرة ما أثر عن الشاعر من شعر ، وثانيتهما جودة هذا الشعر الغزير . وتتحقق هذه الجودة بتوفر الخصائص العامة التى تستجيدها الأذواق .

وقد ظهر الى جانب هذا النقد نوع آخر لا يتصل بالجودة والرداءة ، ولا يخوض فى الموازنة بين الشعراء ، ولكنه يربط الشاعر ببيئته وبالعوامل التى اختلفت عليه . ولا شك أن اللغويين هم الذين اتجهوا هذا الاتجاه فى النقد بحكم مهمتهم الشاقة الجليلة التى اضطلعوا بها ، وهى جمع اللغة والأدب . وقد دعاهم ذلك الى دراسة البيئات العربية لمعرفة خلوها من شوائب الدخيل واللحن . وقد هدتهم تلك الدراسة الى أن يعللوا كثيرا من الظواهر فى الشعر العربى ، وأن يفرقوا بين الشعراء من حيث ملازمتهم للروح العربية أو مقارفتهم لها حتى تتبين منزلتهم فى ميدان الاستشهاد بالشعر . ومن ذلك ما يقوله يونس بن حبيب عن ابن قيس الرقيات : « ليس بفصيح ولا ثقة ، شغل نفسه بالشراب بتكريت » (١) . وكان العلماء يقولون عن عدى بن زيد انه « كان يسكن بالحيرة ويدخل الأرياف فثقل لسانه ، واحتمل عنه شىء كثير جدا ، والعلماء لا يرون شعره حجة » (٢) ، وذلك لأن كلا منهما تأثر بمن حوله من الأخلاط ، فقدح ذلك فى فصاحته .

وهذا النوع من النقد لا يعتمد على ذوق خاص ولا على ذاتية

---

(١) أغانى ساسى ٤/ ١٦٠ .
(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٦ شاكر .

خاصة ، وانما هو يعتمد على صلات الشاعر ببيئته وظروفه ، ويسمى بالنقد الموضوعى Objective .

ويتصل بهذا النقد الموضوعى ضرب آخر من النقد يبحث فى صحة اضافة الشعر الى صاحبه ، لأن الافتعال شاع اذ ذاك فى الشعر كما شاع فى الحديث لأسباب لا يتسع المقام لذكرها ، وقد أشار اليها ابن سلام فى مقدمة كتابه . وأشهر من عُرف باتنحال الشعر رجلان هما : خلف الأحمر البصرى وحماد الراوية الكوفى ، وشاركهما فى شىء يسير جدا شيخ اللغويين أبو عمرو بن العلاء .

وقد دعت هذه الظاهرة اللغويين الى أن يبحثوا فى المتن وفى السند كما يفعل رجال الحديث . ويرى أستاذنا المرحوم « طه ابراهيم » أن هذا النوع من النقد أقرب الى النقد التاريخى منه الى أى شىء آخر [1] .

وأول من صنف فى كل هذه المعارف كتابا خاصا وزاد عليها وجعلها بحثا علميا ذا أصول هو « محمد بن سلام الجمحى البصرى » ، وذلك الكتاب هو « طبقات الشعراء » . وقد ضمّن هذا الكتاب الآراء المبعثرة التى قيلت فى الشعر والشعراء ، ومحصها وزاد عليها وبحثها بحث عالم متأثر بروح عصره من حيث التعليل وردّ الظواهر الأدبية الى أسبابها على قدر ما تتسع له عقليته . وسنعرض مقارنة بينه وبين ابن قتيبة فى فصل خاص .

وقد عرض ابن سلام فى المقدمة لمسألة الشعر الموضوع ،

---

(١) تاريخ لنقد الأدبى عند العرب ص ٧٣ ، وقد اعتمدنا على هذا الكتاب القيم كثيرا .

وأرجع أسباب الوضع الى أمرين : الأول : العصبية فى العصر الاسلامى ، وحرص كثير من القبائل العربية على أن تضيف الى أسلافها ضروبا من السؤدد والمجد . الثانى : الرواة أنفسهم ورغبتهم فى زيادة الأشعار . وكان ابن سلام يشير فى كثير من المواضع الى نظرية الشعر المنحول فى حديثه عن الشعر والشعراء فى شيء كثير من الدقة يدل على المامه بالفكرة الماما طيبا . ولا ريب فى أنه قد درس الشعر الجاهلى دراسة طيبة ووقف على طبع كل شاعر . ثم وضع بعد ذلك الشعراء فى طبقات متخذا الكثرة والجودة مقياسه . وهو يتناول كل شاعر ، موردا بعض أخباره فى اقتضاب شديد ، وشيئا مما يستجاد من شعره وآراء بعض القدماء ، من غير أن يتعرض لتحليل النصوص تحليلا أدبيا يبين مواطن الروعة فيها ، بل يكتفى بالحكم على الشعراء وتعليل بعض الظواهر الأدبية ويضع كل شاعر فى طبقته .

والظاهر من اضطراب المقدمة أن الكتاب كتابان ألف ابن سلام كل واحد منهما على حدة ، وجعل لكل مقدمة ، ثم اندمجت المقدمتان ، فكان ذلك سر ما فى المقدمة من اضطراب . وقد أشار ابن النديم الى ذلك (١) . ولا ريب فى أن ابن سلام قد استضاء بآراء سابقيه من اللغويين والنحاة .

ولكننا نأخذ على ابن سلام أنه لم يحلل النصوص ليبين جمالها كما قلنا . ونأخذ عليه كذلك أنه لم يطبق مقياس « الكثرة والجودة » بدقة حين ينزل الشعراء منازلهم . فأحيانا يضع

(١) الفهرست ص ٦١ .

شعراء فى طبقات دون أقدارهم ، ويضع آخرين فى طبقات لا يستحقونها من غير أن يبدى لذلك سببا . وعلة ذلك — فيما أرى — صعوبة تقسيم الشعراء الى عشر طبقات وايجاد الفروق الدقيقة التى تميز هذه الطبقة من تلك .

ومما نأخذه عليه أنه أعرض عن ذكر شعراء نابهين مثل عمر بن أبى ربيعة والطرماح بن حكيم والكميت الأسدى . ثم انه وضع شعراء جاهليين بين الاسلاميين مثل بشامة بن الغدير وقراد ابن حنش وأبى زيد الطائى ، وهؤلاء جاهليون .

ومهما يكن من شىء فكتاب ابن سلام يعتبر أول الكتب التى وضعت فى النقد الأدبى .

وهنا أحب أن أشير الى مسألة هامة تعيننا على اتجاه ابن قتيبة فى النقد قبل أن تصل اليه ؛ تلك أنه لما قامت الدولة العباسية وامتزج العرب بغيرهم من الموالى وبخاصة الفرس وتعقدت الحياة نشأ جيل من الشعراء يُعرفون بالمحدثين . ومنذ ذلك العهد صار الشعراء طائفتين : طائفة تحتذى القدماء ، ولا تجدد الا بمقدر ما يساير الحياة الجديدة ولا يجافى الروح العربية ، ومن هؤلاء مروان بن أبى حفصة ودعبل الخزاعى وعلى بن الجهم وأشجع السلمى . وطائفة أخرى مالت الى التجديد وعلى رأسهم بشار شيخ المحدثين والعتابى وأبو نواس ومسلم بن الوليد ، ثم أبو تمام وابن المعتز . ويقول ابن رشيق ان المشهور ان أول من فتّق البديع بشار بن برد ، واقتدى به كلثوم بن عمرو العتابى وأبو منصور النمرى وأبو نواس ومسلم بن الوليد ، وانتهى

البديع الى ابن المعتز واختتم به (١) . وكان التجديد الذى أحدثته هذه الطائفة يتصل أكثر ما يتصل بالزخرف والتنميق . وقد وجدوا لهذه الصنعة أصولا ونماذج فى الشعر القديم جاءت عفوا عن غير قصد ، وألفوها كذلك فى القرآن الكريم ، وفى الأحاديث .

وجدت اذن مدرسة جديدة شيخها بشار ، وأصبح الشعر فنا يسير الشاعر فيه وراء الجمال ويشقى فى العثور عليه ، وصارت الألفاظ تبدل والعبارات تغير ليحدث اللفظ طربا فى السمع وليتحقق به للشاعر نوع من أنواع البديع . ولم يعد الغرض من تبديل الألفاظ وتغيير العبارات ايضاح المعنى أو تحديده .

وقد كان هذا — بطبيعة الحال — مؤذنا بوجود خلاف بين النقاد ، فبعضهم يؤثر القديم الجزل ، وبعضهم يؤثر الحديث الرقيق المزخرف . وأشد النقاد تعصبا للقدماء وتحاملا على المحدثين هم اللغويون ، فهم لا يكادون يقرون لمحدث بسبق . وسبب ذلك واضح ؛ فانهم كانوا يرتادون البادية ويأخذون اللغة عن فصحاء الأعراب ويروون الشعر ، فتأثرت أذواقهم بالشعر القديم ، وأصبحوا لا يحفلون كثيرا بأشعار المحدثين . هذا الى أنهم كانوا يرون اللغة العربية لغة صحراوية تتصل بما فى الصحراء من جماد وحيوان ونبات ، واذن فهى لا تزدهر الا فى البداوة . ولهذا كانوا يعتقدون أن الاقامة فى الحضر تفسد الملكة الفنية العربية وتجلب اللحن . والشعر المحدث وليد الحضارة ، فهو اذن يجافى الروح

---

(١) كتاب العمدة ١/٨٥ .

العربية ، وقد لا يخلو من اللحن فى الاعراب أو فى الاشتقاق . زد على ذلك أنهم كانوا فى حاجة الى الشواهد ، وكانوا لا يطمئنون بطبيعة الحال الى لغة المحدثين .

وقد كان على رأس هؤلاء المتعصبين للقديم شيخهم أبو عمرو ابن العلاء . وكلما أوغل الشاعر فى القدم كان فى نظره أجدر بالتقديم والتقدير ، ولهذا يقول : « لو أدرك الأخطل يوما واحدا من الجاهلية ما قدمت عليه أحدا » . وجرى على مذهبه ابن الأعرابى وخلف الأحمر وأبو عبيدة والأصمعى وغيرهم .

وقد تصدى لأنصار القديم أبو نواس ، وأخذ يسفّه مذاهبهم وينعى على من يحتذيهم ، ويطعن الشعر العربى فى أخص خصائصه ، وهو بدء القصائد بالنسيب والوقوف على الأطلال ومساءلة الدمن ، وأمره فى ذلك معروف . ولكن صيحته هذه كانت نفخة فى واد ، ولذلك نراه هو نفسه يسير فى درب الشعر القديم ، فيقف على الأطلال أحيانا ويخاطب الربع ويذكر انضاء الراحلة .

على أنه يجب أن نعترف بأن محاولة أبى نواس هذه تعتبر لفتة فذة فى النقد الأدبى ، لأنه يريد أن يحقق الصلة بين الأدب والحياة ، أى انه يريد أن يكون الأدب مرآة الحياة على حد تعبير الغربيين .

هكذا كان النقد فى نهاية القرن الثانى : تعصّب للقديم يبلغ حد التحامل على المحدثين ، ومحاولة من أنصار التجديد فيها شىء غير قليل من الازراء بالقديم .

وظلت الحال كذلك حتى بزغ فجر القرن الثالث ، فكان بحق

عصر تجديد تناول النقد فى ظواهره وفى أشكاله ، بل فى جوهره وفى حقيقته .

نعم أصبح النقد فى هذا العصر يقوم على العناصر التى أشرنا اليها ، ويقوم كذلك على الثقافة والفلسفة والمنطق ، وعلى كل ما دخل الذهن العربى من المعارف الأجنبية التى ترجمت ، وبخاصة كتب أرسطو فى الشعر والخطابة . فلقد أقبل كثير من أدباء هذا القرن على هذه العلوم الحديثة واغترفوا منها فى قلة أو فى سعة ، كل على حسب ميله وذوقه ، كما ازورّ عنها كثير من العلماء الذين لا يؤثرون على الثقافة العربية أية ثقافة أخرى ، مثل أبى حاتم السجستانى وأبى الفضل الرياشى وابن السكيت ومحمد بن يزيد المبرد وأبى العباس ثعلب . هؤلاء جميعا ومن لفّ لفّهم كانت ثقافتهم عربية أو تكاد ، فكانوا يجمعون بين العلم بالنحو والعلم باللغة والأدب ، ولا يخلو أحدهم من أثر فى نقد الشعر . وانك لتعرف اتجاهاتهم فى النقد من كتاب « الكامل » للمبرد ، وعلى الأخص فى باب « التشبيه » ، ففيه تجد كثيرا من أحكامهم على الشعر ، اذ يختار المبرد خير ما عُرف من التشبيه المصيب الجيد ، ويعقّب على ذلك بالحكم الذى يبيّن منهج القوم فى النقد فى ذلك الحين .

وقد وُجد الى جانب هؤلاء وأولئك فريق آخر أخذوا بحظ من الثقافات الأجنبية الى جانب ثقافتهم العربية ، فكان لهم ذوق خاص فى نقد الأدب يعتمد على القديم أولا وقبل كل شىء فى الروح وفى الخصائص العامة الأصيلة ، ويتأثر مع هذا بالمعارف

التى نقلت الى اللسان العربى ، وبعقلية العلماء فى التنظيم والترتيب . وخير من يمثل هذا الفريق عالمنا وأديبنا « أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة » ، فقد أخذ نصيبا ضخما من الثقافة العربية الرصينة ، وحصل على قدر عظيم جدا من العلوم الشرعية والدينية ، وظفر الى جانب ذلك بحظ لا بأس به من الثقافات الأجنبية .

كان ابن قتيبة فى الواقع وسطا بين المذهبين ، وكان سياجا قويا يحول دون طغيان الثقافات الأجنبية على الثقافة العربية . ونحن نقرأ له فى مقدمة « أدب الكاتب » شكواه المريرة من انحراف المتبحرين عن النظر فى علم الكتاب وفى أخبار الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته ، وفى علوم العرب ولغتهم وآدابهم ، وانصرافهم الى العلوم المترجمة انصرافا يكاد يبتّ ما بينهم وبين تراثهم من صلة . ولكنه مع ذلك يحث الكتاب والأدباء على التزود من هذه العلوم الأجنبية فى قصد لما لها من مزايا .

وابن قتيبة لا يكره المنطق لأنه يجهله ، وانما يعيب على معاصريه أنهم يسرفون فيه الى حد يصرفهم عن الثقافة العربية الاسلامية التى هى أخلق بالدرس من غيرها .

يريد ابن قتيبة للناس فى عصره اتزانا فى العلم وملاءمة بين المعارف ، فلا يدَعون العلم العربى وينكبّون على المعارف الأجنبية التى تفسد عقولهم وأذواقهم على حد اعتباره .

ولا شك أن رجلا كابن قتيبة له هذا الباع الواسع فى هذه المعارف المتنوعة الفسيحة المستقرة فى ذهن خصيب اذا تصدى

للنقد كان له فيه منحى خاص وذوق يتناسب مع هـذا الذهن الصقيل الواعى .

ومن اليسير أن ندرك بعد ذلك منحى هذا الرجل فى النقد ، وهو البحث فى الأدب بروح العلم . أعنى أنه جعل النقد كالعلم دقة وتحديدا ، وبذلك يصبح له ضوابط وأصول محددة محصورة. وقد وجب علينا الآن أن نقول ان ابن قتيبة أول من وضع فى نقد الشعر قواعد وضوابط دقيقة نوقفك عليها الآن .

ومقدمة كتابه « الشعر والشعراء » تعتبر خطوة جريئة نقلت النقد الأدبى من حال الى حال .

والآن أتناول ما أزجاه ابن قتيبة للنقد من وضع ضوابط واضحة المعالم فى افاضة واسهاب .

١ — تدبر ابن قتيبة الشعر فوجده أربعة أضرب : ضرب حسن لفظه وجاد معناه ، وضرب حسن لفظه وحلا ، فاذا أنت فتشته لم تجد هناك فائدة فى المعنى ، وضرب جاد معناه وقصرت ألفاظه عنه ، وضرب تأخر معناه وتأخر لفظه . وقد ضرب ابن قتيبة الأمثلة الكثيرة لكل ضرب من هذه الأضرب ، وهى تدل على أنه كان حسن الذوق والاختيار الى حد بعيد : فمن الضرب الأول قول أبى ذؤيب :

والنفس راغبة اذا رغّبتها واذا ترد الى قليل تقنع

وهذا البيت من أبدع ما قالته العرب لفظا ومعنى . ومن الضرب الثانى قول القائل :

ولما قضينا من منى كل حاجـــة
ومسّح بالأركان من هو ماســح
وشدت على دهم المهارى رحالنــا
ولم ينظر الغــادى الذى هو رائح
أخذنا بأطراف الأحاديث بيننــا
وسالت بأعنــاق المطىّ الأباطح

وهذه الأبيات حسنة الجرس جميلة المقاطع والمخارج ، ولكن معناها دارج . وقد تناول هذه الأبيات بالتفصيل عبد القاهر الجرجانى وضياء الدين بن الأثير مبيِّنين روعة الصورة البيانية التى أضفت على المعنى الدارج الجدة والجمال [1] . وأشار الى هذه الأبيات الفيلسوف أبو الوليد بن رشد فى تلخيصه كتاب الشعر لأرسطو ، وبيّن أن الصورة البيانية هى التى خلقت من هذه الألفاظ شعرا جميلا ، ثم قال : « انما صار الكلام شعرا لأنه استعمل قوله وسالت .. البيت » [2] . ومن الضرب الثالث قول لبيد بن ربيعة :

ما عاتب الحـر الكريم كنفسه والمرء يصلحه الجليس الصالح

فهذا البيت جيد المعنى الا أنه قليل الماء والرونق ، ليس فيه شىء من الطلاوة والاشراق . ومن الضرب الرابع قول الأعشى :

---

(١) انظر أسرار البلاغة ص ١٦ طبعة المنار ، والمثل الســائر ٣٥٣/١ طبعة مصطفى الحلبى .
(٢) انظر كتاب «فن الشعر» لأرسطو ص ٢٤٢ تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى .

ولقد غدوتُ الى الحـانوت يتبعنى

شاو مشل شلول شلشل شول [1]

وأنت ترى أن البيت غثّ المعنى واللفظ ، وفيه أربعة ألفاظ يمكن أن يُستغنى بأحدها عن جميعها .

ويجب أن أقرر أن الجاحظ قبل ذلك قد قسم الشعراء الى أربعة أقسام : فأولهم الفحل الخنذيذ والخنذيذ هو التام ، ودون الفحل الخنذيذ الشاعر المفلق ، ودون ذلك الشاعر فقط ، والرابع الشعرور . ثم يقول الجاحظ بعد ذلك : « وسمعت بعض العلماء يقول : طبقات الشعراء ثلاثة : شاعر وشويعر وشعرور » [2] . فالجاحظ يقسم الشعراء وابن قتيبة يقسم الشعر . ومن الجائز أن يكون ابن قتيبة قد أخذ فكرة التقسيم عن الجاحظ . ولكن تقسيم ابن قتيبة مبنىّ على علل وأسباب محددة . وليس من شك فى أن ابن قتيبة والجاحظ قد اطلعا على كتاب الشعر لأرسطو ، وهذا الكتاب كان قد تُرجم فى ذلك الحين الى العربية . ولكن كل واحد من هؤلاء قد اعتمد فى تقسيمه على أساس يختلف عن أساس الآخرين : فأرسطو يقسم الشعر على أساس الموضوع : الملهاة والمأساة والملحمة .. الخ ويتحدث عن عناصر كل منها فى تفصيل ، ثم يتناول انقسام الشعر وفقا لطبائع الشعراء ؛ « فذوو النفوس النبيلة حاكوا الفعال النبيـلة وأعمال الفضـلاء ،

---

(١) هذه الألفاظ كلها بمعنى واحد ، ومعناها الرجل الحسن الصحبة ، السريع فى تلبية الحاجة .

(٢) البيان والتبيين ١/٢١ .

وذوو النفوس الخسيسة حاكوا فعال الأدنياء ، فأنشأوا الأهاجى ، بينما أنشأ الآخرون الأناشيد والمدائح » [1] ، لأن الشعر عنده محاكاة . والجاحظ يقسم الشعراء الى أقسام من غير أن يضع معالم لكل قسم تميزه عن غيره . وابن قتيبة يقسم الشعر بحسب قيمة اللفظ والمعنى .

ومن جميع الأمثلة التى ساقها ابن قتيبة لأضرب الشعر ندرك ما يقصده من « اللفظ » ؛ فهو يقصد به رصف الكلمات وانسجامها وتآلفها وحسن وقعها ، أى الصياغة كلها بما تجمع من لفظ ووزن وروى . ويقصد بالمعنى الفكرة التى تنبعث من الشعر ، والتى يريد الشاعر أن يسوقها لنا فى عباراته .

ويبدو لنا من تقسيم ابن قتيبة للشعر أنه متأثر بالروح العلمية ، لأن هذا التقسيم — كما ترى — جاء نتيجة حصر علمى دقيق . ويتضح لنا كذلك أنه يعتبر الشعر كل كلام موزون مقفى . وأرسطو أدق من ابن قتيبة فى هذه الناحية لأنه يعتبر الكلام الذى ليس له من خصائص الشعر الا الوزن والقافية « أقاويل » ، ويعتبر قائله « متكلما » وليس شاعرا [2] .

والمعانى الجيدة فى نظر ابن قتيبة هى التى تأتى عن طريق الحس فى الغالب ، وتصدر عن تجربة أو أمر واقع فى الحياة أو يمكن تحققه .

---

(1) انظر « فن الشعر » لأرسطو ص ١٣ وما بعدها تحقيق الدكتور عبد الرحمن بدوى .

(2) فن الشعر لأرسطو ص ٢٠٤ .

وقد فات ابن قتيبة فى هذا المقام أمر هام جدا ، وهو ضرورة ائتلاف اللفظ مع المعنى ، أعنى أن اللفظ يجب أن يناسب المعنى . فالفخر مثلا يناسبه الألفاظ الجزلة التى تملأ الفم ، والغزل يناسبه الألفاظ الرقيقة الناعمة . وائتلاف اللفظ مع المعنى هــو الذى يسميه عبد القاهر الجرجانى « النظم » . وقد أفاض الجرجانى فى هذه المسألة حين تحدث عن بلاغة القرآن فى كتابه « دلائل الاعجاز » فذكر أن اعجاز القرآن ليس فى اللفظ وحده ولا فى المعنى وحده ، وانما هو فى « النظم » ، أى ائتلاف اللفظ مــع المعنى وتناسبهما واتساقهما . ولم يتعرض ابن قتيبة لهذه المسألة مع أنها من أهم مقاييس الشعر .

٢ — تناول ابن قتيبة ظاهرة هامة تعتبر من أخص خصائص الشعر العربى ، وهى بدء القصيدة العربية بالنسيب . وقد أفاض فى تعليل ذلك تعليلا منطقيا ، فذكر أن مقصد القصيد انما ابتدأ بذكر الديار ومخاطبة الدمن ، فبكى وشكا واستوقف الرفيق ، ذاكرا أهلها الظاعنين عنها ، لأن أهل الوبر ينتجعون مساقط الغيث على خلاف ما عليه نازلة المدر . ثم خلص من ذلك الى اظهار شدة الوجد وألم الفراق وفرط الصبابة والشوق ، ليميل نحوه الوجوه ويجتذب الأسماع .

وهنا يتناول ابن قتيبة أمرا يتصل بالنفس البشرية ، فيقول ان الشاعر يخوض فى التشبيب « لأن التشبيب قريب من النفوس ، لائط بالقلوب ، لما جعل الله فى تركيب العباد من محبة الغزل والف النساء ، فليس يكاد أحد يخلو من أن يكون متعلقا منــه بسبب

وضاربا فيه بسهم حلال أو حرام » . ويمضى ابن قتيبة فى تعليل النسيب فيقول ان الشاعر « اذا استوثق من الاصغاء اليه عقب بايجاب الحقوق فرحل فى شعره وشكا النصب والسهر وسرى الليل وحر الهجير وانضاء الراحلة والبعير . فاذا علم أنه أوجب على صاحبه حق الرجاء وقرر عنده ماناله من المكاره فى المسير بدأ فى المديح فبعثه على المكافأة وهزه للسماح » .

وهنا نصل الى النقطة التى تعنينا وهى ايثار ابن قتيبة للقديم ايثارا يحتم على الشعراء أن يجعلوا عامود الشعر القديم دستورهم الفنى ، وفى هذا يقول : « وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج على مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر أو يبكى عند مشيد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد لأن المتقدمين جروا على منابت الشيح والحنوة والعرارة » .

فأنت ترى أن ابن قتيبة لا يزال يتعصب للقديم ورسومه ومظاهره . وتلك من المآخذ الكبيرة التى آخذها على ابن قتيبة لأنه بذلك يريد أن يقف الشعر جامدا ، لا يساير الحياة . ولا ينبغى لابن قتيبة أن يحتم على شاعر عباسى رأى القصور والرياض ، وعاش بينها أن يترسم خطى شعراء كانوا يستلهمون وحيهم من مهمه قفر وخيمة ذات أطناب وبعير وشاة .

وانى لأعتقد — فيما أعلم — أن ابن قتيبة أول من تناول هذه الظاهرة الفنية (النسيب) بالتعليل . وندرك من هذا التعليل أنه يريد أن يحقق الرابطة بين الشاعر وبيئته .

٣ — نظر ابن قتيبة الى القصيدة العربية فوجدها مقسمة الى أجزاء تواضع الشعراء عليها وهى : ذكر الديار والدمن والشكوى والنسيب وما لاقاه الشاعر من لغوب ، ثم الانتقال بعد ذلك الى موضوع القصيدة كالمدح والاعتذار وغيرهما ، ثم الختام .

وقد نظر ابن قتيبة الى هذه الأقسام نظرة علمية متأثرة بروح المنطق ، فأوجب ضرورة التناسب بينها ؛ فلا يصح أن يطغى واحد على آخر ؛ فلا يطيل الشاعر فى أحدهما فيمل السامعين ، ولا يقطع وبالنفس ظماء الى المزيد . ويسوق ابن قتيبة أمثلة وقعت ولم يراع فيها أصحابها التناسب بين هذه الأجزاء ، وأنكر منهم السامعون ذلك . وأحب أن أقول بهذه المناسبة ان من أبرز ما يمتاز به ابن قتيبة أنه يدعم الفكرة بأدلة مأخوذة من الأحداث والواقع ، بل انه كان يستلهم كثيرا من أفكاره من هذه السوابق ، فيبرزها فى نظرية منسقة . ومن الأمثلة التى ذكرها أن بعض الرجاز أتى نصر بن سيار فمدحه بقصيدة ، تشبيبها مائة بيت ومديحها عشرة أبيات ، فقال نصر : « والله ما بقيت كلمة عذبة ولا معنى لطيفا الا وقد شغلته عن مديحى بتشبيبك ، فان أردت مديحى فاقتصر فى النسيب » فأتاه فأنشده :

هل تعرف الدار لأمّ الغمر ... دع ذا وحبّر مدحة فى نصر

فقال نصر : « لا ذلك ولا هذا ، ولكن بين الأمرين » . وقيل

لعقيل بن علفة : « مالك لا تطيل الهجاء ؟ فقال : يكفيك من القلادة ما أحاط بالعنق » :

وأنا أعتقد أن ابن قتيبة على حق فى أن يوجب على الشعراء مراعاة أقسام القصيدة ، لأننى أرى أنه يجب أن يكون للعقل بعض السلطان على الشعر حتى لا يكون هناك جموح وفوضى .

٤ — قسم ابن قتيبة الشعر الى متكلف ومطبوع . وهنا يوقفنا على أمر له خطره فى الشعر ، أمر يتخطى الألفاظ والمعانى ، ولكنه يتصل بالروح والشعور ، وهو الطبع . والطبع من الأهمية بمكان ، حتى ان ابن قتيبة ليرى أن الشعر أحيانا يكون جيدا محكما ، ولكن الصنعة تمسخه وتذهب بطلاوته . والشاعر المتكلف فى نظر ابن قتيبة « هو الذى يقوّم شعره بالثقاف وينقّحه بطول التفتيش ويعيد فيه النظر بعد النظر كزهير والحطيئة » . وقد ذكر شعرا لبعض الشعراء الذين يذهبون هذا المذهب ويحبذون تنقيح الشعر وتحبيره ، مثل الحطيئة وسويد بن كراع وعدى ابن الرقاع ، ومن ذلك قول سويد :

أبيت بأبيات القوافى كأنما
أصادى بها سربا من الوحش نزّعا

أكالئها حتى أعرّس بعدما
يكون سحيرا أو بعيد فأهجعا

وقول عدى :

وقصيدة قد بت أجمع بينها   حتى أقوّم ميلها وسنادها
نظر المثقف فى كعوب قناته   حتى يقيم ثقافة منآدها

وكان الحطيئة يقول : « خير الشعر الحولىّ المنقح المحكك » .
هـذا هو الشعر الذى يراه ابن قتيبة متكلفا مصـنوعا .
وأما الشعر المطبوع عنده فهو الذى يأتى عن اسماح وطبع وغريزة .
ويمضى ابن قتيبة فيذكر أن للشعر دواعى تهيج ملكته وترسله من غير تكلف ، منها الشوق ، ومنها الشراب ، ومنها الطرب ، ومنها الغضب ، ومنها الطمع . قيل للحطيئة : « أى الناس أشعر ؟ فأخرج لسانا دقيقا كأنه لسان حية وقال : هـذا اذا طمع » . ويذكر ابن قتيبة تأييدا لذلك أن شعر الكميت فى بنى أمية أجود منه فى الطالبيين ، وعلة ذلك فى نظره « قوة أسباب الطمع وايثار النفس لعاجل الدنيا على آجل الآخرة » .

والشعراء يختلفون فى الطبع ، فبعضهم يجيـد فى أغراض ويقصّر فى أخـرى ، تبعا لنزوعه وميله . قيل للعجاج : « انك لا تحسن الهجاء ، فقال : لأن لنا أحلاما تمنعنا من أن نظلم ، وأحسابا تمنعنا من أن نُظلم » .

وقد ذكر ابن قتيبة أمارات واضحة للشعر المتكلف ، وذكر كذلك أمارات للشعر المطبوع تفهم ضمنا من كلامه عـلى الشعر المتكلف وعلى المطبوعين من الشعراء . فالشعر المطبوع هو الذى يندفع عن السليقة والطبع ، ويوفّق الشاعر فيه الى الابانة عن خوالج نفسه فى غير تعقيد ولا استكراه .

ويتبين لنا من قوله أن أمارات الشعر المتكلف ترجع الى أمرين : أولهما الروح والشعور ، وثانيهما التعبير والابانة . والقارىء يستطيع أن يدرك روح الشاعر المتكلف مما يبدو فى شعره « من

طول التفكير وشدة العناء ورشح الجبين » ، ويحس القارىء الجفوة التى بين الشعر وروحه وكأنه صاعد جبلا كما يقول . وكذلك يظهر التكلف فى الابانة والافصاح ، فكثرة الضرورات فى الشعر كرفع المنصوب وصرف الممنوع من الصرف ومد المقصور وتسهيل المهموز والترخيم فى غير النداء ، كل ذلك من علامات التكلف . كما أن منها الخضوع لقافية جائرة ، وغموض الكناية ، وذكر مالا يحتاجه المعنى ، وحذف مالابد من ذكره .

فالشعر المطبوع هو الذى يصدر عن نفس تجد ما تقول وينبعث عن سليقة طبعية وشعور فياض . والشاعر المطبوع هو الذى تجيئه الألفاظ وتتتابع فى سهولة ويسر وتدفق حين تجيش بنفسه المعانى وتختلج . وكأن الابانة عند المطبوعين تكاد تصاحب التفكير ، فيصدر الشعر حينذاك عن فطرة واسماح .

ثم يتناول ابن قتيبة الأوقات التى يأتى فيها الشعر طيّعا سمحا سلس القياد ، فمنها أول الليل قبل الكرى وصدر النهار قبل الغداء ، ومنها الخلوة فى الحبس . ولهذه العلل تختلف أشعار الشاعر ورسائل الكاتب . ولعله يعنى أن الشعر الذى يصدر فى هذه الأوقات يكون مطبوعا .

وليس من شك فى أن ابن قتيبة مصيب فى تبيان خصائص الشعر المطبوع ، فالينبوع الشعرى وقوة الطبع والعبارات التى يأخذ بعضها بحجز بعض من أمارات الشعر المطبوع . ولكن تعريفه للشاعر المتكلف فيه تنكّب للحق والانصاف ، لأنه يعتبر العناية بالشعر وتحكيكه من أمارات التكلف . وظاهر من هذا

أنه يرى أن الارتجال فى الشعر هو الطبع ، وأن الشاعر المطبوع هو الذى ينطق الشعر على البديهة بدون اعداد ، ولذلك عدّ زهيرا والحطيئة وأشباههما من المتكلفين . وذلك فيه مجانبة للصواب ، لأن الشعر صناعة ككل الصناعات تحتاج الى مران وعناية واعداد ، وقلما يكون الشعر المرتجل قويا . وأبلغ مثل لذلك شعر حسان بن ثابت فى الاسلام ؛ فهم يعزون سر ضعفه الى أسباب ، أهمها اضطراره الى الارتجال للرد على الوفود التى كانت تفد على النبى الكريم . وقل مثل ذلك فى النابغة الجعدى والشماخ بن ضرار وأخيه مزرّد . فلابد فى الشعر من طول الأناة والروية ومعاودة النظر حتى يخرجْ وقد برىء من كل عيب وخلا من كل شائبة . وهذه العناية فى الواقع ليست تكلفا ما دامت الملكة الشعرية مركوزة فى فطرة الشاعر ، وما دام البيان فى الافصاح عن أحاسيسه وخوالج نفسه يواتيه فى سهولة ويسر . فزهير فى الواقع لم يكن متكلفا ، ولم يكن يخرج عن طبعه وسجيته ، لأن التجويد أصيل فى طبعه ومن قرارة نفسه ، فهو « يردد النظر فى شعره ويقلب فيه رأيه اتهاما لعقله وتتبعا على نفسه ، فيجعل عقله ذماما على رأيه ورأيه عيارا على شعره ..ليكون فحلا خنذيذا وشاعرا مفلقا » (١) كما يقول الجاحظ . فالعناية بتثقيف الشعر والأناة والروية فيه من الخصائص التى فُطر عليها زهير وأضرابه ، وليس هذا من التكلف فى شىء ، لأن التكلف — كما عرّفه ابن قتيبة —

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢١ .

هو ظهور العناء فى حمل النفس على قول الشعر من غير أن يكون هناك ميل أو نزوع ، فيرشح جبينه ولا تواتيه الابانة فى يسر ، فيكثر من الضرورات غير المقبولة ، أما العناية الطبعية فليست تكلفا . ويقول ابن خلدون : « وليراجع شعره بعد الخلاص منه بالتنقيح والنقد ، ولا يضن به على الترك اذا لم يبلغ الاجادة ، فان الانسان مفتون بشعره اذ هو نبات فكره واختراع قريحته » [1] . والعناية ليست محمودة فى الشعر فحسب ، بل هى محمودة كذلك فى الخطب التى من أخص سماتها الارتجال ، ويقول البعيث وكان من أخطب الناس : « انى والله ما أرسل الكلام قضيبا خشيبا ، وما أريد أن أخطب يوم الحفل الا بالبائت المحكك » [2] . ولعل ابن رشيق يصيب حاجة نفسى اذ يقول : « ومن الشعر مطبوع ومصنوع ، فالمطبوع هو الأصل الذى وضع أولا وعليه المدار . والمصنوع وان وقع عليه هذا الاسم فليس متكلفا تكلف أشعار المولّدين ، لكن وقع فيه هذا النوع الذى سموه صنعة من غير قصد ولا تعمل ، لكن بطباع القوم جاء عفوا فاستحسنوه ومالوا اليه » [3] .

وانى آخذ على ابن رشيق أنه يجعل الشعر المحكك قسيما للشعر المطبوع ، والواقع أن خير ضروب الشعر المطبوع هو الشعر المحبّر اذا صدر عن شاعر تكون العناية فيه جبلّة وطبعا

---

(١) مقدمة ابن خلدون ص ٥٢٤ ط بيروت .
(٢) البيان والتبيين ١/١٤٩ .
(٣) العمدة ١/٨١ .

كزهير والحطيئة والنابغة . فكل من هؤلاء كان مطبوعا على الاتقان لأن الاتقان من طبعه .

فابن قتيبة — كما ترى — مخطىء حين يفهم الطبع على أنه الارتجال ، وليس الطبع فى الواقع سوى السليقة والملكة الشعرية ، وليست الأناة منافية للطبع ، بل انها منه .

٥ — وضع ابن قتيبة للناس دستورا سليما فى تقويم الشعر والشعراء قد أسس على الحق والانصاف . وعندى أن هذه المسألة من أقوم المسائل التى أجدّها ابن قتيبة فى النقد الأدبى .

نظر ابن قتيبة الى الشعر من حيث هو أثر فنى ، وأطّرح جانبا مذهب تفضيل القديم لقدمه وازدراء الحديث لحداثته . وبذلك خلّص النقد من هذا التعصب المقيت الذى لا يقوم على أساس من العدل . فلقد شُغف القوم بتقديس كل قديم ، وامتهان كل جديد مهما عزّ ، وما كانوا يعترفون لمحدث بسبق ، ولهم فى ذلك أقوال وقصص غريبة . وكان شيخهم أبو عمرو بن العلاء يقول : « لقد أجاد هذا المحدث حتى لقد هممت بروايه شعره » .

ويذكرون أن اسحاق الموصلى أنشد الأصمعى هذين البيتين .

هل الى نظرة اليك سبيل
يُروى منها الصدى ويُشفى الغليل
ان ما قلّ منك يكثر عندى
وكثير ممن تحب القليل

فقال الأصمعى : « هذا الديباج الخسروانى ، هذا الوشى الاسكندرانى ، لمن هذا ؟ فأخبره اسحاق أن البيتين له ، فقال

الأصمعي : أفسدته ، أفسدته ، أما ان التوليد فيه لبيّن » [1] .

وكان ابن الأعرابي يقول : « انما أشعار هؤلاء المحدثين مثل أبي نواس وغيره مثل الريحان يشم يوما ويذوى فيرمى به ، وأشعار القدماء مثل المسك والعنبر كلما حركته ازداد طيبا » [2] . وبلغ بهم التعصب للقديم مبلغا سخيفا ، فالمسعودي يقول : « ذكر أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ أنه كان يؤلف الكتاب الكثير المعاني الحسن النظم ، فينسبه الى نفسه ، فلا يرى الأسماع تصغي اليه ، ولا الارادات تتيمّم نحوه ، ثم يؤلف ما هو أنقص منه مرتبة وأقل فائدة ، ثم ينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ومن قد صارت أسماؤهم في المصنفين فيقبلون على كتبها ويسارعون الى نسخها لا لشيء الا لنسبتها الى المتقدمين ، ولما يداخل أهل هذا العصر من حسد من هو في عصرهم ومنافسته على المناقب التي يُخص بها ويعنى بتشييدها » [3] .

وتعصبهم للقدامى يرجع — كما أشرنا — الى أنهم كانوا يرغّبون الناس في حفظ أشعارهم وروايتها لأنها موضع الاستشهاد في اللغة . فالشعر القديم حتى الرديء منه صالح لأن يُحتجّ به في تثبيت اللغة وقواعد العربية وتفسير القرآن والسنة . والشعر المولّد مهما جاد لا يصلح لذلك . يضاف الى ذلك أن القديم يُنظر اليه دائما بعين الاجلال والاعظام .

---

(١) أغاني ساسي ٥/٧١ .

(٢) الموشح ص ٢٤٦ .

(٣) التنبيه والاشراف ص ٨٦ طبعة ليدن .

ثار ابن قتيبة على هذا المذهب القديم ، ونبذ فكرة التقليد جانبا ، وأراد أن يضع كل شاعر فى مكانته التى يستحقها بدون نظر الى عصره . فهو لا يستحسن الشعر باستحسان غيره ، ولا ينظر الى المتقدم بعين الجلالة لتقدمه ، ولا الى المتأخر بعين الاحتقار لتأخره ، بل نظر بعين العدل الى الفريقين وأعطى كلا حظه « لأنه رأى من العلماء من يستجيد الشعر السخيف لتقدم قائله ويضعه فى متخيره ، ويرذل الشعر الرصين و لاعيب له عنده الا أنه قيل فى زمانه أو أنه رأى قائله » . فهو يحكم بين الشعرين لا بين العصرين ؛ يثنى على المحدث اذا أجاد ، ويذم القديم اذا لم يجد ، فالله « لم يقصر العلم والشعر والبلاغة على زمن دون زمن ، ولا خص به قوما دون قوم ، بل جعل ذلك مشتركا مقسوما بين عباده فى كل دهر ، وجعل كل قديم حديثا فى عصره ، وكل شريف خارجيا فى أوله » .

فجودة الشعر ورداءته — فى نظر ابن قتيبة — هما الفيصل فى الحكم بين شاعرين بدون نظر الى عصريهما . وقد ردد ابن قتيبة هذه النظرية فى كتاب عيون الأخبار فقال فى المقدمة : « وكذلك مذهبنا فيما نختاره من كلام المتأخرين وأشعار المحدثين ، فاذا كان متخير اللفظ لطيف المعنى لم يزر به عندنا تأخر قائله ، كما أنه اذا كان بخلاف ذلك لم يرفعه تقدمه » . ثم يقول منكرا رأى الآخرين ومعتبرا اياهم من عوام الناس : ومن شأن عوام الناس رفع المعدوم ووضع الموجود ورفض المبذول وحب الممنوع وتعظيم المتقدم وغفران زلته وبخس المتأخر والتجنى عليه . والعاقل من

ينظر بعين العدل لا بعين الرضا ويزن الأمور بالقسطاس المستقيم ». وهذا يدل على أن الفكرة مختمرة فى ذهنه ، وأنه مقتنع بها كل الاقتناع .

وتقديس القديم أمر جرى عليه الخلق منذ الأزل ، ولكن ابن قتيبة خلص النقد الأدبى من هذا التعصب الأعمى ، ولذلك نراه يترجم فى « الشعر والشعراء » للكثير من المحدثين ، مثل العتابى والحسن بن هانىء ومسلم وابن مناذر ودعبل وغيرهم . وكان جميع المحدثين يلاقون كثيرا من الارذال والزراية لحداثتهم ، ولكن ابن قتيبة خلصهم من هذا الاجحاف .

غير أنه — مع ذلك — أبى على هؤلاء المحدثين ألا يخرجوا على المذهب الذى رسمه الشعراء الغابرون من ابتداء القصيدة بمساءلة الأطلال ، واستيقاف الصحاب ، والترحال على الابل ، وقطع البيد فى قيظ الهواجر ، وغير ذلك مما أشرنا اليه ، لأنه يعتبر ذلك عامود الشعر . وأنا لا أوافقه على ذلك كما بينت .

فهو متعصب لمظاهر الشعر القديم وأشكاله ، ولكنه مجدد منصف للشعر من حيث هو أثر فنى من غير نظر الى قائله . وهذا فى نظرى أعظم ما أزجاه ابن قتيبة للنقد الأدبى ، ويدل من غير شك على استقلال فكرى وسعة أفق . ويقول جورجى زيدان ان ابن قتيبة « أول من تجرأ على النقد الأدبى » [1] . ويقول الدكتور محمد مندور : الواقع أن ابن قتيبة كان رجلا مستقل الرأى ، غير

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية لجورجى زيدان ٢/١٧٠ .

خاضع لتقاليد العرب الأدبية ، ولا مؤمن بأحكامهم ، ولا يطمئن الى المعتقدات الأدبية التى كانت منتشرة فى عصره » [١] . ولكن الدكتور يرى أنه قصر من ناحية تحليل النصوص . وهذا فى نظرى منطلب عسير من رجل عاش فى هذا العصر ، لأن النقد التحليلى لم يظهرَ الا بعد ذلك بحقبة . ويعود الدكتور مندور فيقر بفضل ابن قتيبة قائلا : ومع ذلك يبقى له فضل وقوفه فى سبيل طغيان منطق اليونان على أدب العرب ، وفضل التخلص من التعصب للقديم لقدمه أو الحديث لحداثته » [٢] . يريد أنه كان يحث المتأدبين على ايثار دراسة أدب العرب ، وعدم الانكباب على العلوم الحديثة ، وأنه كان يحث الشعراء على المحافظة على مظاهر الشعر العربى الخالص .

على أنى آخذ على ابن قتيبة أنه لم يطبق نظريته فى انصاف الشعراء التطبيق الصحيح . وذلك راجع — فيما أعتقد — الى أن ذوقه كان واقفا عند عصره ، فلم يستطع أن يساير تفكيره . وقد أوجز ذلك الدكتور مندور فى عبارة دقيقة فقال: « ان ابن قتيبة رجل تفكيره خير من ذوقه ، ونزعته خير من عمله » [٣] .

ويرى الأستاذ « نيكلسون » كذلك أن « ابن قتيبة يعتبر أول ناقد له أهميته يصرح بأن الشعراء الأقدمين والمحدثين يجب أن

---

(١) النقد المنهجى عند العرب ص ١٢ .

(٢) النقد المنهجى ص ٣٣ .

(٣) المصدر نفسه .

يوضعوا فى ميزان النقد على حد سواء بدون نظر الى عصورهم » [1] .

وبهذا نستطيع أن نقول ان ابن قتيبة هو أول من خلص النقد العربى من هذا التعصب البغيض . ولكن الانصاف يحفزنا الى أن نذكر أن الجاحظ ربما كان أول من فطن الى هذه النظرية أو الى المبدأ الذى قامت عليه ، فقد كان يؤثر بشارا ايثارا شديدا ، ويخص أبا نواس بالتفوق ومجانبة الاستكراه . وقد بين قوة شاعرية الأخير ، وبخاصة فى وصف الكلاب فقال : وصفات الكلاب مستقصاة فى أراجيزه ، وهذا مع جودة الطبع وجودة السبك والحذق بالصنعة » [2] . ثم يقول بعد ذلك مؤثرا الحق والانصاف: وان تأملت شعره فضلته الا أن تعترض عليك فيه العصبية ، أو ترى أن أهل البدو أبدا أشعر ، وأن المولدين لا يقاربونهم فى شىء ، فان اعترض هذا الباب عليك فانك لا تبصر الحق من الباطل ما دمت مغلوبا » .

وليس ببعيد أن يكون ابن قتيبة قد استضاء بلفتة الجاحظ هذه . ولكن يرجع اليه الفضل على أية حال فى أنه وضح الفكرة وأبرزها فى منهاج منطقى ، حتى أصبحت أصلا هاما من أصول النقد .

٦ — عرض ابن قتيبة كذلك لمسألة تتصل بالنقد اتصالا وثيقا ، تلك هى الاسباب التى من أجلها يستجاد الشعر ، وقد مهد

---

(١) A Literary History of The Arabs. p. 286

(٢) كتاب الحيوان ٢/١٠ .

لذلك بقوله : « ان من ينظر بعين العــدل ويترك طريق التقليد لا يستطيع أن يقدم أحدا من المتقدمين المكثرين الا بأن يرى الجيد فى شعره أكثر من الجيد فى شعر غيره ، ولله در القائل : أشــــعر الناس من أنت فى شعره حتى تفرغ منه » . ولعلك تذكر أن ابن سلام قد جعل الجودة والكثرة معا هما الأساس الذى أقام عليه « طبقات الشعراء » فهو اذن أسبق من ابن قتيبة فى تسجيل هذه الفكرة.

ثم ذكر ابن قتيبة بعد ذلك أن الشعر يستحسن لجودة اللفظ والمعنى ويستحسن كذلك ويحفظ لأسباب كثيرة منها الاصابة فى التشبيه ، ومنها خفة الروى ، ومنها ندرة شعر الشاعر ، ومنها غرابة معناه ، ومنها نبل قائله . وقد ساق أمثلة كثيرة توضح ما يقول .

وأنت ترى أن حسن التشبيه وروعته وجدة المعنى وجمــال الجرس من أصول جودة الشعر . واذا تصفحت « المثل السائر » لابن الأثير وجدت فيه نماذج كثيرة من الشعر عيبت على أصحابها لأنها فقدت عنصرا من هذه العناصر التى أشار اليها ابن قتيبة .

٧ — تناول ابن قتيبة بعد ذلك عيوب الشعر العامة فجعلها قسمين : قسما خاصا بالهيئة الناجمة عن الجرس والموســـيقى وائتلاف النغمات ، وقسما خاصا بالاعراب .

أما العيوب الأولى فذكر منها الا قواء ، وهو اختلاف الاعراب فى القوافى . ومن الشعراء المقوين النابغة الذبيانى وبشر بن أبى خازم . ومنها الســـناد ، وهو اختلاف أرداف القوافى كقولك (علينا) فى قافية و (فينا) فى أخرى . ومنها الايطاء وهو اعادة

القافية مرتين ، وليس هذا عندهم بالعيب الكبير كغيره . ويعجبنى من ابن قتيبة أنه لا يخطو خطوة من غير أن يورد الأمثلة التى يوضح بها قوله .

أما عيوب الاعراب فكثيرة منها تسكين ما كان ينبغى أن يحرك، ومنها مد المقصور ، ولا عيب اذا اضطر الى قصر الممدود . ومنها عدم صرف المصروف ، ولا عيب اذا صرف غير المصروف . ومنها همز غير المهموز ، ولا عيب فى ترك همز المهموز .

وكان ابن قتيبة ينفر من وحشة البداوة وغلظة الأعراب ، ولهذا نراه ينهى المحدث عن أن يتبع المتقدم فى استعمال وحشى الكلام ، وهذا يدل على ذوق رفيع .

وكان ابن قتيبة شديد الحرص على توحيد اللغة ، ولذلك نجده ينهى عن استعمال اللغات القليلة عند العرب ، كابدال الجيم من الياء وابدال الواو من الألف ، وقد ذكر لذلك أمثلة كثيرة . وهذا فى الواقع عمل جليل من ابن قتيبة يدل على أنه كان يبغى أن ترقى لغة العرب وتتخلص من الطفيليات التى تبدد شملها .

وابن قتيبة حريص على أن يتوفر للشعر العنصر الهام ، وهو عنصر الموسيقى لأنه يكسبه الطلاوة وحلاوة النغم ، ولذلك يحذر الشعراء من أن يتخذوا الأساليب التى لا تصح فى الوزن و لاتحلو فى الأسماع . ويحثهم أخيرا على اختيار أحسن الروى ، وأسهل الألفاظ ، وأبعدها من التعقد والاستكراه ، وأقربها من الأفهام .

وهذا فى الواقع هو جماع القول فى الأمور التى تتأتى بهـــا جودة الشعر .

وبعد ، فذلك هو أثر ابن قتيبة فى النقد الأدبى ، ويتضح منه أنه أراد أن يصبغ النقد بالصبغة العلمية التى يظهر فيها أثر المنطق والثقافات الأجنبية . ولا شك أن كتاب أرسطوَ فى الشعر كان له أثر فى هذا الاتجاه الأدبى كما قلت .

ومع تقديرى لفضل ابن قتيبة فاننى ما زلت أرى أن النقد لا يصح أن يخضع تماما لهذه الضوابط ، بل يجب أن يكون للذوق وللحاسة الفنية دخل كبير فيه . وكأنما أحس ابن قتيبة نفسه بأن ما قاله لم يصل الى كنه الشعر ، ففزع الى ذوق الناقد ليستعين به فيما يستعين على تمييز الجيد من الردىء .

ولعل من خير ما قدمه ابن قتيبة للنقد أنه حصر الآراء السابقة ، ونسقها ، ونظمها تنظيما دقيقا ، وشفعها بآرائه الخاصة .

ولو لم يكن لابن قتيبة من فضل الا أنه أنصف المحدثين من طغيان التعصب للقديم ، ووقف وقوفا حسنا على العناصر الجديدة التى ظهرت فى الشعر المحدث ، وأدرك ما فيها من صالح وفاسد ، وسائر على سنن العرب وخارج على المألوف — أقول لو لم يكن لابن قتيبة الا هذا الفضل لكفى .

ويعتبر ابن قتيبة الى جانب ذلك حلقة اتصال بين المنهج القديم والمنهج الحديث فى النقد ، فهو الذى خطا به هـذه الخطوات الواسعات حتى تلقفه منه من جاء بعده من النقاد وأوصلوه الى ذروة مجده .

وقد كان لآراء ابن قتيبة دوى كبير لدى المشتغلين بالأدب والنقد ، فقد تناولها قدامة بن جعفر فى « نقد الشعر » واستشهد

بشواهدها . ومن غريب الأمر أنك تراه متأثرا بها ، ولكنه مع ذلك ينكرها ، وكأنه لم يقرأها اذ يقول : « ولم أجد أحدا وضع فى نقد الشعر وتخليص جيده من رديئه كتابا »[1] .

وما كان يحق لناقد فاضل مثل قدامة أن يجحد فضل أول رجل وضع قواعد النقد وأسسه بطريقة علمية سليمة . ولا أدرى لذلك من سبب الا أنه — وقد كان نصرانيا وأسلم على يدى الخليفة المكتفى بالله — أراد ألا يعترف لعالم مسلم بفضل فى هذا الباب . ولا يبعد أن يكون قد ألف كتابه قبل أن يسلم ، والا فما سر انكاره لصنيع ابن قتيبة ، مع أن تأثره به لا يخفى على من عنده مسكة من الادراك . وقد تأثر قدامة أشد تأثر بكتاب أرسطو فى الشعر ، وبخاصة فيما يتصل بتقسيم الشعر[2] ؛ فقد قسمه من حيث موضوعاته وتحدث عن عناصر كل موضوع كما فعل أرسطو .

ومهما يكن من شىء فلا ينكر مؤرخو تاريخ النقد الأدبى أن ابن قتيبة قد وضع الأساس الضخم للنقد ، وشاد عليه بنيانه بعده قدامة هذا ، وأبو القاسم الحسن بن بشر الآمدى صاحب « الموازنة بين أبى تمام والبحترى » والقاضى أبو الحسن على بن عبد العزيز الجرجانى صاحب « الوساطة بين المتنبى وخصومه » ، والثعالبى ، وابن رشيق وغيرهم .

---

(١) نقد الشعر ص ٩ مطبعة أنصار السنة المحمدية .
(٢) نقد الشعر ص ٥١ .

الفصل الخامس

ابن قتيبة الراوية الإخباري

أشرنا فى فصل سابق الى أن جمهرة العلماء والأدباء والمؤرخين يوثقون ابن قتيبة ويعتبرونه من أصدق الرواة ، ولم يشذ عنهم الا الحاكم ، وقد أنكروا عليه ذلك واعتبرها الحافظ الذهبى « مجازفة قبيحة وكلام من لم يخف الله » [1] . فالذى لا شك فيه أنه كان أمينا صادقا فى الرواية . واذا تتبعنا الذين أخذ عنهم وجدناهم من مشهورى الرواة وأوثقهم ، ويقول الأزهرى : وما رأيت أحدا يدفعه عن الصدق فيما يرويه عن شيوخه » [2] .

وكانت تبلغ به الأمانة أنه لا يدعى علم ما يجهله ؛ فيقول مثلا فى نسب بنى عمرو بن قيس عيلان : « فأما عمرو بن قيس فولده فهم وعدوان ، فمن فهم تأبط شرا ، ولا أعرف أفخاذهم » [3] . ويعترف كذلك بأنه يجهل بعض الأعلام فى نسب جدات النبى لأمه [4] . واذا ساق خبرا لا يعرف راويه على وجه التحقيق يقول :

---

(١) ميزان الاعتدال ٢/٧٦ .
(٢) تهذيب اللغة ١/١٥ مخطوط .
(٣) كتاب المعارف ٣٦ . (٤) كتاب المعارف ص ٥٨ .

« وقال بعض أصحابنا وأحسبه فلانا »[1] . وإذا تلقى الخبر عن قائله يقول : حدثنى فلان ، وأحيانا يسمعه عن شخص فيقول : « وبلغنى عن فلان » . وكان حبه للدقة فى الرواية أحيانا يدفعه الى استقصاء الخبر من قائله ، ومن ذلك ما ورد فى عيون الأخبار : « وقال بعض الشعراء المحدثين ، وقيل انه البحترى ، فبعثت اليه أسأله عنه فأعلمنى أنه ليس له »[2] .

وكان أبو الفرج صاحب الأغانى يثق فى روايته ، وقد روى عنه كثيرا ، ونظمه فى عداد سنده ، وهو يذكره أحيـانا بكنيته (ابن قتيبة) وأحيانا باسمه « عبد الله مسلم بن قتيبة » .

ومن ذلك يتبين لنا أن أمانته فى الرواية لا يعتورها ريب . بيد أنى أريد فى هذا المقام أن أبين منهج ابن قتيبة فى رواية الأخبار ، وهل كان يشفع الرواية بالمقارنة والتحقيق والتمحيص ، أم كان يكتفى بها فى أمانة من غير أن يزنها بميزان العقل ؟

الواقع أن ابن قتيبة قلما كان يعنى بالتحقيق ، شأنه فى ذلك شأن معاصريه من كبار الأدباء والمؤلفين كالجاحظ والمبرد ، فكان يتلقف الخبر ويرويه بسنده ليس غير ، ويندر أن تجدله رأيا فى خبر من الأخبار . ولهــــذا جاءت كتبه غير خالية من الخرافات والخلط ، ومنشأ هذا من غير شك عدم التحقيق . وقل مثل ذلك فى مؤلفات هذا العصر .

ولما كان كتاب عيون الأخبار يشتمل — الى جانب الأخبار —

---

(١) عيون الأخبار ١/٢٧٣ .
(٢) عيون الأخبار ٣/١٦١ .

علـى كثير من النصوص الشعرية والنثرية فقد وقف من هـذه النصوص موقفه من الأخبار ، ولكن فى شيء من القصد . أعنى أنه لم يكن يعنى كثيرا بتحقيقها ، ولذلك شابها أيضا بعض الخلط والاضطراب . أما كتاب الشعر والشعراء فقد كان له فى معظم النصوص آراء طيبة كما ذكرنا ، وذلك لأنه قصد بهذا الكتاب أن يكون كتاب نقد وأدب ، يسوق فيه نظرياته ويحاول تطبيقها بقدر طاقته المنهجية . ومع ذلك لم يخل من الخلط .

وكتبه التى تمثل لنا ناحية الرواية الاخبارية هى كتاب « عيون الأخبار وكتاب المعارف » . والملاحظ أن ابن قتيبة كان يروى الأخبـار ويرصـها رصـًّا على علاتها فى هذين الكتابين . وكأنه التمس لنفسه معذرة ترفع عنه عبء التحقيق والتمحيص من أن الكتابين قد صنفهما للأخبار التاريخية والأدبية ليس الا .

وهكذا نرى أن ابن قتيبة فى كتبه الاخبارية يسوق لنا الأخبار سوقا ويترك القارىء يضل فى دياجيرها . وقد نجم عن ذلك أنك تراه يضيف الأشعار التى تصاحب هذه الأخبار الى غير قائليها . والأمثلة على ذلك كثيرة منها أنه نسب أبياتا مطلعها :

غذوتك مولودا وعلتك يافعـا ... تعل بما أجنى عليك وتنهـل

الى يحيى بن سعيد مولى تيم ، قالها لابنه لائما [1] ، مع أن الرواة يجمعون على أن قائل هذه الأبيات هو أمية بن أبى الصلت [2] .
ويضيف البيت المعروف :

---

(١) عيون الأخبار ٣/٨٧ . (٢) انظر ديوان الحماسة ص ٣٥٤ طبعة أوربا وأغانى بولاق ٣/١٩١

وظلم ذوى القربى أشــد مضاضة
على المرء من وقع الحســـام المهنّد

الى غير قائله طرفة بن العبد مع أنه موجود فى معلقته : لخولة أطلال .

وينسب هذا البيت لدكين الراجز :

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه
فكل رداء يرتديه جميـــــل

والمعروف أن هذا البيت من قصيدة مشهورة للسموءل بن عادياء اليهودى ، وهى ليست برجز .

وبلغ به الأمر أنه كان يضيف أشعارا الى أناس يستحيل صدورها من أفواههم ، مثال ذلك أنه ينسب الى تبّع بن الأقرن — وهو تبّع الأكبر — هذه الأبيات المشهورة :

منع البقـــاء تقلب الشمس وطلوعهـا من حيث لا تمسى
وطلوعها بيضـــاء صافية وغروبها صـــفراء كالورس
تجرى على كبد الســماء كما يجـرى حمام الموت فى النفس
اليــوم نعـــلم ما يجىء به ومضى بفضل قضائه أمس [1]

وهذا خطأ شنيع من ابن قتيبة لأن لغة القحطانيين غير لغة العدنانيين ، وفى ذلك يقول أبو عمرو بن العلاء قولته المشهورة : « ما لسان حمير بلساننا ولا عربيتهم بعربيتنا » ، ويقول ابن جنى : « فلسنا نشك فى بُعد لغة حمير ونحوها عن لغة ابنى نزار » [2] .

---

(1) كتاب المعارف ٢٧٣ .
(٢) الخصائص ١/٣٩٢ .

وقد ثبت من النقوش التى كشفت حديثا فى صنعاء أن لغتهم تخالف لغة الحجازيين كل المخالفة . أضف الى ذلك أن هـذه الأبيات تنم عن نظرة فلسفية لا يمكن أن تجرى على ألسنة أهل هذا العهد .

وأعجب من هذا أنه ينسب الى ملك يمنى آخر اسمه (تبّع ابن كليكرب) بيتين يدلان على ايمانه برسالة محمد صلى الله عليه وسلم وهما :

شهدت عـلى أحمـد أنه رسـول من الله بارى النسم
فلو مدّ عمرى الى عمـره لكنت وزيرا له وابن عم [1]

وهذا الملك قد باعد الزمن بينه وبين ظهور النبى بمئات السنين . وانه لعجب عجاب أن يعجز ابن قتيبة عن ادراك حقيقة الأشعار الفنية، فضلا عن القرائن الأخرى التى تحول دون نسبتها الى ملوك اليمن فى أزمانهم السحيقة . وعلة ذلك هو ما أشرنا اليه آنفا .

ومن دلائل الخلط الناشىء من عدم التحقيق أنه كان ينسب النص الى شاعر ، ثم يعود فى مكان آخر وينسبه الى شاعر آخر ، ومن أمثلة ذلك أنه ذكر البيتين الآتيين فى باب « الانصاف فى المودة » منسوبين الى عبد الله بن مصعب الزبيرى وهما :

له حـق وليس عليـه حـق ومهما قال فالحسن الجميـل
وقد كان الرسول يرى حقوقا عليه لأهلها وهو الرسول [2]

ثم عاد فذكرهما فى « باب الاعتذار » منسوبين الى ورد بن

---

(١) كتاب المعارف ٢٧٤ .
(٢) عيون الأخبار ٣/٢٠ .

عاصم المبرسم يهجو الحسن بن زيد بن الحسن والى المنصور على المدينة (١) .

وروى أربعة أبيات ونسبها الى البعيث ، ثم عاد بعد صفحات وذكر اثنين منها منسوبين الى تأبط شرا ، وقد أشرنا الى ذلك فى فصل سابق .

ولعدم دقته نراه يطلق على الشاعر لقبه الذى اشتهر به والذى اشترك معه فيه بعض الشعراء من غير تخصيص فيضل القارىء ؛ فهو يقول مثلا : قال الأعشى ، فأى الأعاشى يريد ؟ انهم كثيرون . وقد ذكر هذا اللقب على اطلاقه مرة فى شعر ، وظهر لى أنه ميمون ابن قيس لأن الشعر فى ديوانه (٢) . وفى نفس الصحيفة ذكره من غير تخصيص كذلك واتضح أنه أعشى بنى تغلب (٣) . وكذلك كان يستعمل لقب « النابغة » على اطلاقه من غير تخصيص .

وفى كثير من الأحيان لا يذكر اسم الشاعر مكتفيا بقوله : وقال الشاعر . وقد يلتمس له العذر فى ذلك اذا كان الشاعر نكرة أو كان بعيد العهد ممن عاشوا فى أغوار الجاهلية ، ولكنه لا يجوز منه ذلك مع فطاحل الشعراء كالفرزدق وأبى نواس مثلا (٤) .

وكان ابن قتيبة يشذ كثيرا فى رواية النصوص ، فقد روى خطبة زياد البتراء بعبارات مخالفة لما اتفق عليه كبار العلماء ، مثل

---

(١) عيون الأخبار ٣/١٠٤ .

(٢) انظر عيون الأخبار ٣/٢٦١ .

(٣) انظر الحيوان ١/١٩٤ .

(٤) انظر عيون الأخبار ٢/٨٢ ، ٣/٥٦ .

الجاحظ والمبرد وابن عبد ربه والقالى ، بل انه جعلها خطبتين [1] . ويروى كذلك خطبة الحجاج المعروفة « أنا ابن جلا » فى عبارات ما سمعنا بمثلها قط فى كتب الأدب الأخرى .

وكانت الأشياء المتشابهة تختلط عليه فيذكر الاسم محرفا من غير أن يحمّل نفسه عبء التحقق منه ، فقد قال فى ترجمة « زر بن حبيش » ويكنى أبا مكرم وهو من التابعين : « وكان أعرب الناس ، وكان عبد الله بن مسعود يسأله عن العربية ، وعاش مائة وعشرين سنة » [2] . والواقع أن الذى كان يرجع الى ابن حبيش هو عبيد الله بن مسعود أحد السبعة المدنيين الذين أُخذ عنهم الفقه ، وهو من جلّة التابعين ، وكان مشهورا بكثرة العلم وفنونه ، وتوفى سنة ١٠٢ ، وهو ابن أخى عبد الله بن مسعود الصحابى [3] .

أما الخرافات فهى منبثة فى جميع الكتب التى أُلّفت فى ذلك العصر . وحسبك أن تقرأ صفحات فى عيون الأخبار أو البيان والتبيين أو الكامل لتعرف الخرافات التى كانت تسود العقول فى ذلك العهد . فاذا عرفت أن هذه الخرافات قد دونتها أيدى علماء أفذاذ أدركت مدى ما كان يرين على أفهام العوام من الأباطيل والخرافات آنذاك . وان العجب ليملؤنى حين أقرأ ما يرويه ابن قتيبة من أن بعض ملوك العجم واسمه (طهمورث) حكم بلاده ألف سنة وآخر واسمه (جم) حكم ٩٦٠ سنة ، وان أحد ملوك اليمن حكم ٣٢٠ سنة . وأعجب من ذلك أن ملكا يمنيا

---

(١) عيون الأخبار ٢/٢٤١ . (٢) المعارف ١٨٨ .
(٣) طبقات المفسرين ١٧٢ مخطوط .

اسمه (افريقيس بن أبرهة) هو الذى بنى افريقية وبه سميت ، وان آخر اسمه (العبد بن أبرهة) وهو أخو (افريقيس) غزا بلاداً تسمى (النسناس) ورجع الى اليمن وقد سبا قوما منهم وجوههم فى صدورهم [1] . وهذا الكلام لا يصدقه عقل .

وأى عقل يصدق « أن الفرات قذف فى المدرمّانة كأنها البعير البارك ، وتحدث أهل الكتاب أنها من الجنة » [2] ؟ ويعجب ياقوت فى معجم البلدان من هـذا الخبر ويعتـذر عن روايته بقوله « ولو لم أر هذا الخبر فى عدة مواضع من كتب العلماء ما استجزت كتابته » [3] . وهل يدخـــل فى روع أى انسان أن ســـليمان ابن عبد الملك مرّ بالمجذومين فى طريق مكة فأمر باحراقهم وقال : لو كان الله يريد بهؤلاء خيرا ما ابتلاهم بهذا البلاء » [4] ؟ . ومن ذا الذى يصدق أن « القردة مسخت من بنى اسرائيل » [5] ؟ وهل من المعقول أن تحمل بعض النساء الأجنة سنتين وثلاثا وأربعا ؟ واذا جاز أن يدخل فى نطاق العقل هذا الشذوذ فى امرأة أو امرأتين فليس من المعقول أن يكون هـذا شأن نساء أسرة بالذات ، فقد روى ابن قتيبة أن الواقدى قال : « سمعت نساء آل الجحاف من ولد زيد بن الخطاب يقلن : ما حملت امرأة منا أقل من ثلاثين شهرا » [6] .

---

(1) المعارف ٢٧٢ .
(2) عيون الأخبار ٣/٢٨٠ .
(3) معجم البلدان ٣/٨٦١ .
(4) عيون الأخبار ٤/٦٩ .
(5) تأويل مختلف الحديث ١٦٧ . (6) المعارف ٢٥٧ .

هذه أمثلة من الخرافات التى تصادفك فى كتب ابن قتيبة . وخلاصة ما تقوله فى ابن قتيبة الراوية الاخبارى أنه كان صادقا فيما يرويه ، ثقة فى كل ما ينقله من أخبار ، ولكن ينقصه تحقيق هذه الأخبار ووزنها بميزان العقل ، وقل مثل ذلك فى غيره من مؤلفى هذا العصر كالجاحظ والمبرد .

وبعد ، فهناك سؤال يضطرب فى نفسى وهو : هل يعتبر « كتاب المعارف » كتاب تاريخ ؟ وبالتالى هل يعتبر ابن قتيبة مؤرخا ؟ .. الواقع أن بعض المستشرقين وعلى رأسهم « وستنفلد Wustenfeld » و « براون Browne » يعتبرونه من مؤرخى العرب . وقد أشار وستنفلد الى ذلك فى المقدمة التى نشر بها « كتاب المعارف » . والأستاذ براون يعده من المؤرخين الممتازين ويضعه بجانب البلاذرى [١] . ولعل كليهما قد انخدع بتسمية حاجى خليفة لهذا الكتاب باسم « المعارف فى التاريخ » .

وأنا أرى نقيض هذا الرأى . ولفظة «المعارف» تمثل محتويات الكتاب أصدق تمثيل . وغرض ابن قتيبة من وضع الكتاب — كما يتضح من المقدمة — امداد الطبقة المثقفة بمعلومات قصيرة غزيرة عن الأمور العامة التى يجب عليهم الالمام بها مما يتصل بالتاريخ . ولعل هذا الغرض هو الذى منعه من أن يسلك سبيل المؤرخين ، ولذلك تجده يهمل أحيانا الاسناد الذى كان من خصائص التاريخ والرواية فى ذلك الحين . وقد خلا الكتاب من

(١) Literary History of Persia. p. 268-277-357

عرض الحوادث الهامة فى زمن المؤلف وفى غير زمنه . واننا لنفتقد فيه الأثر الشخصى الذى يميز المؤرخ ، مما يدل على أن المؤلف لم يكن ذا ميل الى التاريخ بالمعنى الذى يفهم من هذه الكلمة . ومن أجل هذا نراه لا يعلق على أى حادث ولا يبدى فيه رأيا .

والكتاب فى مجموعه لا يحوى سوى خطوط للقبائل والأسر والتواريخ . وقد تحدثنا عن محتويات هذا الكتاب بالتفصيل ضمن آثار ابن قتيبة ، ومنه يتضح أن المعلومات التى اشتمل عليها تبتعد كل البعد عن روح المؤرخ . ومن غريب الأمر أن يهمل ابن قتيبة مسائل خطيرة كانت تشغل الخاص والعام فى عصره مثل محنة خلق القرآن والقضاء على المعتزلة وظهور الأتراك وثورة الزنج، وغيرها من الأحداث الجسام . وانك لتعجب حين تراه يهمل تاريخ البرامكة ونكبتهم . وتاريخ الخلفاء من المعتصم الى المعتمد لم ينل من عنايته أكثر من صحيفة واحدة وهو الحقبة التى عاصرها .

فلا يحق لنا بعد ذلك أن نطلق عليه لقب « المؤرخ » ، على الأقل من وجهة النظر الحديثة .

ولا شك أن ابن قتيبة قد استقى معلوماته من الكتب التى كانت موجودة فى عصره ومن الروايات الشفهية المتناقلة ؛ فقد استفاد من كتب السير والمغازى والطبقات والحوادث التى ألفت قبله . وقد اعتمد فى أنساب العرب على الواقدى وابن الكلبى . واعتمد فى تاريخ النبى وصحبه على ابن اسحاق وابن سعد . وروى كثيرا عن المدائنى فى فصول متعددة من الكتاب ، وروى عنه كذلك فى عيون الأخبار . واعتمد جل الاعتماد فى تاريخ الأنبياء

على وهب بن منبه وعلى التوراة والانجيل . ويعتبر ابن قتيبة أول عالم قارن بين أقوال وهب بن منبه وبين ما جاء فى التوراة . ويفهم من ذلك أنه كانت لديه ترجمة عربية للتوراة والانجيل ، وكثيرا ما يقول : « وقابلت ما يقوله بما فى التوراة فوجدت كذا .. » . وقد أخذ الروايات الشفهية عن السجستانى والرياشى والزيادى وعبد الرحمن بن أخى الأصمعى وغيرهم ، وكلهم ينتسبون الى المدرسة الأصمعية .

وكان ابن قتيبة شديد الثقة بالأصمعى أستاذ المدرسة الأول ، لأنه يروى عنه ويحتذيه فى تأليف بعض الكتب ويعتمد عليه فيها ، وبخاصة الكتب اللغوية . وكان يجلّه أشد اجلال ، يدلنا على ذلك أنه يشفع اسمه بجملة « رحمه الله تعالى » ، ولم يفعل ذلك مع غيره وهو يتحدث عن « رواة الشعر وأصحاب الغريب والنحو » . وكتاب المعانى الكبير لا تكاد تخلو صفحة من صفحاته من ذكر الأصمعى .

ومهما يكن من شىء فكتاب « المعارف » أقرب الى التاريخ منه الى أى علم آخر ، ولكننا لانعتبره أثرا تاريخيا خالصا .

الفصل السادس

أسلوب ابن قتيبة

أرى — اجزالا للفائدة — أن أذكر نبذة موجزة عن الكتابة في عصر العباسيين وألوانها وسماتها ، لندرك العوامل المختلفة التي لونت أسلوب ابن قتيبة بلون خاص ، فأقول :

كانت الكتابة في أوائل عهد العباسيين لا تختلف عما كانت عليه في عهد بني أمية ، من جودة اللفظ ومتانة الأسلوب وجلاء المعنى ووضوح القصد ، فان الأفكار كانت لا تزال سهلة يرمون فيها عن حاضر البديهة وعفو الخاطر . وكانوا يدورون حول ما ترك آباؤهم من بيت بديع أو مثل سائر أو حكمة رائعة أو معنى يصل الى القلب بلا استئذان . وكانوا في ذلك فرسان الفصاحة وأمراء البيـــان .

فلما حفلت بغداد ، وأقبلت الدنيا ، وامتدت أطراف الدولة ، وضمت الى أحضانها أبناء الفرس والسريان وغيرهم بما يحملون من تراث آبائهم وثقافة أجدادهم ، وأوسع الخلائف رحابهم لكل ذي فضـــل من رجـــال الدولة ، وعـــرفوا للعـــلم والأدب مقامهما ، وقربوا العلماء والأدباء ، وشجعوا حركة النقل فأكب

الناس على العلم والتأليف والترجمة ، وتكشف كل ذلك عن علوم وفنون لا عهد للعربية بها — أقول لما حدث كل ذلك أوجد أثرا عميقا فى أخيلة الكتاب وأسلات الأقلام ووحى القرائح .

ولقد كان من أهم خصائص هذا النشاط العقلى الذى بلغ أقصاه فى نهاية القرن الثانى وأوائل الثالث أن ضعف الخيال وقويت ملكة النقد والفهم . وكأنما الأمة الاسلامية قد فارقت طفولتها وشبابها ، فأصبحت تجنح الى التفكير والتروى . ولهذا نلاحظ أن الشعر قد ضعف شأنه وأن النثر قد بلغ أشده . فقد كنا نعدّ فى القرن الأول شعراء كثيرين على رأسهم الفحول كجرير والفرزدق والأخطل ، وفى الثانى نجد عددا ضخما من الشعراء مثل بشار وأبى نواس وحماد عجرد ومسلم ومروان بن أبي حفصة ووالبة ومطيع وابان وابن الضحاك وغيرهم . ولكنا نجد فى القرن الثالث نفرا قليلا من الشعراء ، وأصبح الذن يفرضون أنفسهم على الناس فرضا لا يتجاوزون أصابع اليد الواحدة ، فيظهر فيه أبو تمام والبحترى وابن الرومى وابن المعتز .

وعلى عكس ذلك كنا فى أواخر القرن الأول وأوائل الثانى لا نعد من الكتاب الا عبد الحميد بن يحيى وعبد الله بن المقفع ، ثم أصبحنا فى أواخر الثانى وأوائل الثالث نعدّ كتابا كثيرين . ففى قصر المأمون نرى عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف والحسن ابن وهب وسليمان بن وهب والفضل بن سهل وسهل بن هارون ، فضلا عن الكتّاب الذين كانوا يختلفون الى القصور ويتصلون

بالأمراء ، والكتاب الذين نأوا بجانبهم عن السياسة وقصروا أنفسهم على الكتابة ليس الا .

وبينما كنا نرى الشعراء يسلكون سبيلا واحدة قوامها المدح والهجاء والرثاء اذا بنا نرى الكتاب في القرن الثالث قد تقسموا فنونا مختلفة ، وتخصص كل منهم فى فرع من هذه الفنون . فمنهم من تخصص فى الكلام ، ومنهم من تخصص فى اللغة والنحو ، ومنهم من تخصص فى الفقه ، وقليل منهم من يجمع بين هذه الأشياء .

وكان الشعراء فى القرن الأول وأوائل الثانى أشبه بالجهلة ، فأصبحوا فى القرن الثالث يختلفون الى مجالس العلم . بل ان بعضهم لم يكتف بذلك ، وانما أراد أن يكون له كتب ، فنرى أبا تمام يؤلف حماسته والبحترى يضع مختاراته وابن المعتز يصنف بديعه .

وهذا يدلنا على أن ذلك العصر لم يكن عصر خيال ، وانما كان عصر تفكير وعقل . وسبب ذلك معروف ، وهو تلك العلوم العربية التى نشأت ، والعلوم الأجنبية التى ترجمت الى العربية . وكل هذا دعا الناس الى أن يفكروا وأن ينشئوا ، وكان النثر أداة التعبير عن ذلك كله .

فليس غريبا اذن أن تتغير طبيعة النثر وأن تكثر موضوعاته وأن يزاحم الشعر حتى يبزّه ، وأن يصبح فنا تؤدّى فيه جميع العلوم ، وجميع الأغراض التى كانت مجال الشعر . فنرى الكتّاب يمدحون ويهجون ويرثون ويعاتبون وهكذا . وقد تناولوا هذه

الفنون كلها وبسطوها بسطا لم يكن مألوفا فى الشعر ، لأن البسط أنسب الى طبيعة النثر من الشعر الموثق بالقيود .

ولم يتغير النثر فى ذلك العهد من جهة موضوعه فحسب ، ولكن طبيعته قد تغيرت كذلك ، فسهل ولان وأصبح مرنا طيّعا ، يستطيع الكاتب أن يتصرف فيه كما يحب دون أن يستعصى عليه . فالفرق عظيم جدا بين كاتب كابن المقفع الذى نجد فى استساغة نثره شيئا من المشقة وبين كاتب آخر فى القرن الثالث كالجاحظ وابن قتيبة ، فان الأخيرين يؤديان ما يريدان من المعانى فى سهولة ويسر .

ولقد دعا هذا التطور فى النثر أثناء القرن الثالث الشعراء الى أن يسطوا عليه ويأخذوا منه كما كان الكتّاب يسطون على الشعر ويأخذون منه . وأنت ترى شاعرا كابن الرومى يتفنن فى معانيه ويطيل فى بسط فكرته مقلدا الكتاب ، ويسرف فى ذلك اسرافا حتى بلغت قصائده أطول حد عُرف فى الشعر العربى الى عصره ، كما أنه بسّط ألفاظه تبسيطا شديدا . وخير مثل لذلك همزيته المشهورة ، ففيها تجده يأخذ معانى الكتاب فى وصف الشطرنج وفى العتاب فى ألفاظ سهلة جدا .

ولقد أصبح الكتّاب أوسع الطوائف علما ، وأصبحت الكتابة وسيلة الوصول الى أرفع مناصب الدولة . فقد رفع العباسيون بلغاء الكتاب الى منصب الوزارة كما فعل المأمون والمعتصم . وقلما رفعوا شاعرا لشعره ، وذلك لأن الشعر خيال وعاطفة ، والكتابة عقل وحقيقة . والممالك حاجتها فى تدبير شئونها الى

العقـول أكثر من حاجتها الى العواطف والخيال . ولقد أجاد ابن قتيبة وصف الكتاب فقال : « هم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون فى جباية خراج أو سد ثغرة أو عمارة بلاد أو اصـلاح فساد أو تحريض على جهاد أو احتجاج على فئة أو دعاء الى ألفـة أو نهى عن فرقة أو تهنئة بعطية أو تعزية برزية أو ما شاكلها من جلائل الخطوب ومعاظم الشئون التى يحتاجون فيها الى أن يكونوا ذوى آداب كثيرة ومعارف مفننة » [1] . ويقرر ذلك ابن خلدون فيقول : « ان صاحب خطة الرسائل والكتابة لابد أن يتخير من أرفع طبقات الناس وأهل المروءة والحشمة منهم وزيادة العـلم وعارضة البلاغة » [2] . وهذا يدل على أن الكتّاب كانوا ينشدون الثقافة الواسعة لتكون سبيلهم الى المناصب الرفيعة . ومن أجل هذا كانوا أعلى الطوائف كعبا فى تحصيل العلوم المختلفة الألوان . وها هو ذا الجاحظ زعيم أدباء عصره يعترف للكتّاب بالفضـل فيقول انه طلب علم الشـعر عنـد الأصمعى فوجده لا يحسن الا غريبه ، فرجع الى الأخفش فوجده لا يعرف الا اعرابه ، فسأل أبا عبيدة فرآه لا ينفذ الا الى ما يتصل بالأخبار. ولم يظفر الجاحظ بما أراد الا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمـد بن عبد الملك الزيات وغيرهما .

ولعل أهم ظاهرة فى النثر العباسى لدى الرجال الرسـميين اتسامه — خطابة ورسائل — بطابع النعرة الدينية مباهاة بأواصر

---

(١) مقدمة أدب الكاتب .
(٢) مقدمة ابن خلدون ١٢٨ .

الرحم التى تجمعهم بالرسول صلى الله عليه وسلم . وكان من مظاهر ذلك ميلهم الى استعمال ألفاظ القرآن الكريم ومحاكاة أساليبه واقتباس آياته والاستشهاد بها ، مدّعين أن دولتهم قامت بدعوة دينية ترمى الى اصلاح ما أفسدت الدولة الأموية من معالم الدين ، وما عطلت من شعائره ، وما هتكت من حرماته . فكانت خطب أبى مسلم وداود وعبد الله ابنى على بن عبد الله بن عباس والسفاح والمنصور والمهدى والرشيد وكتبهم ومنشوراتهم ، كلها مفعمة بآى القرآن الكريم . وقد اطرد ذلك فى أكثر شارات الدولة من البنود والأعلام والطراز والسكة . وتوسعوا فى ادخال ألقاب التعظيم ذات الطابع الدينى على أسماء الخلفاء صونا لأعلامهم الشخصية وحجبا لها عن امتهانها فى ألسنة السوقة ، فتلقبوا بالمنصور والمهدى والهادى والرشيد .. الخ . وظل ذلك ساريا فيهم الى أن غابت شمس دولتهم .

ويلاحظ على الخطابة بنوع خاص اللغة (الأوتوقراطية) التى كانت أشبه بلغة بابوات روما فى العصور الوسطى ، ولغة الملوك الذين كانوا يدينون بنظرية « حقوق الملك المقدسة أو الحق الالهى ، وأنهم ورثة الله فى أرضه وممثلوه بين خلقه » . وهذا واضح فى خطب رجالات بنى العباس فى عصرهم الأول . انظر الى المنصور يقول فى بدء خطبة له : « أيها الناس ، انما أنا سلطان الله فى أرضه ، أسوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده ، وحارسه على ماله ، أعمل فيه بمشيئته وارادته وأعطيه باذنه .. الخ » .

وبهذه المناسبة يجمل بى أن أثبت هنا ملاحظة جديرة بالنظر

لأنها تعيننا على فهم بعض أسباب رقى الكتابة فى أواخر القرن الثانى وأوائل الثالث ، تلك هى أن الخطابة العباسية لم تستمر على القوة التى كانت عليها فى صدر تلك الدولة بعد أن استقرت دعائمها ، فقد فترت عند ذلك الدواعى واشتد اختلاط العرب بالأعجام ، وكانت الشخصيات البارزة فى الدولة — فى الغالب — من الفرس وغيرهم من الموالى الذين لم تنجرد ألسنتهم بالخطابة ، لما يصيبها أحيانا من لكنة العىّ وحصر العجمة ، فانصرفوا الى الكتابة ونهضوا بها نهوضا حثيثا وألبسوها حلة قشيبة من آيات البلاغة والبيان على يد فحول كتابهم من أمثال ابنى سهل وابن سعدة وغيرهم .

وقد ترجم كتاب أرسطو فى الخطابة فى أواخر القرن الثانى وكلف به الكتّاب كلفا شديدا حتى لقد أنكر عليهم ذلك ابن قتيبة فى مقدمة أدب الكاتب وسخر من المنطق والمناطقة . وكان لهذا الكتاب أثر عظيم فى النثر ، وقد نجم عن ذلك طريقتان : طريقة قوم اتصلوا بالفلسفة اليونانية والعقل اليونانى ، وطريقة قوم اتصلوا بالحضارة الفارسية والأدب الفارسى . والفرق كبير جدا بين هاتين الطريقتين ، فأصحاب الثقافة اليونانية هم المتكلمون وبخاصة المعتزلة ، وهؤلاء أصحاب تفكير وعناية بالمعانى وترتيب الكلام ترتيبا منطقيا . وأصحاب الثقافة الفارسية يوجهون عنايتهم الى الألفاظ أكثر من عنايتهم الى المعانى . وكان ابن قتيبة وسطا بين أولئك وهؤلاء ، أعنى أنه تأثر بالطريقتين . فكان يعنى بالفكرة أشد عناية ويحاجّ خصومه على طريقة أصحاب المنطق ، وفى الوقت نفسه كان يتأنق

فى لفظه وفى أسلوبه الى حد ما . ولكن كانت النزعة الفارسية غالبة عليه كما سنوضح بعد قليل .

ولا نعدو الحق اذا قلنا ان أساليب الانشاء قد تنوعت تبعا لمذاهب المنشئين فى ذلك العصر لتنوع العلوم ، فأصبح للفقيه أسلوب وللمتكلم أسلوب وللأديب أسلوب وهكذا . وهذه الظاهرة تنخلق حين تتطور العقول وتتنوع الثقافات . وهذا مشاهد عندنا اليوم ؛ فللصحفى أسلوب خاص ، ولرجل الدين أسلوب خاص ، وللسياسى أسلوب خاص ، وللأديب أسلوب خاص ، ولكل واحد له حظ من ثقافة أسلوب خاص تنضح عليه ثقافته . وقد أشار الجاحظ الى ذلك فقال : « ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها .. وقبيح بالمتكلم أن يفتقر الى ألفاظ المتكلمين فى خطبة أو رسالة أو فى مخاطبة العوام أو التجار أو فى مخاطبة أهله وعبده وأمته أو فى حديثه اذا حدّث أو خبره اذا أخبر . وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام وهو فى صناعة الكلام داخل ، ولكل مقام مقال ولكل صناعة شكل » [1] .

وكان الكتّاب فى الواقع لا يتقيدون بمظهر خاص فى الكتابة ؛ فأحيانا يطيلون ، وأحيانا يوجزون ، وصدق جعفر بن يحيى البرمكى أحد أمراء البيان حين قال : « اذا كان الاكثار أبلغ كان الايجاز تقصيرا ، واذا كان الايجاز كافيا كان الاكثار هذرا » [2] . وسئل أبو عمرو بن العلاء : « هل كانت العرب

---

(١) الحيوان ٣/١١٤ . (٢) نقد النثر ٩٦ .

تطيل ؟ فقال : نعم ليسمع منها ، فسئل : فهل كانت توجز ؟ فقال : نعم ليحفظ عنها »[1] . وللجاحظ كلمة طيبة فى هذه المسألة يقول فيها : « وللاطالة موضع وليس ذلك بخطل ، وللاقلال موضع وليس ذلك من عجز .. ورأينا الله تبارك وتعالى اذا خاطب العرب والأعراب أخرج الكلام مخرج الاشارة والوحى والحذف ، واذا خاطب بنى اسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطا وزاد فى الكلام »[2] . وهذه هى البلاغة بعينها ، ومن أجل هذا قالوا ان البلاغة هى مطابقة الكلام لمقتضى الحال .

وليس من شك فى أن الاطناب كان الصفة الغالبة فى كل ما شمل بيعة أو عهدا أو احتجاجا أو انتصارا أو تقريرا لمذهب أو استهواء أو دفعا لشبهة أو طلبا لنعمة أو ماشابه ذلك . وقد صور ابن قتيبة مزية هذا الاسهاب فقال : « وليس يجوز لمن قام مقاما فى تحضيض على حرب أو حمالة بدم أو صلح بين العشائر أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن كتب الى عامة كتابا فى فتح أو استصلاح أن يواجز . ولو كتب كاتب الى أهل بلد فى الدعاء الى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد الى مروان حين بلغه تلكؤه فى بيعته : أما بعد فانى أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت والسلام — لم يعمل هذا الكتاب فى أنفسها عمله فى نفس مروان ، ولكن الصواب أن يطيل ويكرر ويعيد ويبدىء ويحذّر وينذر »[3] . وهذا يدل على أن زمن

(١) مقدمة أدب الكاتب .

(٢) الحيوان ١/٤٦ .

(٣) أدب الكاتب ١٤ ليدن .

الايجاز فى مثل هذه الأمور قد ولى" وأن الاطناب قد أصبح أجدى للصالح العام من الايجاز ، ويدل من ناحية أخرى على أن النزعة الفارسية قد استحصدت مر"تها بتكاثر عدد من نشأ من الفرس من الكتّاب وباشتداد تمازج من كان من الكتاب من أصل عربى بأهل فارس ، حتى كادت دولة العباسيين تعد فارسية لولا مكان الخليفة من العرب .

ولعل من أبرز تأثير النزعة الفارسية فى الكتابة كذلك الميل الى التأنق فى اللفـظ وبخاصة فى الرسائل ، واطالة المقدمات ، وتنويع البدء والختام ، والتبجيل فى الخطاب والاحتشام مـع المخاطب ، والغلو والمبالغة ، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وجمل مترادفة . وقد تفنن بعض الكاتبين فى بسط الكلام ، وأوغل بعضهم فى الصنعة حتى أوشك البيان العربى أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم . ولذلك نرى جعفرا البرمكى ينصح الكتاب قائلا : « ان استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا » ، وذلك لأن القوم لم ينسوا ما للايجاز فى النفوس من شدة الأسر .

وكان من أثر النزعة الفارسية أيضا أن بدأ السجع يجد من نفوس الكتاب استحسانا شديدا لحسن وقعه على الأسـماع ، فأولعوا به وقصدوا اليه . ولا أدل على ذلك من اعجابهم الشديد برسالة ابراهيم بن سيابة الى يحيى بن خالد ، حتى ان عامة أهل بغداد كانوا يحفظونها فى تلك الأيام كما يروى الجاحظ ، وهى رسالة طويلة يقول فيها : « للأصيد الجواد ، الوارى الزناد ، الماجد الأجداد ، الوزير الفاضل ، الأشم البازل ، اللبّاب الحُلاحل ،

من المسكين المستجير ، البائس الضرير ، فانى أحمد الله ذا العزة القدير اليك والى الصغير والكبير بالرحمة العامة والبركة التامة . أما بعد فاغنم واسلم واعلم ان كنت تعلم أنه من يرحم يُرحم ، ومن يحرم يُحرم ، ومن يحسن يغنم ، ومن يصنع المعروف لا يعدم .. الخ » [1] . وهذه الرسالة تبين لنا الى أى حد بلغ كلف القوم بالسجع .

ونحن لا ننكر أن السجع وُجد قبل هذا العصر ، وقبل أن تتأثر الحياة الأدبية بالروح الفارسية ، ولكنه كان يأتى طواعية من غير تكلف . فأنت تجده فى العصر الجاهلى ، وأبلغ مثال له خطبة قس بن ساعدة الايادى ، وهى معروفة مشهورة . وقد ورد فى أحاديث الرسول سجع ، ولكنه جاء عفوا لا تصنُّع فيه ، وتستطيع أن تقرأ كثيرا من هذه الأحاديث الشريفة فى كتاب « المثل السائر » [2] . ولكنك تحس فى هذه الأحاديث أنه سجع مرسل جاء عن غير عمد . وقد بدت الكراهية فى وجه الرسول حين سمع رجلا يتكلف السجع فى كلامه وقال : «أسجع كسجع الجاهلية» [3] . ويعلق صاحب « نقد النثر » على كلام رسول الله فيقول : « وانما أنكر صلى الله عليه وسلم ذلك لأنه أتى بكلامه مسجوعا كله ، وتكلف فيه السجع تكلف الكهان » . ومن ذلك يتضح أن السجع المطبوع مستحسن وفيه زين للكلام ، ولذلك اعتبره صاحب

---

(1) اقرأ جزءا منها فى البيان والتبيين ٣/١٢٨ .
(2) المثل السائر ص ١١٤ وما بعدها .
(3) نقد النثر ١٠٧ .

الطراز أول مراتب الترصيع وامتدحه واستقبح المصنوع منه [1] . وابن سنان الخفاجي يعتبر السجع المطبوع من أحسن ألوان البديع [2] . وما أحسن قول صاحب التلخيص في السجع : « وأصل الحسن في ذلك كله أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني دون العكس » [3] . ومن يرد أن يقرأ الكثير عن السجع وألوانه وتطوره في مختلف عصوره فليقرأ الفصول الممتعة التي كتبها عنه المرحوم الدكتور زكي مبارك في كتاب « النثر الفني » [4] .

مهما يكن من شيء فقد أقبل الناس في العصر العباسي على السجع بعد أن بدأت النزعة الفارسية تدب في الكتابة ، وسرت عدواه الى الشعراء ، ولم تسلم منه التوقيعات . فهذا جعفر البرمكي يكتب الى عامل جائر : « قد كثر شاكوك وقل شاكروك ، فاما اعتدلت واما اعتزلت » . وكان السجع مقبولا الى حد ما ممن يملكون نواصي اللغة ومقاود الفصاحة ، ثم خلف من بعدهم خلف ضعفت فيهم ملكة اللغة وأعوزهم البيان فأسرفوا في الصناعة اللفظية اسرافا أضفى على الكتابة المسخ والسخف .

***

وبعد فقد كان لابد من أن أرسم صورة واضحة المعالم للنثر في العصر العباسي وما اختلف عليه من تأثيرات ونزعات لنعرف

---

(1) الطراز ٢/٣٧٣ .

(2) سر الفصاحة ٩٢ .

(3) التلخيص ص ٦٧ طبعة استنبول .

(4) انظر النثر الفني ١/٦٤ وما بعدها .

نزعة ابن قتيبة فى الكتابة وسمات أسلوبه . فقد نشأ فى القرن الثالث ، وهو العصر الذى نضجت فيه العلوم واستوت الكتابة وبلغت ذروة مجدها وتنوعت فنونها .

وأنت حين تقرأ لابن قتيبة تجد له أسلوبين متباينين :

الأول : أسلوب يجرى به قلمه فى النقاش والجدل ، وهـذا الأسلوب غير مشرق ويجنح الى شيء من التعقيد الذى يحتاج الى كد الذهن حتى يسلس الفهم . وتقرأ ذلك الأسلوب فى « تأويل مختلف الحديث ، والاختلاف فى اللفظ » . ويقينى أنه تأثر فيه بأساليب المناطقة ورجال الكلام وأرباب الفلسفة . واقرأ معى هذه الفقرة وفيها يسخر ابن قتيبة من أبى الهزيل العلاف : « وزعم أنه يستحيل أن يفعل فى حال بلوغه بالاستطاعة التى أعطيها فى حال البلوغ ، وانما يفعل بها فى الحال الثانية ، فاذا قيل له فمتى فعل بها فى الحال التى سلبها أم فى حال البلوغ والفعل فيها عندك محال ، وقد فعل بها ولا حال الا حال البلوغ والحال الثانية قال قولا مرغوبا عنه مع أقاويل كثيرة فى فناء نعيم أهل الجنة وفناء عذاب أهل النار »[1] .

أنا أعترف بأننى أجد عناء شديدا فى فهم هذا الكلام . وهذه الكزازة ملحوظة فى الكتب التى يجادل فيها مخالفيه فى المذهب الدينى والاعتقادى وهم أهل الرأى والمتكلمون . وتراه فى هذه الكتب يطيل الجمل ، ولهـذا تجد نفسك مجهودة لتربط بين

---

(١) تأويل مختلف الحديث ٥٥ .

الكلمات من الناحية النحوية ، فتجد الخبر مثلا أو المفعول به بعيدا قد لا تعثر عليه الا بعد سطرين ، وربما لا تستطيع ادراكه الا بعد معاودة النظر والفكر . وتجده فى كتاب « الأشربة » ينحو نحو الفقهاء فى استنباط الأحكام الفقهية .

الثانى : أسلوبه فى كتب الأدب وما يتصل بها ، وكذلك فى المقدمات التى ينشئها فى صدر مؤلفاته ، وفيما بقى من رسائله وهو « كتاب العرب » ان صح أن نسميه « رسالة » . وهذا الأسلوب يجمع بين السماحة والاشراق والجزالة ، وهو الذى نسميه « بالأسلوب الأدبى » ، وعليه مدار حديثنا . وكتاب العرب أدل على أسلوب ابن قتيبة الأدبى ، وفيه تشعر بشىء من العناية الفنية والتأنق فى اللفظ . ومقدمات « الشعر والشعراء وأدب الكاتب وعيون الأخبار » تعطيك صورة لأسلوبه الأدبى ، ولكنها على أية حال دون كتاب العرب .

ويلاحظ أن ابن قتيبة كان يميل الى السجع أحيانا يجمل به كتابته ، ولكنه سجع لا يزيد على فاصلتين غالبا ، وهو الذى يسميه أبو هلال العسكرى « الازدواج » [1] . واقرأ قوله فى وصف حال العرب فى الجاهلية : « والعرب يومئذ منقطعة ليس لها نظام ، ومتفرقة ليس لها التئام ، وأكثرها يحارب راجلا بالسيف الكليل والرمح الذليل .. الخ » [2] ، وقوله فى ذى الهمة : « فيخاطر فى طلب العلم بعظيمته ، ويستخف فى ابتغاء المكارم

---

(١) الصناعتين ص ٧٤ مطبعة السعادة .
(٢) رسائل البلغاء ٣٧٠ (كتاب العرب) .

بكريمته ، ويركب الهول ، ويدرع الليل ، وتأبى نفسه الا علوا حتى يسعد بهمته ويظفر ببغيته » [1] ، وقوله فى مقدمة أدب الكاتب : « فانى رأيت أكثر أهل زماننا هذا عن سبيل الأدب ناكبين ، ومن اسمه متطيرين ، ولأهله كارهين .. والعلماء مغمورون ، وبكرّة الجهل مقموعون ، حين خوى نجم الخير وكسدت سوق البر .. » . ولست أشك فى أن ابن قتيبة كان يقصد الى هذا السجع اذا سلس له قياده ، ولكنه لا يجهد نفسه فى الاتيان به اذا اعتاص عليه ، وحين ذلك تراه يرسل الكلام ارسالا فى بساطة وقوة .

ونثر ابن قتيبة فى مجموعه مرسل برىء من التصنع ، وهو يحفل بالفكرة ويوليها عناية شديدة ، والسجع عنده قليل جدا اذا قيس بسجع غيره من كتاب زمنه .

وابن قتيبة — على تنوع ثقافته — يميل فى أسلوبه الأدبى الى الاحتفاظ بالخصائص العربية ، ويكره أن يشوب الكتابة أساليب الفلسفة ومصطلحات المنطق . وأنت تراه فى مقدمة أدب الكاتب يسخر من أهل المنطق وصور قضاياهم سخرية شديدة . وهذا راجع الى أمرين : أولهما أنه كان يكره أصحاب الكلام وبخاصة المعتزلة ، وهؤلاء جل اعتمادهم على المنطق ، ومن أجل هذا يطلق الجاحظ على أرسطو « المعلم الأول » . وثانيهما : أن

(١) رسائل البلغاء ٣٥٩ .

ثقافته الأجنبية الغالبة فارسية ، والمنطق عرفه العرب عن اليونان كما نعرف .

وينم أسلوب ابن قتيبة على تفقهه فى اللغة واستبطانه لأسرارها أيما استبطان والمامه بألفاظها ما يختار منها وما يطرح . فهو ينزل اللفظ فى منازله ويصبّه فى قواليه ، وكأنه آخذ بمخنق اللغة ، لا تعزب عنه شاردة ولا واردة منها . ولا شك أن تبحره فى الأدب واللغة كان من أشحذ أسلحته فى مقارعة خصومه .

وكانت الموضوعات التى يطرقها لا تتخطى محيط الأدب والدراسات الدينية ، ولذلك ترى ألفاظه وأساليبه موائمة لهذه الموضوعات كل المواءمة . وكان قليل الميل الى العلوم الأجنبية ، ولهذا لم يكن مضطرا الى مواجهة أية صعوبة فى التعبير عن المعانى العلمية الحديثة . والى ذلك يرجع الفضل فى بساطة أسلوبه وسهولته الى حد ما . وأنت تشعر أن جميع مقدمات كتبه ذات طابع واحد ينم على شخصية واحدة ، ولهذا لم نجد عسرا فى أن نرفض نسبة كتاب « الامامة والسياسة » اليه بمجرد قراءة مقدمة الكتاب .

ونحن نلاحظ أيضا أنه يكرر بعض الجمل فى مواطن كثيرة من كتبه تؤدى معنى خاصا ويضعها فى أماكنها المناسبة .

وكان شديد العناية بالمعنى ، ولذلك تراه يتخير ألفاظا لمعانيه لا معانى لألفاظه . وتحسه يسير مع الطبع متجافيا عن خشونة التعمل ووعث التعقيد . وكان ينفر من استعمال الألفاظ الوحشية ويقول : « ويستحب له (أى الكاتب) أن يدع فى كلامه التقعير

والتقعيب » [1] ، ويستشهد بالحديث الشريف : « أبغضكم الىّ الثرثارون المتفيهقون المتشدقون » .

وقد تأثر ابن قتيبة أشد تأثر بالطريقة الفارسية التى تميل الى الاسراف فى التبجيل والتعظيم ، والى اختيار الألفاظ المنمقة العذبة . ويظهر ذلك بوضوح فى رسائله الاخوانية القليلة جدا التى عثرنا عليها فى كتاب « عيون الأخبار » [2] . ومنها هــذه الرسالة فى الاعتذار والاستعطاف (ولم يذكر المعتذر اليه) « قد أودعنى الله من نعمك ما بسطنى فى القول مدلاً به عليك ، ووكد من حرمتى بك ما شفع لى فى الذنوب اليك ، وأعلقنى من أسبابك مالا أخاف معه نبوات الزمان علىّ فيك ، وأمنتنى بحلمك وأناتك بادرة غضبك ، فأقدمت ثقةً باقالتك ان عثرت وبتقويمك أن زغت وبأخذك بالفضل ان زللت » . وله رسالة شكر أرسلها الى محمد بن عبد الله بن طاهر نرى فيها كذلك تأثره بخصائص الطريقة الفارسية التى أشرنا اليها . ونراه كذلك متأثرا من ناحية أخرى بالثقافة اليونانية من ناحية تنسيق الفكرة وترتيب المعانى والعناية بها . وقد أتاه ذلك التأثر من مجالس المتكلمين حين كان يطلب العلم بالبصرة فى صــدر شبابه . والظــاهر أنه ازورّ عنهم لأن معتقداتهم لم تجد من نفسه هوى .

ولنزعته الدينية ترى أسلوبه مزدانا بالاقتباس من القرآن

---

(١) مقدمة أدب الكاتب .

(٢) انظر عيون الأخبار ٢/٢٢٢ ، ٣/١٠٦ .

والحديث . يضاف الى ذلك ذخيرة ضخمة من روائع المنظوم وبليغ الحكم والأمثال .

وابن قتيبة لا يميل كثيرا الى الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات . وسبب ذلك أنه ليس من أرباب الخيال الواسع ، فهو خليق أن يُعدّ فى جماعة الحسيين أرباب الفلسفة الحسية . وهو من هذه الناحية يخالف الجاحظ الذى يفيض أسلوبه بالصور البيانية ، ولهذا كان أسلوبه أجمل وقعا على الأسماع من أسلوب ابن قتيبة . وليس معنى ذلك أن ابن قتيبة أسقط هذه الصور البيانية جملة ، فانها الأقطاب التى تدور عليها البلاغة على حد تعبير عبد القاهر ، ولكنه كان قليل الاستعمال لها ، واقرأ قوله فى وصف الشعر : « الشعر معدن علم العرب وسفر حكمتها ، وديوان أخبارها ، ومستودع أيامها ، والسور المضروب حول مآثرها ، والخندق المحجوز على مفاخرها ، والشاهد العدل يوم النفار ، والحجة القاطعة عند الخصام .. الخ » (١) .

ويختلف ابن قتيبة عن الجاحظ كذلك فى أنه يميل الى الايجاز والى تأدية المعنى من أقصر طريق . أما الجاحظ فكان يجنح الى الاطناب والاكثار من المترادفات ، واقرأ له هذه الفقرة فى كتاب البيان والتبيين « ومن أجل الحاجة الى حسن البيان واعطاء الحروف حقوقها من الفصاحة رام أبو حذيفة (واصل بن عطاء) اسقاط الراء من كلامه واخراجها من حروف منطقه ، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه ويناضله ويساجله ويتأتى لستره والراحة من هجنته ،

---

(١) عيون الأخبار ٢/١٨٥ .

حتى انتظم له ما حاول واتسق له ما أمل .. الخ » [1] . فأسلوب الجاحظ فيه اطالة ، والجمل تترادف لتوضيح المعنى كما ترى . وسبب ذلك أن الجاحظ — فيما أعتقد — كان يبغى من كتبه تزجية الفراغ . أما ابن قتيبة فكان صاحب رسالة يريد أن يؤديها ، وهذا أمر يدعوه الى أن يصل الى هدفه من أقرب الطرق من غير اثقال ليحفظ عنه ، ولذلك تجد أفكاره تتلاحق متصلة مرتبطة فى انسجام ووضوح .

وسر قوة أسلوب ابن قتيبة أنه — على ايجازه — واضح جزل صافى الديباجة على العموم ، ولا يحتاج الى كد الفكر فى استخراج خبيئه ، وذلك لاستبحاره فى اللغة ووقوفه على دقائقها كما قلنا . واقرأ معى ما يقوله فى وصف الشعر المصنوع : « والمتكلف من الشعر وان كان جيدا محكما فليس به خفاء على ذوى العلم لتبيّنهم فيه ما نزل بصاحبه من طول التفكر وشدة العناء ورشح الجبين وكثرة الضرورات وحذف ما بالمعانى حاجة اليه وزيادة ما بالمعانى غنى عنه » ، وما يقوله فى الشاعر المطبوع : « والمطبوع من الشعراء من سمح بالشعر واقتدر على القوافى ، وأراك فى صدر بيته عجزه ، وفى فاتحته قافيته ، وتبيّنت على شعره رونق الطبع ووشى الغريزة ، واذا امتحن لم يتلعثم ولم يتزحّر » [2] ، وقوله يحث الشعراء على التزام نهج القدماء :

(١) البيان والتبيين ١/٣٠ .
(٢) مقدمة الشعر والشعراء . الزحير = اخراج الصوت أو النفس بأنين عند عمل أو شدة .

« وليس لمتأخر الشعراء أن يخرج عن مذهب المتقدمين فى هذه الأقسام ، فيقف على منزل عامر ، أو يبكى عند مشيّد البنيان ، لأن المتقدمين وقفوا على المنزل الداثر والرسم العافى ، أو يرحل على حمار أو بغل ويصفهما ، لأن المتقدمين رحلوا على الناقة والبعير ، أو يرد على المياه العذاب الجوارى لأن المتقدمين وردوا على الأواجن الطوامى ، أو يقطع الى الممدوح منابت النرجس والآس والورد ، لأن المتقدمين جروا على قطع منابت الشيح والحنوة والعرارة » (١) . واقرأ قوله فى وصف طبائع الناس : وهذه الطبائع هى أسباب الشرف وأسباب الخمول ، فذو الهمة تسمو به نفسه الى معالى الأمور ، وترغب به عن الشائنات ، فيخاطر فى طلب العلم .. ومن لا همة له جثّامة لبد ، يغتنم الأكلة ويرضى بالدون ، ويستطيب الدعة ، وان أعدم لم يأنف من ذل السؤال . والجبان يفر عن أمه وأبيه وصاحبته وبنيه . والشجاع يحمى من لا يناسبه بسيفه ، ويقى الجار والرفيق بمحبته . والبخيل يبخل على نفسه بالقليل . والجواد يجود لمن لا يعرفه بالجزيل ، وقال الله عز وجل « قد أفلح من زكاها وقد خاب من دسّاها » يريد قد أفلح من أنمى نفسه بالمعروف وأعلاها ، وقد خاب من أسقطها بلئيم الأخلاق وأخفاها . وقد يكون الرجل مخالفا لأبيه فى الأخلاق وفى الشمائل أو فى الهمم أو فى جميع ذلك لعرق نزعه من قبل أجداده لأبيه أو أمه ، وقال الشاعر :

وأشبهت جدك شر الجدود   والعرق يسرى الى النائم » (٢)

---

(١) مقدمة الشعر والشعراء . (٢) رسائل البلغاء ص ٣٥٩

فهذه فقرات من نثر ابن قتيبة ، ومنها تعرف الخصائص التى يمتاز بها والتى أشرنا اليها بالتفصيل ، ففيها وضوح وسهولة ، وفيها رصانة وجزالة . وتلاحظ فى الفقرة الأخيرة شيئا من السجع الذى يأتى عن طواعية ، وتلاحظ كذلك الاقتباس من القرآن الكريم والشعر ، وهو يضع المقتبس فى أنسب مكان ، وهذا يدل على تمكنه من اللغة . ولعل أهم ما لاحظته فى هذا النثر أنه مرسل ينساب فى غير تكلف أو تصنع .

ولا يخلو أسلوب ابن قتيبة من الاستطراد كغيره من كتاب ذلك الزمان ، ولكنه استطراد أسميه أنا « استطراد مناسبة » وفى الغالب يكون ناشئا من شرحه لكلمات الأشعار التى يسوقها ، فيدعوه هذا الشرح الى الاستشهاد بالشعر ، وسرعان ما يعود ثوا الى موضوعه . وقد يكون استطراده ناشئا من تداعى المعانى الذى يدل على فطرية محببة ، وهذا عنده كثير ، ويكفينى منه هذا المثل : يقول فى الحديث عن المغيرة بن شعبة : « وولاه عمر البصرة ففتح عيسان » ، ثم استطرد عقب ذلك بسبب تداعى المعانى فقال : « وأبو الحسن البصرى وأبو محمد بن سيرين من بنى عيسان » ، ثم عاد الى الحديث عن المغيرة وهو موضوعه الأصلى فقال : « وافتتح دست عيسان وأبرقبان وسوق الأهواز .. الخ » [1] . فأنت تلحظ هذا الاستطراد الفطرى حين ذكر فتح المغيرة لعيسان ، ثم دار بخاطره فى الحال أن أبوى هذين الرجلين من بنى عيسان فذكرهما من غير ربط بين الجملتين .

---

(1) المعارف ١٢٨ .

وقد لاحظت أن ابن قتيبة يستعمل فى أسلوبه التضمين كثيرا ، وهو انابة بعض حروف الجر عن بعضها ، وأنه يعطف أحيانا على المضاف قبل ذكر المضاف اليه مثل قوله فى مقدمة عيون الأخبار : « وهذا يكون فى مثل كتابنا لأنه فى آداب ومحاسن أقوام » ، وأنا لا أحمد له هذا العطف ولا أستسيغه من ناحية فن القول . وهو مذهب كوفى ، والبصريون لا يستسيغونه كثيرا ويقدرون المضاف اليه بعد المعطوف عليه [1] .

وفى أسلوبه الاخبارى فى عيون الأخبار نراه يؤثر كثيرا استعمال الجمل الاسمية حين يورد الخبر ، فيقول مثلا : « ابراهيم ابن المنذر قال .. » و « سهل بن محمد يقول .. » وهكذا .

هذا هو أسلوب ابن قتيبة بكل ما يمتاز به ، ويلاحظ أنه يدل على رجل قد صقلته الثقافات المختلفة ، فضلا عن وقوفه على أسرار اللغة ودقائقها وقوفا تاما .

---

(١) شرح همع الهوامع ص ١٢٢ .

الباب السادس

ابن قتيبة ومعاصروه

أريد فى هذا الباب أن أعقد مقارنات بين ابن قتيبة وبعض أدباء عصره من الذين يشاكلونه فى بعض النواحى الثقافية ، ولهم آثار تشبه آثار ابن قتيبة الأدبية . ولعل أول من يتجه اليه نظرنا لهذه المقارنة هو شيخ الكتاب الجاحظ . فقد كان أول من صنف الكتب الأدبية واحتذاه بقية المؤلفين ، فضلا عن أنه استغرق جزءا كبيرا من نشاط ابن قتيبة المذهبى وتعرض لحملاته العنيفة بسبب اختلافهما فى المذهب . ثم ان ابن قتيبة قد تأثر به من غير شك وروى عنه كثيرا . فهو اذن أوثق أدباء العصر صلة بابن قتيبة ، ولهذا سنولى هذه المقارنة أشد عناية ، وستفصل فيها تفصيلا يوقفك على دقائقها ، ويفسر لك بعض مواقف ابن قتيبة منه ، ويبين لك التباين بين منحى كل منهما .

وبعد ذلك أعقد مقارنة عاجلة بين ابن قتيبة وبين محمد بن سلام الجمحى ، ثم بين ابن قتيبة وبين محمد بن يزيد المبرد ، لأن لكل منهما كتابا له نظيره عند ابن قتيبة .

الفصل الأول

ابن قتيبة والجاحظ

— ١ —

ولد الجاحظ قبل ابن قتيبة بأكثر من نصف قرن (سنة ١٥٩) ، وبذلك أدرك شباب الدولة العباسية فى أوج مجدها . وكان زعيم المعتزلة ، وقد عاصر سلطانها فى زمن المأمون ، واتصل بما كان فى أيامه من حركة علمية وفلسفية ، وظل رافعا رأسه كزعيم لهم فى عصر المعتصم والواثق اللذين سارا سيرة المأمون فى مناصرة الاعتزال . وشاهد حكم المتوكل الذى عصف بالمعتزلة وأبطل دولتهم .

وقد تمرس الجاحظ بالحياة أيما تمرس ، فقد عمّر ما يقرب من المائة سنة (توفى سنة ٢٥٥) ، وتقلبت عليه ظروف متباينة ؛ فمن فقر الى ثراء ، ومن قرب من السلطان الى بعد عنه وتعرض للاضطهاد ، ومن شباب عارم الى شيخوخة محطمة .

وقد أدرك فى حياته الطويلة كل الأحداث التى اختلفت على الدولة العباسية ؛ فشاهد الصراع بين الأمين والمأمون ، وعاش معظم حياته ودولة الفرس فى شامخ قوتها ، ورأى سقوط دولتهم

وظهور دولة الترك فى زمن المعتصم . وعاصر تزعزع الخلافة العباسية واضمحلالها وتركز السلطة فى يد الأتراك .

وقد اتصل الجاحظ بالوزراء والعظماء أمثال محمد بن عبد الملك بن الزيات وأحمد بن أبى دواد والفتح بن خاقان ، ونال كثيرا من حبائهم . وتنقل فى مختلف البلدان ، فقد ولد بالبصرة ونشأ بها ، وعاش فى بغداد زمنا ، ورحل الى دمشق وأنطاكية وغيرهما . فلا غرو أن يكسبه ذلك كله لونا آخر من ألوان الثقافة يغاير ما فى الدفاتر والكتب ، وهو التجارب الطويلة والالمام بطبائع الناس وأخلاقهم وطرق معايشهم وفضائلهم ورذائلهم وما فى بيئاتهم المختلفة من حيوانات ونباتات وأجواء .

ومن أجل هذا كانت كتب الجاحظ صورة مجلوة للحياة الاجتماعية فى عصره ، وقلما تجد ذلك فى كتب معاصريه كابن قتيبة والمبرد .

والحق أن كل شىء وقع تحت حسه أو تحت تفكيره كان موضع تجربته . وقد رزق من دقة الملاحظة فى طبائع الأشياء ونفوس الناس مالم يرزقه أحد من علماء عصره . وكان خبيرا بالحياة الاجتماعية أعظم خبرة ، فقد وصف فى دقة نوادى القمار وعمل الخاطبات فى البيوت وحياة الفتيان وطمع التجار وطائفة المعلمين وما الى ذلك . وساعده على كل هذا اتصاله بالناس على اختلاف طبقاتهم من الخليفة الى الباعة المتجولين . وكان فى صدر شبابه يمتهن بيع الخبز والسمك فى طبلية يحملها على رأسه ،

فعرف الكثير من طبائع الناس فى البيع والشراء . ومن أجل هذا كله يُعتبر الجاحظ خير مؤرخ اجتماعى فى عصره .

أما ابن قتيبة فلم تتح له هذه الخبرة الطويلة التى اكتسبها الجاحظ ، فقد عاش نيفا وستين سنة ، ولم يكد يستوى ويبلغ أشده حتى أدرك الخلافة العباسية الاضمحلال على يد الترك ، فلم ير الفتوة العباسية التى رآها الجاحظ ، ولم يتنقل فى البلدان كثيرا كما تنقل الجاحظ ، ولم يتصل بالوزراء والعظماء اتصال الجاحظ بهم . ولهذا لم تكن له هذه الخبرة المكتسبة بالمخالطة كالتى كانت للجاحظ . ولهـذا أيضا نرى ثقافته علمية محضة منشؤها القراءة والاطلاع ، وقلما تظفر فى عيون الأخبار بما ينبئك عن الحالة الاجتماعية فى عصره .

— ٢ —

وهناك بون شاسع بين مزاجى الرجلين ، فالجاحظ كان أميل الى التفاؤل ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور لا بعين المغيظ المحنق ، ويبدو عليه ذلك اذا كتب أو تحدث ، يغمره السرور وتعتاده الدعابة . ولم يكن بالمتزمت ولا بالمتنسك ، بل كان من أرباب المذهب الواقعى (Réaliste) ، يرى من العبث أن يكلف الأيام ضد طباعها ، فلابس دهره كما هو ، وعرف أنه يحلو ويمر ، فرضى بحلوه ومره ، ووجد فى الرضا والقناعة عزاء .

أما ابن قتيبة فكان على نقيض ذلك ، كان ناقما على مظاهر الحياة السياسية والاجتماعية والعلمية فى عصره . فقد أنكر على شباب العلم شغفهم بالعلوم الحديثة ونسى أن الناس مولعون دائما

بكل جديد . ونقم على هؤلاء الذين أخذوا يحطون من شأن العرب وانبرى للدفاع عنهم فى ايمان وقوة . وكان رجل دين يلتزم جادة التوقر والتزمت . وكان شديد الميل الى على وآل بيته ، ولكنه لم يكن شيعيا كما بينّا . أما الجاحظ فيصفه بعضهم بأنه كان عثمانيا يتنصب (أى يفضل عثمان على علىّ رضى الله عنهما) ، والتنصب ضد التشيع أى كراهة على وآل بيته [1] رضوان الله عليهم أجمعين . وعلى هذا المذهب كان كثير من أهل البصرة منذ واقعة الجمل .

— ٣ —

ويختلف الاثنان فى أن ابن قتيبة كان يضع مؤلفاته لغرض التعليم والافادة . ولذلك كانت مواضيع كتبه مما يمس حاجة الناس . وأشد كتبه ميلا الى التسلية « عيون الأخبار » ، ومع ذلك فقد أشار فى مقدمته الى أنه أراد أن يزوّد طلاب المعرفة بذخيرة طيبة من الشعر والنثر . أما سائر كتبه فتحمل مسحة العلم والجد ، وقد دفعه الى تصنيفها حاجة الناس اليها ، ولذلك تجدها مرتبة منسقة لتسهل الاستفادة منها .

والجاحظ كان يتخير موضوعات مؤلفاته مما يجذب الناس ويدخل فى نفوسهم الامتاع والتسلية ، ولهذا ترى كتبه خليطا من كل فن ، وكأنه كان يسجل خواطر متباينة تدور بخلده ، ولم يترك شيئا وقع عليه حسه الا تناوله ، ولذا تراه يكتب فى

---

(١) محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية ٢٨٩ .

أجل الموضوعات وفى أتفهها . وهو فى جميع كتبه يمزج الجد بالهزل والحقائق بالفكاهة حتى لا يثقل على القارىء . ويقول المسعودى : « وكتب الجاحظ — مع انحرافه المشهور — تجلو صدأ الأذهان وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع خرج من جد الى هزل ومن حكمة بليغة الى نادرة ظريفة . وله كتب حسان منها كتاب البيان والتبيين وهو أشرفها لأنه جمع فيه بين المنثور والمنظوم وغرر الأشعار ومستحسن الأخبار وبليغ الخطب ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به » [1] .

وعبارة المسعودى تصور لنا كتب الجاحظ أصدق تصوير . ومن أجل هذا لا يصعب عليك أن تميز أسلوب الجاحظ لما فيه لمن روح الفكاهة والتسلية . وهو يبين ضرورة ذلك فيقول فى كتاب الحيوان : « ومتى خرج (أى القارىء) من آى القرآن صار الى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار الى خبر ، ثم يخرج من الخبر الى الشعر ، ومن الشعر الى النوادر ، ومن النوادر الى حكم عقلية ومقاييس شداد ، ثم لايترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل والملال اليه أسرع حتى يفضى به الى مزح وفكاهة والى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفا » [2] . وهو يأسف لسلوكه هذه السبيل ويقول

(١) مروج الذهب ٢/٣٤٤ .
(٢) الحيوان ١/٤٦ .

انه اضطر الى ذلك اضطرارا[1]، وذلك لأن الناس تمل الأصوات المطربة والأغانى الحسنة اذا طال ذلك عليها [2] . ومن الغريب أنه يذكر أن ما لاقاه من النصب فى اتباع تلك الطريقة أشد مما لو صنف كتابا فى موضوع واحد [3] .

وحين يتصفح المرء كتاب البيان والتبيين يصادفه استطراد يشبه الفوضى ، فهو يبدأه بالتعوذ من فتنة القول والعمل ومن الحصر ، ويسوق أشعارا فى ذلك . ثم يذكر حكاية موسى عليه السلام ودعاءه الله أن يحل عقدة لسانه . ثم ينتقل الى التشديق والتقعير والتقعيب ، ثم يستطرد الى بيان فصاحة واصل بن عطاء شيخ المعتزلة . ولا ينسى فى أثناء ذلك أن يذكر ما يجمّل العى وما يستره من عقل ومال ذاكرا أقوالا لبزرجمهر . ولا يزال يستطرد من معنى الى معنى حتى تراه بعد قليل قد تناول موضوعا بعيدا كل البعد عن موضوعه الأصلى . فلا تعدم مثلا أن ترى فى باب البيان ذكرا للعى والحصر والطلاقة والبلاغة ، وقد تحدث عنهما فى الباب السابق . وهكذا نراه يتبع هذه الطريقة الاستطرادية فى جميع كتبه ، فهو يدون كل ما يسنح له فى غير ترتيب أو نظام . ولقد أحس الجاحظ نفسه بهذه الفوضى ، ولذا يرجو القارىء ألا يبرم من خلل يجده أو سوء تأليف يصادفه أو اضطراب

---

(١) الحيوان ٥/٥١ .
(٢) الحيوان ٣/٢ .
(٣) الحيوان ٤/٦٩ .

يلفيه [1] ويرى المرحوم الأستاذ أحمد أمين « أن الجاحظ مسئول عن الفوضى التى تسود كتب الأدب العربى ، فقد جرت على منواله وحذت حذوه ؛ فالمبرد تلميذه قد تأثر به فى تأليفه . والكتب التى ألفت بعده كعيون الأخبار والعقد الفريد فيها شىء من الترتيب والتبويب » [2] .

ولعلنا نجد فى كتب الجاحظ ومن لف لفه تحقيقا للمعنى السائد لكلمة « الأدب » فى ذلك الحين ، وهو الأخذ من كل فن بطرف .

ونحن نجد أن كلا من ابن قتيبة والمبرد قد تأثر بالبيان والتبيين والحيوان تأثرا غير قليل ، غير أن كلا منهما تأثر به من الناحية التى توائم عقليته وثقافته . فابن قتيبة احتذاه فى جمعه كثيرا من الثقافات الأخرى الى جانب الثقافة العربية ، وفى الاستطراد القليل الذى لا يبعده كثيرا عن الموضوع . والمبرد نسج على منواله فى رص المعلومات المختلفة بعضها الى جانب بعض من غير تنسيق . وتأثره بالجاحظ من ناحية مزج الثقافات ضئيل جدا ، لأن المبرد كان عربيا ذا ثقافة عربية خالصة .

— ٤ —

ويمتاز الجاحظ على ابن قتيبة بأنه كان أقل منه ايمانا بالخرافات ، وبأنه كان — الى حد ما — يتخذ نظرية الشك التى قيل ان « ديكارت Descartes » ابتدعها بعده بزمن طويل أساسا لكل بحث ، ويقول الجاحظ : « وتعلم الشك فى المشكوك

(١) الحيوان ٤/٦٩ .
(٢) ضحى الاسلام ١/٣٩٢ .

فيه تعلما ، فلو لم يكن ذلك الا تعرّف التوقف ثم التثبت كان ذلك مما يحتاج اليه » [1] .

والجاحظ أخلق بصفة « العالم » من ابن قتيبة ، وأعنى بالعالم الذى يجرى وراء تعرف حقائق الأشياء بالبحث والتجربة . وقد رسم الجاحظ لنفسه هذا المنهج فى مقدمة كتاب الحيوان فقال : وهذا كتاب تستوى فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وان كان عربيا أعرابيا واسلاميا جماعيا ، فقد أخذ من طرف الفلسفة وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة وبين وجدان الحاسة واحساس الغريزة » . فهو يستعين بالحواس والتجارب فى ادراك الحقائق . وكأن الجاحظ قد أدرك مزايا التجربة والمشاهدة فى الوصول الى الحقيقة قبل أن يدركها الفيلسوف الانجليزى « روجر بيكون Roger Bacon المتوفى سنة ١٢٩٤ ، فقد أوجب هذا الفيلســـوف الاعتماد على التجربة والمعاينة ونبذ آراء المتقدمين لأنهم لا يعاينون الأمور ولا يجرون عليها التجارب . وقد سجن فى أواخر أيامه بسبب آرائه واعتبر ساحرا ، وكان فى نظر معاصريه حليف الشيطان . على أن الجاحظ قد ذهب الى أبعد من ذلك ، فقد رأى أن طريقة التجربة قد لا تضمن له الافضاء الى الحقائق لأن الحواس التى يعتمد عليها فى التحقيق قد تخدع فى بعض الأحيان فيقول : « ولعمرى ان العيون لتخطىء وان الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع الا للذهن وما الاستبانة الصحيحة الا للعقل ، اذ كان ذماما على الأعضاء

---

(1) الحيوان ٦/ ١٠ .

وعيارا على الحواس » [1] . ويقول فى مكان آخر : « فلا تذهب الى ما تريك الحواس واذهب الى ما يريك العقل . وللأمور حكمان : حكم ظاهر للحواس وحكم باطن للعقول والعقل هو الحجة » [2] . ومن ذلك ندرك أن الجاحظ كان عنده روح العالم الباحث الذى نعرفه فى القرن العشرين . وفى كتاب الحيوان نراه يجرى تجاربه على الحيوان فى دقة تدعو الى الاعجاب ، ثم يدون ملاحظاته بعد المشاهدة وتحكيم العقل . ومع ذلك لم تسلم كتبه من الخرافات .

أما ابن قتيبة فقلما يناقش خبرا أو يجرى تجربة أو يحاول تمحيص خرافة ، لأنه لا يتبع طريقة الشك والتجربة التى اتبعها الجاحظ وأدت الى نتائج قيمة . ونجد الجاحظ لا يقف جامد الفكر ازاء أرسطو ، فانه ينقل عنه ويناقش قوله ولا يقنع به اذا أعوزه الدليل . ومن ذلك أنه نقل عن أرسطو أن اناث العصافير أطول أعمارا ، وأن ذكورها لا تعيش الا سنة [3] . ولم يأخذ الجاحظ هذا الكلام على علاته ، لأن أرسطو لم يأت بدليل جازم كما يقول. وكثيرا ما يقارن بين قول أرسطو فى موضوع ما وبين ماورد فيه من شعر العرب ، ويوازن بينهما ويحكم عقله . وأحيانا يأخذ برأى صاحب المنطق ، وأحيانا أخرى يأخذ برأى العرب ، وطورا يرفض الرأيين ويأخذ بما يصل اليه عقله .

---

(١) رسالة التربيع والتدوير على هامش الكامل ١/٤٣ .
(٢) الحيوان ١/٩٧ .
(٣) الحيوان ٥/٦٧ .

وابن قتيبة ينقل من ثقافات الأمم الأخرى أكثر مما ينقل الجاحظ ، ولكن تدر أن يناقش خبرا من الأخبار .

ولا شك أن ثقافة الجاحظ اليونانية كانت أضخم مما عرفه ابن قتيبة من هذه الثقافة لسببين : أولهما أنه كان من المعتزلة ، وقد تسلح المتكلمون بالفلسفة والمنطق ليغلبوا خصومهم . وثانيهما أنه كان يجالس المثقفين بها ويتحدث اليهم مثل سلمويه وابن ماسويه وحنين بن اسحاق . وقد أشار الجاحظ الى ذلك فى مواطن متفرقة من كتابى الحيوان والبيان والتبيين .

أما ابن قتيبة فكان فارسى المولد والجنس والثقافة ، وكان يكره المتكلمين ويكره ثقافتهم ، لأنها سبب مروقهم فى نظره .

— ٥ —

وكان ابن قتيبة زعيم أهل السنة يعتمد على القرآن والحديث، ولا يعتمد كثيرا على القياس والاجتهاد . أما الجاحظ وفرقته فهم يعتمدون على عقولهم ولا يتقيدون بأى نص . ولذلك يسميهم بعض الفرنجة « المفكرين الأحرار Libres Penseurs » كما يقول « البارون كرّادى ڤو Carra de Vaux » فى كتابه « مفكرو الاسلام » (1) . فالمعتزلة فى نظره فلاسفة يخوضون فى مسائل الدين حسب ما يريدون من غير أن يتقيدوا بنص ، فهم رجال العقل فى الدين . ولا يعتبرهم « دى ڤو » « ملحدين Incroyants » ،

---

(1) Les Penseurs de l'Islame, V. Ip. 294

وانما يعتبرهم أصحاب مباحث دينية ، يعتمدون على العقل لا النقل « Théologiens Rationalistes » من غير أن يكون هناك ما يغتمز دينهم ، بخلاف ما يراهم أهل الحديث .

وطريقة المعتزلة تشبه الى حد كبير الطريقة التى اتبعها فلاسفة القرن السابع عشر فى أوربا من حيث الاعتماد على العقل حين يخوضون فى المباحث الدينية . ومن أشهر هؤلاء « پاسكال Pascal وديكارت Descartes » ، وكانت عقائدهم الدينية مع ذلك تظل سليمة راسخة .

ولكون ابن قتيبة رجل دين نراه قد يتخذ الأدب وسيلة لغاية ، وهى الاستعانة به على فهم كتاب الله وحديث نبيه ، ومحاجة خصومه الذين يعتدون على الدين . ونحن نستطيع أن نستشف ذلك فى كتبه . ويقول البطليوسى أحد شراح « أدب الكاتب » إن ابن قتيبة يرى أن للأدب غرضين : أحدهما أدنى ، والآخر أعلى ؛ « فالغرض الأدنى أن يحصل للمتأدب بالنظر فى الأدب والتمهر فيه قوة يقدر بها على النظم والنثر . والغرض الأعلى أن يحصل للمتأدب قوة على فهم كتاب الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وصحابته ، ويعلم كيف تنبىء الألفاظ الواردة فى القرآن والحديث » (١) .

أما الجاحظ فكان غرضه تصوير حياة الناس وامتاع القراء بكل طريف ومليح ، ولذلك كان لا يهتم كثيرا بالمصادر .

---

(١) الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب ص ١٤ .

وكان العداء مستحكما بين أهل السنة والمتكلمين ، وكان ابن قتيبة بحكم مركزه يحمل على المتكلمين عامة وعلى المعتزلة بنوع خاص وعلى الجاحظ بنوع أخص . وكانت حملته موجهة الى مذهبه واظهاره بمظهر الخارج على الدين . ولم يجرؤ قتيبة على أن يثلم الجاحظ من ناحية علمه أو ذكائه أو سعة محصوله ، بل انه روى من كتبه فى عيون الأخبار .

وهناك أمر آخر ساعد على اشتداد أوار هذه العداوة هو تحاسد العلماء ، ولهذا لم نر ابن قتيبة يذكر للجاحظ فضلا أو أية مأثرة فى العلم والأدب . وهذا يدل على أن الحسد يتسلل الى قلوب العلماء وأن العلم لا يهوّن من خطبه . وقد أحسن الأستاذ « ريشيه Richet » تصوير الحسد بين العلماء فقال : « العلماء حساد لأنهم بشر ، فهم لا يستطيعون أن ينظروا بعين الرضا الى تكريم يتكرّمه زميل من زملائهم ، أو الى لقب يحصل عليه ، أو الى حظوة يحظى بها أو الى غير ذلك . وكلما كان العلم الذى ينصرف اليه هذا الزميل قريبا من علمهم اشتد الحسد ، فالفلكى لا يحزنه الشرف الذى يطوق جيد النباتى ، ولكن يغيظه شرف يحصل عليه فلكى آخر ، ويرى أنه لا يستحقه » (١) . ولا شك أن الجاحظ كان أوسع صيتا من ابن قتيبة مع أن الأخير لا يقل شأنا عن الأول ، فأحنق ذلك ابن قتيبة ، وكان سببا من أسباب حملته عليه . وربما كان حنق ابن قتيبة على الجاحظ جزاء وفاقا

---

(1) Essai de Psychologie Générale p. 21.

من عدالة السماء على ما كان يُكنّه الجاحظ من بالغ الحقد والحسد لعبقرى العرب « الخليل بن أحمد » ، فقد كان ينفس عليه فطنته ونبوغه ويذمه قائلا : « ان الخليل بن أحمد من أجل احسانه فى النحو والعروض وضع كتابا فى الايقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مسّ بيده قضيبا قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين . وكتب كتابا فى الكلام ، ولو جهد كل بليغ فى الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك . ولو أن ممرورا استفرغ قوى مرّته فى الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك منه ، ولا يتأتى ذلك لأحد الا بخذلان من الله تعالى »[1] . فهل مثل هذا القول يقال فى الخليل الذى تعتز به العرب والعربية ؟ ولكن الحسد — قاتله الله — يحيل البياض سوادا .

ومن الغريب أن هؤلاء العلماء الكبار كالجاحظ وابن قتيبة يرددون فى مواطن كثيرة من كتبهم ذم الحسد ويبينون سوء عاقبته ، ويحثون الناس على تجنب هذه الرذيلة الممقوتة . فما أعظم التناقض بين أقوالهم وأفعالهم !

— ٦ —

ويبدو لى أن عدم اهتمام الجاحظ بشعائر الدين كان من الأسباب التى دفعت ابن قتيبة الى الحملة عليه . والمعروف عن المتكلمين عامة أنهم كانوا لا يكترثون بالدين كثيرا ؛ فلا يقيمون

(١) تهذيب التهذيب لابن حجر ٣٢/٩ .

صلاة ولا يحرمون حراما كما ذكرنا . وكان هذا من الأمور التى شدت من أزر ابن قتيبة فى مهاجمتهم .

وقد عثرت على نصوص تجعلنى أقف من دين الجاحظ موقف المرتاب ، فأحمد بن أبى دؤاد يقول عنه : « أنا أثق بظرفه ولا أثق بدينه » [1] . ويقول ثعلب : « ليس بثقة ولا مأمون » [2] ، ويقول : « كان كذابا على الله وعلى الرسول وعلى الناس » [3] . وذكر أبو الفرج الأصبهانى أنه كان يُرمى بالزندقة [4] . ويقول الأزهرى : « كان الجاحظ روى عن الثقات ما ليس فى كلامهم ، وكان أوتى بسطة فى لسانه وبيانا عذبا فى خطابه ومجالا واسعا فى فنونه غير أن أهل العلم والمعرفة بلغات العرب ذموه وعن الصدق دفعوه » [5] ، ثم استطرد الأزهرى فقال : « ان الجاحظ ذكر فى مجلس أحمد بن يحيى (وهو ثعلب) فقال : اعدلوا عن ذكر الجاحظ فانه غير ثقة ولا مأمون » . ولما قتل الوزير ابن الزيات أمر ابن أبى دؤاد بالجاحظ فجىء به مقيدا فى الأغلال ، فلما رآه ابن أبى دؤاد قال له : « قبحك الله ، ما علمتك الا كثير تزويق الكلام ، وقد جعلت بيانك أمام قلبك ، ثم اضطغنت فيه النفاق والكفر » [6] . وأخيرا اقرأ معى هذه القصة لتدرك أن

---

(١) طبقات الأدباء ٢٥٨ .
(٢) شذرات الذهب ٢/١٢١ .
(٣) لسان الميزان ٤/٣٥٧ .
(٤) لسان الميزان ٤/٣٥٦ .
(٥) تهذيب اللغة ١/١٥ مخطوط .
(٦) شرح العيون ١٥٦ .

الجاحظ كان لا يهتم باقامة الصلاة : « قال ابن أبى الدنيا المحدث : حضرت وليمة حضرها الجاحظ وحضرت صلاة الظهر ، فصلينا وما صلّى الجاحظ ، وحضرت صلاة العصر فصلّينا وما صلّى الجاحظ . فلما عزمنا على الانصراف قال الجاحظ لصاحب المنزل : انى ما صلّيت لمذهب أو لسبب أخبرك به . فقال له : ما أظن أن لك مذهبا فى الصلاة الا تركها » [1] .

وعدل القول فى هذه المسألة أن الجاحظ — من غير شك — كان يؤمن بالمبادىء الأساسية التى يقوم عليها صلب الدين مثل وحدانية الله وقدرته ورسالة محمد صلى الله عليه وسلم والتشريعات التى أتى بها . ونحن نستشف ذلك من نصوص كثيرة فى كتبه ، وبخاصة كتاب الحيوان . فهو يذكر الغريب من طبائع الحيوان ويتخذ من ذلك دليلا على جمال صنع الله واحكامه وقدرته [2] . وهو يعتبر كتب الله تعالى أنفع وأشرف من كتب الأوائل فيقول : « وأكثر من كتبهم نفعا وأشرف منها خطرا وأحسن موقعا كتب الله تعالى التى فيها الهدى والرحمة والاخبار عن كل حكمة وتعريف كل سيئة وحسنة » [3] . ولكن يغلب على ظنى أنه ما كان يهتم كثيرا باقامة الشعائر مثل الصلاة والصوم وغيرهما .

لهذه الأسباب حمل ابن قتيبة على الجاحظ وقبيله حملة عنيفة ، فكفّره ، وسجّل عليه أنه أكذب واحد فى الأمة ، وأخذ

---

(١) تاريخ ابن عساكر ص ١٧٨ .
(٢) انظر كتاب الحيوان ٣/٤٧ ، ٧/١٩ ، ٥/١٥٢ ، ٥/٤٩ .
(٣) الحيوان ١/٤٣ .

عليه أنه يذكر حجج النصارى على المسلمين « فاذا صار الى الرد عليهم تجوّز فى الحجة كأنه انما أراد تنبيههم على ما لا يعرفون وتشكيك الضعفاء من المسلمين . وتجده يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث ، يريد بذلك استمالة الأحداث وشرّاب النبيذ ، ويستهزىء من الحديث استهزاء لا يخفى على أهل العلم ، كذكره كبد الحوت وقرن الشيطان .. وهو مع هذا من أكذب الأمة وأوضعهم لحديث وأنصرهم لباطل » (١) .

ولا ريب فى أن ابن قتيبة كان قاسيا فى مهاجمة الجاحظ ، وأنا لا أظن أن الجاحظ كان بهذه الصورة التى صورها ابن قتيبة ، وليس فى كتاب الرد على النصارى ما يدل على رقة دين الجاحظ ، أو انحراف فى عقيدته . وقد تصدى أحد المعجبين به للدفاع عنه بعد مماته ، وهو أبو الحسن الخياط الذى ألف كتابه «الانتصار» يرد فيه على المطاعن الجارحة التى وجهها ابن الراوندى الى الجاحظ .

— ٧ —

على أن حملة ابن قتيبة تعدّ هينة رفيقة بالنسبة الى حملات غيره عليه . ومن أشدهم هتكا له الامام « أبو منصور البغدادى » ؛ فقد وضع كتبا فى ذم المعتزلة منها : فضائح المعتزلة ، وكتاب نفى خلق القرآن ، والفرق بين الفرق (٢) . ولم يصل الينا منها الا الأخير . وفى هذا الكتاب « الفرق بين الفرق » يردّ البغدادى

(١) تأويل مختلف الحديث ص ٧٢ .
(٢) طبقات الشافعية ٣/٢٣٨ .

على بعض آراء الجاحظ فى الفلسفة والتوحيد ، وينسبه الى الشعوبية . ويعلم الله أن الجاحظ برىء من هذه التهمة ، وكتاب العصا شهيد على ذلك .

وقد غلا البغدادى فى حملته على الجاحظ غلوا شديدا حتى انه استكثر عليه أن يسمى « انسانا » ، واعتبر هذه التسمية جريمة لا تغتفر . وقد التمسوا له شبيها من أصناف الحيوان فلم يجدوا أصلح من الخنزير . ويقول البغدادى : « ولو عرفوا جهالاته فى ضلالاته لاستغفروا الله تعالى من تسميتهم اياه انسانا ، فضلا عن أن ينسبوا اليه احسانا » (١) . ويقول فى موضع آخر : « ومن افتخر بالجاحظ سلمنا اليه قول أهل السنة فيه كقول الشاعر :

لو يمسخ الخنزير مسخا ثانيا

ما كان الا دون قبح الجاحظ

رجل ينوب عن الجحيم بنفسه

وهو القذى فى كل طرف لاحظ » (٢)

والواقع أن مواهب الجاحظ كانت فوق مستوى خصومه ، وكان من العسير عليهم أن يصلوا الى آفاق عقليته . ولا شك أن ابن قتيبة كان أقوى هؤلاء الخصوم عقلا وأقدرهم على المحاجة والجدل . ولكن ليس من العدل أن يرمى الجاحظ بمثل ما رمى به وهو أحد الثلاثة الذين كان ثابت بن قرة يحسد الأمة العربية عليهم وهم : عمر بن الخطاب والحسن البصرى

---

(١) الفرق بين الفرق ١٦٠ .
(٢) الفرق بين الفرق ١٦٢ .

والجاحظ [1] . ويقول ابن نباته : « مما فضل الله تعالى به أمة محمد صلى الله عليه وسلم على غيرها من الأمم عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه بسياسته والحسن البصرى بعلمه والجاحظ ببيانه » [2] .

ومما يرفع شأن الجاحظ فى أعيننا أننا نراه لا يوجّه الى خصومه شيئا من بذىء القول أو فاحش اللفظ كما وجهوا اليه . وكان ابن قتيبة يعترف بذكاء الجاحظ وقوة عقله وشدة عارضته، وهو يقول فى ذلك : « وكان (أى الجاحظ) يبلغ به الاقتدار الى أن يعمل الشىء ونقيضه » [3] . ولكنه يأخذ عليه أنه كان يناقض نفسه فيقول : « وتجده يحتج مرة للعثمانية على الرافضة، ومرة للزيدية على العثمانية وأهل السنة، ومرة يفضل عليا رضى الله عنه ومرة يؤخره » [4] . ويأخذ عليه كذلك أنه كان يدنس اسم النبى الكريم بذكر أسماء من حشوة الناس بعده فيقول : « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ويتبعه : قال الجماز، وقال اسماعيل بن غزوان كذا وكذا من الفواحش » [5] . ويأخذ ابن قتيبة عليه أيضا « أنه يقصد فى كتبه للمضاحيك والعبث يريد بذلك استمالة الأحداث .. الخ » .

---

(١) اقرأ تفصيل ذلك فى مقدمة الجزء الثانى من البيان والتبيين للأستاذ حسن السندوبى .

(٢) سرح العيون ١٥٦ .

(٣) تأويل مختلف الحديث ٧١ .

(٤) تأويل مختلف الحديث ٧٢ .

(٥) المصدر نفسه .

والواقع أن روح الفكاهة سارية فى كتب الجاحظ كلها . وهذه مسألة يجمل بى أن أزيدها بيانا ، لأن ابن قتيبة قد تأثر بها كثيرا فى كتاب عيون الأخبار .

— ٨ —

يرجع ولع الجاحظ بالفكاهة الى أمرين :

الأول : طبيعة الجاحظ المشرقة التى تميل الى الضحك والمرح والهزل . وساعد على ذلك خلقة مشوّهة قبيحة تعين على المزح والظرف ، وربما كانت مصدر الضحك والاضحاك . وكان الجاحظ مطبوعا على الهزل يلتقط النكتة ولو فى الطريق ، لا يبالى فى سبيلها بمخاطبة العامة ولو أسمعوه ما يكره ، ولا تفوته النكتة قط حتى فى مجالس الخلفاء .

الثانى : فى عصره ترجمت الى العربية علوم اليونان والفرس والسريان والهنود من فلسفة ومنطق وطب وهندسة وحساب وفلك وحكم وغير ذلك . وهذه العلوم كلها تأخذ القارىء بجدها فلا يلبث أن يرين على ذهنه الكلال ، وحينذاك تتشوف نفسه الى شىء من التطرية والفكاهة تساق اليه الفينة بعد الفينة ، والجاحظ يشير الى ذلك كثيرا .

وكان الجاحظ لا يرى حرجا فى ذكر العورة بأسمائها دون اللجوء الى الكنايات ، فهو من أصحاب الأدب المجرد .

والظاهر أن هذا المذهب كان يجد سبيله فى نفوس العلماء والأدباء والشعراء فى ذلك العصر . وحسبك أن تعرف أن الناس كانوا يتناشدون أشعار امرىء القيس والأعشى وعمر بن ربيعة

ومهاجاة جرير والفرزدق والأخطل على ما فيها من فجر . ونحن نعرف أنه قد ظهر فى هذا العصر بشار وأبو نواس والحمادون ومطيع وابن الضحاك الذين كانوا لا يتورعون عن ذكر أفحش الألفاظ وأشدها تبذلا ، والناس يرددون أشعارهم على الملأ وفى حلق المساجد على غير استحياء .

ولقد أبان الجاحظ عن منزعه فى الأدب الواقعى فقال : « وبعض الناس اذا انتهى الى ذكر .. (وهنا ذكر ألفاظا فاحشة لا يستحب ذكرها) ارتدع وأظهر التقزز واستعمل باب التورع . وأكثر من تجده كذلك فانما هو رجل ليس معه من العفاف والكرم والنبل والوقار الا بقدر هذا الشكل من التصنع . ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق الا عن لؤم مستفحل ونذالة متمكنة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأى ألا يلفظ بها »[1] .

وقد سار على هذا النهج كثير من العلماء والأدباء مما يعتبر اليوم مخالفا للعرف ، ومنافيا للآداب . ومنهم ابن حزم الظاهرى فى « طوق الحمامة » ، والقاضى التنوخى فى « نشوار المحاضرة » ، وياقوت فى معجم الأدباء وغيرهم . وناهيك بكتاب « ألف ليلة وليلة » فمؤلفوه على اختلاف عصورهم كانوا لا يتحرجون من ذكر ما يمجه السمع وتأباه العفة . ويؤيد هذا المذهب عبد القاهر الجرجانى فيقول : « وقد استشهد العلماء لغريب القرآن واعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك

---

(١) الحيوان ٣/١٢ .

اذ كانوا لم يقصـدوا الى ذلك الفحش ولم يريدوه ولم يرووا الشعر من أجله » [1] . وما من شك فى أن الجاحظ وابن قتيبة وأضرابهما ما كانوا يقصـدون الى الفحش لذاته ، وانما كان غرضهم النفع العام كما يقولون .

وهذا المذهب — مذهب الأدب المجرد — كان يعتنقه كثير من مشاهير أدباء فرنسا فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر مثل : « بلزاك Balzac وفلوبير Flaubert وزولا Zola » وغيرهم ، ويكاد يكون بلزاك أستاذ هذا الأدب المكشوف .

ويحدثنا الأستاذ المرحوم كرد على بأن كثيرا من أدباء العصر الحديث يدافعون عن هذا المذهب ويرون فيه مزايا عظيمة ؛ فيقول « القديس كليمان St. Clément » : « أنا لا أخجل — لفائدة القراء — من الكلام على الأعضاء التى يخلق بها الانسان لأن المولى تعالى لم يخجل اذ خلقها » . ويقول « موتنين Montaigne » وهو من أعظم من اشتهروا بالفضـائل من المؤلفين الفرنسيين : « ماذا كان عمل الفعل التناسلى فى الناس وهو طبيعى وضرورى حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره ، فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه الا بشىء من الخجل ، ويبتعدون عنه فى أحاديثهم . وهم يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا ، ولا يجرءون عـلى النطق بالعمل الذى يهب الحياة للمخلوق ، فيا للعفة المكذوبة ويا للنفاق المخجل » [2] .

---

(1) أسرار البلاغة ص ٢٠٧ .
(2) امراء البيان ٢/٣٣٩ هامش .

فليس بدعا ألا يعالج الجاحظ هذا اللون من الأدب ما دام يرى أن النفع لا يتحقق الا به .

وقد تأثر ابن قتيبة بالجاحظ فى هذه الناحية تأثرا شديدا ، فانه استعان بالفكاهة والمزح يزجيهما الى القارىء دفعا للملل والسآمة فى كتاب « عيون الأخبار » فيقول فى مقدمته : « ولم أخله مع ذلك من نادرة طريفة وفطنة لطيفة وكلمة معجبة وأخرى مضحكة لأروّح بذلك عن القارىء من كد الجد واتعاب الحق » . وهو يؤيد مذهب الأدب الصريح فيقول بعد ذلك : « واذا مرّ بك حديث فيه ايضاح بذكر عورة أو .. أو وصف فاحشة فلا يحملنّك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر خدك وتعرض بوجهك ، فان أسماء الأعضاء لا تؤثم وانما المأثم فى شتم الإعراض وقول الزور والكذب وأكل لحوم الناس بالغيب » . وكأن Montaigne الفرنسى قد اتفق فى خاطره مع ابن قتيبة فى هذه الفكرة كما ترى من تشابه الفقرتين .

وابن قتيبة يحتاط فى ذلك خشية أن يفتح الباب على مصراعيه فيقول بعد ذلك : « ولم أترخّص لك فى ارسال اللسان بالرفث علـى أن تجعله هجيّراك على كل حال وديدنك فى كل مقـال . بل الترخص فى حكاية تحكيها أو رواية ترويها تنقّصها الكناية ويذهب بحلاوتها التعريض ، وأحببت أن تجرى فى القليل من هذا على عادة السلف الصالح فى ارسال النفس على السجية والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع » .

ويبدو من هذا الكلام أن المزح لم يكن من طبيعة ابن قتيبة ،

بخلاف الجاحظ الذى جبلت نفسه على الهزل ولو جلب له أشد الأذى . وهذا يدلنا على أنه قلد الجاحظ تقليدا ، ولذلك لا نرى له هذا الروح الفكاهى الا فى كتاب واحد شبيه بكتب الجاحظ وهو كتاب « عيون الأخبار » . أما كتبه الأخرى فانها مطبوعة بطابع الجد الصارم . بل ان وقار ابن قتيبة لا يختفى من كتاب عيون الأخبار ، ولهذا نراه يعنى بالزهد عناية شديدة ، ولا يفوته أن ينبه القراء فى المقدمة الى أن كتابه « دال على معالى الأمور ومرشد لكريم الأخلاق ، زاجر عن الدناءة ، ناه عن القبح » . وكل ما هنالك أنه كان يستبيح لنفسه ذكر العورة والألفاظ الفاحشة ليؤدى المعنى الذى يقصده بدقة لا تتوفر فى التلميح والكناية ، ولهذا نراه يورد أقوالا للرسول صلى الله عليه وسلم وبعض صحابته فيها ألفاظ صريحة للعورة من غير تحرج ، لأن رائدهم نفع الناس وارشادهم .

وأكبر مصداق على قولى هذا أن ابن قتيبة ينكر على الفرزدق وجرير ما ورد فى شعرهما من بذىء القول وفاحشه لأنه كان « تعييرا وابتهارا فى الأخوات والأمهات وقذفا للمحصنات الغافلات فتفهم الأمرين وافرق بين الجنسين » .

وكل ذلك دليل على أنه كان يبغى بالفكاهة وذكر الأشياء المبتذلة النفع وحسن التوجيه .

— ٩ —

وعلى الرغم مما كان بين ابن قتيبة والجاحظ من خصومة ولذا نراه يروى عنه فى كتابه « عيون الأخبار » . وهنا يبرز لنا سؤال

هام وهو : هل أخذ ابن قتيبة من الجاحظ مباشرة ؟ وبعبارة أوضح : هل تلمذ ابن قتيبة على الجاحظ ؟ وهل حضر مجالسه العلمية ؟ . يعتقد الدكتور إسحاق الحسينى أن هذا صحيح . ولعله قد اعتمد فى هذا الحكم على ما ورد فى كتاب عيون الأخبار . ولكننى لا أرى هذا الرأى ، لأن كل ما فى عيون الأخبار صيغة وردت ثلاث مرات هذا نصها : وفيما أجاز لنا عمرو بن بحر الجاحظ من كتبه قال .. الخ »[1] . وهو هنا يتخذ الاجازة وسيلته للأخذ . ويجب أن نعرف أن للأخذ طرقا ستا هى بحسب ترتيبها فى القوة كما ذكرها السيوطى[2] :

الأولى : السماع من لفظ الشيخ أو العربى ، وللمتحمل بهذه الطريقة صيغ أعلاها أن يقول : أملى علىّ فلان ، ويلى ذلك سمعت، ويلى ذلك أن يقول : حدثنى أو حدثنا فلان ، ويلى ذلك : أخبرنى أو أخبرنا ، ويلى ذلك أن يقول : قال لى فلان ، ويلى ذلك : قال فلان (بدون لى) ، ونحو ذلك زعم فلان ، وعن فلان ، وفلان قال . ويقال فى الشعر : أنشدنى وأنشدنا .

الثانية : القراءة على الشيخ ، ويقول عند الرواية : قرأت على فلان .

الثالثة : السماع على الشيخ بقراءة غيره ، ويقول عند الرواية: قرىء على فلان وأنا أسمع .

الرابعة : الاجازة ، وذلك فى رواية الكتب والأشعار المدونة .

---

(١) انظر عيون الأخبار ٣/١٩٩ ، ٣/٢١٦ ، ٣/٢٤٩ .
(٢) المزهر ١/٧١ الطبعة القديمة .

الخامسة : المكاتبة ، والرواية بها : بعث الىّ فلان بكذا كتابة ، أو فيما كتب به الىّ فلان كذا .

السادسة : الوجادة ، ويقال عند الرواية : وجدت فى كتاب فلان كذا ، ووجدت بخط فلان كذا ، وقرأت بخط فلان كذا .

ومن ذلك تعرف أن الاجازة غير السماع على اختلاف صوره . ومعنى ذلك أن من أجيز اليه لا يأخذ من الشيخ مباشرة ولا يحضر مجالسه . ولو كان ابن قتيبة قد سمع من الجاحظ لروى ذلك بصيغة من صيغ الطريقة الأولى للتحمل وهى : أملى على فلان أو سمعت ... الخ .

والظاهر أن ابن قتيبة لم يتوسع فى هذه الاجازة ، لأنه لم يرد منها الا ثلاث فقط . وقد لاحظت أن الشىء الذى رواه ابن قتيبة عن الجاحظ بالاجازة مذكور فى كتاب « البخلاء » مع خلاف طفيف .

ووردت صيغة أخرى فى عيون الأخبار أربع مرات هذا نصها : « قال عمرو بن بحر » (1) ، وثالثة وردت مرتين بنص « قال الجاحظ » (2) .

وهذه الصيغة أو تلك لا تعنى أنه سمع الجاحظ نفسه لأنه يتبع تلك الطريقة مع علماء ماتوا قبل أن يولد بأكثر من قرن من الزمان مثل الحسن البصرى وسعيد بن المسيب وهما من التابعين . وأنا أظن أن ابن قتيبة لم تكن لتمنعه خصومته من أن يصرح

---

(1) عيون الأخبار ١/٢١٩ ، ٢/٥٦ ، ٢/٢٠٤ ، ٤/١٠٨ .
(2) عيون الأخبار ٢/٣٣ ، ٣/١٣٧ .

بصيغة السماع لو سمع من الجاحظ مباشرة . فهو الذى لا يتورع عن أخذ العلم من الأمة الوكعاء ، لأن العلم ضالة المؤمن كما يقول .

على أنه نقل كثيرا من كتب الجاحظ مثل البيان والتبيين والحيوان والبخلاء ، وكان يقدم ذلك بقوله : وقرأت فى ...

وأخذ كثيرا من كتاب اسمه « التاج » وهو اسم لكتابين : أحدهما الكتاب الذى ترجمه ابن المقفع عن الفارسية . وثانيهما كتاب اسمه « التاج » ينسب الى الجاحظ ، ولكنه يعنى الأول من غير شك ، وقد عرفت ذلك بعد أن اطلعت على الكتاب المنسوب الى الجاحظ .

أما بعد ، فقد أطلت عليك الحديث فى المقارنة بين هذين الأديبين الكبيرين وهذا أمر ما منه بد لأنهما كانا أعظم أدباء هذا العصر ، وكان كل منهما يمثل مذهبا خاصا فى الدين والأدب . وقد عنيت ببيان تأثر ابن قتيبة بالجاحظ الذى يعتبر أول من وضع فى الأدب كتبا ، وكتابه « البيان والتبيين » كان النموذج الأول الذى وقعت عليه أعين المؤلفين بعده .

الفصل الثاني

ابن قتيبة وابن سلام

ليس من وكدى أن أعرض لحياة ابن سلام ونشأته ، وانما همى أن أعقد مقارنة بين الرجلين تتصل بمنحى كل منهما فى تأليف كتابيهما : طبقات الشعراء لابن سلام ، والشعر والشعراء لابن قتيبة ، وهاك أوجه هذه المقارنة العاجلة بين الرجلين :

١ — محمد بن سلام الجمحى بصرى أخذ عن الأصمعى وأبى عبيدة ويونس بن حبيب وخلف الأحمر . أما ابن قتيبة فقد أخذ عن تلاميذ المدرسة الأصمعية وبعض رواة الكوفة ، واستقر فى بغداد وتبلور فيه المذهب الحديث الذى نشأ بين المذهبين وهو المذهب البغدادى .

٢ — ابن سلام رجل يكاد يقصر معارفه على اللغة والأدب . أما ابن قتيبة فيمثل القرن الثالث فى تنوع المعارف ، وكتبه تشهد بذلك ، وهى فى فنون متنوعة . وعلى ذلك فذهنية كل منهما تختلف عن الأخرى .

٣ — يلوح لى أن ابن سلام كان يجرى على مذهب أبى عمرو ابن العلاء الذى كان لا يعترف لمحدث بسبق أو نبوغ . ويظهر

ذلك من أنه لم يتعد فى كتابه الشعراء الاسلاميين ، أى شعراء العصر الأموى . ولم يذكر أحدا من المحدثين مع أنه أدرك كثيرا من فطاحلهم اذ توفى حوالى سنة ٢٣٢ . أما ابن قتيبة فقد ذكر بعض رجال الطبقة الأولى من المحدثين مثل بشار وأبى نواس ومسلم ، بل انه ذكر دعبلا الخزاعى الذى مات فى منتصف القرن الثالث .

٤ — وقد اختلف كل منهما عن الآخر فى تصنيف كتابه ؛ فابن سلام وضع كتابه « طبقات الشعراء » وهو اسم ينطبق على منهج الكتاب نفسه ، لأنه قسم الشعراء الى طبقات ، ووضع كل شاعر فى طبقته التى يستحقها ويراه أهلا لها . أما ابن قتيبة فقد رتب الشعراء — على الجملة — ترتيبا زمنيا ، فبدأ بالجاهليين ، ثم بالاسلاميين ، ثم بالمحدثين . ويعرف من ذلك أنه لم يذكر الشعراء حسب مكانتهم الشعرية ولا حسب القبائل . وقد تحدثنا عن ذلك باسهاب فيما مضى .

ومن أجل هذا فانى أخالف من يسمى هذا الكتاب « طبقات الشعراء » مثل كتاب ابن سلام . والمرحوم الأستاذ أحمد أمين يطلق عليه حين يشير اليه بين مراجعه أحيانا اسم « طبقات ابن قتيبة » . وأنا لا أوافقه على ذلك ، لأن الكتاب ليس فيه طبقات .

٥ — ومن الفروق الواضحة بين الرجلين اختلاف مادة كل مؤلف ، فابن سلام قلما يحفل بالحوادث التى جرت للشاعر أو يذكر أمورا تتصل بحياته أو قبيلته ، وقلما يشير الى الأسباب التى حدت

به الى أن يجعله فى طبقته . أما ابن قتيبة فانه يهتم كثيرا بذكر ما وصل اليه من أمور تاريخية عن الشاعر وعن قبيلته .

٦ — ويمتاز كتاب ابن قتيبة بمقدمته الطيبة التى أودعها آراءه القيمة فى النقد . والكتاب نفسه أفسح آفاقا من كتاب ابن سلام ، ففيه أدب ، وفيه نقد ، وفيه تاريخ ، وفيه كثير من آراء الأقدمين فى الشعراء والشعر . أما كتاب ابن سلام ففيه آراء قليلة فى النقد ، وقدر من النصوص قليل . ويعتبر ابن قتيبة أول عالم أنصف الشعر وأنصف الشعراء ، وقد فصلنا ذلك فى حينه . ويمكن أن يقال انه أول ناقد وضع للنقد الأدبى قواعد ومهّد طريقه لمن بعده .

٧ — وكتاب ابن سلام يُعد ضئيلا من حيث مادته اذا قورن بكتاب ابن قتيبة ، لأن ما ورد فيه من الشعر ومن الشعراء لا يبلغ ثلث ما أورده ابن قتيبة ، وتلك ناحية لها قيمتها .

على أن الانصاف يدفعنا الى أن نذكر لابن سلام فضلا كبيرا على النقد الأدبى . ذلك أن الرواة واللغويين والنحاة قد خاضوا فى النقد وفى تذوق الشعر ، أمثال أبى عمرو بن العلاء ويونس والمفضل الضبى وأبى عبيدة والأصمعى . وكان مما خاضوا فيه الكلام فى الشعر المصنوع ونسبته الى غير قائله . فلما جاء ابن سلام كان أول من دون هذه الفكرة وبرهن عليها . فقد قرر فى مقدمة كتابه أن من الشعر الجاهلى ما هو مصنوع ، وأبدى بعض الأسباب التى حملتهم على هذا الوضع كالعصبية وافتعال الرواة . وذكر أن من الشعر المصنوع ما يشكل تمييزه ، ومنه ما يسهل تمييزه ،

وقد طبق هذه النظرية أحيانا أثناء حديثه عن الشعراء ؛ فيقول مثلا : « عبيد بن الأبرص قديم الذكر عظيم الشهرة ، وشعره مضطرب ذاهب لا أعرف الا قوله :

أقفر من أهـــله ملحـــوب   فالقطّبيـــات فالذنوب »[1]

ويقول : « حسان بن ثابت كثير الشعر جيده ، وقد حمل عليه مالم يحمل على أحد .. ووضـعوا عليه أشـعارا كثيرة لا تليق به »[2] .

وكأنه أراد بهذا أن يخلص الشعر مما أضيف اليه ، وأن يحمل الذين يدونونه على أن يحتاطوا وينقّوا صحيحه من زيفه ، وأن يدعو الأجيال القادمة الى الحذر والتبصر والتأنى حين النظر الى شعر الجاهليين . وهذا والله فضل عظيم نذكره لابن سلام .

وابن سلام أول من قسم الشعراء الجاهليين والاسلاميين الى طبقات . نعم شاع فى العصر الأموى وأوائل العصر العباسى أن الناس يجمعون على أن امرأ القيس والنابغة وزهيرا والأعشى هم الطبقة الأولى من الشعراء الجاهليين ، وأن جريرا والفرزدق والأخطل هم الطبقة الأولى فى الاسلاميين . ولكن ابن ســلام استوحى من هذه الفكرة تقسيم الشعراء الى طبقات عشر ، وهو أول من فعل ذلك ودونه فى كتاب .

وطريقته التى استحدثها أنه قسم الشعراء الجاهليين الى شعراء بادية وشعراء قرى أو مدر ، وجعل شعراء البادية عشر طبقات كل

---

(١) طبقات الشعراء ٤٩ طبعة صبيح .
(٢) طبقات الشعراء ٨٤ طبعة صبيح .

طبقة تتألف من أربعة شعراء ، ثم ضم اليهم أربعة شعراء من البادية سماهم شعراء المراثى ، فيكون قد خص البادية بأربعة وأربعين شاعرا . ثم تناول شعراء القرى ، فذكر شعراء الأوس والخزرج فى يثرب وشعراء مكة وشعراء الطائف وشعراء البحرين وشعراء يهود المدينة وأكنافها . وجعل مخضرمى الجاهلية والاسلام كالحطيئة وكعب بن زهير ضمن الجاهليين . وهو على حق فى ذلك ، لأن شعر هؤلاء المخضرمين ظل محتفظا بسماته الجاهلية فى الاسلام ، ولم يعتوره تغيير يخرجه عن حظيرة الشعر الجاهلى .

ثم تناول بعد ذلك الاسلاميين وجعلهم عشر طبقات ، كل طبقة أربعة شعراء ، وشعراء الطبقة الأولى جرير والفرزدق والأخطل والراعى .

وكان رائد ابن سلام فى تقسيم الشعراء أمرين اثنين : الأول جودة الشعر ، والثانى كثرة انتاج الشاعر . وبهذين الاعتبارين يوضع كل شاعر فى مرتبته التى تليق به ، فالأسود بن يعفر شاعر جاهلى وضعه فى الطبقة الخامسة قائلا : وله واحدة طويلة رائعة لاحقة بأول الشعر لو كان شفعها بمثلها لقدمناه على أهل مرتبته » (١) وذكر مطلع القصيدة .

ويقول فى شعراء الطبقة الرابعة الجاهلية : هم أربعة رهط فحول شعراء موضعهم مع الأوائل ، وانما أخل بهم قلة شعرهم بأيدى الرواة وهم طرفة بن العبد وعبيد وعلقمة وعدى ابن زيد » (٢) .

---

(١) طبقات الشعراء ٥٤ .   (٢) طبقات الشعراء ٤٩ .

وقد سلك ابن سلام مسلكا « كلاسيكيا » ، فاذا كان الشاعر من الطبقة الأولى اكتفى عادة بذكر ما قاله السابقون عنه من غير أن يبدى رأيا ، وكأن حكم السابقين — فى نظره — أصبح أمرا مقررا لا يجوز أن ينقضه . أما اذا كان الشاعر من غير هذه الطبقة ، فانه يذكر رأى الأقدمين فيه ورأيه الخاص غالبا وأسباب وضعه فى طبقته ، وهذا فى الطبقات المتقدمة .

وكان لابن سلام فى النقد وجهتان : الوجهة الأولى الذوق الخاص ، أعنى أن الكلام فى شعر الشعراء وفى صياغته وفى معانيه أمر يتدخل فيه الذوق كثيرا ، والذوق — كما نعرف — يتباين عند الناس . فناقد يفضل الفرزدق وآخر يفضل جريرا وهكذا ، وهذا هو « النقد الذاتى Subjective » . الوجهة الثانية هى هذا النقد الذى لا يتوقف على الذوق ولا تختلف فيه الأذواق ، فهو نقد يتصل ببيان علاقة الأدب بصاحبه أو صلة الأدب ببيئته أو صلة الأديب بالحياة الاجتماعية التى عاش فيها وما لابس بيئته من أحداث وظروف . وهذا النقد — من غير شك — يعتبر تعليلا لبعض الظواهر الأدبية ، ويسمى « نقدا موضوعيا Objective » ، فابن سلام يصل أحيانا بين الشاعر وبيئته ، أو بعبارة أدق يبين أثر البيئة فى الشاعر ، فيقول عن عدى بن زيد مثلا : « كان يسكن الحيرة ويراكن الريف ، فلان لسانه وسهل منطقه »[1] . وأشار كذلك الى أثر البيئة فى شعر الشاعر مثل زهير وعلقمة .

---

(1) طبقات الشعراء ص ٥٠ .

على أن تقسيمه الشعراء الجاهليين الى شعراء وبر وشعراء مدر ليشعرنا بما لاحظه من أثر البيئة فى الشعر . وشبيه بهذا تعليله قلة الشعر فى الجاهلية عند قريش والطائف وعمان بأن الشعر « انما يكثر بالحروب التى تكون بين الأحيـاء ، نحو حرب الأوس والخزرج ، أو قوم يغيرون ويغار عليهم . والذى قلل شعر قريش أنه لم يكن بينهم ثائرة ولم يحاربوا ، وذلك الذى قلّل شعر عمان وأهل الطائف » [1] . فهو — كما ترى — يعمد الى تعليل بعض الظواهر الأدبية .

واذن فمن حق ابن سلام علينا أن نقرّ له بأنه أول من عقـد الصلة بين الزمان والمكان وبين الانتاج الأدبى . ولم يكن يعنى بالزمان مجرد سـير الزمن فحسب ، بل كان يعنى مضـمونه وجوهره ، لأن الاسلام قد أحدث فى حياة العرب ثورة روحية ومادية كانت لها آثارها البعيدة فى كل مظاهر نشاطهم .

وعلى ذلك لا يصح أن نجرى وراء من قال ان أدباء فرنسا فى القرن التاسع عشر هم أول من وضعوا مناهج النقد الأدبى الحديث التى تقرر صلة الأدب بالبيئة والزمان ، وهم : « سانت St. Beuve وتين Taine وبرونتيير Bronentiere » . فقد فطن ابن سلام الى هذا الأمر قبلهم بعشرة قرون .

وقد أضاف ابن سلام الى ذلك شيئا آخر يسميه الدكتور مندور « الفن الأدبى » [2] ، وذلك لأنه رأى أن بعض الشعراء

---

(١) طبقات الشعراء ١٠٧ .
(٢) النقد المنهجى عند العرب ص ٤ .

قد انفردوا بفن بذاته سيقوا اليه بدوافع حياتهم . وهؤلاء أصحاب المراثى مثـل : متمم بن نويرة والخنساء وأعشى باهلة وكعب ابن سعد الغنوى . فهؤلاء شعراء انسانيون ، قالوا الشعر لشفاء نفوسهم مما تجد .

ومع كل هذا يرى الدكتور مندور أن ابن سلام لم يتقدم بالنقد الفنى الى الامام شيئا كبيرا [1] . والواقع أن له فى النقد أثرا لا يصح أن نجحده .

ومع تقديرنا لكتاب ابن سلام وما فيه من آراء قيمة نأخذ عليه أمورا أهمها :

١ — أن تقسيم الشعراء الى أهل وبر وأهل مدر يحرمنا من معرفة قدر الشاعر ومكانه المناسب بين لداته . فنحن لا نعرف مثلا فى أى طبقة يوضع حسان بن ثابت أحد شعراء المدينة ، وكذلك الحال فى سائر القرى ، وذلك لأنه يضع شعراء كل قرية فى مجموعة واحدة ، وهذا لا يبين مرتبة كل شاعر بين عامة الشعراء .

٢ — لم يصر بدقة على المبدأ الذى وضعه لمعرفة أقدار الشعراء ، وهو يقوم على أساسين : الجودة والكثرة . ويعيب عليه الدكتور مندور « تفضيله الكثرة على الجودة ، وتعدد الأغراض الشعرية على التوفر على فن واحد » .

والحق أن ابن سلام لم يقل بالكثرة المطلقة ، وانما قال بالكثرة الجيدة . ويدلنا على ذلك عبارته عن الأسود بن يعفر التى ذكرناها .

---

(١) النقد المنهجى ص ١١ .

أما تفضيله الشاعر المتعدد الأغراض على المتوفر على فن واحد فلا أرى فيه بأسا ، لأن تعدد الأغراض من المزايا التى ترفع من شأن الشاعر ، ولهذا وضع كثيرا فى الطبقة الثانية وجميلا فى السادسة ، وقال ان كثيرا له فى فنون الشعر ما ليس لجميل (١) .

٣ — ان جعل الشعراء عشر طبقات أمر عسير وغير مقبول ، وقد أشرنا الى هذه النقطة فى فصل سابق ، والأوفق والمعقول أن يكون الشعراء ثلاث طبقات ، فالأفذاذ النبغاء فى الطبقة الأولى ، والمتأخرون فى الطبقة الثالثة ، وما بين الطبقتين هم أوساطهم ويوضعون فى الطبقة الثانية . وبهذا يمكن فى سهولة ضبط أقدار الشعراء .

ومما يدلنا على أن ابن سلام قد أرهق النقد بهذا التقسيم أننا نراه بعد الطبقة الثالثة أو الرابعة يسرد الشعراء سردا فى الغالب من غير أن يذكر سبب وضعهم فى طبقاتهم .

٤ — أهمل بن سلام بعض الفحول مثل عمر بن أبى ربيعة والكميت الأسدى ، وهذا يدل على أنه لم يكن دقيقا فى تقسيم الشعراء .

٥ — والقارىء لطبقات ابن سلام يجد فيها شيئا من الخلط ، فتراه مثلا يضع شاعرين جاهليين هما بشامة بن الغدير وقراد ابن حنش بين الشعراء الاسلاميين فى الطبقة الثانية (٢) .

---

(١) طبقات ابن سلام ص ٢٠٥ .

(٢) طبقات الشعراء ص ٢٤١ .

أما مقدمة الكتاب فالاضطراب فيها واضح ، وقد تناولنا ذلك فى فصل سابق .

ولا شك أن ابن قتيبة قد انتفع بكتاب ابن سلام ، واستأنس ببعض ما ورد فيه من أفكار نقدية ، وأخذ منه كثيرا من أقوال النقاد وآرائهم فى الشعر والشعراء .

وانى لأعتقد أن كتاب ابن قتيبة أجدى على النقد والأدب من كتاب ابن سلام .

الفصل الثالث

ابن قتيبة والمبرد

كان الرجلان متعاصرين ؛ فقد ولد محمد بن يزيد المبرد سنة ٢١٠ وتوفى سنة ٢٨٥ ، وولد ابن قتيبة سنة ٢١٣ وتوفى سنة ٢٧٦ ، وعاش كلاهما فى بغداد شطرا من حياته ، الا أن المبرد قضى الشطر الأكبر من حياته فى البصرة . وهو بصرى المذهب ، ويقول عنه البغدادي : « وكان فى العلم بنحو البصريين آية » [(١)] . ويقول ياقوت أنه كان امام المذهب البصرى ببغداد « وكان حسن المحاضرة فصيحا بليغا مليح الأخبار ، ثقة فيما يرويه ، كثير النوادر فيه ظرافة ولباقة » [(٢)] . ويقول عنه السيوطى : « ولم يكن فى وقته ولا بعده مثله » [(٣)] . وقد روى عن أبى عثمان المازنى وأبى حاتم السجستانى . وكانت صلته بالأخير أقوى وأشد ، فابن خلكان يذكر أن المبرد كان يحضر حلقة السجستانى ويلازم القراءة عليه وهو غلام وسيم فى نهاية الحسن ، فمال اليه أبو حاتم

---

(١) تاريخ بغداد ٢/ ٣٨٠ .
(٢) معجم الأدباء ٧/١٣٧ دار المأمون .
(٣) المزهر ٢/٤٠٨ الطبعة الحديثة .

أشد ميل وقال شعرا يشكو صبابته وهيامه به ، وتستطيع أن تقرأ هذا الشعر فى ابن خلكان [1] .

وكان يتنازع رياسة العلم ببغداد هو وأبو العباس ثعلب الكوفى المذهب ، وهذا الاختلاف فى المذهب كان من أسباب النزاع بينهما .

ومع تعاصر المبرد وابن قتيبة نجد الفرق بينهما كبيرا جدا فى التأليف ومنحاه ، نظرا لاختلافهما فى العقلية والثقافة والجنس . فالأول عربى من ثمالة من الأزد من قحطان ؛ فهو يمثل الثقافة العربية الخالصة خير تمثيل . والثانى مولد من أصل فارسى ، ويمثل الثقافة الاسلامية بأوسع معانيها خير تمثيل كذلك .

وهذا الاختلاف فى النشأة والأصل أوجد بين آثارهما فروقا كثيرة .

وقد خلف لنا المبرد كتابه المعروف « الكامل » ، ونظيره لدى ابن قتيبة كتاب « عيون الأخبار » . والفرق بين الكتابين كبير جدا من ناحية المادة والمنهج : فالمبرد كان تلميذ الجاحظ ، وقد لازمه مدة طويلة وروى عنه رأسا ، وهو يصرح بالرواية عنه فى كتابه هذا فى كثير من المواضع . وله كتاب آخر فى النحو اسمه « المقتضب » [2] ، وفيه يروى عن الجاحظ كثيرا من الشواهد .

ونحن نرى المبرد متأثرا بأستاذه الجاحظ أشد تأثر ؛ فكتاب

---

(١) وفيات الأعيان ١/٢٧٣ طبعة بولاق .

(٢) منه نسخة خطية بمكتبة الجامعة رقم ٢٦٠٦١ .

« الكامل » على نسق كتاب « البيان والتبيين » ، كلاهما يجمع المعارف المختلفة بعضها بجانب بعض فى فوضى واستطراد . وكما ذيل الجاحظ كتابه بفصل العصا ختم المبرد مؤلفه بكتاب الخوارج.

وأنت حين تتصفح كتاب الكامل تجده يأتى بمعلومات لا رابط بينها ، فأخبار ، يتلوها شعر فى الغزل ، يعقبه شرح لمسألة نحوية ، فخطب جاهلية ، ثم رجع الى شعر الغزل ، ثم أمثال للحكماء ، ثم وعظ للوعاظ ثم مختارات من مجالس العرب ، ثم بعض الأحاديث وأقوال الصحابة . وتراه يأتى بكلمة لأبى بكر رضى الله عنه فى مرض موته ، تعقبها رسالة عمر فى القضاء الى أبى موسى الأشعرى ، وكتاب عثمان الى علىّ حين أحيط به . وينتقل فجأة الى ذكر بعض ما دار من الكلام الحسن فى الحروب الاسلامية الأولى كوقعة الجمل . ثم يعود بعد ذلك فيتحدث عن الغزل وطرائفه ، ثم يذكر أقوالا فى دهاء العرب وحلمهم وكرمهم وشجاعتهم وبعض طرائف العشاق وتهاجى القبائل .. الخ . وهو يتعرض فى أثناء ذلك الى شرح بعض الألفاظ وبيان معانيها المختلفة ويستشهد لكل معنى . واذا ورد فى المستشهد به كلمة لغوية أو نحوية تناولها بالشرح والاستشهاد كذلك .. وهكذا يظل يستطرد كأستاذه الجاحظ حتى تلفيه قد مضى بعيدا عن الموضوع الأول . وهو لا ينسى بين هذا وذاك أن يقحم بعض مسائل فى النحو والبيان خلال الكلام ، بدافع الاستطراد .

ونراه يعنون كل مجموعة من المختارات بكلمة « باب » ، ويصعب أحيانا أن تفرق بين باب وآخر ، أو تدرك أنه جمع

معارف متناسقة ذات لون خاص فى باب واحد ، اللهم الا فى القليل النادر كباب الخوارج ، ومع ذلك لم يسلم هـذا البـاب من الاستطراد . ويخيل الىّ أنه يستعمل كلمة « باب » فى معنى كلمة « درس » كما يقول أستاذنا المرحوم الدكتور أحمد أمين . والدرس يكون كيفما اتفق ، لا يتقيد فيه بمنهج خاص ، وحسبه أن يكون فيه لغة ونحو وأدب ..

فالكتاب — كما ترى — يرص المعارف رصا من غير أن تجمع بينها آصرة كما كان يفعل الجاحظ تماما .

وكتاب « الكامل » يمثل بحق الثقافة العربية أصدق تمثيل . ومنشأ هذا أن صاحبه قد اقتصرت معارفه على الثقافة العربية من لغة وأدب ونحو ، ولذا تجده لا يتعرض لغير العرب الا نادرا ؛ فلم يذكر لبزرجمهر وأردشير الا نتفا يسيرة . وفيه كلام عن الموالى ولكن تغشاه روح الرجل العربى ، ولم يرو منه الا ما يتصل بالعرب والمسلمين ، كالذى كان بين عبد الله بن عبد الأعلى واليون ملك الروم وقد أرسله عمر بن عبد العزيز اليه يدعوه الى الاسلام . وكالذى كان بين الشعبى وملك الروم . وهذه أمور تدل على أن حظه من الثقافات الأخرى قليل جدا .

أما كتاب « عيون الأخبار » فيختلف عن ذلك تماما ؛ ففيه تنسيق ، وفيه ترتيب ، وفيه وحدة موضوعية لكل باب . فباب السلطان يجمع كل ما يتصل بالسلطان وبطانته ، وباب الحـرب يختار كل ما قيل فيها وفى آلاتها وميادينها ، وكذلك سائر أبواب الكتاب . وكل هذه المعارف مطعمة بأقوال فارسية وحكم هندية

وثقافة يونانية . وذلك كله يساق لنا فى تنسيق بديع لا يقاس به كتاب الكامل . ومن أجل هذا كان كتاب عيون الأخبار ممثلا للثقافة الاسلامية فى ذلك الحين خير تمثيل .

وفى كتاب الكامل ظاهرة واضحة ، تلك هى روح التعصب القبلى . وتعليل ذلك يسير ؛ فالمبرد عربى أزدى يمانى كما ذكرنا ، فلابد أن ينتحى الكتاب هذه الناحية العصبية بشكل ظاهر . فهو يتعصب للأزد واليمانيين ولا يتردد فى أن يروى الصحيح وغير الصحيح من الأخبار لاعلاء شأنهم . ففى أول الكتاب يختار قول الرسول صلوات الله وسلامه عليه فى الأنصار : « انكم لتكثرون عند الفزع وتقلون عند الطمع » ، والأنصار من الأوس والخزرج وهما قبيلتان أزديتان يمنيتان . وبجانب هذا يختار قول أبى بكر فى المهاجرين حين اشتدت به علة موته « ولما لقيت منكم يا معشر المهاجرين أشد علىّ من وجعى ، انى ولّيت أموركم خيركم ، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر من دونه » ، وفى ذلك تعريض بالمهاجرين .

وقد ختم كتابه بباب الخوارج ، وهذا لا يخلو من معنى ؛ فان المهلب بن أبى صفرة الذى قمع الخوارج وخضد شوكتهم أزدى يمنى ، وقد ناصره الأزديون « قبيلة المبرد الكبرى » فى حربه تلك ، ولذلك نراه يفخر بالمهلب وأولاده ويشيد بهم ويتزيّد فى أخبارهم . ولا شك أن فى الاشادة بهم اشادة بقبيلته .

وقد أولى اليمانيين عامة كثيرا من العناية ، فنراه يعقد بابا عنوانه « باب ذكر الأذواء من اليمن » يذكر فيه الأذواء فى الجاهلية

كذى نواس وذى رُعين ، وفى الاسـلام كخزيمة بن ثابت ذى الشهادتين . ولا يتحرج من أن يدس زيف الأخبار عن اليمانية ، فيذكر خبرا عمن كان بينه وبين الملائكة سبب من اليمانيـة .. فسعد بن معاذ الأنصارى هبط لموته سبعون ألف ملك لم يهبطوا الى الأرض قبله ، وحنظلة بن أبى عامر الأنصارى غسلته الملائكة ، وغير ذلك من غريب الأخبار .

أما ابن قتيبة فهو على نقيض المبرد ، لأنه غير عربى ، ولذلك لم يتعصب لجنس من العرب بالذات ، وانما تعصب للعرب جميعا . وهو يحمل فى ذهنه ثقافات عدة ، ولذلك تجد ذهنه مرتبا مصقولا ، وهذا واضح كل الوضوح فى كتاب « عيون الأخبار » .

***

وبعد ، فهذا هو ابن قتيبة العالم الناقد الأديب ، الذى كانت حياته كلها جهادا متصلا فى البحث والدرس والتحصيل والتأليف ، والذى أسهم بنصيب موفور فى أوجه النشاط الثقافى التى وعاها عصره كما رأينا ، حتى حقّ لنا أن نعتبره خير من يمثل ثقافة القرن الثالث الهجرى بكل ما فيها من ألوان المعرفة .

فقد عرفناه أديبا ناقدا ، له جولات ثورية موفقة فى ميدان النقد الأدبى ، تنبىء عن عقلية متحررة وأفق واسع وذهن متفتح . وله دراسات صائبة تعتبر لبنات طيبات فى أسس تاريخ الأدب .

وعرفناه لغويا ضليعا ، يؤرقه ما يقع فيه الكتّاب والأدباء من أخطاء لغوية فيجعل وكده أن يقوّم ألسنتهم ويصلح أقلامهم .

وعرفناه رجل دين يؤلف في الحديث والتفسير ، ويأخذ مكانه المرموق فى امامة أهل السنة فى زمنه ، ويشارك فى المناقشات الدينية بعقل حصيف وتفكير واع متئد .

وعرفناه راوية للأخبار والملح والأفاكيه ، وما شابه ذلك مما يقرى العقل أنسا ومتاعا .

وعرفناه ذا أثر بالغ فى تأسيس الموسوعات العربية .

وعرفناه أخيرا رجلا تقيا ، كريم الخلق ، شديد الحب للاسلام وللعرب ، فحبس نفسه على الدفاع عنهم ورد كيد الشعوبية بكل ما أوتي من قوة . ولم يمنعه أصله الفارسى من أن ينتصف للحق وأن يحاج شانئى العرب ، وأن يدحض بهتانهم فى حرارة وصدق واخلاص .

هذا هو ابن قتيبة أقدمه للقارىء فى صورة أرجو أن تكون واضحة دقيقة المعالم ، تبرزه من جميع نواحيه فى نصفة وعدل .

والله تعالى يهدينا سواء السبيل ، وهو ولينا ونعم النصير .

المراجع العربية

لم أذكر المعاجم اللغوية التى رجعت اليها ، ولا دواوين الشعراء الذين ورد ذكرهم فى الكتاب ، وقد اكتفيت بذكر المراجع الهامة .

أخبار العلماء بأخبار الحكماء . . . القفطى
ارشاد الأريب الى معرفة الأديب «معجم الأدباء» ياقوت الحموى
الأغانى . . . . أبو الفرج الأصفهانى
ابن الرومى : حياته من شعره . . . عباس محمود العقاد
الأشباه والنظائر . . . . . . السيوطى
أدب الكتاب . . . . الصولى
أدب الكاتب . . . . ابن قتيبة
الأنساب . . . . السمعانى
انباه الرواة . . . . القفطى
احياء علوم الدين . . . . . . الغزالى
كتاب الأشربة . . . . ابن قتيبة
كتاب الأنواء . . . . ابن قتيبة
اعلام الموقعين . . . . . . ابن القيم
أسرار البلاغة . . . . . . عبد القاهر الجرجانى
أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم . . المقدسى
أمراء البيان . . . . محمد كرد على
أبو حنيفة . . . . محمد أبو زهرة
أحمد بن حنبل . . . . محمد أبو زهرة
الاختلاف فى اللفظ والرد على المشبهة والجهمية ابن قتيبة
الانتقاء فى فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء . ابن عبد البر
الأزمنة والأمكنة . . . . . . أبو على المرزوقى
الآثار الباقية عن القرون الخالية . . احمد البيرونى
الإمامة والسياسة . . . . . . منسوب الى ابن قتيبة
أمالى القالى . . . .
أمالى الزجاجى . . . .
أخبار النحويين البصريين . . . . أبو سعيد السيرافى
الاقتراح . . . . السيوطى
الاقتضاب فى شرح أدب الكتاب . . . ابن السيد البطليوسى
الانصاف فى مسائل الخلاف . . . ابن الأنبارى
بغية الوعاة . . . . السيوطى

البيان والتبيين . . . . الجاحظ
بلوغ الأرب . . . . الألوسى
البخلاء . . . . الجاحظ
تاريخ ابن الأثير . . . .
تاريخ الخلفاء . . . . السيوطى
تاريخ بغداد . . . . طيفور
تاريخ بغداد . . . . البغدادى
تاريخ الطبرى . . . .
تاريخ أبى الفدا . . . .
تاريخ ابن كثير (البداية والنهاية) . .
تاريخ مصر وولاتها . . . . الكندى
تاريخ الخميس . . . . حسين الديار بكرى
تاريخ النقد الأدبى عند العرب . . . . طه ابراهيم
تاريخ آداب اللغة العربية . . . . . جورجى زيدان
تاريخ آداب العرب . . . . مصطفى صادق الرافعى
تأويل مختلف الحديث . . . . . . ابن قتيبة
تهذيب الأسماء واللغات . . . . . . النووى
تفسير سورة الاخلاص . . . . . . ابن تيمية
تلخيص ابن مكتوم . . . . مخطوط بدار الكتب
تهذيب اللغة . . . . الأزهرى مخطوط بدار الكتب
توالى التأسيس . . . . ابن حجر العسقلانى
تلقين المتعلم من النحو . . . . . . منسوب الى ابن قتيبة مخطوط بمكتبة باريس
التنبيه والاشراف . . . . المسعودى
تلخيص المفتاح . . . . الخطيب القزوينى
تذكرة الحفاظ . . . . الحافظ الذهبى
تاريخ ابن عساكر . . . .
جامع بيان العلم . . . .
حضارة الاسلام فى دار السلام . . . . . جميل نخلة المدور
الحيوان . . . . الجاحظ
خاص الخاص . . . . الثعالبى
الخصائص . . . . ابن جنى
دائرة المعارف الاسلامية (الأجزاء المترجمة)
ديوان الحماسة . . . . أبو تمام
ذكر المعتزلة . . . . المرتضى
كتاب العرب (من رسائل البلغاء) . . . . ابن قتيبة
روضات الجنان . . . . الموسوى
زهير بن أبى سلمى . . . . عبد الحميد الجندى
سرح العيون . . . . ابن نباتة

[illegible]	ابن سنان الخفاجي
[illegible] البلاغة	ابن أبي الحديد
[illegible]	ابن السيد الحنبلي
[illegible]	ابن قتيبة
[illegible] أدب الكاتب	الجواليقي
[illegible]	أبو هلال العسكري
[illegible]	ابن بشكوال
صحيح البخاري (شرح السندي)	
ضحى الإسلام	أحمد أمين
طبقات الأطباء	ابن أبي أصيبعة
طبقات الأمم	صاعد الأندلسي
طبقات المفسرين	الداودي (مخطوط بدار الكتب)
طبقات النحاة	ابن قاضي شهبة (مخطوط بدار الكتب)
طبقات النحويين	الزبيدي
طبقات الشعراء	محمد بن سلام الجمحي
الطراز	العلوي
عصر المأمون	أحمد فريد رفاعي
العقد الفريد	ابن عبد ربه
عيون الأخبار	ابن قتيبة
العواصم من القواصم	أبو بكر المعافري (مخطوط بدار الكتب)
العمدة	ابن رشيق
غريب القرآن	ابن قتيبة (مخطوط)
الفهرست	ابن النديم
فتوح البلدان	البلاذري
فجر الإسلام	أحمد أمين
الفخري في الآداب السلطانية	ابن طباطبا
الفاخر	المفضل بن سلمة الكوفي
فهرسة ابن خير	محمد بن خير الاشبيلي
[illegible] الشعر	أرسطو (ترجمة الدكتور عبد الرحمن بدوي)
[illegible]	ابن مطرف الكناني
كشف الظنون	حاجي خليفة
الكامل	المبرد
اللباب في تهذيب الأنساب	ابن الأثير
لسان الميزان	ابن حجر العسقلاني
[illegible] حديث الشعر والنثر	طه حسين
محاضرات الأستاذ جويدي	

الكتاب	المؤلف
كتاب المعارف	ابن قتيبة
الموشح	المرزباني
مقدمة ابن خلدون	
مسالك الأبصار	ابن فضل الله العمري
المسائل والأجوبة	ابن قتيبة (مخطوط بمكتبة جامعة القاهرة)
محاضرات الأدباء	
معجم البلدان	ياقوت الحموى
معجم ما استعجم	البكري
مروج الذهب	المسعودى
محاضرات تاريخ الأمم الاسلامية	محمد الخضرى
مرآة الجنان	اليافعى
المنتظم	ابن الجوزى
مراتب النحويين	عبد الواحد اللغوى (مخطوط بدار الكتب)
المزهر	السيوطى
المعانى الكبير	ابن قتيبة
مشكل القرآن	ابن قتيبة
مناقب الامام أحمد	ابن الجوزى
المحبر	ابن حبيب البغدادى
الميسر والقداح	ابن قتيبة
الملل والنحل	الشهرستانى
ميزان الاعتدال	الحافظ الذهبى
المثل السائر	ابن الأثير
النجوم الزاهرة	ابن تغرى بردى
النهاية فى غريب الحديث والأثر	ابن الأثير
النعم والبهائم	ابن قتيبه
نشوار المحاضرة	التنوخى
نقد الشعر	قدامة بن جعفر
نقد النثر	منسوب الى قدامة ابن جعفر
النقد المنهجى عند العرب	محمد مندور
نزهة الألباء فى طبقات الأدباء	ابن الأنبارى
نفح الطيب	المقرى
وفيات الأعيان	ابن خلكان
الوزراء والكتاب	الجهشيارى

المراجع الأجنبية

1.—Encyclpeadja of Islam.

2.—I.M. Elhussiny : The Life and Works of Ibn Qutaiba.

3.—Huart : Littérature Arabe.

4.—E. Browne : Literary History of Persia.

5.—Gaudefroy Demombyne : Introduction au Livre de La Poésie et des Poetes.

6.—Nicholson : A Literary History of The Arabs.

7.—Gayangos : History of The Muhammedon Dynasties in Spain.

8.—Dozy : Récherches sur L'Histoire Politique et Littéraire de L'Espagne pendant Moyen Age.

9.—Charles Richet : Essai de Psychologie Générale.

10.—Le Baron Carra de Vaux : Les Penseurs de L'Islame

11.—William Muir : The Califate : Its Rise, Decline, and Fall.

12.—M. Patton : Ahmed Ibn Hanbal and The Mihna.

13.—Howell : Arabic Grammar.

فهرس